المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة





الجمعيات القومية العربية

وموقفها من الإسلام والمسلمين

في القرن الرابع عشر الهجري

رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراه

إشراف فضيلة الدكتور
علي بن نفيع العلياني

إعداد
خالد بن إبراهيم بن عبدالله الدبيان

المجلد الأول

١٤١٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) :.... خالد بن إبراهيم بن عبدالله الدبيان كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : . **العقيدة** ....

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : . الدكتوراه ....في تخصص : ... **العقيدة**.......................................

عنوان الأطروحة : ((. **الجمعيات القومية العربية وموقفها من الإسلام والمسلمين في القرن الرابع عشر الهجري** ....)).

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤٢٠/١/١٩هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ،وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د / علي بن نفيع العلياني	الاسم : د / عبدالله بن عمر الدميجي	الاسم : د / ناصر بن عبدالله الجديع
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم

الاسم : د / عبدالله بن محمد القرني

التوقيع :

- يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .


بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين... أما بعد:

تضمن البحث أربعة أبواب، الباب الأول عنوانه: التعريف بالجمعياتِ القومية العربية وأبرزَ رجالِها ومبادئِها. وقد عقدتُ فيه أربعةَ فصول، وأما البابُ الثاني فموضُوعُه: موقفُ الجمعياتِ القوميةِ من العقيدةِ الإسلامية. وقسمتُ هذا البابَ إلى فصلين، وأما البابُ الثالثُ: موقفُ الجمعياتِ القومية تُجاهَ الدعواتِ الإصلاحيةِ المعاصرةِ لها. وينقسمُ هذا البابُ إلى قسمين، وآخر أبواب الرسالة؛ البابُ الرابعُ وعنوانه: موقف العلماءِ المعاصرينَ من هذه الجمعيات. ومن خلال مباحث الرسالة تناول البحث قضيتين أساسيتين، وهما:

١. التعريف بالجمعيات القومية وأعضائها؛ وتوضيح مناهجها وتنظيماتها الحزبية.

٢. موقف هذه الجمعيات من الإسلام وقضايا العقيدة. وقد تم اختيار دراسة فترة معينة من تاريخ الأمة الإسلامية وهي فترة (القرن الرابع عشر الهجري) وهي فترة تأسيس الجمعيات القومية العربية، وقدّمت فيه الجمعيات مبادئها وسنّت في الأمة قوانينها، ويعتبر من عصور الانحطاط التي مرتّ بها الأمة، وظهرت فيها غربة الدين -إلا ما رحم- في واقع المسلمين وانتشارُ أعلام الإلحاد، وتتبع معتقدات المغضوب عليهم والضالين، وذلك على أيدي نخبة سمت نفسها: (الفئة المثقفة) أو (الطائفة المتنورة)، وهي حقيقة مظلمة بظلمات الشك والإلحاد.

و لم يغفل البحث التطور المرحلي في حياة المسلمين، وأثر الدعوات القومية على عقيدة المجتمعات الإسلامية، لذا تناولت أسباب نشأة الجمعيات القومية، مع التركيز على دور نصارى العرب، والبعثات العلمية إلى بلاد الكفار عموماً وفرنسا بصفة الخصوص، كما أوضحت أثر الدعوة إلى القومية الطورانية (التركية) في تأسيس الجمعيات العربية. وقد ساعد في تأسيس الجمعيات القومية كتابات تنطلق من منطلقات عقلانية، كان لها الأثر الملموس على أعضاء الجمعيات القومية؛ ومن أبرز هؤلاء الكتاب: عبدالرحمن الكواكبي وساطع الحصري. وبتوسع أكبر ترجمة لشخصيات بارزة في الحركة الحزبية للفكر القومي، وبتتبع التنظيم الحركي في نشأة الجمعيات القومية، يتضح جلياً أنها نشأت لتحقيق أهداف محددة في واقع المسلمين، منها:

١. السعي لاستقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية؛ وإقامة خلافة عربية بدلاً عنها.

٢. تقرير مبدأ الولاء للقومية العربية، وتقديمه على الولاء الديني.

٣. نشر الأفكار الغربية النصرانية، في واقع المسلمين. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف كان لأعضاء الجمعيات مواقف من الحركات الإصلاحية والدعوات الإسلامية، وقد عرضت هذه المواقف مفصلة في ثنايا البحث، مما أعطى التصور الواضح للحقد الصليبي على عقيدة التوحيد، والتخطيط المنظم للقضاء على دولة الخلافة، وإحلال العقائد الفاسدة، والأفكار الضالة محل عقيدة التوحيد في واقع المسلمين.

لقد واجهة مبادئ الجمعيات القومية النقد والقدح من قبل علماء نذروا أنفسهم حماية لهذا الدين، وكشف خطط ومكر المفسدين، فأصدروا الفتاوى الصادقة، والكتب الناصحة في ذلك، كما كُشِفَ النقاب عن بعض المتسترين بلباس التحرر المزعوم، والتقدم والتطور المشؤوم، مما كان لهذا الكشف والنقد أثره في تراجع كثير من أطروحاتهم القومية. وختمت البحث بنتائج مهمة.

الطالب	الدكتور	الدكتور
خالد بن إبراهيم الدبيان	علي بن نفيع العلياني	محمد طاهر بن عبدالرحمن نور ولي
الباحث	المشرف على الرسالة	عميد كلية الدعوة وأصول الدين

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ورضي الله تعالى عن الصحابة الميامين وعلى من سار على نهجهم واتبع طريقتهم إلى يوم الدين.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}(1).

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}(2).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً} (3).

أما بعد:

ثبت في صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان ﷺ أنه قال: [كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ، قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ. قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: **نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: **هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ**

---

1) سورة آل عمران–رقم الآية (١٠٢).

2) سورة النساء–رقم الآية (١).

3) سورة الأحزاب–رقم الآية (٧٠-٧١).

بِأَلْسِنَتِنَا. قُلْتُ فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ][1].

بيّنَ هذا الحديثُ الصحيحُ الداءَ والدواءَ. فبيّن الرسول ﷺ الداء بأنه سيظهر في الأمة **دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، وهُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**، وفي مقابل هذا الداء بين ﷺ الدواءَ وهو لزومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامِهُمْ. فإن لم يَكُنْ هناك جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ. فيجبُ اعْتِزالُ الْفِرَقِ ودعاة النار.

وقد مرت فترات من تاريخ الأمة الإسلامية تعرضت فيها الأمة لسهام الأعداء في أعظم قضيةٍ تتعلق بوجودها وتمكينها في الأرض، ألا وهي مسألة العقيدة، فمرةً محاولةٌ لتبديل المنهج الرباني بمنهج عقلاني، وأخرى: ببث الشُّبَهِ في مصدر تلقّي العقيدة، ومرة تحت ستار شعارات براقة ظاهرُها السلامُة وباطنُها الكفر والزندقة.

ومن ضمن المراحل التاريخية التي تعرضت فيها الأمة الإسلامية لهجوم شرس من كيد الأعداء؛ مرحلة نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجري، والذي برزت فيه أفكار تدعو إلى وحدة الأمة تحت شعار جاهلي هو شعار **القومية العربية، وحرية مطلقة وعقيدة وثنية.**

وتولى تصدير هذه المبادئ ونادى بها جمعيات سمَّت نفسها (جمعيات إصلاحية) ولتحقيق مآربها قامت بوضع منهج لها حددت فيه :-

أ) أهداف الجمعيات الإصلاحية .

ب) شروط الالتحاق بالجمعيات .

ج) المطالبة بالاستقلال والانفكاك عن الدولة العثمانية.

د) أسلوب التعامل مع المعارضين لأهداف الجمعيات ... الخ .

---

1) صحيح البخاري-كتاب الفتن-بَاب كَيْفَ الْأَمْرُ إِذَا لَمْ تَكُنْ جَمَاعَةٌ-رقم الحديث (٦٥٥٧).

فكان لمنهج هذه الجمعيات وما قدمته من طروحات أثر عظيم على عقيدة الأمة الإسلامية ، وعلى الطبقة المثقفة والشابة منها خاصةً. وفُتِنت هذه الطبقة بشعارات براقة وساعد على تقبل هذه الشعاراتِ الواقعُ الانهزاميُّ الذي تعايشه الأمة في القرن الرابع عشر الهجري.

ورغبة في كشف حقيقة مبادئ ونظم وأعضاء الجمعيات القومية العربية، فقد اخترت هذا البحث: (**الجمعيات القومية العربية وموقفها من الإسلام والمسلمين في القرن الرابع عشر الهجري**) موضوعاً لرسالة الدكتوراه في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى . وذلك للأسباب التالية :-

أسباب اختيار الموضوع:

أولاً) تسليط الضوء على حقبة زمنية من تاريخ أمتنا الإسلامية عرضت عليها أفكار ومعتقدات تخالف الكتاب والسنة .

ثانياً) بيان المناهج والمعتقدات التي تنادي بها الجمعيات التي تسمي نفسها جمعيات إصلاحية، وعرضها على الكتاب والسنة .

ثالثاً) توضيح وبيان الأبعاد الفكرية والعَقَديّة التي تسعى إلى تحقيقها الجمعيات القومية العربية.

رابعاً) كشف دور الجمعيات القومية العربية في القضاء على مفهوم الخلافة الإسلامية وإسقاط الدولة العثمانية التي تنادي بالخلافة الإسلامية. ودور الجمعيات القومية في هيمنة الدول الاستعمارية على بعض البلاد الإسلامية .

خامساً) الاقتداء بسلف الأمة في بيان معتقدات وأباطيل أهل البدع والزنادقة،كما في كتب الأئمة كأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، واللالكائي ، وابن بطّة ... الخ عليهم رحمة الله تعالى.

سادساً) التعريف بأعضاء الجمعيات القومية العربية، ممن كان لهم دور في تسطير أنظمة وقوانين الجمعية خاصةَ.

وقد بين الشاطبي المنهج الشرعي في كشف أهل البدع بأسمائهم، فقال: (لا ينبغي للراسخ في العلم أن يقول هؤلاء الفرق هم بنو فلان وبنو فلان، وإن كان يعرفهم بعلامتهم بحسب اجتهاده، اللهم إلا في موطنين:

الأول: حيث نبّه الشرع على تعيينهم كالخوارج، فإنه ظهر من استقرائه أنهم متمكنون تحت حديث الفِرَق[1]، ويجري مَجْراهم من سلك سبيلهم.

الثاني: حيث تكون الفرقة تدعو إلى ضلالتها وتزيينها في قلوب العوام ومن لا علم عنده، فإن ضرر هؤلاء على المسلمين كضرر إبليس، وهم من شياطين الإنس، فلا بد من التصريح بأنهم من أهل البدعة والضلالة، ونسبتهم إلى الفرق إذا قامت له الشهود على أنهم منهم... فمثل هؤلاء لا بد من ذكرهم والتشريد بهم، لأن ما يعود على المسلمين من ضررهم إذا تُركوا، أعظم من الضرر الحاصل بذكرهم والتنفير عنهم)[2].

سابعاً) لم أجد على حدّ علمي مَنْ استقصى الكتابة في هذا الموضوع الهام، وإن كان قد كُتب في جوانب منه، وقد بينت في التمهيد أبرز الدراسات (العلمية) التي قدمت في هذا الموضوع.

صعوبات أثناء كتابة البحث:

لقد واجهتني أثناء بحثي في موضوع الجمعيات القومية العربية صعوبات أسأل الله أن يجزي من أعانني على اجتيازها خير الجزاء، فمن ذلك:

١. أن بعض أمور الجمعيات القومية العربية تتسم بالسرية التامة، مما يجعل التعريف بالجمعيات وبيان مبادئها من الأمور المتعسرة.

---

١) يقصد الشاطبي رحمه الله بحديث الفرق قول الرسولﷺ [افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً]-سنن أبي داود-كتاب السنة-بَاب شَرْحِ السُّنَّةِ -رقم الحديث (٣٩٨٠) وانظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل-٣٣٢/٢.وسنن بن ماجة-كتاب الفتن-بَاب افْتِرَاقِ الْأُمَمِ-رقم الحديث(٣٩٨١).

٢) الاعتصام-الشاطبي-٢٢٦/٢ و٢٢٩-دار المعرفة-بيروت-لبنان.

٢. لاقيت أثناء كتابة التعريف بالجمعيات القومية شخصيات كان لها دور مؤثر في الحركة العلمية المعاصرة كتحقيق بعض كتب السلف ونشرها. وكان لهذه الشخصيات دور بارز في السعي إلى تأسيس الجمعيات القومية العربية. مما جعلني أتحقق أولا من نسبة بعض الآراء إليها. مع التأكيد على أن الله قد كتب العصمة لرسله ، وكما قال بعض السلف عن أنفسهم (كل يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر) مشيرا إلى قبر رسول الله ﷺ.

٣. أن كثيرا من الدراسات العلمية كتبها أصحابها تحت تأثير النزعة القومية العربية، مما يجعل الاستفادة من هذه الدراسة محدودة في جوانب معينة.

٤. ظهور تناقض واضح في مواقف أعضاء الجمعيات القومية العربية في كثير من الحالات التي يجب أن تتخذ فيها مواقف محددة، والتناقض والاختلاف في اتخاذ المواقف المحددة يؤثر في تقويم مواقف الجمعيات من الأحداث.

٥. مواقف العلماء المعاصرين للجمعيات القومية تجاه آراء ومبادئ الجمعيات من أهم ما يفيد الباحث ويساعده، ولكن للأسف بعد البحث تبين لي ندرة المواقف الحاسمة والفتاوى القاطعة من مبادئ الجمعيات، وذلك لفشو تيار القوميات وتعاون أربابها فيما بينهم على إسقاط كل من يعارضهم غالبا، ولقيام دول تتبنى هذه المذاهب، وكثير من الناس يسايرهم أو يغض الطرف عنهم رغبة أو رهبة.

ولكن الحق لا يضيع بالكلية، كما قال رسول الله ﷺ:[لا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ][1] وقال البخاري: (وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ)[2]. فقد أبقى الله من العلماء –رغم قلتهم– شوكةً في حلوق القوميين كما سيتضح في ثنايا البحث.

---

١) صحيح البخاري–كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة–بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ–رقم الحديث(٦٧٦٧).

٢) المصدر نفسه–.

٦. إن الحيرة التي كانت تتملكني -إزاء الأخطاء الإملائية واللغوية والنحوية وضعف السبك في الكلام الذي اقتبسته من كتب القوميين كبيرة- فكنت أتردد بين ما تمليه الأمانة العلمية في نقل النصوص؛ من تركها على حالها، وبين ما ينبغي أن يكون عليه النص سليماً، فهديت إلى أن أصحح ما كان جسيماً من الخطأ وما يكتمل به المعنى المراد دون مساس بفكرته الجوهرية.

ومعلوم أن هذا الضرب من الكتب، دون الكتب العلمية التي تحظى بالعناية من أصحابها ومن قبل أهل المطابع، فضلاً عن أن أغلب كاتبيها من غير المتخصصين ويكتبون بلغة الصحفي والسياسي.

خطة البحث

بعد توفيق الله تعالى ثم توجيه وإرشاد شيخي الفاضل الدكتور علي بن نفيع العلياني، المشرف على الرسالة، احتوت خطة الرسالة على: مقدمة وتمهيد وأربعة أبواب، وخاتمة.

أما **المقدمة** فقد ألمحت فيها إلى الموضوع، وأهميته والأسباب التي دعت إلى اختياره، وبعض ما اعترضه من عقبات.

وأما **التمهيد:** فقد اشتمل على الأمور التالية:

أولا) الدراسات الموجودة عن موضوع الجمعيات القومية العربية، وجرى تقسيمها إلى قسمين :

القسم الأول: الدراسات العلمية عن هذا الموضوع، وأقصد بالدراسات العلمية: الرسائل والأبحاث العلمية التي استطعت الاطلاع عليها.

القسم الثاني: الكتابات التي أصدرها أعضاء الجمعيات القومية العربية في موضوع الجمعيات. وتعتبر مذكرات أولئك الأعضاء من أهم مصادر التعريف بنظم ومبادئ تلك الجمعيات.

ثانيا) عرض موجز للحالة العقدية للأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري.

أما الباب الأول: كان موضوعه: التعريف بالجمعيات القومية العربية وأبرز رجالها ومبادئها.

وقد عقدت فيه أربعة فصول:

الفصل الأول:- التعريف بجمعيات القومية العربية.

والجمعيات القومية التي عرفت بها، هي: الجمعيات التي كانت في الفترة التاريخية منذ إعلان الدستور العثماني وقيام الدولة العربية الأولى في دمشق والحجاز.

وقد ذكرت جمعيات قبل هذا التاريخ وذلك لأهميتها وارتباطها بالجمعيات القومية، كما عرفت بحزب البعث العربي وذلك لموقعه المؤثر في تاريخ الفكر القومي، ومما يحتويه التعريف بالجمعية: نظام الجمعية، وذكر المؤسسين لها، وتاريخ التأسيس، وأبرز الأعضاء.

الفصل الثاني: أهم أسباب نشوء هذه الجمعيات:

بينت في هذا الفصل أبرز أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية، وانقسامها إلى قسمين: أسباب رئيسة، أسباب فرعية.

الفصل الثالث:- الأهداف العامة للجمعيات القومية العربية.

سعت الجمعيات القومية العربية لتحقيق مآرب وأهداف، تطمع في تحقيقها على واقع الأمة، إذ بينت هذه الأهداف التي صرح المؤسسون عن بعضها.

الفصل الرابع :- أبرز رجال الجمعيات القومية في القرن الرابع عشر.

كانت بعض الآراء والأفكار التي نادى بها بعض مفكري العرب في القرن الرابع عشر الهجري عاملا من عوامل تأسيس أهداف الجمعيات القومية، ولهذا خصصت هذا الفصل لترجمة بعض رجال الجمعيات القومية العربية، وتناولت في الترجمة، الأمور التالية:

١- تعريف موجز بالشخصية الذاتية .

٢- اتجاهها العقدي.

٣- أهدافها وآراؤها في القومية .

٤- آثارها العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية .

أما الباب الثاني فموضوعه: موقف الجمعيات القومية من العقيدة الإسلامية.

وفيه خمسة فصول: **الفصل الأول:- موقف الجمعيات من مصادر العقيدة الإسلامية :**

وقد عرضت في هذا الفصل موقف الجمعيات القومية العربية من مصادر العقيدة وهي:أ- القرآن الكريم، ب- السنة النبوية الصحيحة،ج- الإجماع .

الفصل الثاني:- موقف الجمعيات من أصول العقيدة الإسلامية:

وبعد بيان وعرض موقف الجمعيات القومية من مصادر العقيدة، عرضت أيضا موقفها من أصول العقيدة، حيث قسمت هذا الفصل إلى مباحث وهي كالآتي:

أولا) موقفهم من التوحيد. والكفر بما يناقض توحيد الطلب والقصد[1] ويشمل ما يلي:

١. موقفهم من توحيد الأديان

٢. موقفهم من تحكيم الشريعة، وتعظيمهم لقوانين الجاهلية.

ثانيا) عقيدة الولاء والبراء.

ثالثا) نبوة النبي محمد وسيرته ﷺ.

الباب الثالث: موقف الجمعيات القومية العربية تجاه الدعوات الإصلاحية المعاصرة لها. وينقسم هذا الباب قسمين:

القسم الأول: موقفهم من الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية.

القسم الثاني: موقفهم من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

الباب الرابع: موقف العلماء المعاصرين من هذه الجمعيات.

بعد بيان المبادئ والقوانين، وتوضيح المواقف من مسائل العقيدة، ختمت البحث بموقف العلماء المعاصرين من هذه الجمعيات، ثم بينت دور العلماء في تحذير الأمة من الأفكار والمعتقدات المنحرفة.

الخاتمة: وقد أنهيت الموضوع بخاتمة موجزة حوت أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

---

١) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين-ابن القيم-٣/٤٤٩-دار الكتاب العربي-بيروت-لبنان-١٣٩٢هـ.

منهجي في البحث: الحقيقة أن البحث موضوع واحد ذو شقين، أولهما: التعريف بالجمعيات القومية. وثانيهما: موقف هذه الجمعيات من الإسلام والمسلمين، وانتظمت مادة البحث في ذلك من خلال اعتماد المناهج التالية:

أولاً) المنهج التاريخي: وهذا المنهج سلكته في كتابة الباب الأول من الرسالة، حيث جرى الحديث عن تاريخ وتتبع أطوار نشأة الجمعيات القومية، وسيرة موجزة عن أبرز المؤسسين لها.

وقد بذلت قدراً من الجهد في محاولة التوفيق بين أقوال أعضاء الجمعيات القومية العربية المدونة في مذكراتهم الخاصة وبين نظام ومبادئ الجمعيات.

ومن أجل أن يكتمل التعريف بالجمعيات القومية العربية وأسباب نشأتها فقد عرفت بأهم الجمعيات التركية، وذلك لارتباطها بأسباب النشأة.

ورغبة في بيان تأثير المدارس التنصيرية والمحافل الماسونية على الجمعيات القومية، فقد أرّختُ بصورة موجزة لهذه المدارس والمحافل الماسونية.

ثانياً) المنهج الوصفي: ويراد بهذا المنهج بيانُ مبادئ وأهداف الجمعيات القومية العربية، وعرضُ ما نادت به من آراء وأفكار، مع التركيز على الجوانب العقدية المنصوص عليها في الباب الثاني.

لقد كانت أغلب مصادر معلوماتي -عن موقف الجمعيات القومية العربية- هي كتابات أو مذكرات أعضاء الجمعيات أنفسهم، كما استقيت معلومات من المجلات والصحف والدوريات المعاصرة ذات الاتجاه القومي.

وأثناء وصف مواقف الجمعيات القومية العربية، سلكت المنهج التالي في العرض:

١) أعرض موقف الجمعية وأبينه.

٢) ثم أردف بعد ذلك آراء أعضاء الجمعيات القومية العربية.

٣) فإن لم أجد للجمعية موقفاً في موضوعات البحث اقتصرت على موقف الأعضاء المنتسبين لها.

ثالثاً) المنهج النقدي: وذلك بنقد المواقف والآراء التي تحتاج إلى النقد لدى الجمعيات القومية العربية وهي أكثر من أن تحصر، وما وصفته في الباب الأول قمت بنقده في الباب الثاني والثالث.

وأثناء نقد مواقف الجمعيات القومية العربية أستدل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم أنقل فتاوى وأقوال علماء القرن الرابع عشر الهجري، فهم الذين قد عاصروا الجمعيات القومية العربية، وعلموا مكرها وبطلان مناهجها.

وأما منهجي في صياغة البحث فقد حاولت أن ألتزم بما يلي:

١. عزو الآيات القرآنية وذكر اسم السورة ورقم الآية.

٢. تخريج الأحاديث الشريفة بالإحالة إلى اسم الكتاب واسم الباب ورقم الحديث، وإذا كان الحديثُ ثابتاً في صحيحي البخاري ومسلم أو أحدهما اقتصرت على ذلك، فإن لم يكن أذكر من صحّح الحديث من العلماء.

٣. ترجمت لأبرز الأعلام الوارد ذكرُهم بالكتاب، وحرصت أن تكون الترجمة –قدر المستطاع– محصورة في أعضاء الجمعيات القومية العربية. وقد جعلت التراجم في مكان واحد، وعند ذكر العلم أشير إلى رقم ترجمته.

٤. اجتهدت في كتابة التاريخين الهجري والميلادي معاً في جميع الرسالة.

٥. وضعت فهارس في آخر الرسالة لبعض الوثائق والمصادر وفهرس الموضوعات.

وفي ختام هذه المقدمة أتقدم بالشكر الجزيلَ لوالديّ الكريمينِ أطال اللهُ في عُمُرِهما، وأعانني على برِهما والإحسانِ إليهما. كما أتوجه بالشكر والعرفان بالجميل إلى شيخي الأستاذ الدكتور/علي بن نفيع العلياني، الذي تفضلَ بالإشرافِ على هذا البحثِ وإبداءِ التوجيهاتِ والنصائحْ، والذي كان لي شرف التتلمُذِ على يديهِ، فأسألُ اللّهَ تعالى أن يجزيَه خيرَ الجزاءِ، وأن يباركَ في وقتهِ وعملهِ.

كما أتقدم أزكى الشكر وأطيبه لكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، ولقسم العقيدة رئيساً وأعضاء لرعايتهم للبحث ومتابعة خطواته فجزاهم الله خير الجزاء.

وأدعو الله أن يجزي بالخير كل من قدم لي مساعدة في هذه الرسالة.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تمهيد

أولا) الدراسات حول موضوع الجمعيات القومية العربية

إن مما ينبغي بيانه عند الكتابة في موضوع الجمعيات القومية العربية، ذكر دراسة موجزة للقارئ عن الدراسات التي تناولت القومية العربية.

وبتتبعي لتلك الدراسات رأيت أن المبشرين بالفكرة القومية قد انطلقوا من مقر الجمعيات القومية العربية، فكانت تصدر المبادئ والنظم والأهداف القومية العربية، واعتبرت الدراسات بداية تاريخ القومية العربية من تاريخ تأسيسها.

ومن خلال الاطلاع على مظان مصادر البحوث والدراسات الجامعية لم أقف على من خصص موضوع الجمعيات القومية وبيان موقفها من الإسلام والمسلمين بالبحث، والدراسات التي وجدتها كانت تتناول جوانب معينة من تاريخ الفكر القومي، ومن أبرزها ما يلي:-

أولا) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨م-١٩١٤م)- للدكتور توفيق برو، وهي دراسة مقدمة لمعهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، لاستحقاق درجة الماجستير.

واختار الباحث الفترة الزمنية بين(١٣٢٦-١٣٣٣هـ- ١٩٠٨م-١٩١٤م) لأنها الفترة التي نشأت فيها الجمعيات القومية، وقال الباحث عن دراسته: (هي أول محاولة علمية أكاديمية لدراسة علاقة العرب بالترك، في فترة الحكم الدستوري التي مر بها العهد العثماني)[1].

والباحث تناول علاقة العرب بالترك، وهو متأثر بالفكرة القومية العربية، ويدافع عن مبادئ الجمعيات القومية العربية، فضلا عن أن البحث متعلق بالأمور السياسية كمطالبة العرب بالحكم الذاتي، أو إشراكهم في المجالس النيابية.

---

١) العرب والترك-توفيق برو-٩-طلاس-دمشق-الطبعة الأولى-١٩٩١.

ثانياً) جمعية العربية الفتاة السرية-دراسة وثائقية (١٣٢٧-١٣٣٦هـ-١٩٠٩-١٩١٨م)-تأليف الدكتورة سهيلة الريماوي-: وتتمثل الدراسة المذكورة بأنها ملخصُ دراسات علميةٍ سابقة تتعلق بالحياة الحزبية في سوريا لمرحلة تاريخية محددة، وبدراسة الوثائق عن تأسيس جمعية العربية الفتاة السرية، وقد استطاعت الباحثة أن تجمع أكبر عدد ممكن من الوثائق المتعلقة بتأسيس الجمعية[١].

وبتتبعي لدراسة الباحثة لاحظت أن الدراسة كانت مركزة على الجانب التاريخي في نشأة الجمعية، وتتبع أسماء الأعضاء المنتسبين لها، واقتصر البحثُ على جمعية الفتاة فقط، ووصفت الباحثة الجمعيةَ بأنها: (مؤسسةٌ سياسية انتظمتْ عدداً من المواطنين العرب اجتمعوا حول هدف سياسي)[٢]. ولكن النظر في مبادئ الجمعيات القومية لا يحصر الهدف على الجوانب السياسية فحسب بل يضم إليها القضايا الثقافية والفكرية.

ثالثاً) (طالب النقيب: دوره في تاريخ العراق الحديث) لحسين الشلاة.

وهي رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة القاهرة عام ١٩٧٠م، بين الباحث فيها دور طالب النقيب في تأسيس الجمعيات القومية، وهو من أبرز مؤسسي الجمعيات القومية العربية في العراق.

والدراسةُ بحثٌ في سيرة طالب النقيب، مع ذكرٍ موجزٍ تاريخي عن جمعية البصرة الإصلاحية. وجمعية البصرة التي أسسها طالب النقيب سنة ١٩١٢م -وهي متزامنة مع جمعية بيروت الإصلاحية-. وبعثت القنصلية البريطانية في العراق إلى

---

١) بتوفيق من الله تعالى استطعت الحصول على وثائق مهمة عن تاريخ وتأسيس الجمعيات القومية، من مكتبة محب الدين الخطيب بالقاهرة.

٢) جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الريماوي-٢٥-دار مجد لاوي-عمان-الأردن.

السفير البريطاني في الأستانة سنة ١٩١٣م خطة جمعية البصرة الإصلاحية وذكرت أن هذه الجمعية يرأسها طالب النقيب[1].

رابعا) الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري-دراسة وتقويم- للدكتور سهيل صابان-وهي رسالة علمية قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لاستحقاق درجة الدكتوراه.

وبين الباحث فيها التيارات الثقافية الوافدة على الأمة الإسلامية، وما نتج عن هذه الأفكار والمعتقدات من ظهور عقائد دخيلة على دولة الخلافة (الدولة العثمانية)، كما أوضح الباحث تأثير الجمعيات الماسونية على معتقدات وأفكار النخبة الثقافية، وقيام هؤلاء النخبة بتبني المبادئ الماسونية والدعوة إليها.

ومن المباحث المهمة في الرسالة نشأة القومية التركية والتي يقابلها القومية العربية والصراع الداخلي في الاتجاهات الثقافية. وموقف هذه القوميات من الوحدة الإسلامية.

وتخلو الدراسة من الحديث عن الجمعيات القومية العربية؛ وذلك لمنهجية البحث وتخصصه بالقضايا الثقافية في تركيا.

خامسا) مقومات النهضة في الفكر القومي العربي-دراسة نقدية في ضوء الإسلام-عثمان العامر- وهي دراسة علمية قدمها الباحث لقسم الثقافة بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، لنيل درجة الدكتوراه.

أوضح الباحث -على سبيل الإيجاز- دور الجمعيات القومية في نشر الفكر القومي منذ ظهوره على أيدي الجمعيات القومية العربية، فمما قال: (لقد كان لهذه الجمعيات والأحزاب التي ظهرت قبل الحرب العالمية الأولى دور كبير في

١) انظر: طالب النقيب-دوره في تاريخ العراق الحديث-حسين الشلاة-٢١٦. وانظر نص الرسالة في العراق في الوثائق البريطانية-فؤاد قزانجي-١٠٧.

تأجيج الشعور القومي لدى العرب، حيث أحدثت تحركا شعبيا وتفاعلا عربيا، نتيجة بثها الوعي القومي على نطاق واسع)[1].

و لم يتطرق الباحث إلى تأثير الجمعيات العربية في واقع المسلمين، والبحث عن مبادئ الجمعيات القومية. وإنما ذكر أبرز المؤسسين لها، ولأهمية حزب البعث العربي الاشتراكي في نهضة الفكر القومي العربي، أعطاه مجالا واسعا في بحثه.

إن ما ذكرته من دراسات جامعية قد يكون أبرز ما تيسر لي الحصول والاطلاع عليه حول موضوع: (الجمعيات القومية العربية). وتلك المباحث تناولت تأسيس ونظم الجمعيات –وغالبا ما كان البحث متأثرا بميول ومنهج كاتبه– دون بيان موقف الجمعيات القومية العربية وأثر نظم ومبادئ الجمعيات على الإسلام والمسلمين.

وقد استفدت من أبحاث منشورة عن القومية العربية، من أبرزها:

١. نقد القومية العربية– للشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز:

لقد بين الشيخ ابن باز أن فضل العرب مرتبط بدينهم الإسلام، وأن شرف العرب بشرف التزامهم بالإسلام، ثم بين أن بداية الانحراف كان بسبب انتساب بعض أبناء المسلمين إلى الدعوة الجاهلية وشرف العروبة، وأوضح الشيخ دور نصارى العرب في هذا المجال. وأكد على اختلاف الإسلام عن القومية العربية قائلا: (إن الإسلام يخالف أسسهم التي بنوا القومية عليها، ويخالف صريح كلامهم ويباين ما يقصدونه من تكتل العرب على اختلاف أديانهم تحت راية

---

١) انظر: مقومات النهضة في الفكر القومي العربي–دراسة نقدية في ضوء الإسلام–عثمان العلمر–١/٢٦– رسالة دكتوراه لم تنشر.

القومية) ثم انتقد القومية ومخالفتها العقيدة من أربعة أوجه بينها الشيخ مستدلا على هذا بالكتاب والسنة[1].

٢. حزب البعث تاريخه وعقائده: تأليف سعيد بن ناصر الغامدي.

قصر الباحث حديثه عن الجمعيات القومية، حيث ذكرها على سبيل العد الرقمي، أما البحث التفصيلي فقد كان عن حزب البعث العربي ومؤسسيه،(عفلق والبيطار) وبين مخالفة مبادئ حزب البعث العلمانية للعقيدة الإسلامية[2].

٣. فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام: صالح بن عبدالله العبود.

أصل البحث رسالة ماجستير مقدمة لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبدالعزيز، تناول الباحث فيه أصل الفكرة القومية ومنشأها، وتتبع تطور الفكرة القومية عند ثلاث شخصيات من رجال الفكر القومي وهم: (ساطع الحصري، ومعروف الدواليبي، ومصطفى الشهابي) وعرض تطور الفكرة القومية عندهم وأثرها على الإسلام.

كما تتبع دور اليهود في نشر الفكرة القومية والسعي لإسقاط فكرة الخلافة الشرعية والقضاء على الوحدة الإسلامية، وبين أثر الحملات التنصيرية والمدارس التبشيرية على عقول أبناء المسلمين مع التركيز على دور نصارى العرب في هذا المجال. وفي نهاية البحث أوضح الباحث المخلص والمفاز، قال: (لا مخلص ولا مفاز حق إلا بالإسلام، كما هو الحق والواقع الذي ليس بعده إلا الضلال والخيال)[3].

كما تم الاطلاع على كتب حول موضوع الجمعيات القومية العربية كتبها أعضاء الجمعيات القومية، ورغبة في توسيع الفائدة أشير لأبرز هذه الكتب.

---

١) نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع-عبدالعزيز بن عبدالله بن باز-المكتب الإسلامي-بيروت-دمشق-١٤٠٠-الطبعة الرابعة.

٢) حزب البعث تاريخه وعقائده-سعيد بن ناصر الغامدي-دار الوطن-الطبعة الأولى-١٤١١هـ.

٣) فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام-صالح بن عبدالله العبود-دار طيبة-الرياض.

١) **كتاب ثورة العرب:** يتضمن مرحلةً تاريخية سرية لأعضاء الجمعيات القومية العربية[1]، ولذا أبهم مؤلف الكتاب بعبارة (بقلم:أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية) وطبع الكتاب في مطبعة المقطم بمصر سنة ١٩١٦م.

في هذا الكتاب بيان عن تاريخ علاقة العرب بالترك، وموقف الجمعيات العربية من المطالبة بالدستور-الدستور العثماني-، ثم تأسيس الجمعيات القومية العربية، وبيان بأسماء الجمعيات العربية، وذكر أنظمة ومبادئ الجمعيات، وعرضَ الكتابُ للخلاف بين الجمعيات القومية وجمعية الاتحاد والترقي، الذي كان من نتائجه ثورةُ الحسين بن علي وتحالفه مع الدول الصليبية[2].

٢) **نشأة الحركة العربية الحديثة:** لمحمد عزة دروزة . يعتبر مؤلفه من مؤسسي الجمعيات القومية العربية، ولهذا كان في كتابه المذكور تفصيلاتٌ دقيقة عن تطور الحركة العربية الحديثة، والتي من مراحلها تأسيس الجمعيات القومية العربية. قال المؤلف عن مرحلة تأسيس الجمعيات: (لقد عشنا هذه الفترة، وكنا واعين ومندمجين في أحداثها.. وإن الواعين العرب بدأوا بذلك في وقت مبكر وبكلمة أدق عقب إعلان الدستور بمدة وجيزة..وقد كانت تكتلاتهم متنوعة، منها العلني ومنها السري. وفيما يلي شرح مستفاد من الميسور من المصادر وما وعته الذاكرة وتلقفته الأذن وما مارسناه شخصياً من التكتلات العربية)[3].

٣) **الجمعيات العربية وفكرها القومي**. ملامح الوعي القومي عند العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وحتى قيام الحرب العالمية الأولى[4].

---

١) انظر الباب الأول –الفصل الأول من الرسالة–ص(   ).

٢) ثورة العرب مقدماتها –أسبابها–نتائجها–أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية.

٣) انظر: نشأة الحرة العربية الحديثة–محمد عزة دروزة.

٤) انظر: الجمعيات العربية وفكرها القومي–عماد عبدالسلام رؤوف–مركز دارسات الوحدة العربية.

٤) **مذكرات أعضاء الجمعيات القومية:** تحتوي مذكرات أعضاء الجمعيات القومية معلومات مهمة، ومن المعروف عن تاريخ الجمعيات أنها تتسم بطابع السرية، ولذا لجأ الكثير من أعضائها إلى الاحتفاظ بالمعلومات حتى ظهرت بصور مذكرات تروي وتصف الأحداث.

ومن هذه المذكرات المهمة عن تاريخ الجمعيات القومية العربية:

أ. مذكرات سليم علي سلام (١٨٦٨-١٩٣٨)[١].

ب. مذكرات محب الدين الخطيب، وهي تحمل عنوان: سيرة جيل[٢].

ج- مذكرات عوني عبدالهادي، أوراق خاصة[٣].

د- مذكراتي نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية-توفيق السويدي[٤].

هـ خبراتي في الحكم-حسن الحكيم، سجل حافل بالوثائق التاريخية عن الجمعيات القومية العربية[٥].

و- مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر[٦].

ز- مذكراتي عن الثورة العربية- فائز الغصين[٧].

ح- مذكراتي عن الثورة العربية- أحمد قدري[٨].

ط- مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية-تحسين العسكري[٩].

---

١) انظر: مذكرات سليم علي سلام (١٨٦٨-١٩٣٨)-قدم لها وحققها:حسان علي حلاق.

٢) انظر: مكتبة محب الدين الخطيب بالقاهرة. ونشرت هذه المذكرة مجلة الأوقاف الإسلامية-دمشق-المجلد الأول سنة ١٩٤٦.

٣) انظر: مذكرات عوني عبدالهادي، أوراق خاصة-إعداد: خيرية قاسمية.

٤) دار الكتاب العربي-الطبعة الأولى.

٥) إدارة مجلة الشريعة-عمان-الطبعة الأولى-١٣٩٨هـ

٦) القاهرة-١٩٥٩م.

٧) دمشق-١٩٥٦م .

٨) دمشق-١٩٥٦م .

٩) بغداد-١٩٣٦.

ي- نصوص قرارات المؤتمر العربي الأول-محب الدين الخطيب[1].

ك- مذكرات جمال باشا[2]. ويعد جمال الخصم الألد لأعضاء الجمعيات القومية العربية وفي مذكراته معلومات مهمة عن هذه الجمعيات[3].

١) جمع وترتيب محب الدين الخطيب-القاهرة-مطبعة البسفور-الطبعة الأولى-١٣٣١هـ

٢) أثناء الحرب العالمية الأولى تولى جمال باشا قيادة الجيش الرابع والذي كان مقره في دمشق. وقد كتب ذكرياته عن مجريات وأحداث الحرب وذكر معلومات مهمة عن دور الجمعيات القومية العربية في الحرب.

٣) انظر: مذكرات جمال باشا-تعريب على أحمد شكري-دار البصري-بغداد-الطبعة الأولى-١٩٦٣.

ثانياً) الحالة العقدية للأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري

إن العقيدة الصحيحة هي الدرع الواقي ضد الأفكار والمبادئ المنحرفة، ولهذا كانت دعوة الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام أول ما دعت إلى العقيدة، وعلى سبيل المثال وليس الحصر أذكر الآيات الواردة والسنن الثابتة في أن أول ما دعت إليه الرسل هو العقيدة، فمن ذلك: قوله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}(1).

وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ}(2).

وقال تعالى عن نبيه صالح عليه السلام: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}(3).

وقال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}(4).

وقال عن نبيه عيسى عليه السلام: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}(5).

إن دعوة الرسل أول ما تطالب العبد بتحقيقه: هو توحيد الله تعالى، والكفر بالطاغوت قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا}(6)، قال ابن كثير: أي (مَنْ خَلَعَ الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يُعْبد من دون الله، ووَحَّدَ الله فعبده

(1) سورة الأعراف-رقم الآية (٥٩).
(2) سورة الأعراف-رقم الآية (٦٥).
(3) سورة الأعراف-رقم الآية (٧٣).
(4) سورة الأعراف-رقم الآية (٨٥).
(5) سورة المائدة-رقم الآية (١١٧).
(6) سورة البقرة-رقم الآية (٢٥٦).

وحده، وشهد أن لا إله إلا هو، {فقد استمسك بالعروة الوثقى} أي فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم}[1].

وقَالَ أَنَسٌ بن مالك: وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَبَلَّغُوهُ عَنْ رَبِّهِمْ قَبْلَ هَرْجِ الأَحَادِيثِ وَاخْتِلافِ الأَهْوَاءِ. وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ، يَقُولُ اللَّهُ: (فَإِنْ تَابُوا)، قَالَ: خَلْعُ الأَوْثَانِ وَعِبَادَتِهَا، {وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ}، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}[2].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: دلت الآيات على أن الحكمة في إرسال الرسل دعوتُهم أممَهم إلى عبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين[3]وقد قال رسول الله ﷺ[أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ][4].

وفي سيرة الرسول ﷺ تطبيقاً لهذا المنهج النبوي فقد قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ أَخْبَرَنِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ رَبِيعَةُ بْنُ عَبَّادٍ مِنْ بَنِي الدِّيلِ وَكَانَ جَاهِلِيًّا قَالَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ• وَهُوَ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ تُفْلِحُوا وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ

---

١) تفسير ابن كثير-١/٤٦٠-مطبعة الشعب-القاهرة.

٢) سنن ابن ماجة-المقدمة-رقم الحديث (٦٩).

٣) فتح المجيد-الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ-١٧.

٤) صحيح البخاري-كتاب الإيمان-باب (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ)-رقم الحديث(٢٤).

• سوق ذى المجاز: المَجَازُ الموضع وكذلك المجازة؛ وذو المجاز: موضع سوق بعرَفَة على ناحية كبكَب عن يمين الإمام على فرسخ من عرفة كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام، وقال الأصمعي: ذو المجاز ماء من أصل كبكب وهو لهُذَيل وهو خلف عرفة. [ينظر معجم البلدان-ياقوت الحموي-حرف الميم].

الْوَجْهِ أَحْوَلُ ذُو غَدِيرَتَيْنِ• يَقُولُ إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ، يَتْبَعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَذَكَرُوا لِي نَسَبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا لِي هَذَا عَمُّهُ أَبُولَهَبٍ][(١)].

وقد وقف جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي مبيناً له حالهم في الجاهلية والمنهج الدعوي الذي جاء به الرسول، فكان مما قال جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ..)[(٢)].

وقد بعث الرسول ﷺ معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن، وأمره أن أول ما يبدأ بدعوتهم إلى العقيدة، فقال لمعاذ: [إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ][(٣)].

• غديرتين: مثنى غديرة، وجمعها غدائر وهي: الذوائب، وقال الليث: كل عقيصة غديرة.ينظر: (تهذيب اللغة-الأزهري-٨/٦٧-باب العين والذال.

١) مسند الإمام أحمد بن حنبل-٣/٤٩٢و٤/٣١٤.

٢) المصدر نفسه-١/٢٠١-٢٠٢.

٣) صحيح البخاري-كتاب التوحيد-باب ما جاء في دعاء النبيﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى-رقم الحديث(٦٨٢٤).

ولما قدم وفدُ عبدالقيس عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فطلبوا من الرسول أن يعلمَهم ما يُدْخلهم الجنة ويَدْعون مَنْ وراءهم، قال لهم :[آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَتُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: لا تَشْرَبُوا فِي الدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالظُّرُوفِ الْمُزَفَّتَةِ وَالْحَنْتَمَةِ][1].

ومن الأدلة على أن الرسل أول ما تدعو إليه؛ الدعوة إلى العقيدة، حديث ضمام بن ثعلبة حينما وفد إلى رسول الله، وعرض على رسول ما بلّغهم مبعوث رسول الله ﷺ، فكان مما قال ضمام: (أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ إِلَهِكَ وَإِلَهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهِ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَنْ نَخْلَعَ هَذِهِ الأَنْدَادَ الَّتِي كَانَتْ آبَاؤُنَا تَعْبُدُهَا مِنْ دُونِهِ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: فَأَنْشُدُكَ بِاللَّهِ إِلَهِكَ وَإِلَهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهِ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: ثُمَّ جَعَلَ يَذْكُرُ فَرَائِضَ الإِسْلامِ فَرِيضَةً فَرِيضَةً)[2].

وباستقراء سور القرآن الكريم يُلاحَظُ أن الغالب على آيات السور المكية تأصيلُ العقيدة والإيمان بالله تعالى، وبعد تأصيل التوحيد والإيمان بالله نزلت الأحكام العملية التعبدية، كما قالت عائشة رضي الله عنها: (أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلامِ، نَزَلَ الْحَلالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا)[3].

---

١) صحيح البخاري-كتاب التوحيد-بَاب (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)-رقم الحديث (٧٠٠١) ومعنى: الدُّبَّاء : فهي وعاء من القرع الواحدة دباءة. وَالنَّقِير: وعاء من أصل النخلة. وَالْحَنْتَمَةِ:جرار تعمل من الطين. فجميعها أوعية كانت عند العرب، تختلف في مادة صنعها. تستعمل في الخمر ينظر: (غريب الحديث-أبو عبيد ابن سلام-٢/١٨١).

٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل-. وسنن الدارمي-كتاب الطهارة-بَاب فَرْضِ الْوُضُوءِ وَالصَّلاةِ-رقم الحديث (٦٥٠). وثبت مجيء ضمام على رسول الله ﷺ في صحيح البخاري-كتاب العلم-بَاب مَا جَاءَ فِي الْعِلْمِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) الْقِرَاءَةُ وَالْعَرْضُ عَلَى الْمُحَدِّثِ-رقم الحديث (٦١).

٣) صحيح البخاري-كتاب فضائل القرآن-بَاب تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ-رقم الحديث(٤٦٠٩).

وأما السور المدنيّة فقد استمر بيان وعرض العقيدة في آياتها، مع بيان الأحكام وتشريع الحلال والحرام، وبيان فرضية الجهاد وما يتعلق به من أحكام كالجزية والأنفال والأسرى وغيرها. كما بينت السور المدنية صفات أهل النفاق، وحقيقة النفاق والمنافقين.

وإن استمرارَ القرآن في الحديث عن قضية العقيدة في السور المدنية، وفي الكلام الموجه للمؤمنين خاصة، الذين آمنوا واستقر الإيمان في نفوسهم حتى أنشأوا أمة مسلمة ودولة مسلمة وجيشاً مسلماً يقاتل في سبيل الله، أمرٌ قاطعُ الدّلالة على أن قضية —العقيدة—لها أهميتها الذاتية(١).

إذاً فالعقيدة هي أساس البناء وهي الواقية من الأفكار والعقائد المنحرفة، ولما كان البحث يتناول واقع المسلمين في عصر نشأة الجمعيات القومية، فسوف أبين بصورة موجزة الحالة العقدية للأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري.

إن العصر الذي نشأت فيه الجمعيات القومية العربية، وقدّمت فيه الجمعيات مبادئها وسنّت في الأمة قوانينها، يعتبر من عصور الانحطاط التي مرتّ بها الأمة، وظهرت فيها غربة الدين -إلا ما رحم- في واقع المسلمين كما قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ[إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي](٢).

لقد أصبح المتمسك بدينه في القرن الرابع عشر الهجري، غريباً في مجتمعه لغياب بعض السنن، وظهور كثيرٍ من البدع في واقع بعض المسلمين في هذا القرن، فمن أمثلة ذلك:

---

١) واقعنا المعاصر—محمد قطب—١٧—مؤسسة المدينة—الطبعة الأولى—١٤٠٧هـ.

٢) سنن الترمذي—كتاب الإيمان—بَاب مَا جَاءَ أَنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا—رقم الحديث(٢٥٥٤). قَالَ الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

انتشارُ أعلام الإلحاد، وتتبع معتقدات المغضوب عليهم والضالين، وذلك على أيدي نخبة سمت نفسها: (الفئة المثقفة) أو (الطائفة المتنورة)، وهي حقيقة مظلمة بظلمات الشك والإلحاد، وقد قال محمد محمد حسين: لقد رأيت الإلحادَ والانحلالَ يشتعل ويسري سريان النار في يابس الحطب، ورأيت دعاتُه يستفحل أمرُهم في كل مكان، ورأيت الناس مشغولين بالجدل والنقاش حول ما يثيرونه من موضوعات يسترون مآربهم الهدامة من ورائها تحت أسماء خلابة براقة، كالنهضة، والتحرر، والتطور، ومتابعة ركب الحضارة[1].

كما أصبح من معالم واقع كثير من المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري ضعف عقيدة (الولاء والبراء) فقد ضعفت عند كثير من الناس هذه العقيدة التي تُبرز شخصية المسلم واعتصامه بدينه، ومن أبرز أسباب غياب عقيدة الولاء والبراء من واقع المسلمين المعاصرة: أن التشريع الذي فيه الحُكْم الفَصْل بين الكافر والمسلم قد استُبعد عن واقع المسلمين، فسُنَّت لهم شرائع وقوانين جاهلية.

ومن أمثلة ذوبان الولاء والبراء أنْ هَرَعَ كثيرٌ من المسلمين إلى الانتساب في مدارس الإرساليات التنصيرية، بعد أن أُجيزَ قيامُ هذه المدارس في بعض الأقطار الإسلامية.

لقد حوى التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية كثيراً من الوثائق التي تدل على عدم استشعار المجتمعات الإسلامية لعقيدة الولاء والبراء في القرن الرابع عشر الهجري[2]. كما رضي بعض المسلمين بالانتساب إلى المدارس التنصيرية، وأن يتلقّى أبناءُ المسلمين الثقافات والمبادئ النصرانية[3].

---

١) حصوننا مهددة من داخلها-١١-دار الرسالة-السعودية-الطبعة الثانية عشرة-١٤١٣هـ.

٢) انظر: التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية-حسان حلاق-الدار الجامعية-بيروت-الطبعة الأولى-١٤٠٧هـ.

٣) انظر هذا الموضوع(التبشير والاستعمار في البلاد العربية) لعمر فروخ. و(الإسلام وأوضاعنا القانونية) لعبدالقادر عودة-٧٥-مؤسسة الرسالة-بيروت-الطبعة الثانية-١٣٨٦هـ

كما أصبح العكوفُ على القبور وبناء الأضرحة عليها معلماً بارزاً في حياة كثير من المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري، ويندر أن تخلوَ بلدةٌ من بلاد المسلمين إلا وفيها (مزار) أو (ضريح) أو أي مَعْلم من معالم الوثنية. ويذكر محمد الغزالي: أنّ أحد التقارير المرفوعة ذُكِرَ فيه: إنّ الحكومة الإنجليزية قد اهتمت بالحالة الدينية في مصر، فكان مما طمأنها على إيمان المصريين أن ثلاثة ملايين مسلم زاروا ضريح أحمد البدوي بطنطا[1].

وقد كان للصحف والمجلات النصيبُ الأكبر في نشر المعتقدات والمبادئ المنحرفة، وهي تعتبر من أبرز المنابر الإعلامية للجمعيات القومية العربية.

ومن أمثلة دَوْر الصحف والمجلات العربية في نشر المعتقدات المنحرفة دعوة صحيفتي (المفيد) و(القبلة) العامةَ والخاصةَ إلى إحياء المولد النبوي[2]. ونُصبت المنابرُ لأحياء المولد النبوي، كما أصبح السلاطين والحكام يصدرون أوامرهم بإحياء بدعة المولد[3].

ومما ظهر في واقع بعض المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري تأثرُهُم بمبادئ وطقوس الصوفية، وقد سطّر الشيخ محمد خضر ما شاهده من انحرافات في واقع عصره، فقال: انظر بعينك إلى أذكارهم وأورادهم وأحزابهم وتوسلاتهم وإلى منكرات موالدهم وأفراحهم وخياتينهم (طهور أولادهم)، ثم انظر إلى ما يصنعونه في مآتمهم من النياحات واللطم والصراخ والنوح والعديد• والعويل وتسويد الوجوه ولطم الخدود، وشق الجيوب والتغالي في الأكفان..ثم أَمِعْنِ النظرَ فيما

---

١) عقيدة المسلم-محمد الغزالي-٧٩-دار الكتب الحديثة-مصر-١٩٧٦

٢) مختارات المفيد-العدد ٩١٩-٢٩-شباط-١٩١٢-ص:٤٦. وجريدة القبلة-العدد٥٢-السنة الأولى-بتاريخ ١٩/٤/١٣٣٥هـ-ص:٢-بعنوان:الإسلام والجامعة العربية .

٣) انظر: تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول-حسن السندوبي-١٩٨-الطبعة الأولى-الاستقامة-القاهرة-١٣٦٧هـ.

• أي العدُّ على الميت، وهو ما ينشد من أقوال تبعث الحزن وتظهر الجزع على الميت لإثارة أحزان السامعين.

يعملون من التهاليل بما يسمونه (السبحة) للميت والعتاقة والختمة وطلعة رجب وشعبان .. تجدهم يتعبدون بدين قد بدلوه تبديلاً وغيروه وشوهوه تشويهاً[١].

كما انقلبَ كثيرٌ من المفاهيمِ الشرعيةِ في واقع بعض المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري، فمن ذلك انقلاب مفهوم (التوكل على الله) انقلب إلى (تواكل) فهُجِرت الأسباب وأباح بعضهم التسول لأنفسهم، وقالوا: إن المتوكل هو من أراح نفسه من كد النظر، ومطالعة السبب، سكوناً إلى ما سبق له من القسم مع استواء الحالين عنده. وهو أن يعلم أن الطلب لا ينفع، والتوكل لا يجمع[٢]، ولهذا تركوا السعي في الأرض واستغلال ما فيها من خير للدعوة إلى الله، وكفاف النفس[٣].

وفي مقابل انقلاب هذه المفاهيم تمكنت بعض العقائد الباطنية المنحرفة كالدُّروز والنُّصيرية في القرن الرابع عشر الهجري أن تتولى المناصب القيادية في بلاد الشام، وتسللت فئات منهم إلى أقطار العالم الإسلامي بصورة مستشارين وخبراء. يقنن ويخطط ما تمليه عليه عقيدتُه الباطنية، مقتدين بذلك سنّةَ آبائهم أصحاب العقائد الباطنية عبر تاريخ الأمة[٤] .

ومن الأمور التي فرط فيها المسلمون في القرن ذاته استيطان اليهود واحتلالهم للمسجد الأقصى، وكان ذلك بمكر من الجمعيات الماسونية والقومية[٥].

---

١) المنحة المحمدية في بيان العقائد السلفية-محمد خضر-٨-دار الكتب العلمية-بيروت-الطبعة الأولى-١٤٠٧هـ.

٢) مدارج السالكين-ابن القيم الجوزية-٣/٤٧٧.

٣) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع ينظر كتابي: (مفاهيم ينبغي أن تصحح) و (هل نحن مسلمون)-لمحمد قطب.

٤) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع ينظر: دراسات عن الفرق في تاريخ المسلمين-أحمد جلي. وكتاب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي-محمد أحمد الخطيب.

٥) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع ينظر: ١-مذكراتي-عبدالله بن الحسين بن علي.

٢. كارثة فلسطين-عبدالله التل.

٣. اليهودية والصهيونية-أحمد عبدالغفور عطار.

٤. خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية-عبدالله التل.

ويروي الأستاذ عبدالله التل -وكان في حينه قائداً للقوات العربية في القدس- ما دار في الحوار الانهزامي بين عبدالله بن الحسين واليهود، فقد قال التل: إن الملك عبدالله بن الحسين قال: (أنا ملك عربي لا أخلف وعداً ولا أخون عهداً، تعرفون نواياي وشعوري نحوكم، ورأيي أن لا يقف أحد بيننا الآن بعد أن خمدت الفتنة وانتهى لكم الأمر -تقسيم فلسطين- وأنتم تعلمون أننا لم نحاربكم و لم نعتد على ما خُصّص لكم، وأنتم تعلمون أننا اتفقنا على أسس سبقت، ولكم الآن مطالب حقة) قال التل: وهكذا سجل بهذه الفقرة الصغيرة اعترافاً خطيراً آخر وهو اتفاق جلالته معهم على (أسس سبقت) وأنه يكتفي بما في يديه ويترك ما بأيدهم وبذلك اعترف بالأمر الواقع في فلسطين قبل أن يحلم به اليهودُ أنفسُهُم[1].

وعلى نفس الخطى سار الملك فيصل بن الحسين، حينما توجه -لحاييم وايزمن الزعيم اليهودي، ورئيس الوكالة اليهودية في فلسطين، بالقول: (إننا نرحب بالاستيطان اليهودي على أسس إنسانية، بشرط أن يخضع للحدود التي يفرضها احترام صالح السكان أصحاب البلاد وحقوقهم الاقتصادية والسياسية)[2].

ومن نتائج هذا الاحتلال السعي إلى تهويد المسجد الأقصى وتحقيق إقامة مدينة يهودا العظمى المزعومة[3]،كما قُرّر في فهم بعض المسلمين أن سلاح وطرد اليهود عن المسجد الأقصى هو السلاح القومي، ولهذا أدرج في واقع المسلمين عبارات (الجهاد العربي) أو (الكفاح والثورة العربية) أو (شهيد العروبة).

قال الشيخ عبدالعزيز بن باز: إن القضية الفلسطينية قضية إسلامية أولاً وأخيراً، ولكن أعداء الإسلام بذلوا جهوداً جبارة لإبعادها عن الخط الإسلامي، وإفهام المسلمين من غير العرب، أنها قضية عربية، لا شأن لغير العرب بها، ويبدو

١) كارثة فلسطين-عبدالله التل-٤٦٠-٤٦١-مطبعة مصر-١٩٥٩.(بتصرف يسير)

٢) صك المؤامرة-جميل عطية-٩٦-دار الفتى العربي-القاهرة-الطبعة الأولى-١٩٩١.

٣) انظر الكتاب المقدس-سفر التكوين-الإصحاح (٢٣) فقرة (٢-١٦).

أنهم نجحوا إلى حد ما في ذلك. ولذا فإنني أرى أنه لا يمكن الوصول إلى حل تلك القضية إلا باعتبار القضية إسلامية[1].

إن حركة الغزو الرهيبة المنظمة على العالم الإسلامي أراد الكفار من خلالها -كما يقول الشيخ الدكتور علي العلياني- أن ينصبوا لأبناء المسلمين رايات يتكتلون تحتها بدلاً من الراية الإسلامية وكان من تلك الرايات القومية العربية فأصبح من تأثر بالكفار من أبناء المسلمين يوالون لأجلها ويقاتلون لأجلها ويسالمون لأجلها في حين أنهم لا يوالون لأجل الإسلام ولا يعادون لأجله ولا يقاتلون لأجله وبهذا العمل الخبيث استطاع أعداء الله صرف المفهوم الحقيقي للجهاد الإسلامي عن وجهته في أذهان أبناء المسلمين[2].

١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة-عبدالعزيز بن عبدالله بن باز-١/٢٨١.

٢) أهمية الجهاد-علي بن نفيع العلياني-٣٩٨-دار طيبة-الرياض-الطبعة الأولى-١٤٠٥هـ

الباب الأول

التعريف بالجمعيات القومية وأبرز رجالاتها ومبادئها

الفصل الأول: التعريف بالجمعيات القومية

تمهيد

المبحث الأول: الجمعيات القومية خلال المشروطية الأولى

١. الجمعية العلمية السورية

٢. جمعية بيروت السرية

٣. جمعية رابطة الوطن العربي

المبحث الثاني: الجمعيات القومية خلال المشروطية الثانية

١. جمعية الإخاء العربي العثماني

٢. جمعية المنتدى الأدبي

٣. الجمعية القحطانية

٤. الجمعية اللامركزية

٥. جمعية العهد

٦. جمعية بيروت الإصلاحية

٧. جمعية العربية الفتاة

٨. حزب البعث العربي

الباب الأول

التعريف بالجمعيات القومية العربية وأبرز رجالاتها ومبادئها

الفصل الأول

التعريف بالجمعيات القومية العربية

سيقتصر الحديث في هذا الفصل على التعريف بالجمعيات القومية العربية دون مناقشة لمواقفها تجاه مسائل العقيدة حيث خصص لذلك بابٌ مستقل نظراً لأهمية تلك المواقف وفي الفصل الثاني سيكون الحديث عن أهم أسباب نشأة هذه الجمعيات .

تمهيد

كان الشعور الديني عند الناس قبل القرن الرابع عشر الهجري هو الأصل، فكان ولاء الأمة للخليفة ولاءً دينياً . ومن خلال تتبع نشأة الجمعيات القومية العربية يلاحظ أن الهدف من إنشائها قد طُلي بأهداف علمية واجتماعية وأدبية. وإنما الأصل في إنشائها هو غرض سياسي؛ وبالتحديد المطالبةُ بالتحرر من الحكم الاستعماري التركي –بناء على زعمهم– للبلاد العربية، لذا اتخذت بعض الجمعيات صفة السرية .

نشوء الجمعيات السرية:

لم يكن نشوء الجمعيات أمراً غريباً، أو مستحدثاً في تاريخ الدولة الإسلامية وحياتها، فقد عرفت الدولة الإسلامية قبل ذلك نشوء عدة جمعيات سياسية باطنية من أمد طويل[1] .

---

١) جمعية العربية الفتاة السرية دراسة وثائقية–سهيلة الريماوي–٥٨.

إن الفرق الباطنية تكونت عن طريق جمعيات سرية، واستطاع أهلها أن يحيكوا المؤامرات ويضعوا الخطط للثورة والخروج على الخليفة .. فهم يشون في الظاهر بعض الظلامات والشكاوى من الولاة إلى الخليفة، ويخططون في الباطن للقضاء على الخلافة الإسلامية[1].

ومن خلال تتبع نشأة الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر الهجري، يظهر أن المنهج والأسلوب الذي سلكه هؤلاء في تأسيس جمعياتهم هو المنهج الذي سلكه أهل الجمعيات الباطنية، في تأسيس جمعياتهم، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

١) اتخذت الجمعيات الباطنية قديماً وحديثاً (آل البيت) ستاراً لمقاصدهم في هدم الخلافة الإسلامية، والقضاء على الوحدة المبنية على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[2]وهذا المسلك اتخذته الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر الهجري، فقد ناصر أعضاء الجمعيات القومية ثورة الشريف حسين بن علي[3]، وساروا في طليعتها خلال مراحلها الأولى، وذلك بعد أن سبروا القادة العرب في ذلك العصر، فتم اختيار الشريف حسين قائداً للثورة العربية[4].والحسين بن علي من سلائل آل البيت[5].

---

١) دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين-أحمد جلي-٢٧-مركز الملك فيصل - الطبعة الأولى - ١٤٠٦هـ

٢) انظر: ١-عبدالله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام-سليمان العودة-دار طيبة-الطبعة الأولى .

٢. دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين - أحمد جلي.

٣. الحركات الباطنية في العالم الإسلامي-محمد أحمد الخطيب-٤٣٥-مكتبة الأقصى- عمان-الأردن-الطبعة الثانية-١٤٠٦هـ.

٣) انظر الترجمة رقم (٢٠).

٤) انظر: الهاشميون والثورة العربية الكبرى- ٢٥. وانظر: العرب والعثمانيون-عبدالكريم عثمان-٥٤٥

٥) تاريخ الدولة السعودية-أمين سعيد-٢/١٠٦-دار الكاتب العربي-بيروت-١٩٦٤.

٢) ضمت الجمعيات الباطنية بين أعضائها عقائد مختلفة، فكانت تضم في صفوفها: أبا إسحاق الصابي الحراني، وهو من عبدة النجوم(الصابئة)، ويحيى بن عدي النصراني، وماني المجوسي، وأبا سليمان المنطقي السجستاني الإسماعيلي[١].

وهذا الخليط من العقائد المنحرفة نجده عند الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر الهجري فكانت تضم بين صفوفها: عبدالكريم الخليل الرافضي[٢][٣] ، وعادل أرسلان[٤] وفؤاد حمزة الدّرزيين[٥][٦]، نجيب عازوري وفارس نمر[٧] النصرانيين[٨]، ونسيم ملول اليهودي[٩].

٣) السعي لإسقاط الخلافة الإسلامية، كان من أبرز مقاصد الفرق الباطنية، وقد كان لتفتيت العالم الإسلامي الذي عمل على تنفيذه أتباع الباطنية، أثرٌ بالغُ الخطورةِ على التطورات السياسية فيه خاصةً وهو يواجه الصليبيين والتتار. ولما تحرك الصليبيون صوب الجنوب كانت سياستهم التقليدية تقوم على محالفة الفاطميين الشيعة بمصر لمناهضة الخلفاء العباسيين[١٠].

وكان بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر الهجري يسعون للمقصد نفسه، وهو ما يسمونه بالتحرر من الاستعمار التركي للبلاد

---

١) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي-محمد أحمد الخطيب-٤٣٥

٢) انظر الترجمة رقم (٤٥).

٣) الحركة العربية – سليمان موسى- ١٠٢.

٤) انظر الترجمة رقم (٤٠).

٥) انظر الترجمة رقم (٥٢).

٦) يقظة العرب –جورج انطونيوس- ١١٩ والإعلام-الزركلي-١٥٩/٥.

٧) انظر الترجمة رقم (٥٥).

٨) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦٠، وحركة اليقظة العربية- محمود منسي-١٠٠.

٩) أوراق محب الدين الخطيب في القاهرة.

١٠) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي-محمد أحمد الخطيب -٤٤٥.

العربية[1]، فدعوا إلى رابطة عربية تجمع بين المواطنين، على اختلاف مذاهبهم. واستُوحي التاريخُ المشترك والمنجزاتُ الحضارية العربية المشتركة، من المذاهب كافةً، لجمع أبناء الأمة وراء هدف واحد، يؤكد الهوية القومية للعرب، في سبيل وحدتهم وتحررهم ورقيهم[2]. وقد شارك بعض أعضاء الجمعيات القومية مشاركة ميدانية في إسقاط السلطان عبدالحميد[3].

٤) كان للجمعيات السرية والتي تضم بين صفوفها من اليهود، والنصارى، والمجوس أثرٌ فعالٌ في نشر عقائد الفرق الباطنية وتضليل المسلمين بها، وذلك لما امتُحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً، تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة ، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله واستشناع ظلم علي ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام[4].

ومن أبرز اليهود عبدُالله بن سبأ، فقد قال المحققون من أهل العلم: إن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي وأولاده لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصارى في عيسى عليه السلام[5]وقال عنه ابن كثير:(ابن السوداء وكان أصله ذمياً فأظهر الإسلام وأحدث بدعاً قوليةً وفعليةً، قبّحه الله)[6].

---

١) البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٢٩-معهد الدراسات العربية العالمية-١٩٥٧.

٢) العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦-عبدالكريم رافق-٥١١.

٣) انظر : مذكراتي على هامش القضية العربية- أسعد داغر-٣٤- عن دور عزيز علي المصري في إسقاط السلطان عبدالحميد.

٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل-ابن حزم-٢/٢٧٣- دار عكاظ للنشر-جدة-الطبعة الأولى-١٤٠٢هـ.

٥) الفرق بين الفرق- البغدادي-٢٣٥-دار المعرفة-بيروت.

٦) البداية والنهاية-ابن كثير-٧/١٨١.وانظر: عبدالله بن سبأ-سليمان العودة-٤٦.

هذا أثر الجمعيات السرية في نشر العقائد الباطنية، وعن أثر الجمعيات السرية في الجمعيات القومية العربية، فإن أهم الجمعيات السرية في القرن الرابع عشر الهجري هي المحافل الماسونية[١].

ولأهمية موضوع تأثير المحافل الماسونية على الجمعيات القومية العربية تناولته بالبحث في الفصل الثاني عند الحديث عن أسباب نشأة الجمعيات القومية.

وقد ذكر الباحثون في تاريخ الماسونية في الوطن العربي، أن الماسونية قد دخلت إلى دمشق على يد الأمير عبدالقادر الجزائري بعد عودته من مصر للإقامة في دمشق تنفيذاً لاتفاقه مع السلطات الفرنسية، حيث شارك في إنشاء أول محفل ماسوني سوري في دمشق، كان تابعاً لمحفل شرق إيطاليا الأعظم.

وكان الأمير الجزائري قد انتسب إلى الجمعية الماسونية أثناء زيارته الطويلة لمصر على يد الأمير حليم باشا[٢] -ابن محمد علي باشا-[٣].وانتظم في سلكها بمحفل الأهرام التابع للشرق السامي الفرنساوي، ووافقت مشاربَه من كل الوجوه، فأحبها وأحب أهلها، ومال إليها وإليهم كثيراً، وكان لا يخفي نفسه، وطالما جاهر أنّه من أعضائها[٤] .

ومن تصريحات الجزائري تأييداً للأفكار الماسونية: (إني اعتبر منظمة البنائين الأحرار (الماسونية) كأول مؤسسة في العالم، وفي رأيي أن كل رجل لا يجاهر بالعقيدة البنائية (الماسونية) يعد رجلا ناقصاً وأؤمل يوماً أن أرى فيه

١) لتأثير الأنظمة الماسونية وانتساب أعضاء الجمعيات القومية فيها والدعوة لمبادئها سأتوسع في المادة العلمية في الفصل الثاني. انظر ص (١٣٨) من الرسالة

٢) انظر الترجمة رقم (٣٠).

٣) الماسونية مالها وما عليها ماضيها وحاضرها-سعيد الجزائري-٣٤٦-مؤسسة النوري- دمشق-الطبعة الأولى- ١٤٠٧هـ.

٤) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين عمر حماده-١٠٤-دار قتيبة-دمشق.

انتشار مبادئ الفرنسماسونية في العالم، ويومئذ فإن كل الشعوب ستعيش في سلام وأخوة)[1] وقد حاز الأمير عبدالقادر الجزائري من المحفل الأكبر المشار إليه لقب (الأستاذ الأعظم الشرقي)[2].

وفي تاريخ الحركة العربية يعتبر الأمير عبدالقادر الجزائري من أوائل القوميين العرب الذين تولوا مبدأ استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، حيث قامت حركة استقلالية في ولاية سوريا بين (١٨٧٧و١٨٨٠م) (١٢٩٤و١٢٩٧هـ) وذلك خلال الأوضاع المضطربة التي تمر بها الدولة، فاتصل أحمد الصلح ببعض العاملين المؤيدين وبعض أصحاب الزعماء في صيدا، ثم سافروا إلى دمشق، واتصلوا ببعض أصحاب الرأي والمكانة فيها، ثم قصدوا بعد ذلك إلى (دُمَّر)، مصيف عبدالقادر، وقضوا في ضيافته ثلاثة أيام تباحثوا في خلالها معه في الأوضاع المرتبكة في البلاد، وتقرر في الاجتماع العمل لتحقيق استقلال البلاد الشامية (وهي ما تعرف اليوم بسوريا والأردن وفلسطين) وقدّم أحمد الصلح اقتراحاً بترشيح الأمير عبدالقادر ملكاً على هذه البلاد، فوافق المجتمعون على هذا الاقتراح[3].

---

١) الأمير عبدالقادر الجزائري في السنوات الأولى من إقامته بدمشق-عبدالجليل التميمي-٤٥٣-جامعة دمشق-كلية الآداب- مطبعة الطرابيشي- ١٩٧٩

٢) الماسونية ذلك العالم المجهول-عبدالحليم الياس الخوري-٥٧-دار العلم للجميع- بيروت- الطبعة الأولى-١٩٥٤.

٣) نشوء القومية العربية – زين نور الدين زين-٦٧.

محافل الماسونية في سوريا[1]:

كان أول محفل ماسوني تأسس في بيروت عام ١٨٦٢م (١٢٧٩هـ)تحت رعاية الشرق الأعظم الاسكتلندي، وعرف [بشرق فلسطين رقم ٤١٥] وكانت لغته الرسمية الفرنسية، وكانت تديره الأيدي الصهيونية، وتوقفت أعماله سنة ١٨٨٨م(١٣٠٥هـ). وفي سنة ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ) تأسس في بيروت أيضاً محفل آخر تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسي عرف [بشرق لبنان] وكانت لغته الرسمية هي العربية، ورئيسه نقولا حجي، وكاتب أسراره الأستاذ شاهين مكاريوس[2] -أحد أعضاء جمعية بيروت السرية-[3]، فانضم إليه كثيرون من أعيان البلاد وعلمائها ورجالاتها على اختلاف مذاهبهم[4].

وأخذت محافل الماسونية بالانتشار، ومن هذه المحافل :

محفل زهرة الآداب: أنشئ في بيروت سنة ١٨٧٣م(١٢٩٠هـ).

محفل السلام: أنشئ في بيروت بعد عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ)تحت رعاية المحفل الأكبر الاسكتلندي، وكان محترمه الأستاذ إسكندر البارودي[5].

محفل إبراهيم الخليل: تأسس في دمشق تأسس عام ١٩٢٤م(١٣٤٢هـ)، ومؤسسوه هم: داؤود الماردييني، مصطفى القباني، مصطفى شوقي، عثمان سلطان[6].

---

١) نعني بسوريا البيئة الطبيعية للبلاد الجغرافية التي تشمل (الشام،الاردن،لبنان،فلسطين،العراق). انظر: الماسونية ذلك العالم المجهول-عبدالحليم الياس الخوري-٥٧.

٢) انظر الترجمة رقم (٣٤).

٣) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده- ١٧٨.

٤) الماسونية ذلك العالم المجهول-عبدالحيم الياس الخوري- ٥٣.

٥) انظر الترجمة رقم (٥).

٦) الماسونية ذلك العالم المجهول-عبدالحيم الياس الخوري- ٥٣.

محفل العروبة: أنشئ في مدينة حمص السورية، رئيسه بشير المعصراني، وآخرون[1].

وفي فلسطين: أنشئ محفل ماسوني عام ١٨٧٣م(١٢٩٠هـ) هو محفل [سليمان الملوكي الأساسي] نمرة (٢٩٣) وتوالى بعده على مجيء الثلاثين عاماً التالية مدُّ أذرع المخطط الماسوني حتى غطت شبكةُ محافل الماسونية جميعَ مدن فلسطين [2].

وفي العراق: أُسّس في البصرة المحافلُ التالية :

محفل (ما بين النهرين) سنة ١٩١٨م(١٣٣٦هـ).

محفل (بابل) سنة ١٩٢٢م (١٣٤٠هـ)

محفل (صدق الوفاء)[3].

---

١) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده- ١٥٨.

٢) الماسونية في منطقة ٢٤٥-أبو إسلام أحمد عبدالله-٤٢-٤٧(بتصرف)-الزهراء للإعلام العربي-القاهرة-الطبعة الأولى-١٤٠٦.

٣) المصدر السابق نفسه-٤٤.

التعريف بالجمعيات القومية العربية:

لقد ظهر الشعور القومي عند نخبة من الشباب العربي والغالب أنهم من النصارى أو الدروز، وأول قطر عربي ظهرت فيه الجمعيات بيروت، ثم ظهر في دمشق، ثم أخذ ينتشر في سائر الأقطار العربية. وهذا الترتيب يساير اليقظة الأدبية الحديثة في الشام[١].

المبحث الأول:- الجمعيات القومية خلال المشروطية الأولى[٢]

١) الجمعية العلمية السورية:

الصفة البارزة لهذه الجمعية أنها سرية ، وقد تكونت على أنقاض جمعيتين سابقتين لها ، وهما (جمعية الآداب والعلوم) و(الجمعية الشرقية). وقد ارتبطتا بالحملات التنصيرية التي تولت رعايتهما .

ولارتباط الجمعية العلمية السورية بالجمعيتين، يحسن التعريف بهما تعريفاً مختصراً.

أولاً) جمعية الآداب والعلوم: ارتبطت هذه الجمعية بالبعثة التبشيرية الأمريكية، وقدم اليازجي والبستاني اقتراحاً إلى البعثة الأمريكية بتأليف جمعية تهدف إلى بذل الجهد لمسايرة انتشار التعليم في المدارس وظهور العناية الحديثة بالعلوم.

---

١) القومية العربية تاريخها وقومها ومراميها- مصطفى الشهابي-٤٥-جامعة الدول العربية-الطبعة الثانية - ١٩٦١.

٢) يقسم عهد الجمعيات عموماً في الدولة العثمانية إلى قسمين: المشروطية الأولى وهي إعلان الدستور الذي أصدره السلطان عبدالحميد الثاني: وتبدأ من تاريخ ١٨٧٦م .وأصدر السلطان عبدالحميد رفع الدستور وتعطيله بتاريخ ١٨٧٨ .

والمشروطية الثانية: هي المرسوم الذي أصدره السلطان عبدالحميد من تاريخ ١٩٠٨م بإعادة الدستور. وفي خلال هذه المرحلة أسقط السلطان عبدالحميد، وانتقل الحكم إلى جمعية الاتحاد والترقي. وتمزقت الدولة العثمانية حتى سقطت كمسمى دولة، وتحولت إلى جمهورية علمانية، على يد مصطفى كمال أتاتورك ١٩٢٤م.

انظر: الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري-رسالة دكتوراه- سهيل صابان-جامعة الإمام محمد بن سعود- ص ٨.

وحُقّق المشروعُ المقترحُ، فأنشئت سنة ١٨٤٧م(١٢٦٣هـ) في بيروت باسم (جمعية الآداب والعلوم) وكان من أعضائها: اليازجي والبستاني، وكذلك أيلي سميث، وكرنيليوس فنديك[1]، وعدة أعضاء من الأمريكان، وانتسب إليها رجل إنجليزي كان يقيم في بلاد الشام هو الكولونيل تشرشل[2]. ولم يشترك فيها عضو مسلم، فأكثرهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت[3].

ولتحقيق الغاية من إنشاء الجمعية فقد كان لها مكتبة صغيرة وكان القيّمُ عليها اليازجي، والبستانيُّ سكرتيراً لها. وكان يُعقد لها اجتماعاتٌ يقدِّم أحدُ أعضائها بحثاً في كل اجتماع[4].

ثانياً) الجمعية الشرقية: وهي جمعية فرنسية، أسست سنة ١٨٥٠م(١٢٦٦هـ) على الأسس نفسها التي قامت عليها جمعية الآداب

---

١) كرنيليوس فنديك طبيب، هولندي الأصل ولد في أمريكا عام ١٢٣٣هـ أرسله مجمع المرسلين الأميركيين للتنصير في بلاد الشام، وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وتأثر به طائفة كبيرة من أبناء المسلمين، توفي عام ١٣١٣هـ.انظر: (الإعلام-الزركلي-٥/٢٢٣).

٢) السير ونسون تشرتشل، ولد في قصر بلنهايم في أكسفور شاير عام ١٨٧٤، وتخرج من كلية هارد عام ١٨٩٥ وعمل ضابطاً في الجيش ومراسلاً حربياً في كوبا والهند، كما أشترك في المعاهد الحربية خاصة في الهند وفي آخر حملة بريطانية على السودان وذلك في معركة أم درمان وفي عام ١٨٩٩ استقال من الجيش. زاول السياسة منذ عام ١٩٠٠ وتم انتخابه عضواً في مجلس العموم، عين تشرتشل قائداً للبحرية سنة ١٩١١، وكانت لتشرتشل اتصال وترتيب مع أعضاء الجمعيات القومية العربية، حيث مد الحركة القومية بالمال بصورة مساعدات مقدمة من بريطانيا، وبنهاية الحرب العالمية الأولى عين تشرتشل وزيراً للحربية والطيران عام ١٩١٨ عاد إلى رئاسة الوزراء سنة ١٩٥١ وكان عمره ٧٧ عاماً، منح لقب فارس من قبل الملكة، كما منح جائزة نوبل في الآداب. وفي علم ١٩٦٥ أصيب بسكتة دماغية ومات بعد ذلك بتسعة أيام وقد بلغ ٩٠ عاماً من مؤلفاته الأزمة العالمية. انظر :(الموسوعة العربية العالمية-٦/٣٠٧ -حرف التاء).

٣) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٦-١١٧ (بتصرف).

٤) المصدر السابق نفسه-١١٧ (بتصرف).

والعلوم. وكان الروح المحرك لها هو هنري دو يرونيير[1]. وكانت تعقد اجتماعات دورية تلقى فيها بعض الأبحاث.

وكان بعضُ أعضاء الجمعية الشرقية من السوريين وبعضهم الآخر من الأجانب، وكانوا جميعاً من النصارى. وقد انفرط عقدها في وقت واحد مع جمعية الآداب والعلوم[2] .

لم يدون في سجل جمعية الآداب والعلوم والجمعية الشرقية سوى المؤسِّسَيْن لها: اليازجي والبستاني، وبقية الأعضاء كانوا مثلهما من العرب النصارى .

ويعتبر القوميون[3] عدم تسجيل المسلمين العرب فيها راجعاً إلى -ما يسميه القوميون- بالتعصب الديني في ذلك العصر. إلا أنه تحت إلحاح وتأثير مطالب البستاني واليازجي للعرب جميعاً، ومناشدتهم على اختلاف عقيدتهم أن يتحدوا لخدمة لغتهم ، تقدم المسلمون باقتراح يتضمن موافقتهم على الاشتراك في تأليف جمعية جديدة تتحد فيها جهود العقائد الدينية جميعها لخدمة العلم، على شرط ألا يكون للمبشرين أي أثر فيها[4].

وهكذا أنشئت الجمعية العلمية السورية في سنة ١٨٥٧م (١٢٧٣هـ)، وبلغ أعضاؤها ١٥٠ عضواً، وكان جميع أعضائها عرباً ليس فيهم أجانب[5].

---

١) قال جورج انطونيوس: (هنري دو: يسوعي فرنسي، ولد سنة ١٨٢١، وصل بيروت سنة ١٨٤٩وبدأ فور وصوله بتعلم اللغة العربية، وقد اكسبه اطلاعه الواسع ونشاطه المتوثب نفوذاً كبيراً في الشام، وتبوأ منزلة وقيمة بفضل الجهود التي يبذلها. توفي في فرنسا سنة ١٨٧٢م). [يقظة العرب- حاشية ١١٨].

٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٨ (بتصرف).

٣) المصدر السابق نفسه- ١١٩.

٤) المصدر السابق نفسه- ١١٩.

٥) القومية العربية تاريخها وقومها ومراميها- مصطفى الشهابي - ٤٥.

وقد اشترك فيها زعماء عرب من مختلف العقائد، وكان من أعضاء مجلس إدارتها الدرزي الأمير محمد أرسلان الذي بقي عدة سنوات رئيساً لها، وحسين بيهم[1]، ونصارى من جميع الطوائف. فكانت الجمعية العلمية أول جمعية يشترك فيها أعضاء من أهل الدينين[2].

وقد نالت الجمعية العلمية اعتراف الحكومة بها سنة ١٨٦٨م(١٢٨٥هـ)، وفسحت المجال للاشتراك فيها حتى ضمت أعضاء كثيرين من الأشخاص البلوزين الذين يقطنون خارج البلاد، وخاصة في القسطنطينية والقاهرة[3].

مبادئ وتنظيمات الجمعية:

كانت غايات الجمعية ووسائلها وأنظمتها كلها على غرار جمعية الآداب والعلوم، والتي حددها العربيان النصرانيان نصيف اليازجي، وبطرس البستاني، وهي إبراز فكرة القومية العربية في إطار عام أساسه أن للعرب عامة –مسيحيين ومسلمين– تراث مشترك وحضارة عريقة تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام ولا بد من التنقيب عنها والكشف عن جذورها التاريخية والعمل على تطويرها لتساير روح العصر[4]، كما يقول اليازجي والبستاني.

ولنشر الفكر القوميَ في المجتمع أصدر بطرس البستاني ببيروت صحيفة أسبوعية باسم (نفير سوريا) وهي أول صحيفة سياسية نذرت جهودها من أجل الدعوة إلى الوحدة والتكاتف ونبذ التعصب، وهي مؤلفة من صفحة واحدة كان يوجه فيها إرشاداته وآراءه كمبدأ فصل الدين عن الدولة [5].

---

١) انظر الترجمة رقم (٢١).

٢) يقظة لعرب– جورج انطونيوس – ١١٩.

٣) المصدر السابق نفسه– ١١٩.

٤) تاريخ العرب الحديث–عبدالوهاب أحمد عبدالوهاب– ٣٥٥–دار القلم–دبي–الطبعة الأولى– ١٤٠٧هـ.

٥) سليم البستاني– ميشال جحا– ٢٣– سلسة الأعمال المجهولة – رياض الريس للكتب والنشر .

وبعد ثلاث سنوات أنشأ بطرس البستاني (المدرسة الوطنية) لكي تزود التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومي، و أصدر أيضا (الجنان): وهي مجلة أدبية سياسية نصف شهرية، كان هدفها –كنفير سوريا– محاربة ما يسميه القوميون (التعصب) والدعوة إلى التفاهم والوحدة من أجل خير الوطن، وكان شعارها: الوطنية من الإيمان(١).

ومن المبادئ التي دعت إليها الجمعية العلمية ونقلتها إلى المجتمع الإسلامي مجلة الجنان: (إن أمس الأمة العربية هو أمس أمة لم تفن كل زمان حياتها. ولذلك لا بد لها من غد تعوض فيه ما خسرته من الحياة في الأمس. وهذا إنما يتم بالاتحاد بواسطة العصبة الجنسية الموافقة للعصبة الوطنية. ولا أمل لنا بالعصبة الدينية لأن زمان النبوة قد مضى وقد تركنا الدين) (٢).

وانطلاقا من مبدأ التسامح الديني، ووجوب الولاء على أساس وطني قومي، أكدت الجمعية عن طريق صحيفتها (الجنان) بأنه (لا بد من أن تكون في معابدنا إسلاما وأرمن ودروزا وموارنة وروما وكاثوليكا ونصيرية وسريانا، وغير ذلك وفي ميادين الأعمال لنا راية واحدة استبداد الحال لنا إنما يكون بالاجتماع حولها بالغيرة والحمية والصداقة)(٣) .

وكان النشاط الثقافي للجمعية محصورا [بنخبة] بدأت على ما يبدو تتعرف على أفكار أوروبا وتتمثلها وفق الصيغ التعبيرية التي قدمتها الحضارة الغربية التوسعية نفسها(مدنية، حضارة، علم، ... الخ) لهذا فإن الموضوعات التي تضمنتها بعض المحاضرات التي نظمتها الجمعية تعكس بوضوح محاولة التمثل هذه . ولعل إيراد أمثلة من عناوين المحاضرات وأسماء المحاضرين يبدو مفيدا في هذا السياق:

---

١) حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي– محمود منسي–٦٥–دار الفكر العربي – ١٩٧٨.

٢) مجلة الجنان ١٨٧٠ – ص٦٧٣–٦٧٧–نقلا عن كتاب سليم البستاني – ١١٦.

٣) افتتاحية ج٦، مجلة الجنان ١٨٧٤–ص١٨١–١٨٣– نقلا عن كتاب سليم البستاني –١٢٢.

أسم المحاضر	عنوان المحاضرة
حنين الخوري	حاجات العقل
	الزراعة
	تاريخ الحضارة الأوربية
المركيز موسى دي فريج	التجارة
	الحضارة
سليمان شحادة	واقع التعليم
إبراهيم ثابت	حاجات الحضارة[1]

كما نشرت الجمعية العلمية في المجتمع العربي بعض مبادئ القومية العربية، وذلك عن طريق إبراهيم اليازجي ومعه عدد قليل من أعضائها، حيث ألفوا وهم في ميعة الصبا حلقة وطنية سرية انطلق منها قصائدُ وطنية ثورية نظمها إبراهيم اليازجي، وأشاد فيها بمجد العرب وحضارتهم، وسُمُوٍّ لغتهم وتراثهم الأدبي، وحذّر العرب من أضرار التفرق والتخاصم الديني، وندد بحكم الترك . ومما جاء من القصائد:-

أي النعيم لمن يبيت	على بساط الذل جالس
ولمن تراه بائساً أبداً	لذيل الترك (بائس)
ولمن أزمته بكف عداه	يظلم وهو آيس

١) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي-وجيه كوثراني-١٣٤- منشورات بحسون الثقافية- ١٩٨٦

ومنها:–

فالترك قوم لا يفـــــوز لديهـــم إلا المشـــاكس

أو لستم العرب الكـــرام ومن هم الشمُّ المعاطس

وفيها يخاطب بني قومه:–

لا دولة لكم يشتـــد أزركم بها ولا ناصـــر للخطب يـــنتدب

أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب[1]

ومن خلال ما سبق عن تنظيم ومبدأ الجمعية العلمية: فهي تعتـــبر مـــن أوائل المخططات السرية لبث الفكر القومي في المجتمع المسلم، وقد لا يحتـــاج إلى دليل أنها كانت من تصميم وإنشاء الحملات التنصيرية، والتي أقيمت على غفلة من المسلمين من جانب، ومن جانب آخر لأغراض علمية أو طبية.. إلخ من الأغراض التي استغلها النصارى للدعوة إلى زعزعة المجتمع الإسلامي.

وقد أثنى القوميون على مبادئ الجمعيـــة العلميـــة، فقـــالوا : إنهـــا استطاعت أن تجمع بين العقائد المتناحرة، وتوحدها في رابطة إيجابية فعالة، تعمل لتحقيق أهداف مشتركة .. وأصبح الحافز لهـــم إلى العمـــل هـــو اهتمامهم بتقدم البلاد على أساس الوحدة الوطنية. كما أصبح الرابـــط الذي يؤلف بينهم هو اعتزازهم بالتراث العربي[2].

١) القومية العربية تاريخها وقومها ومراميها– مصطفى الشهابي –٤٥.

٢) انظر: يقظة العرب–جورج انطونيوس–١١٩.

٢) جمعية بيروت السرية (الجمعية السرية):-

أنشئت جمعية بيروت السرية (الجمعية السرية) عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ)، ويعزى إنشاء هذه الجمعية إلى بعض الطلاب العرب في الكلية الأمريكية السورية؛ وكانوا جميعاً نصارى، ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم، فاستطاعوا أن يضموا إلى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصاً ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية [1] .

وقد استطاعت الجمعية النفوذَ إلى داخل محافل الماسونية، فقد كان بعض الأعضاء البارزين في هذه الجمعية السرية قد انضموا إلى عضوية هذه المحافل الماسونية، وكانوا يأملون أن يستميلوا المسلمين، بعد أن يكونوا قد انضموا إلى عضوية هذه المحافل الماسونية، للانتماء إلى الجمعية السرية[2] .

من خلال تتبع تاريخ الجمعيات يتضح أن هناك صفة ظاهرة في تأسيس الجمعيات، وهي أن الثانية تنشأ على أنقاض الأولى وهكذا، وقد يكون السبب عائداً إلى منهجية التأسيس وهي السرية، ومنهجية المبادئ، فحينما يكشف أمر ونظام الجمعية الأولى تحل الجمعية وينتقل الأعضاء إلى مسمى جمعية ثانية. وهذا هو منهج الجمعيات الماسونية على السواء.

ولهذا فقد ضمت جمعية بيروت السرية نخبة من العلماء والأدباء على السواء، وكان أكثرهم من تلامذة اليازجي والبستاني، وجميعهم من مريديهما[3].

ويؤكد فارس نمر النصراني -أحد مؤسسي هذه الجمعية- على أن فكرة (القومية) لم تكن بعد قد وَجَدتْ طريقها إلى وجدان العامة من الناس في

---

١) المصدر السابق نفسه-١٤٩. وانظر: نشأة الحركة الحديثة-محمد دروزة-٩٤.

٢) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦١.

٣) يقظة العرب - جورج انطونيوس-١٥٩.

الشرق الأدنى. إذ كان ولاء الناس -كما كانت جميع الروابط والعلاقات الاجتماعية- يقوم على أساس ديني طائفي[١].

مبادئ وتنظيم الجمعية:-

كما ذكر في بداية الحديث عن الجمعية أنها سرية ، وتولى إنشاءها نصارى العرب، تحت توجيه وإرشاد الكلية الأمريكية السورية التي صارت(الجامعة الأمريكية) . وكان للجمعية فروع في دمشق وطرابلس وصيدا.

إن الهدف من إنشاء الجمعية قد طبع بطابع سياسي صرف، وهو المطالبة بالانفصال عن الحكم التركي، وإعطاء سورية استقلالاً ذاتياً خاصاً بالعرب[٢] .

وقد برر أعضاء الجمعية أن هذا الهدف كان نتيجة للشعور الذي وجُد عند مؤسسي الجمعية وجلهم من النصارى وهو احتقار الأتراك لهم، واعتبارهم أدنى شأناً منهم، مما جعلهم يشعرون بالإهانة. غير أن العربي المسلم عندما كان يتكلم عن الإمبراطورية العثمانية كان يستطيع أن يقول إنها إمبراطوريته، لأنها كانت إمبراطورية إسلامية[٣]. لذا أدرك النصارى العرب لزوم رفع شعار لا يختلف عليه المسلم والكافر، فلم يكن هنالك من قاسم -كما يقول فارس نمر- مشترك بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب سوى (العروبة) فالعروبة كشعار، كان في وسعها أن تثير في نفوس العرب شعوراً بالقومية، وأن توحد أيضاً بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقمين على الأتراك[٤]، فاللواء المرفوع الوحدة والتكاتف والتناصر والتآخي، على أساس قومي عربي .

---

١) نشوء القومية العربية – زين نور الدين زين– ٦٠ .

٢) يقظة العرب– جورج انطونيوس – ١٥٨.

٣) نشوء القومية العربية – زين نور الدين زين– ٦٠

٤) يقظة العرب– جورج انطونيوس – ١٥٠.٦١.

لتحقيق هذا الهدف المطلي بشعار القومية رأت الجمعية أن تخرج من طي السرية والكتمان، الذي كان مقصورا على الاجتماعات السرية التي كانوا يتبادلون فيها الآراء ويبحثون الخطط، وعلى نشر أفكارهم السياسية بوسائلهم واتصالاتهم الشخصية، فعزموا على توسيع نطاق دعوتهم واختاروا الوسيلة الوحيدة التي كان من الممكن أن تتاح لهم في ظل الحكم -الذي قالوا عنه-الاستبدادي التركي اليقظ، وهي لصق المنشورات في الشوارع من غير أن يكون عليها ما يدل على مصدرها[1].

منشورات جمعية بيروت السرية:

ذكرت أكثر المصادر القومية التي تحدثت عن الجمعية، أمثلة عن المنشورات التي قامت بكتابتها وتوزيعها في المجتمع، ومن هذه المنشورات.

المنشور الثاني، الذي كتب في أعلاه العبارة التالية: [(إعلان) وتحتها صورة سيف مسلول]، وكتب تحته البيت التالي:

لنطلبنّ بحد السيف مأربنا فلن يخيب لنا في جنبه أرب

يقول المنشور: (يا أبناء سورية: قام موسى (ﷺ) مصلحا فقال المصريون: إن به جنة. وقام سقراط[2] مصلحا فقتله اليونان، وقام عيسى (ﷺ) فقال اليهود به شيطان. وقام محمد ﷺ مصلحا فقال عرب الجاهلية إنه مجنون. وأنتم تقولون إن صاحب هذا الإعلان [بل قولوا أصحاب] هو

١) المصدر السابق نفسه- ١٥٠.

٢) إيراد سقراط الوثني في مصاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مشعر بالتسوية بينهم ، وهذا أمر مخالف لنصوص الكتاب والسنة {**أفنجعل المسلمين كالمجرمين * مالكم كيف تحكمون**} انظر: درء تعارض العقل والنقل-ابن تيمية- ٢/١٥٩، وموسوعة الملل والنحل - الشهرستاني -١٦٢.

سكران، وإن كلامه هذيان، فإن كان سكرانكم يعتني بأموركم فهو خير من صاحيكم الذي لا يهمه أمركم ولا حفظ ناموسكم وياليتكم كلكم سكارى. نحن الذين يحيون الليل بإعمال دولاب الأفكار، ويقضون النهار باستكشاف الحوادث والأخبار، فلولا موتنا لما كنا للترك أذلاء عبيدا، ولولا شقاقنا لم نكن عند الإفرنج حجارة وحديداً، أين نخوتكم العربية أين حميتكم السورية، عودوا يا قوم والعود أحمد، ولا تقنطوا من رحمة الله، فلن يخفى القمر. ومن يعش ير)

وقد لخصت الجمعية مطالبها بالنقاط التالية:-

(بعد التشاور مع زملائنا في جميع أنحاء البلاد، فقد تم وضع برنامج سننفذه ولو بحد السيف إذا اقتضى الأمر) وأهم النقاط في ذلك البرنامج هي:

١) منح سورية الاستقلال مُتّحدةً مع جبل لبنان .

٢) الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد.

٣) رفع الرقابة والقيود الأخرى التي تحد من حرية التعبير ونشر التعليم.

٤) استخدام القوات المجندة من أهل تلك البلاد في المهام العسكرية الداخلية فيها فقط .[1] كما كان للشعر دور في نشر مبادئ الجمعية، فقد انتشرت قصائدها ومما انتشر :-

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

أقداركم في عيون الترك نازلة ... وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

---

١) يقظة العرب- جورج انطونيوس -١٥٥ . وذكر المؤلف تفصيلاً تاماً عن هذه المنشورات ، وقام بتحليلها ودراستها .

صبرا هيا أمة الترك التي ظلمت دهرا فعما قليل ترفع الحجب

لنطلبن بحد السيف مأربنا فلن يخيب لنا في جنبه أرب

وفيما عدا الشعراء، أدى المدرسون والكتاب من أعضاء هذه الجمعية دورا كبيرا في ترويج مبادئها وشعاراتها، وكان عددهم اثني عشر رجلا عند تأسيسها، فلم يلبث أن قفز إلى سبعين، من أبرزهم إلياس حبالين الماروني المذهب مدرسا للغة الفرنسية في كلية بيروت الأمريكية من عام (١٨٧١-١٨٧٤)-(١٢٨٨-١٢٩١هـ)[1]، وقد اعتنق مبادئ الماسونية، كان ثوريا في أفكاره ، وكان بعد أن يختصر درس الفرنسية في صفوفه، يعود إلى موضوع السياسة فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الأتراك والتخلص من حكومتهم الفاسدة الظالمة. وهكذا أصبح الطلبة وجميعهم نصارى من أشد أتباعه إخلاصا وولاء وراحوا ينشرون أفكاره بين الطلاب[2] .

ويقول عنه فارس نمر النصراني وهو -أحد معاصريه-: (.. كان يدرس شبان سورية اللغة الفرنسية ولكنه وقف جهده على إرضاعهم لبان الحرية وإضرام نار البغض بين ضلوعهم للسلطة الاستبدادية سياسية كانت أم طائفية. وشاركه في هذا الفضل رجال العشيرة الماسونية في سورية من مسلمين ومسيحيين. فيا طالما سهروا الليالي وبذلوا الرخيص والغالي لإعداد أبناء سورية لقبول المبادئ الحرة والنظامات الدستورية[3] .

ومن خلال تتبع آراء الجمعية السرية نجد أنها أضفت عليها القضايا السياسية عن طريق المطالبة بالانفصال عن الدولة العثمانية، وهي ضمن مناقشة موضوعات الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

---

١) العرب والترك – توفيق برو- ٤١.

٢) نشوء القومية العربية – زين نور الدين زين- ١٩٦(حاشية)

٣) مجلة المقتطف ج ٣٦ مارس ١٩١٠ – ص ٢٥٠-٢٧٠ – الكاتب فارس نمر . نقلاً من كتاب نشوء القومية العربية – زين نور الدين زين- ١٩٦(حاشية).

والذي ينبغي أن يسطر في سجل هذه الجمعية أنها فكرة نصرانية ولـــدت في محافل الماسونية، وصنعتها أيدٍ نصرانية، ولذا يذهب بعض القوميـــــين أن غاية الجمعية قد جاءت مبكرة جداً[1]، فكان تأثيرها على المجتمع الإســـلامي ضعيفاً جداً. لذا كان مآل الجمعيـــــة في زمـــن ١٨٨٢-١٨٨٣(١٢٩٩-١٣٠٠هـــ) أن أوقفتِ الجمعيةُ السرية -التي ظلت تعمل سراً دون أن يعلـــم أحد بها- نشاطها وأحرقت وثائقها، واعتبرت نفسها جمعية منحلة [2].

١) يقظة العرب- جورج انطونيوس -١٥٦ . وانظر:
١. نشوء القومية العربية - زين نور الدين زين- ٦٩
٢. القومية العربية - مصطفى الشهابي - ٤٨.
٣. العرب والترك - توفيق برو- ٤٣.

٢) نشوء القومية العربية - زين نور الدين زين- ٦١.

٣) جمعية رابطة الوطن العربي:

تعتبر جمعية رابطة الوطن العربي من أوائل الجمعيات التي نادت بالانفصال عن الدولة العثمانية، ومؤسسها نجيب عازوري، وهو عربي نصراني، تولى منصب نائب متصرف القدس بين عامي ١٨٩٩-١٩٠٤(١٣١٧-١٣٢٢هـ)، ثم اختلف مع رئيسه كاظم بك متصرف القدس بسبب سوء الإدارة العثمانية فاستقال، وقام بجولة في مدن الشام لمدة شهرين بعد استقالته، ودعا إلى إنشاء حزب سياسي جديد أسماه رابطة الوطن العربي[١].

وبسبب أن دعوته إلى القومية العربية، قد خرجت في وقت مبكر وكان المجتمع على ولائه للخليفة، لم يجد مناصرا لدعوته، فهاجر إلى فرنسا وأسس عام ١٩٠٤ جمعية رابطة الوطن العربي في باريس بالاشتراك مع يوجين يونج، أحد موظفي مصلحة الاستعمار الفرنسي السابقين[٢].

و لم أجد من الكتاب الذين كانت لهم كتابات عن الجمعيات القومية من اهتم بهذه الجمعية، فقد ذهب بعضهم إلى أنها أثارت شيئا من الاهتمام في أوربة في ذلك الحين، ولكن أثرها في الحركة العربية نفسها كان ضئيلا[٣] . وكان السبب في ذلك كما ذكر سابقا أن المبدأ الذي دعت إليه كان غريبا على المجتمع المسلم، وأيضا: ظهورها في عاصمة أجنبية -باريس- وبلغة أجنبية كان أمرا في ذاته يدعو إلى شلها والحد منها [٤].

---

١) حركة اليقظة العربية-محمود منسي-١٠٠.

٢) المصدر نفسه-١٠٠.

٣) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٧٣.

٤) المصدر نفسه-١٧٣.وانظر:

١. القومية العربية-مصطفى الشهابي-٥٩

٢. نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة-١٠٢.

ومن أجل نشر مبادئ جمعية رابطة الوطن العربي فإن نجيب عـــازوري ألـــف كتاباً لمناصرة فكرته والتي أوجزها بعبارة (الاستقلال الذاتي للبــــلاد العربيـــة)- وسمى الكتاب [يقظة الأمة العربية]، كتبه باللغة الفرنسية. وقد تُرجم إلى اللغـــــة العربية[1] . إلا أن أعضاء الجمعيات القومية العربية كما انتقدوا الجمعية كذلـك لم يهتموا بالكتاب، فقد قال مصطفى الشهابي[2] عنه:(أنا على يقين من أن كتـــاب العازوري لم يكن عند أحد من شباب جمعية النهضة العربية، ولا عند أحد ممـــن ألفوا عقب إعلان الدستور العثماني-المشروطية الثانية- الجمعيات والمؤسســـات القومية العربية المختلفة. وفي سنة ١٩١١م (١٣٣٠هـ) وجدته يباع في إحـــدى مكتبات باريس فاشتريته ودللت بعض الرفاق من الطلاب العرب عليـــه، فلـــم يهتموا به، لأنهم كانوا قد شبوا عن الطوق، وعرفوا من شؤون القومية العربيـــة وواجباتهم فيها ما لم يعرفه غيرهم)[3] .

وقد أصدر نجيب عازوري في سنة ١٩٠٧م(١٣٢٥هـ) هو وجماعـــة مـــن الكتاب الفرنسيين في باريس مجلة شهرية عنوانها [الاستقلال العـــربي] لم تعـــش أكثر من سنة وبعض السنة هدفها تعريف الغرب بالقضية العربية. وقـــد صـــدر العدد الأول منها في أبريل ١٩٠٧م والعدد الأخير في ســـبتمبر ١٩٠٨م، وفيـــها ذكر عازوري أن جميع ما يسعى إليه العرب سوف يتم تحقيقه.

ورغم أن المجلة قد لفتت الأنظار في أوربا في ذلك الوقت، إلا أنها فيمـــا يختص بالحركة القومية العربية كان تأثيرها لا يكاد يذكر[4].

---

١) يقظة الأمة العربية-نجيب عازوري- تعريب أحمد بو ملحم-المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت.

٢) انظر الترجمة رقم (٦٦).

٣) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٥٩.

٤) حركة اليقظة العربية-محمود منسي- ١٠٣.

مبادئ وتنظيم الجمعية:

إن كتاب (يقظة الأمة العربية) لنجيب عازوري قد احتوى مبادئ الجمعيـــة، ومن خلال دراسة الكتاب المذكور لبيان مبادئ الجمعية نستنتج ما يلي:

١) القدح بالسلطان عبدالحميد: لقد شغل كتاب يقظة الأمـــة العربيـــة صفحات كثيرة بقدح السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية، فمما جـــاء في كتابه:(كيف يجرؤ التركي عبدالحميد الادعاء بأنه خليفة، وكيـــف يكـــون خليفة ولا يفهم العربية .. هو قاتل كاذب يسرق رعاياه، ويحكم بـــالإعدام على حجاج مكة، يوفر الحماية للمجرمين)[١]. وبتعبير مختصر عرف الدولـــة العثمانية بأنها (جماعة من قطاع الطرق يقودهم مجرم ، فهي لا تكتفي فقـــط بألا تعمل شيئاً لتحسين وضع الفلاح، ولكنها تعمل بانتظام لتخريب هـــذا البلد التعيس تدريجياً. لا أمن ولا سلام ولا عدالة في تركيا)[٢] .

٢) فصل الدين عن الدولة: لقد نادى بوجوب فصل السلطة المدنية عـــن السلطة الدينية، وإقامة إمبراطورية عربية تمتد من الفرات ودجلة إلى خليـــج السويس، ومن المتوسط حتى بحر عمان[٣].

وقد علل عازوري وجوبَ فصل الدين عن الدولة بقوله:

أ- إن سيادة خليفة الإسلام على كافة مسلمي الأرض المجتمعـــين في دولة واحدة أمر يبدو مستحيلاً دائماً.

---

١) يقظة الأمة العربية -نجيب عازوري-٢٢٠.

٢) المصدر السابق نفسه- ٦١.

٣) المصدر السابق نفسه- ٢١٩.

ب- إن أحد الأسباب الرئيسية لسقوط الإمبراطورية العربية العظيمة هـو تركيز السلطتين المدنية والروحية والجمع بينهما في يد واحدة .

ج- إن خليفة نبي الله يجب أن يتمتع بنفوذ أو هيبة روحية بلا منـازع، ويجب أن يبقى محترماً لا ينتقد طوال حياته ، ولا يُرتقى إلى سلطته، ويجب أن تبقى عظمته مستقلة[١].

٣) دعوة فرنسا لاستعمار البلاد العربية: (لا يملك أحد الحق في حكمنـا غـير فرنسا، ولن يُهتف بحرارة لأي دولة غيرها إذا نزلت في البلدان العربية ، يوم يتقـرر تجزئة الإمبراطورية التركية. ومع أن الدول الأخرى لا يمكنها أن تسـمح بالسـيطرة على شعب غمرته فرنسا بفضلها حين يدعوها كي تنقذه من العبودية)[٢]. (لا يقبـل الألبانيون وهم شعب شديد المراس وغيور على استقلاله، أبداً بأي احتـلال أجنـبي مهما كان .. نحن خلاف ذلك في سوريا مسيحيين ومسـلمين نحـن المسـحوقين، نستقبل بفرح أول دولة تأتي لتنتزعنا من العبودية)[٣].

وتخصيص فرنسا دون غيرها من الدول، لأن فرنسا تمتلك حقوقاً ومصالح أكـثر من غيرها في شطري الإمبراطورية العثمانيـة الأوربي والآسـيوي. لفرنسـا عـدا الإرساليات التي لا تحصى وبيوت التعليم والأيتام والمستشفيات والمـدارس ..رؤوسُ أموالٍ ضخمة تستثمر في مشاريع .

إن حقوقها أكثر وأقدم ومصالحها أهم وأكثر تمركزاً في البلدان العربية عن سـواها في المناطق. إن مقام فرنسا ونشاطاتها في بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين يتحديان كل مزاحمة[٤].

---

١) يقظة الأمة العربية-نجيب عازوري-٢٢٠.

٢) المصدر السابق نفسه- ١٣٤.

٣) المصدر السابق نفسه-١٥٠

٤) المصدر السابق نفسه-١٢١.

٤) الثناء على الأفكار والمبادئ النصرانية: لقد أكثر عازوري من الإطراء على المبادئ الكافرة فمما قال: (تعتبر فرنسا مشعل الحضارة والحرية الأسطعَ إشعاعاً، إلى جانب كونها حامية المقهور، المأوى السخي للفكر والقيم الإنسانية. وعندما يخمد هذا المشعل سيعاني العالم إلى مدى طويل قلقاً عاماً)[١].

ويتميز النظام الإنكليزي باللامبالاة الكلية حيال كل ما يتعلق بالأخلاق والروح، وبالحفاظ على الأديان والطوائف والمؤسسات الغريبة والعجيبة التي يسمح لها بالعمل على قدم المساواة ... هذه مملكة الحرية المطلقة[٢] .

٥) الدعوة إلى توحيد الأديان: لقد شارك نجيب عازوري بمحافل الماسونية، وأسس محفلاً ماسونياً في القاهرة، وأصبح مدير جريدة مصر اليومية فترة من الزمن[٣]، ولهذا فإن مبدأ توحيد الأديان قد تبناه من منطلق عقائدي وليس من منطلق الاتحاد من أجل استقلال البلاد العربية، ومن أقواله في هذه القضية (إن قاطني هذه البلدان – العربية– الشاسعة لا يتميز بعضهم عن البعض الآخر إلا بالأديان والطوائف والمذاهب التي لا تحصى، أرجوك أن تحصي: مسلمون سنيون، مسلمون شيعة، ونصيريون، ودروز، وموارنة...وكاثوليك إنها حقيقة شائنة... التعصب الديني ليس سوى تطور في المصلحة الشخصية .. إن التعصب القومي شعور عفوي وفطري تقريباً كمثل الشعور العائلي الذي يأخذه بعين الاعتبار كل سياسي، والذي يوجب إبعاد كل قضية دينية[٤].

إن الجمعيات القومية العربية، سالفة الذكر كانت قبل إعلان الدستور وإلزام السلطان عبدالحميد بإعلانه، وتسمى هذه الفترة بالمشروطية الأولى. وليست هي الجمعيات الوحيدة التي أنشأها القوميون في المجتمع الإسلامي، لكن ما ذكر يعتبر من أبرز الجمعيات في طرح المواقف القومية واتخاذ الأساليب لها.

---

١) المصدر السابق نفسه– ١١٦.

٢) المصدر نفسه– ١١٧.

٣) الثورة العربية ١٩٠٦–١٩١٦–آجن جنك–١/٣٣. (نقلا من مقدمة كتاب يقظة الأمة العربية–١٩)

٤) يقظة الأمة العربية–نجيب عازوري– ١٦٧.

المبحث الثاني: الجمعيات القومية خلال المشروطية الثانية:

سبق التعريف بالمشروطية الثانية بأنها، هي: المرسوم الذي أصدره السلطان عبدالحميد من تاريخ ١٩٠٨م بإعادة الدستور. وفي خلال هذه المرحلة اسقط السلطان عبدالحميد، وانتقل الحكم إلى جمعية الاتحاد والترقي، حتى كان تمزق الدولة العثمانية وسقوطها كمسمى دولة، وتحولت إلى جمهورية على يد مصطفى كمال أتاتورك ١٩٢٤م.

وتعد هذه الفترة في تاريخ الحركة القومية من أخصب فتراتها في تأسيس الجمعيات القومية، حيث صدر القرار الدستوري بحرية تأسيس جمعيات قومية، وتمكن من قيادة الدولة من تشربت قلوبهم وتأثرت عقولهم بالمبادئ الصليبية والماسونية(١). ومن الجمعيات القومية العربية التي تأسست في هذه الفترة، ما يلي:

١) جمعية الإخاء العربي العثماني:

إن تأسيس جمعية الإخاء العربي وما يليها من الجمعيات القومية العربية في فترة المشروطية الثانية. كانت الدولة العثمانية تمر بحالة تختلف عن الأحوال التي ظهرت فيها الجمعيات سابقة الذكر. فإن تاريخ ١٩٠٨(١٣٢٦هـ) يعتبره القوميون عصر الانفتاح والحرية الفكرية والعقائدية، حيث أعلن الدستور وأطلق سراح جميع المعتقلين السياسيين، ورفعت القيود التي كانت مفروضة على المنفيين والمبعدين. وبعكس ذلك: اعتقل صناديد عهد الاستبداد، وبدأ البحث عن مصادر الثروة التي اكتنزوها، وضروب المظالم التي ارتكبوها(٢) فكان هذا التاريخ بداية عهد تهميش الخليفة وإسقاط السلطان عبدالحميد من الحكم وانتقال زمام أمور الدولة إلى جمعية الاتحاد والترقي، والتقرب من العالم الغربي .

---

١) انظر:الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري-رسالة دكتوراه- سهيل صابان- ص ٨.

٢) البلاد العربية والدولة العثمانية - ساطع الحصري - ٩٥-جامعة الدول العربية - ١٩٥٧.

لقد أجمع[1] الذين دونوا تاريخ القضية العربية على أن جمعية الإخاء العربي هي أول جمعية عربية تأسست بعد إعلان الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨ وأنشأت نادياً لها .

وقد افتتحت الجمعية رسمياً وسط مظاهر الحماسة في اجتماع كبير عقدته الجالية العربية في القسطنطينية ، وحضره أعضاء من جمعية الاتحاد والترقي[2]، بل إن من أبرز المنشئين لجمعية الإخاء العربي هم من كبار موظفي العرب في العهد الحميدي، خافوا على مناصبهم في الدور الجديد فاستعانوا ببعض الشبان المتحمسين وأسسوا هذه الجمعية للدفاع عن مناصبهم[3] .

ومنهم: شفيق المؤيد العظم[4]، وصادق المؤيد العظم[5]، وشكري الأيوبي[6](من دمشق) وشكري الحسيني (من القدس)[7] وتأسست لجمعية الإخاء العربي فروعٌ خارج استنبول في سورية والعراق، وأخذت الإعانات تتوارد للجمعية من أنحاء شتى، فعلى ما ذكره شكري الحسيني أن أحد نصارى العرب والمقيم في أمريكا بعث مكتوباً ذكر فيه أنه سيرسل ألف دولار لتصرف في سبيل تشكيلات الجمعية[8].

---

١) الثورة العربية الكبرى – أمين سعيد–١/٧–مطابع عيسى البابي الحلبي– مصر.

٢) يقظة العرب– جورج انطونيوس – ١٧٧.

٣) الثورة العربية الكبرى – أمين سعيد–١/٧ .

٤) انظر الترجمة رقم (٣٦).

٥) انظر الترجمة رقم (٣٩).

٦) انظر الترجمة رقم (٣٧).

٧) نشأة الحركة العربية الحديثة – محمد عزة دروزة–٣٥٠.

٨) إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه– جمال باشا–٩–طنين–١٣٣٤

مبادئ وتنظيم الجمعية:-

أصدرت جمعية الإخاء العربي، مجلة باسمها وتولى أحد مؤسسيها إصدارها، فكانت إحدى الوسائل التي بينت فيها الجمعية مبادئها وقوانينها ، والتي يمكن إيراد بعضها بما يلي:-

١) نصت المادة الأولى : جمعية الإخاء العربي العثماني نشأت في دار الخلافة مؤلفة من أبناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم ونحلهم .

٢) يحق لكل فرد من أبناء العرب -والعربي كل من ينتسب إلى العرب مولدا وموطنا- أن يكون عضوا في جمعية الإخاء العربي العثماني. بشرط أن يكون متصفا بحسن الخلق والشهرة ، غير محكوم عليه بجرم جنائي أو إفلاس احتيالي ولا ساقط من الحقوق المدنية .

٣) مقصد جمعية الإخاء العربي العثماني هو: معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسي (الدستور) وجمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب . وتمكين الرابطة الجامعة بينهم، وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية وإصلاح الشؤون المختلة.

٤) السعي لإعلاء شأن الأمة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها كتأسيس مدارس وطبع جرائد ..

٥) إقناع أهل البداوة للإقلاع عن عاداتهم المستهجنة وعداواتهم المستعرة بينهم، وإسكانهم في محلات ثابتة، وتعويدهم على مزاولة العوائد والحرف الحضرية، وتنوير عقولهم بالعلم .

٦) صيانة حقوق أبناء العرب جميعا من الغدر والاعتساف وتبليغ شكاياتهم، ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية .

٧) السعي في تأييد العدل والحرية والمساواة بين عناصر الأمة العثمانية وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم.[١]

ومن منطلق إبراز الدور القومي العربي فقد التزمت الجمعية مهمة استقبال نواب العرب حين قدموا من البلاد العربية إلى الأستانة للمرة الأولى ، فأعدت لهم الحفلات واستقبلهم أعضاؤها والطلاب العرب واحتَفَوْا بهم[٢].

ومما يلاحظ على مبادئ الجمعية أنها تعلن مبدأ وفاق العرب والترك جميعاً، وبخاصة أنها تأسست في بداية حكم جمعية الاتحاد والترقي[٣] .

ويرى بعض القوميين أن الجمعية لم تقم بنشاط مؤثر في مجال المنهج الذي رسمته، عدا بعض حفلاتٍ لاستقبال نواب العرب فإنها سجلت من دون ريب حقيقة بدء بروز الفكرة القومية بمعالمها الواضحة في هذا الدور، وتحفز العرب للانتفاع بالأفق الذي فتحه إعلان الدستور أمامهم، والنهوض بكيانهم القومي[٤].

إن أبرز ما يجب أن يشار إليه[٥] في مقاصد وأهداف جمعية الإخاء العربي، النقاط التالية:

١) (معاونة جمعية الاتحاد والترقي) لقد وضعت جمعية الإخاء العربي يَدَها في يد جمعية الاتحاد والترقي[٦] ، والتي كان أكثر أعضائها ما سونيين، بل إن أبرز مؤسسي

---

١) الثورة العربية الكبرى – أمين سعيد – ٧. وانظر:

* نشأة الحركة العربية الحديثة – محمد دروزة – ٣٥١.

٢) المصدر السابق نفسه– ٨. وانظر:

* القومية العربية–مصطفى الشهابي–٦٨.

٣) انظر: الحكومة العربية في دمشق – خيرية قاسمية – ١٨.

٤) حول الحركة العربية الحديثة – محمد دروزة–١/٢٦.

٥) في الباب الثاني –إن شاء الله– سيكون الحديث عن موقف الجمعيات القومية من العقيدة الإسلامية .

٦) سيأتي الحديث إن شاء الله عن جمعية الاتحاد والترقي في الفصول القادمة.

جمعية الاتحاد والترقي من أعضاء محفل (ما كدونيا ريزوورتا) الشهير في (سلانيك) وكان تابعاً لإيطاليا، أمثال: طلعت باشا، وكاظم باشا، وما نياسي زاده رفيق[١] .

٢) إعانة جمعية الإخاء العربي لجمعية الاتحاد والترقي كانت محصورة في (المحافظة على أحكام القانون الأساسي -الدستور-) و لم تنفرد جمعية الإخاء العربي بالمحافظة على أحكام الدستور ، وإنما جميع الجمعيات القومية كانت تطالب بالعمل بالدستور.

إن الدستور المطالب به إنما هو من صنع مدحت باشا ، الذي أكثر القوميون الثناء عليه والتمجيد له، والذي روجت له الدعاية الماسونية في أنحاء الشرق العربي والغربي على أنه البطل العظيم حامل لواء الإصلاح والحرية في السلطنة العثمانية، وسمته (أبو الدستور)[٢] وفي الباب الثاني إن شاء الله تفصيل لهذه القضية.

٣) ومما تجب الإشارة إليه عن مبادئ جمعية الإخاء العربي في مسألة الأصل الذي يعتصم به بين الناس جميعاً، هو (جمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب) إن جمع الكلمة أمر قد حثت عليه الشريعة ونهت عن الفرقة، وإنما المبدأ الذي دعت إليه جمعية الإخاء العربي وغيرها من الجمعيات (بدون تفريق في الجنس والمذهب)، هو الشعار ذاته الذي نادت به الجمعيات القومية العربية.

٤) إظهار المبدأ القومي، والدفاع عن حقوق الأمة العربية. كانت جمعية الإخاء العربي من أوائل الجمعيات التي نادت بهذا المبدأ بقرارها (صيانة حقوق أبناء العرب جميعاً).

---

١) الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري - سهيل صابان- رسالة دكتوراه لم تطبع - جامعة الإمام محمد بن سعود. وانظر:- الماسونية عقيدة المولد وعار النهاية - محمود الشاذلي- ٢٣٦-مكتبة وهبه - مصر- الطبعة الأولى - ١٤٠٦هـ.

٢) اليهودية والماسونية - عبدالرحمن الدوسري- ٧٠-دار السنة - الخبر- ١٤١٤هـ- الطبعة الأولى.

ويرى القوميون أن هذه الجمعية لم تستطع أن تحقق شيئاً من ذلك، حيث فَقْد التجانس واختلاف التفكير وتفاوت العقيدة الوطنية فيهم، فهي لم تكد تولد ١٩٠٨م حتى أغلقت الحكومة أبوابها سنة ١٩٠٩م[١]. وألغوا جريدتها (الإخاء العثماني) ، بدعوى وقوع بعض ما لا يناسب في سورية، وظهور الأفكار الرجعية في تشكيلاتها وأعضائها[٢].

٢) جمعية المنتدى الأدبي:

لم تعش جمعية الإخاء العربي طويلاً، فنشأ على أنقاضها جمعية المنتدى الأدبي وهي من الجمعيات العلنية ، وكان تاريخ نشأة المنتدى في سنة ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ)[٣] ومؤسسوه خليطٌ من الشيعة كعبدالكريم قاسم خليل، الذي تولى رئاسة المنتدى فترة طويلة حتى أغلق سنة (١٩١٥م-١٣٣٤هـ)[٤] والمنتسبين إلى أهل السنة، ونصارى العرب منهم (رفيق سلوم[٥] وأسعد داغر[٦])[٧].

وهذا الخلط العقائدي يعده بعض القوميين من مفاخر المنتدى الأدبي، فقد كان طابع العروبة هو الطابع المميز له، فاجتمع في رحابه المسلم السني والشيعي والدرزي والمسيحي على اختلاف الطوائف إخواناً متحابين هدفهم مجد العروبة وبعثها[٨] .

١) القومية العربية – مصطفى الشهابي – ٦٨. وانظر:

١. حول نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ٣٥٢.

٢. العرب والترك - توفيق برو-١٠٧.

٢) إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرت تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه-جمال باشا-١٠

٣) الثورة العربية الكبرى - أمين سعيد-١/٨.

٤) الحركة العربية - سليمان موسى-١٠٢.

٥) انظر الترجمة رقم (٢٨).

٦) انظر الترجمة رقم (٤).

٧) ذكرياتي على هامش القضية العربية -أسعد داغر- ٣٥.

٨) نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزه-٣٥٥.

وبظهور هذا المنتدى يلاحظ اختلاف طرح الجمعيات القومية لمبادئها، فكان المنتدى يمثل أحد الأساليب الجديدة والمناسبة للحال والواقع الذي أنشئ فيه لإحياء وبعث القومية العربية، واستقطاب أبناء العرب ممن يظهر عليهم النبوغ.

ويقول مصطفى الشهابي -أحد أعضاء المنتدى الأدبي-: كان مباءة العروبة في عاصمة الدولة، ففيه كان الطلاب الجدد يتلقون خطط الأتراك الاتحاديين الرامية إلى تسيّد القومية التركية والقضاء على القوميات السائرة في الدولة[١] .

مبادئ وتنظيم الجمعية:-

من خلال تتبع آراء أعضاء الجمعيات القومية العربية، نجدها تتفق على أن حركة المنتدى الأدبي قد نجحت إلى حدٍ كبير، وقد ظل المنتدى مزدهراً نشيطاً في سبيل الفكرة والحركة العربية وأهدافها إلى سنة ١٩١٥م.

فيرى أكثر أعضاء الجمعيات أن المنتدى كان من أهم مظاهر نشاط الحركة العربية الحديثة بعد الدستور ومغذياتها. ومن أهم عوامل ازدياد ذلك النشاط، واتساع دائرة الفكرة والتكتل حولها[٢]. فكان في المنتدى الأدبي أبرز الشخصيات التي قامت على جماجمهم النهضة العربية[٣].

والمنهج الذي سار عليه المنتدى الأدبي هو إعلان الولاء والوفاق العربي التركي وقد سمح به الاتحاديون -حيث قد صدر قانون يحظر قيام الجمعيات والأحزاب ذات الأهداف القومية السياسية-[٤]. فوضعوه زمناً تحت رعايتهم، لأن أهدافه

١) القومية العربية - مصطفى الشهابي- ٧١.

٢) نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزه-٣٥٥.

٣) مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٣٥.

٤) الحركة العربية الكبرى- سليمان موسى-٣٢.

لم تكن سياسية علنياً[1] فكانت تقام فيه حفلات يدعى إليها رجال مشهورون من الترك رسميون وغير رسميين، ويخطب فيها بصدد ذلك، بل كان يعقد في المنتدى ندوات يشهدها شباب من الترك مع شباب من العرب فتجري فيها الأحاديث والمناظرات حول الأمجاد القومية التركية والعربية، وينبه على عدم التعارض بين اهتمام كل فريق بمجد قوميته ونمو عواطفه القومية تحت لواء (العثمانية)[2].

وكانت أهداف المنتدى القومية تبرز على الملأ فيما كان يلقى فيه من محاضرات وخطب، وما كان يقام فيه من حفلات، وما كان ينشر في مجلته من بحوث ومقالات وقصائد وأناشيد وطنية[3] .

لقد كانت السمة الظاهرة في نشاط المنتدى الأدبي، هي المناشط الأدبية والتعليمية فقد كان أعضاء المنتدى يمثلون بعض الروايات العربية التاريخية، كرواية صلاح الدين الأيوبي في مسرح دار الفرح ورصدوا ريعها له فدرت عليهم أرباحاً زائدة[4] .

وقد قدّم رئيس المنتدى الأدبي للنواب العرب خطة تتعلق بإصلاح المدارس الابتدائية في دوائرهم، وأبرز فيها الجانب القومي، واقترح عليهم برنامجاً يرمي إلى إنهاض البلاد العربية على دعامتين:

١- توثيق عرى الإخاء بين العرب على اختلاف أديانهم وطوائفهم حتى لا يذكر الواحد منهم في السياسة والوطنية غير عروبته الشريفة.

---

١) يقظة العرب -جورج انطونيوس-١٨٤.

٢) نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزه-٣٥٥.

٣) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٧١.

٤) الثورة العربية الكبرى-أمين سعيد-١/٨.

٢- توحيد طرق التعليم في البلاد العربية حتى تتربى النفوس تربية واحدة ليسير جميع العرب في طريق واحدة وإلى غرض واحد.

فاستصوب النواب البرنامج وتعهدوا بتنفيذه بالتآزر مع المنتدى الأدبي، الذي تعهد بتضحيات مادية وأدبية، وبتطوع أعضاء المنتدى الأدبي المثقفين للتدريس في المدارس، علاوة على وظائفهم أو أعمالهم العادية [١].

لم يكن للمنتدى الأدبي صحيفة تخدم أغراضه في الفترة الأولى من تأسيسه، إنما كان الأعضاء يكتبون في الجرائد العربية التي كانت تصدر في الآستانة، كجريدة الحضارة والجرائد التي تصدر في سورية والقاهرة، وأراد مع ذلك أن ينشئ مجلة خاصة به، غير أنه قد صدرت مجلة باسم(لسان العرب) فأراد رئيس المنتدى أن تكون هذه المجلة ناطقة باسم المنتدى، وأن يكون اسمها (المنتدى الأدبي) وأشرف عليها أحمد عزت الأعظمي[٢]. وكانت مجال أقلام ونفثات شباب العرب وشعرائهم وأدبائهم وعلمائهم في كل ماله صلة بالعروبة وتاريخها وحقوقها ولغتها وأمانيها، وبالتالي مظهراً من مظاهر الفكرة ودعامة من دعائم حركتها[٣].

لقد كان المنتدى الأدبي حينئذ مرتعاً للأفكار القومية، وبث الولاء للقومية، ومما جاء في أحد المناظرات الثقافية في المنتدى: إننا عرب قبل كل شيء، المسلم عربي، والمسيحي عربي ...و..و.. أجل إننا عرب قبل أن نكون مسلمين، والمسيحي عربي قبل أن يكون مسيحياً ...و...و... وقد تركنا مسألة الديانات والعبادات إلى الجوامع والكنائس[٤].

---

١) العرب والترك-توفيق برو-٢٦٦.

٢) انظر الترجمة رقم (١).

٣) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزه-٣٥٦وانظر: العرب والترك-توفيق برو-٢٦٣.

٤) جريدة الأهرام - عدد١٠٦٨٢، بتاريخ ١٩١٣/٤/٢٢.انظر كتاب:العرب والترك-توفيق برو-٢٦٥.

ويحدث أسعد داغر-أحد الأعضاء المشاركين في المنتدى- عن أحد اجتماعات المنتدى الأدبي، والتي نوقش فيه قضية وجوب السعي إلى إنقاذ العرب: بالاستناد إلى فكرة الجامعة الإسلامية، أو أن القومية هي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه الدول منذ الآن وأن الجهود كلها يجب أن توجه إلى خدمة الفكرة العربية مجردة من كل شيء؟

فكان الرأي الذي اتخذه المنتدى وصرح به العضو، حيث قال: يمكنني إعلانه الآن على رؤوس الأشهاد أنه لم يكن بين أصدقائي الذين قامت النهضة العربية على أكتافهم أو على جماجمهم، سواء في سورية أم العراق أم فلسطين أم لبنان أم غيرها، من يفكر في اتخاذ الفكرة الإسلامية أساسا للوحدة والاستقلال. بل إنهم جميعاً كانوا يعملون على تعزيز الروح القومية البحتة وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح[1].

ولأسباب كثيرة من أبرزها التصادم بين العرب والترك[2] انحرف المسار الفكري والمنهجي للمنتدى الأدبي ، فتحول إلى مركز سياسي فأصبح يبث الدعوة إلى الانفصال عن الترك وإعلان الاستقلال العربي، ويلقى فيه خطابات موضوعها تلقين التاريخ للطلبة بشكل يبعث على فكرة الاستقلال.

وقد صرح بعض مؤسسيه بأن للمنتدى تعليمات خفية لا يعلمها سوى أعضائه المؤسسين الذين كانوا يسعون وراء تلك التعليمات، منها: إن الأتراك يحكموننا مع أنهم أقل نفراً. والغاية من تأسيسه: أن يجمع كل الطلاب العرب ويبث فيهم فكرة القومية ونهضة العرب بأية واسطة كانت، ولو بمساعدة الدول الأجنبية التي تؤدي إلى احتلال أو حماية. وكان هؤلاء كلما انتهى فريق منهم بدروسه حمل هذه الأفكار وبثها حيث يتعين من البلاد العربية[3].

---

١) مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٤٦.

٢) الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسميه-١٨.

٣) الإيضاحات عن المسائل السياسية-جمال باشا- ١٢ (بتصرف)

وقد أطلعت جمعية الاتحاد والترقي على النشاط السري للمنتدى الأدبي، كوجود النشرات التي تحرض العرب على الاستقلال وقتل الاتراك، وهي ترد للمنتدى ضمن الجرائد التي ترسل إلى مدير مجلة المنتدى ومحررها. وقد وجدَ في المنتدى رسائل[1] تثبت أن له نشاط مع شباب في الخارج يعتمد عليهم فيما يُبث له من الأفكار .

وبعد هذه المعلومات عن المنتدى أصدرت جمعية الاتحاد والترقي قرارها في المنتدى الأدبي، وهو: أن المنتدى قد سمم أفكار الشبان الأبرياء الذين كانوا أثناء دوامهم على المكاتب في الآستانة يسعون لتأمين مستقبلهم وهم بسكينة تامة. حتى جعل بعضهم خادمين لآمال رجال اللامركزية تمام الخدمة. فكان السبب في إعدامهم نتيجة المحاكمة الأخيرة[2] .

صدر القرار ضد المنتدى الذي أعلن في بداية تأسيسه –وغيره من الجمعيات القومية– على مساندة جمعية الاتحاد والترقي لتحرير البلاد من الخلافة الإسلامية، وتحرير المجتمع من سلطة الدين والشرع . وقد انتشر أعضاؤه المتابعون في البلاد العربية يبثون رسالته فيها[3] .

كأسعد داغر، والذي عمل في جامعة الدول العربية مديرا للمكتب الصحفي وقد سعى من خلال منصبه الإعلامي إلى دعوة أعضاء الجمعيات القومية العربية للعمل في الجامعة وأن يمدوا الجامعة بآرائهم وأفكارهم، فقد كتب إلى نبيه العظمة[4] عام ١٩٤٦م (١٣٦٦هـ) ومما قال له: (إذا كنتم تعتقدون أن جامعة الدول العربية هي الأمل الوحيد لنا ، –وأنا أعتقد ذلك–فأرجو أن تقوموا بالواجب نحوها)[5] .

---

١) انظر صور الرسائل في : الإيضاحات عن المسائل السياسية–جمال باشا.

٢) الإيضاحات عن المسائل السياسية –جمال باشا –١٦(بتصرف)

٣) القومية العربية–مصطفى الشهابي–٧١.

٤) انظر الترجمة رقم (٦٨).

٥) الرعيل العربي الأول (حياة وأوراق نبيه العظمة)–جمع خيرية قاسميه–١٣٤.

٣) الجمعية القحطانية:

يغلب على جميع الجمعيات القومية أن الداعي إلى تأسيسها أهداف علمية أو أدبيه أو اجتماعية .. الخ، ولكن ظهر لدى القوميين فكرة تخصيص الجانب العسكري من قادة أركان حرب وضباط بنشاط قومي ذا صبغة سرية، فكانت جمعيتا (القحطانية) و(العهد) تقومان بهذا الدور، وقد أنشئت الجمعية القحطانية السرية سنة ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ) في استنبول، وانتظم كثير من ضباط العرب في سلكها، كما ضمت أيضاً بعض المدنيين[١].

وتشمل قيمتها في هذا التاريخ الذي عند جميع القوميات عموماً والقومية العربية خصوصاً عصر التحرر من الحكم المستبد، وتطبيق الحكم الدستوري الحر، وتظهر قيمتها في تاريخ الحركة العربية أنها حاولت أول محاولة معروفة لضم الضباط العرب في الجيش التركي ليزداد التعاون في ميدان الحركة القومية[٢]، وكان من مؤسسي الجمعية القحطانية، خليل باشا حماده وزير الأوقاف، وعبدالحميد الزهراوي[٣]، وعزيز علي المصري بكباشي[٤] أركان حرب، وسليم الجزائري بكباشي[٥] أركان حرب، وانضم إليها عزة الجندي[٦]، وعبدالكريم الخليل، وعادل أرسلان[٧] .

١) خبراتي في الحكم-حسن الحكيم-٤٢. وانظر: الثورة العربية الكبرى-أمين السعيد-١/١٠.

٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٨٦.

٣) انظر الترجمة رقم (٤١).

٤) انظر الترجمة رقم (٤٨).

٥) انظر الترجمة رقم (٣١).

٦) انظر الترجمة رقم (٤٧).

٧) انظر: ١-خبراتي في الحكم-حسن الحكيم-٤٢.

٢-الثورة العربية الكبرى-أمين سعيد-١/١٠.

٣-الإيضاحات-جمال باشا-١٧.

وقد كان سبب كثرة المنتسبين إلى الجمعية القحطانية أن نظام الانتساب مفتوح لكل أحد دون استئذان من المركز، مع الإبقاء على سرية نظامها وبرامجها[١] التي لا يطلع عليها كل أحد إلا بشرط من كانت وطنيته فوق مستوى الشبهات وكان ممن يوثق بكتمانه السر[٢].

وكان من سرية الجمعية القحطانية أنها مارست نشاطها السياسي بصورة شفهية، ولذا لم أجد -خلال بحثي- وثائق مكتوبة عنها كما في أغلب الجمعيات القومية. ومن أمثلة مبدأ السرية بين أعضائها هي: أن يضغط المُسلِم على أحد أصابع يد المسلم ثم يضع الشاهدة والوسطى على الذراع الأيسر ويخفي بقية الأصابع، ويهجي كلمة هلال عند المحادثة، فإذا قال الأول (هـاء) قال الثاني (لام) ثم يقول الأول (ألف) فيقول الثاني (لام)[٣].

مبادئ وتنظيم الجمعية:-

انطلاقاً من التكوين الحزبي للجمعية ولكونها بفئة الجيش خاصة، واتخاذها مبدأً وتنظيماً يتناسب مع طبيعة تكوين الأعضاء، وأنها ظهرت في عصر تغلبت فيه جمعية الاتحاد والترقي على السلطان عبدالحميد، وانطلاقاً من تصريح بعض أعضاء الجمعيات عن غاية الجمعية القحطانية، يمكن تلخيص مبادئها بما يلي:

١) بث المبادئ الصحيحة بين أبناء الأمة، وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف.

٢) أن تؤلف الولايات العربية مملكة واحدة تصبح جزءاً من إمبراطورية مزدوجة تركية عربية[٤].

---

١) الإيضاحات-جمال باشا-١٧.

٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس- ١٨٦.

٣) الثورة العربية-أمين السعيد-١/١٠.

٤) خبراتي في الحكم-حسن الحكيم-٤٢.

٣) إيقاظ العرب من سباتهم وتذكيرهم بماضيهم وبكيانهم القومي الحاضر.

٤) العمل على رفع مستوى العرب الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.

٥) حثهم على التضامن والمطالبة بما لهم من حقوق مضاعة في الدولة[١].

ويظهر من هذه المبادئ أثر التكوين الحزبي للجمعية القحطانية، إذ يغلب على مبادئها الطابع السياسي من حيث المطالبة بالحقوق المضاعة، وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف، وتأليف ولايات عربية. وهذه المبادئ قد وثقت برباط القومية العربية وتأصيلها بالمعتقد القومي، مع الحرص على تأكيد هذا الجانب والاهتمام به ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً.

وقد ظلت الجمعية القحطانية تنادي بهذه المبادئ وتعمل على تحقيقها في المجتمع المسلم حتى قرب قيام الحرب العالمية الأولى وبالتحديد عام ١٩١٣م (١٣٣٢هـ)، عندها انضم أعضاؤها إما إلى جمعية (العهد) أو(الفتاة) وإما إلى كلتيهما، فانصرف معظم نشاطهم إلى تينك الجمعيتين[٢].

١) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٦٩.

٢) المصدر نفسه-٦٩.

٤) الجمعية اللامركزية:-

أُنشِئت الجمعية اللامركزية في تاريخ [١]١٩١٢(١٣٣٠هـ) ، مع التأكيد على أن فكرة الحكم المركزي واللامركزي من أهم القضايا التي شغلت الجمعيات القومية. ولقد ناصر القوميون مهاجرة الأتراك في مؤتمر باريس ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ) الذي ناقش موضوع الحكم المركزي واللامركزي، وفي هذا المؤتمر ظهر تياران متناقضان، أحدهما: ينادي بالحكم المركزي وهم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، والآخر ينادي بالحكم اللامركزي.

وبعد إسقاط السلطان عبدالحميد رفع شعار الحكم اللامركزي، وأن الدستور والحكم المركزي لا يجتمعان، إلا أن جمعية الاتحاد والترقي -والتي بيدها الحكم- أخذت تطبّق برنامجها المركزي وتقضي على من ينادي بضد الحكم المركزي[٢].

ولسوء إدارة الحكم الاتحادي وظهور الضعف على الدولة في مقاومة الغزو الإيطالي. وبعد حرب البلقان[٣] التي كانت قد انتهت في ذلك الحين إلى ضياع ست ولايات أوروبية، وانسحاب الـ(٥٥) نائباً الذي كانوا يمثلون تلك الولايات في مجلس (المبعوثان)•، وجد العرب أن الدولة أصبحت مقتصرة على الولايات العربية والولايات التركية مع وجود أقليات من الكرد والأرمن [٤].

---

١) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٩٢.

٢) مجلة دراسات تاريخية - لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق-العدد١١-سنة ١٤٠٣-مفهوم اللامركزية-سهيلة الريماوي.

٣) انظر تاريخ حرب البلقان-يوسف البستاني.

• مجلس المبعوثان: هو مجلس النواب العثماني وهو المعروف باسم (مجلس مبعوثان عثماني) الذي نص على تأسيسه الدستور العثماني.[ينظر إلى مذكرات سليم علي سلام-١٣٠]

٤) الحركة العربية-سليمان موسى-٣٥.

وبناء على هذه الحال أسست جماعة من السوريين -كان بينهم لبنانيون وفلسطينيون هاجروا إلى القاهرة- حزباً سياسياً بمعرفة الحكومة التركية، أطلقوا عليه اسم (حزب اللامركزية الإدارية العثماني)[1].

وتولى رئاسة الحزب والهيكل الإداري له من الشاميين المقيمين في مصر، ومع هذا لم يكن عملهم مقتصراً على الشام، فقد أسسوا أيضاً فروعاً للحزب في العراق، ولكنهم لم يتجاوزا الولايات العربية إلى غير العربية[2].

وقد فوضت الجمعية عبدالكريم خليل -رئيس جمعية المنتدى الأدبي- أن يؤسس فرعاً للحزب يقوم برنامجه على اللامركزية في صيدا وصور وبعض مناطق جبل عامل[3].

مفهوم الحكم اللامركزي :

قدمت الجمعية اللامركزية تعريفاً لمفهوم الحكم اللامركزي، هو: توزيع السلطة الإدارية على المراكز المختلفة المؤلف منها الجسم السياسي الاجتماعي، عوضاً عن حصرها في جزء واحد مركزي، ليتيسر لكل جزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة بنفسه عن علم، مع حفظ الصلة بالمركز حرصاً على مصلحة الكل[4].

---

١) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٩٤.

٢) القومية العربية- مصطفى الشهابي-٨١.

٣) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي-وجيه كوثراني-٢٤٤-بحسون الثقافية-١٩٨٦.

٤) جريدة المحروسة، مقالة بقلم شبلي شميل بتاريخ٢٥/٣/١٩١٣بعنوان اللامركزية والعمران. (نقلا من مجلة دراسات تاريخية العدد ١١ لعام ١٤٠٣ ، مقال سهيلة الريماوي

مبادئ وتنظيم الجمعية:-

من خلال دوافع إنشاء جمعية حزب اللامركزي، نجد أن أهدافها ذات شقين، الأول: أن تُبيِّنَ للحكام في تركية مدى الحاجة إلى اللامركزية الإدارية في الدولة، والثاني: أن تعبئ الرأي العام العربي لتأييد اللامركزية(١).

ولذا حرص أعضاء الجمعية اللامركزية -قبل أن تكون الجمعية علنية- استغلال تصريح الدولة العثمانية لجمعية الحرية والائتلاف، فانضموا تحت مظلتها لفتح فروع للجمعية اللامركزية(٢) .

وبعد أن صرحت الحكومة الاتحادية للجمعية، قدمت الجمعية اللامركزية برنامجاً لا يخرج عن تحقيق هذا الهدف. وكانت مواد النظام الأساسي للجمعية تكفل قيام جهاز حزبي محكم. وقد وكل أمر الإشراف عليها لجنة من عشرين عضواً يقيمون في مصر تتألف من بينهم هيئة إدارية مكونة من ستة أعضاء(٣) . ومواد البرنامج (٤)ما يلي:-

المادة الأولى:- أُلِّف حزب سياسي باسم(حزب اللامركزية الإدارية العثماني).

المادة الثانية:- القصد من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الإدارة اللامركزية في السلطنة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وأديان وعادات مختلفة والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تُؤسس على قواعد اللامركزية الإدارية في جميع ولايات الدولة العثمانية.

---

١) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٨٥.

٢) نشأة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٧١ (حاشية).

٣) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٨٥.

٤) من المفيد عرض برنامج الحزب كاملاً ليعطي صورة عن التنظيم الداخلي والمنهج للعلاقات الخارجية .

المادة الثالثة:- ليس هذا الحزب خفيا وليس فيه ما يعد من الأسرار، فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهرا وعلانية دون خشية من أحد، لاعتقاده يقينا أن الدولة لا تبقى في العالم السياسي إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية .

المادة الرابعة:- إن الدخول في حزب اللامركزية مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر، على شرط:-

أن يكون أولا:- من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية.

ثانيا:- غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف.

ثالثا:- غير مشتهر بسوء السيرة.

رابعا:- أن يقبل القواعد المبينة في برنامج الحزب .

المادة الخامسة:- يكفي لمن يريد الدخول في الحزب أن يكون دليله أحد أعضاء الحزب مع موافقة لجنة الإدارة المحلية على ذلك. ولا يجوز قبول عضو مادام من حزب يخالف هذا الحزب في المبدأ والغاية.

المادة السادسة:- للمنتمي إلى الحزب أن يستقيل من عضويته في أي وقت.

المادة السابعة:- على العضو أن يدفع إلى الفرع المسجل فيه اسمه راتبا شهريا أقله قرشان، ويقبل الحزب التبرعات ويعفي الفقراء من الراتب.

المادة الثامنة:- لا يقيد الحزب أعضاءه بشيء غير قواعد البرنامج السياسي الذي وضعه لأجله .

المادة التاسعة:- على النواب (المبعوثين) المنتمين إلى الحزب أن يسعوا بكل ما في وسعهم لتنفيذ قواعد الحزب في المجلس .

المادة العاشرة:- لا يسوغ لأحد من المنتمين إلى الحزب مراجعة الحكومة باسم الحزب من تلقاء أنفسهم، وإذا ثبت على أحد الأعضاء مثل هذا السلوك يمحى اسمه من سجل الحزب.

المادة الحادية عشرة:- إن مركز الحزب العام في مصر القاهرة ، ويجوز لكل بلد أو قرية اجتمع فيها عشرة من أهلها على مبدأ اللامركزية الإدارية أن يؤسسوا فرعا له ويخبروا المركز العام بذلك.

المادة الثانية عشرة:- تتألف اللجنة العليا للحزب من ٢٠ عضوا ينتخب منهم رئيس ونائب رئيس وسكرتير ومساعدان له، وأمين للصندوق. ويجوز لهذه اللجنة أن تضم إليها من ترى فيه فائدة للحزب.

المادة الثالثة عشرة:- إذا غاب الرئيس ونائبه يرأس الجلسة أحد أعضائها .

المادة الرابعة عشرة:- كل فرع من فروع الحزب يتبع المادتين ١٢و١٣ في تأليف لجنته الإدارية وانتخاب الرئيس والسكرتير وأمين الصندوق .

المادة الخامسة عشرة:- يعقد كل فرع مؤتمرا فرعيا محليا في شهر يونيو(حزيران) من كل سنة، يحضره جميع أعضاء الفرع، وتعقد اللجنة العليا مؤتمرا حزبيا عاما في مصر القاهرة في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من كل سنة يحضره أعضاء اللجنة العليا وأفراد الحزب في المركز العام ومندوبون ترسلهم اللجان الفرعية .

المادة السادسة عشرة:- يرسل كل فرع للمؤتمر العام مندوبا من قبله.

المادة السابعة عشرة:- تنتخب كل لجنة إدارية رئيسها وسكرتيرها وأمين صندوقها من أعضائها بالاقتراع السري، وترفع إلى المركز العام في القاهرة نتيجة الاقتراع .

المادة الثامنة عشرة:- على اللجان الإدارية الفرعية أن تسعى بكل الوسائل المشروعة لنشر مبادئ الحزب وتعميمها بين الناس وتكثير أفراد المحازبين، والاجتهاد في سبيل انتخاب نواب لمجلس المبعوثين وللمجالس العمومية والإدارية والبلدية من الأكفاء الذين على مبدأ الحزب.

المادة التاسعة عشرة:- اللجنة العليا تضع تعديل القوانين واللوائح للحكومة اللامركزية وتسعى مع سائر اللجان والأفراد إلى إقناع الشعب والحكومة بها.

المادة العشرون:- على اللجان الإدارية الفرعية أن تتخذ دفاتر لقيد قراراتها وأسماء الأعضاء وموظفي فروع الحزب وأمواله.

المادة الحادية والعشرون:- تجتمع اللجان كلما قضت الحال بدعوة من الرئيس أو نائبه، والعضو الذي لا يحضر الاجتماع أربع مرات متواليات من غير عذر يعد مستقيلا من عضوية اللجنة .

المادة الثانية والعشرون:- على السكرتير وأمين الصندوق في كل لجنة أن يقدما إلى تلك اللجنة في آخر كل سنة كشفا ببيان إيرادات الفرع ونفقاته عن تلك السنة، وعلى كل لجنة أن ترسل صورة من هذا الكشف إلى اللجنة العليا.

المادة الثالثة والعشرون:- لا تعد مذكرات اللجان قانونية إلا إذا اجتمع نصف أعضائها على الأقل، وإذا كررت الدعوة اكتفي بمن حضر.

المادة الرابعة والعشرون:- للجنة كل فرع الحرية التامة في أعمالها إلا ما قيدها به قرارات اللجنة العليا أو المؤتمر العام.

المادة الخامسة والعشرون:- على لجان الفروع أن ترسل إلى اللجنة العليا كل ثلاثة شهور كشفا يحوي أسماء الذين دخلوا في خلال هذه المدة في الحزب،

وأسماء الخارجين منه وسبب خروجهم والمتنقلين من مكان إلى مكان، وكشفاً آخر يحوي بيان أعمالها في المدة المذكورة.

المادة السادسة والعشرون:- على اللجنة العليا أن تراقب سير أعمال لجان الفروع وحسن تنفيذ قوانين الحزب .

المادة السابعة والعشرون:- على اللجنة العليا أن تهيئ لا ئحة عن الحزب وأحواله، بناءً على ما يرد عليها من اللوائح والكشوف من لجان الفروع وترفعها إلى المؤتمر العام .

المادة الثامنة والعشرون:- تجتمع الجمعيات العمومية والمؤتمر العام في مواعيدها المقررة حسب المادة (١٥) ويرأسها في كل مكان رئيس اللجنة الإدارية، وأما المركز العام فينعقد برئاسة اللجنة العليا .

المادة التاسعة والعشرون:- تنظر كل جمعية عمومية في نتيجة الحسابات وفي بيان لجنة الإدارة عن أعمالها في السنة الماضية، وتصادق على الحسابات الختامية، وتقرر ما يجب العمل به في السنة المقبلة، وتنتخب نصف أعضاء مجلس الإدارة وتفض بعد انتهاء عملها .

المادة الثلاثون:- على سكرتير كل لجنة إدارية أن يقوم بضبط المحاضر ومقررات الجمعية العمومية. وعلى سكرتير اللجنة العليا ومساعديه أن يقوموا بضبط أعمال المؤتمر العام.

المادة الحادية والثلاثون:- من خصائص المؤتمر العام الاطلاع على بيان اللجنة العليا عن أعمال الحزب في السنة الماضية، ورؤية حساباتها والتصديق عليها والمذاكرة في كل ما يرفع إليه عن أعمال السنة المقبلة وتقريرها .

المادة الثانية والثلاثون:- كل تغيير وتبديل في برنامج الحزب السياسي الأساسي من حقوق المؤتمر العام، ولا يتم ذلك إلا بطلب تحريري من اللجنة العليا أو لجنة من لجان الفروع، ويعمل بغالبية الآراء.

المادة الثالثة والثلاثون:- على اللجنة العليا ولجان الفروع تنفيذ ما يقرره المؤتمر العام كل منها فيما يخصه[1] .

وأخذت جريدة المنار[2]، -وصاحبها عضو من أعضاء هذا الحزب- على عاتقها أمر الدفاع عن مبادئه، ونشر بياناته، وشرح مبادئه، والطعن في مبدأ مركزية الحكم الذي اتخذه الاتحاديون خطة لهم[3].

إن برنامج جمعية اللامركزية يلتقي مع مبادئ جمعية الحرية والائتلاف، ولكن يزيد عليها بكونه أكثر وضوحاً ودقة في تحديد حقوق العناصر.

وقد قال رشيد رضا عن منهج الجمعية اللامركزية: (يجب أن يكون طلاب الإصلاح كافةً على رأي واحد في القواعد الإجمالية التي تطلب من الحكومة المركزية، لأن التفرق ضعف والاجتماع قوة، وحزب اللامركزية الإدارية في مصر لم يتعرض في برنامجه للتفصيل، لأن الاتفاق عليه متعذر فعسى أن يكون هو الجامع للجميع)[4].

وكان لحزب اللامركزية دور مهم في مؤتمر باريس العربي فقد قررت لجنة المؤتمر أن ترتبط هذه اللجنة بحزب اللامركزية الإدارية في مصر بصفة رسمية وفي تاريخ ٤ نيسان أرسلت كتاباً إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية الإدارية في

---

١) ثورة العرب مقدماتها أسبابها نتائجها-أحد أعضاء الجمعيات-٥٧-٦٢-مطبعة المقطم - مصر-١٩١٦.

٢) جريدة المنار-رشيد رضا-المجلد ١٦-الجزء ٨-ص٦٣٤-٦٤٠ وفي صفحات متعددة من المجلة.

٣) العرب والترك-توفيق برو- ٣٥٩.

٤) جريدة المنار- رشيد رضا-المجلد ١٦-الجزء ٤-ص٢٨٠.

القاهرة تعرض عليها فيه أن تكون لجنة الحزب قدوة المؤتمر ومصدر عمله، وتقترح عليها انتخاب من يمثلها في المؤتمر وأنها ستعهد برئاسته إلى أحد ممثلي الحزب.

ومما جاء في الرسالة: (إلى رئاسة حزب اللامركزية وأعضائه الكرام نحن الجالية العربية في باريس، نقدم إليكم عواطف الشكر والمنة لتأليفكم حزب اللامركزية الإدارية، فقد جمعتم في برنامجكم الأماني التي يرتادها أبناء العرب لسعادتهم وترقيهم في كل حين .... ذلك ما حمل الجالية على الاجتماع والبحث عن التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن المحبوب من الطوارئ وإصلاح أمور بلادنا على قاعدة اللامركزية .... فتكرموا علينا بالمؤازرة برأيكم حتى إذا كانت فكرة المؤتمر صالحة في نظركم بعثتم ممثلاً عن مركزكم لنبوأه المكانة الرفيعة ونعضده على الغاية المنشودة .

وقد جاء رد الجمعية اللامركزية بما يلي: حضرات أعضاء لجنة المؤتمر العربي الكرام في مدينة باريس، تلقت اللجنة العليا لحزب اللامركزية بكل سرور وامتنان ما جاء في كتابكم الكريم من اعتمادكم على إخوانكم من أعضائها وإقراركم الانضمام إليها، وأن يكون المؤتمر الذي عزمتم على عقده باسمها وللغرض الذي تألف الحزب لأجله هو اللامركزية الإدارية. ... وقد أقرت على إرسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر على أن يكون لهم حق النظر والمشاركة معكم في موضوعات المؤتمر حتى تكون موافقة لمبادئ الحزب وبرنامجه)[1] .

ومن أبرز موضوعات المؤتمر العربي الأول: ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية، الذي أكد فيه على أن المطالبة بالحكم اللامركزي لا يعني الانفصال عن الترك، وإنما يريدون به إصلاحاً ينهض بالبلاد من عثرتها، حتى ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش.

---

١) المؤتمر العربي الأول– صور عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر– القاهرة– ١٣٣١–١٩١٣.

فطالبو اللامركزية ينادون بحكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات، فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق ولا يحرم فريق من حق من الحقوق لا بداعي الجنس، ولا بداعي الدين عربيا كان أم تركيا أرمينيا أم كرديا، **مسلما أم مسيحيا إسرائيليا أم درزيا** [1].

إن اشتراك النصارى في الجمعيات القومية، أو حتى في تأسيسها مسألة معروفة جيدا. ولكن اشتراك اليهود ووضع اعتبار لهم في تلك التشكيلات مسألة مريبة في تلك الجمعيات القومية، وبناء على تحقيق مبدأ اللامركزية في الحكم نرى الدكتور (نسيم ملول) أحد سكان يافا اليهود ينضم عضوا عاملا إلى تشكيلات حزب اللامركزية منذ عام ١٩١٣م (١٣٣١هـ).

ونرى محمد الشنطي -أحد معتمدي اللامركزية- يكتب من فلسطين إلى مركز الحزب في القاهرة بأنه أدخل بعض اليهود في عضوية اللامركزية[2].

وأثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس عام (١٩١٣م) تجاهل المؤتمر أمر الخطر الصهيوني على فلسطين مع أنه وردت إلى المؤتمر عشرات رسائل التأييد والتنديد بالخطر الصهيوني، وقد دعا مرسلوها إلى اتخاذ موقف حازم من الهجرة اليهودية، وإن من مجموع (٣٨٨) رسالة وردت إلى المؤتمر كانت (١٣٩) رسالة وردت من فلسطين[3].

وقد حملت جريدة (الكرمل) نداء عاما لكل من يهتم بمصير فلسطين جاء فيه: (أيجوز لنا يا طلاب الإصلاح أن يتمنى بعضكم في مؤتمر باريس أن يكون

---

١) المؤتمر العربي الأول- صور عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية -٩٨-١٠٦.

٢) أوراق محب الدين الخطيب في القاهرة .

٣) مواقف عربية من التفاهم مع الصهيونية-[١٩١٣-١٩١٤]-شؤون فلسطينية-بيروت-العدد ٣١ بتاريخ ١٩٧٤ ص: ١٣٥.

محط مهاجري الروملليٌ في الأناضول لتخفيف الشقة عن السوريين..قولوا كلمة لمندوبي الحكومة أن تمليك الأراضي للجمعيات الصهيونية .. يضعف القومية العربية وبالتالي الجامعة العثمانية)[1].

يعد أعضاءُ الجمعيات القومية الجمعية اللامركزية من الجمعيات التي ساهمت في يقظة الأمة العربية، ونادت بطرح قوي في المطالبة بحقوق العرب في الدولة العثمانية، وذلك باتباع النظام اللامركزي[2] .

إن تبني جمعية اللامركزية مقررات المؤتمر العربي الأول، قد كان له الأثر في نشر أهداف الجمعية، إلا أن موقف الدولة العثمانية من الاستجابة لقرارات المؤتمر، ومحاولة استمالة رئيس المؤتمر[3]، كان من أبرز الهيارات الجمعية اللامركزية.

وللتوافق المنهجي بين جمعية الحرية والائتلاف التركية تأسيساً، وبين جمعية اللامركزية العربية تأسيساً، فإن الجمعيتين تدعوان إلى الحكم اللامركزي وكان هذا

• الروملي: تعرف باسم بلاد الروم، وهو اسم أطلقه الأتراك على الاقليم المؤلف من: تراقيا، ومكدونيا بين البلقان والبحر الأسود، ويجري مرمرة وايجه وسلسلة جبال البلقان. وكانت الروملي تؤلف ولاية واحدة بلغ عدد سناجقها (٢٤).

١) البعد القومي للقضية الفلسطينية-إبراهيم إبراش-٣٠-مركز دراسات الوحدة العربية.

٢) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٨٠. وانظر:

١. مجلة دراسات تاريخية- مقال سهيلة الريماوي- العدد الحادي عشر-ربيع الثاني١٤٠٣-ص١٥٢.
٢. الحركة العربية-سليمان موسى-٣٤.
٣. الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسميه-٢١.

٣) انظر:

١. مذكراتي على هامش القضية العربية -أسعد داغر-٦٥-٦٧. وكان من نتائج قرارات المؤتمر: عدم قبول المناصب في الدولة العثمانية، وقد قبل عبدالحميد الزهراوي عضويةً في مجلس الأعيان.
٢. مجلة دراسات تاريخية-العددان الخامس عشر والسادس عشر-١٩٨٤-مقال سهيلة الريماوي-صفحات من تاريخ الجمعيات.

من أكبر الدوافع التي جعلت جمعية الاتحاد والترقي تبطش بأعضاء الجمعية اللامركزية. فعمدت جمعية الاتحاد والترقي إلى مراقبة نشاط أعضاء جمعية اللامركزية.

وخلال البحث والمراقبة عثرت جمعية الاتحاد والترقي على وثائق تدين بها أعضاء جمعية اللامركزية، واتفق أن كان هناك رئيس الائتلافيين صادق بك، وكان يتردد على رفيق العظم-رئيس الجمعية اللامركزية- فجرى بينهما شبه اتفاق بحيث يكون الحزبان معا على قلب الاتحاديين، وأنهم إذا توافقوا أقاموا صدرا أعظم[1].

ولقد اعترف أحد مؤسسي الجمعية اللامركزية بأن الاتفاق الأول بين اللامركزية والائتلافيين كان بقصد إقامة وزارة ائتلافية في أثناء الحرب البلقانية لتكون عونا على تنفيذ هذه الغاية التي هي من متممات تقسيم الدولة العثمانية.

ومن الأمور التي أدينت بها جمعية اللامركزية: اتصال الإنكليز -سنة ١٩١٤م (١٣٣٢هـ) وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى- بالجمعية اللامركزية من أجل أن تقوم الجمعية اللامركزية باستطلاع مواقف زعماء العرب، والكشف عن الخطة التي يسيرون عليها. وأنشأ الإنكليز اتصالات محدودة مع قادة حزب اللامركزية بمصر، وكان رشيد رضا وكيل الحزب، ورفيق العظم رئيسه، ومحب الدين الخطيب[2] مساعد أمينه العام[3].

وبناء على هذه القضايا نفذت جمعية الاتحاد والترقي حكم القتل في بعض أعضاء اللامركزية، وذلك في سنة ١٩١٥م (١٣٣٣هـ) وعدوه من الأحزاب الثائرة على الدولة [4]، وانفرط عقد الجمعية اللامركزية سنة ١٩١٦م (١٣٣٤هـ) [5].

---

١) الإيضاحات عن المسائل السياسية -جمال باشا-٤٤

٢) انظر الترجمة رقم (٥٨).

٣) أسرار الثورة العربية الكبرى-أمين سعيد-٣٧-٣٨-دار الكاتب العربي.

٤) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٨٢.

٥) مجلة دراسات تاريخية-العددان الخامس عشر والسادس عشر-١٩٨٤.

ومن خلال تتبع آراء مؤسسي الجمعية اللامركزية نجد التناقض في منهجية الحكم والسياسة، فمن المؤسسين للجمعية شبلي شميل وهو نصراني المعتقد[١] والذي إليه يعزى نشر مذهب النشوء والارتقاء في الشرق العربي، وقد وصف هذا المذهب فقال:(والحق أن فضل داروِن العظيم ليس في فكرة وضع أساس هذا المذهب، بل بتأييده له بالأدلة العلمية الطبيعية، وجعله صالحا لأن يطبق على الأحياء وحدها بل لأن يشمل الطبيعية كلها)[٢] .

وقد تبنى شبلي شميل المبدأ الاشتراكي في الحكم، فقد قال:(إن الاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول إليها، لو بعد تذبذب طويل. الاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو إليها) وفي مقابل دعوته إلى الاشتراكية، هاجم الدين، فقال:(إن أوربا أصبحت قوية عندما حطم الإصلاح الديني والثورة الفرنسية سيطرة رجال الدين على المجتمع)[٣] .

ولوجود أعضاء نصارى في الهيئة الإدارية للجمعية تأثير على منهج فكرة اللامركزية في الحكم، وقد بين رئيس الجمعية أن الأعضاء المسيحيين يستدرجوننا إلى الرضا بالاحتلال الفرنسي والعمل له، وأن أمين سر الجمعية أخبره: بأنه أتى رجل مسلم غير معروف إلى خليل -خليل أيوب وهو نصراني- يقول له: (لماذا أنتم تشتغلون مع رفيق -رفيق العظم رئيس الجمعية-وأصحابه ؟ فقال له: نحن نريد أن نتخذ هؤلاء المسلمين آلة للاحتلال الفرنسي)[٤].

---

١) انظر الترجمة رقم (٣٥).

٢) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٤٦-مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق-١٤٠١هـ

٣) العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦-عبدالكريم رافق-٥١٨-أطلس-دمشق-الطبعة الأولى-١٩٧٤.

٤) مجلة دراسات تاريخية-العددان الخامس عشر والسادس عشر-١٩٨٤-مقال سهيلة الريماوي.

ومطالبة الجمعية اللامركزية بالحكم المركزي تختلف مبررات المؤسسين لهذا المطلب، فمنهم من يرى أن اللامركزية داخل الحكم العثماني، الذي هم أصحاب الملك[1]. وأن كل ولاية من ولاياتها تعد جزءاً من السلطنة، لا ينفك عنها بحال من الأحوال[2].

بينما هناك رأي آخر يرى بأن الدولة ليست علاقتها بنا-العرب-حتى اليوم علاقة غاصب، سالب، ناهب، طامس• فإن كانت حكومتنا تظن أنها تستطيع أن تحكمنا اليوم كما حكمتنا في الماضي، ولم تخش انتفاضتنا عليها، أفلا تخشى الذين ينازعونها البقاء من خارج وهي بهذا الضعف وهم بتلك القوة[3]. وحينما تختلف مبررات المطالبة بالحكم اللامركزي يختلف المنهج والأسلوب في تحقيقه وتنفيذه.

٥) جمعية العهد:-

أثناء فترة تقديم قرارات المؤتمر العربي الأول إلى الدولة العثمانية، واستبطاء الإصلاحات التي قدمها أعضاء الجمعيات القومية للدولة، ظهرت جمعية العهد في سنة ١٩١٣م.

---

١) مجلة دراسات تاريخية-العددان الخامس عشر والسادس عشر-١٩٨٤-مقال سهيلة الريماوي.

٢) مجلة المنار-مجلد ١٦-ج٢-فبراير١٩١٣-ص٢٢٧. وهو نص البيان .

• معنى الكلمات التالية:

١. سالب: السلب هو ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون عليه ومعه من سلاح وثياب ودابة وغيرها، وهو فاعل بمعنى مفعول : أي مسلوب وفيه حديث (من قتل قتيلا فله سلبه) النهاية في شرح غريب الحديث والأثر-ابن الأثير-٣٨٧/٢ مادة (سلب) أنصار السنة المحمدية-باكستان).

٢. النهب: الغارة والسلب، ومنه قول الرسول ﷺ (ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليها أبصارهم وهو مؤمن)-النهاية في شرح غريب الحديث والأثر-ابن الأثير-١٣٣/٥ مادة (نهب) وانظر:لسان العرب-ابن منظور-٧٧٣/١-مادة (نهب)-دار صادر-بيروت.

٣) جريدة الأهرام-١٠٥٧٨في١٩١٢/١٢/١٧ (نقلا من كتاب العرب والترك ٣٦٢).

فكان ظهور جمعية العهد والعلاقات بين الترك والعرب متأزمه، وأيضاً كان البرنامج الإصلاحي المقدم من جمعية اللامركزية لم يرق للمتطرفين من شبان العرب وضباطهم الذين رأوا أن يكون الإصلاح تاماً، وأن ينجز لا بالتدرج بل فوراً، وأن يسير على نظام اللامركزية التامة[١] .

وقد تولى تنظيمَ وأنشاءَ جمعية العهد عزيزُ بن علي المصري، الذي عين في هيئة أركان حرب الجيش الثالث في مقدونيه. وهناك انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي، وكان أحد الضباط الذين قادوا الثورة العسكرية سنة ١٩٠٨م واشترك في الزحف على القسطنطينية. وكان نفوذه أعظم كثيراً من مستوى رتبته العسكرية، وسبب ذلك أنه كان يحاضر في وقت ما في كلية الأركان فاستطاع أن يستميل قلوب الجيل الناشئ من ضباط الجيش . فأنشأ جمعية العهد، و لم يقبل فيها من المدنيين أحداً.

ولما كان العنصر العراقي أكثر العناصر عدداً في الجيش العثماني لذلك كان له قوته في مجالس جمعية العهد وأنشأ لها فروعاً في بغداد والموصل[٢]. وقد تولى أمين سر جمعية العهد رشدي بن صالح ملحس[٣][٤].

والصفة الأخرى لجمعية العهد أنها سرية، وتربط بينها وبين الجمعيات الأخرى -كالجمعية اللامركزية خاصةً-، روابطُ تحقيق الأهداف من الحكم اللامركزي.

ويرى أعضاء الجمعيات أن إنشاء هذا الحزب قد أحدث ضجة شديدة في دوائر الآستانة، لما عرف عن مؤسسه من الصلابة والقوة ولأنه تأسس في ظرف توترت فيه الصلات بين الاتحاديين والشبيبة العربية وأنه لقي تأييداً من الشبان الضباط العرب الذين التفوا حوله[٥].

---

١) العرب والترك-توفيق برو-٤٥٢.
٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٩٦.
٣) انظر الترجمة رقم (٢٦).
٤) الأعلام-الزركلي-٣/٢١.
٥) الثورة العربية الكبرى- أمين سعيد-٤٧.

مبادئ وتنظيم الجمعية:-

إن الخطوة التي سعى إليها أعضاء الجمعيات القومية عند تأسيس جمعية خاصة بالقطاع العسكري تنبئ بأن مرحلة الوفاق بين العرب والترك قد انتهت. جرى تأسيس هذه الجمعية السرية التي أقسم أعضاؤها على أن لا يبوحوا بشيء عنها، وأن يعملوا لإدراك أغراضها. ووضع لها برنامجٌ يتناسب مع تخصّص أعضائها جاء فيه:

المادة الأولى: إن جمعية العهد جمعية سرية، أنشئت في الآستانة وغايتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب، على أن تظل متحدة مع حكومة الآستانة اتحاد المجر مع النمسا. وهذه المادة تتوافق مع المبدأ العام في تأسيس الجمعيات القومية العربية، وهو الدعوة إلى الحكم اللامركزي.

المادة الثانية: ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الإسلامية وديعة مقدسة بأيدي آل عثمان، مع سلب حقيقة ومضمون الخلافة الشرعية كمرحلة أولية وتَعْقُبها المرحلةُ النهائية وهي إلغاء الخلافة، كما سأبينه إن شاء الله في الباب الثالث.

المادة الثالثة: لما كانت الجمعية تعتقد أن الآستانة رأس الشرق وأن الشرق لا يعيش إذا اقتطعتها دولة أجنبية، فهي تُعنى عناية خاصة بالدفاع عنها وتعمل للمحافظة على سلامتها.

المادة الرابعة: لما كان الترك يؤلفون من ٦٠٠ سنة المخافر الأمامية للشرق أمام الغرب، فعلى العرب أن يعملوا للحصول على ما يؤهلهم لأن يكونوا القوى الاحتياطية الصالحة لهذه المخافر .

المادة الخامسة: على رجال العهد أن يُفْرِغوا قصارى جهدهم في إنماء المزايا المحمودة، وبث الدعوة للتمسك بالأخلاق الفاضلة، فالأمة لا تحتفظ بكيانها السياسي القومي ما لم تكن مجهزة بالأخلاق الصالحة القويمة[1].

١) الثورة العربية الكبرى- أمين سعيد-٤٧.

وقد استنتج بعض من كتب عن هذه الجمعية بأن مفهوم استقلال العرب عن الدولة العثمانية، ليس واضح المعالم عن عزيز علي مؤسس الجمعية ، مما يؤكد أن صفة ارتجال هي التي كانت تطبع جمعية العهد(١).

ولذا كان أعضاء الجمعية قد تطلعوا من خلال برنامجهم إلى المحافظة على العروبة والإسلام؛ الإسلام من خلال الاحتفاظ بالسلطنة والخلافة؛ والعروبة من خلال إعلان الاستقلال الذاتي، لا الإداري فحسب، بل السياسي أيضاً للولايات العربية. إذا أرادوا أن يكون للعرب دولة تجسم ذاتيتهم وقوميتهم، على أن تكون هذه الدولة في نطاق دولة أكبر هي الدولة العثمانية. ويكون السلطان -الخليفة- سلطاناً للعثمانيين من عرب وترك وملكاً للعرب في آن واحد. وبذلك تقوم مملكة عربية مستقلة، ويعود الملك العربي قائماً بذاته، ولكن هذه المملكة تبقى متصلة بالتاج العثماني، وبسائر الأجزاء العثمانية الأخرى في الشؤون العامة المشتركة(٢).

ويذهب [عزيز علي] إلى أنّ كل جماعة من جميع القوميات المختلفة يجب أن تبتكر النظام الأنسب لها في الحكم . وأما قضية الدين وما يتعلق به من شرائع وأحكام فقد قال بوجوب التسامح الديني إلى أبعد حد في النظام الجديد، وأن معرفة الله من قبل جميع الطوائف يمكن أن تكون القاسم المشترك بينها، فيستغني عن بقية التفاصيل مع الزمن ومع الرقي، وبهذه الكيفية تتوحد الأديان واللغات(٣).

إن قضية الدين التي هي في ميزان الله أهم القضايا وأول الضرورات، وقد اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس: وهي الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل(٤).

١) العرب والترك-توفيق برو-٤٥٤.

٢) المصدر نفسه-٤٥٢ بتصرف.

٣) المصدر نفسه-٤٥٤.

٤) الموافقات في أصول الشريعة-١/٣٨.

وهذه الضروريات الخمس والتي من أهمها الحفاظ على الدين، هي من الضروريات التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين[1].

فمبدأُ جمعيةِ العهد الحِرصُ والمطالبةُ الشديدةُ والتنظيمُ الدقيقُ على الحكم واستقلالُ البلاد العربية، وأما القضية الأساسية في الحياة وهي (الدين) تترك للزمان والرقي ويكتفى بمعرفة الله. ولأهمية هذه القضية وغيرها من القضايا العقائدية خصص لها باب مستقل لمناقشتها.

إن تنظيم جمعية العهد ظهر بصورة يتناسب للتنظيم العسكري فهي جمعية سرية، وقد كان لها أثر في البلاد العربية[2]، ومن ابرز الآثار ما يلي:-

١) وجود علاقة ببعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي:

كان لجمعية العهد: علاقة ببعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، فحينما تم اعتقال عزيز علي[3]، كان من ضباط الترك من يخلص إليه، ويعطف على قضيته، منهم الضابطان مصطفى كمال بك (أتاتورك فيما بعد)، وفتحي بك، سكرتير جمعية الاتحاد والترقي، اللذان صادقهما في طرابلس الغرب. وقد جاء في جريدة المؤيد أنهما بعثا ببرقيتي احتجاج إلى أنور بك لاعتقاله إياه[4].

وبعد وفاة الملك فيصل بن الشريف حسين : تم اجتماع بحضور كمال أتاتورك، ونوري السعيد، وقد أبلغ أتاتورك نوري السعيد أن الوقت قد حان بعد

---

١) المصدر السابق نفسه- ٢/٨.

٢) انظر القومية العربية-مصطفى الشهابي-٨٠.

٣) انظر: مذكراتي على هامش القضية العربية-٤٩.

٤) العرب والترك-توفيق برو-٤٥٦.

وفاة الملك فيصل أن تتفقوا على زعامة ياسين الهاشمي[1]، الـــذي كـــان زميـــلاً لأتاتورك على مقاعد الدراسة العسكرية، فوافق السعيد وتشكلت وزارة ياســـين الهاشمي عام ١٩٣٥م (١٣٥٣هـــ)[2].

٢) تأييد ثورة الشريف حسين على الدولة العثمانية:

بلغ عدد الأعضاء المشاركين ٣١٥ ضابطاً من جملة ٤٩٠ ضابطاً[3] ، وبلقـاء سري تم بين أبرز المؤسسين لجمعية العهد مع الشريف فيصل بن الحسين قدمـــوا للشريف فيصل بن الحسين قراراً اتخذته الجمعية، وهو إعلان الثورة ضد الدولـــة العثمانية، وإن غاية العرب هو الاستقلال حفاظاً على كيان البلاد العربية لاعـــداء الترك، أما إذا كانت البلاد عرضة لخطر الاستعمار الأوربي فالجمعية تعمـــل مـــع أحرار العرب للدفاع عن البلاد العربية جنباً إلى جنب مع الترك .

أبلغت جمعية العهد الشريف فيصل بن الحسين بأن سوريا لا تحتـــاج إلا إلى عزم الحسين على ترؤس الحركة التحريرية[4].

وقد تم في هذا اللقاء انضمام الشريف فيصل إلى الجمعية، وقد أعجب فيصـــل إعجابا شديداً بتنظيم جمعية العهد، إذ كان زعماؤها قادرين على أن يوقـــدوا نـــار الثورة في صفوف الجيش حينما يشاءون، وذلك لأن الجنود العرب كانوا الأكثريـــة الغالبة في الفرق العثمانية المعسكرة في بلاد الشام حيئنذ، كان قوادهـــم ومعظمـــهم أعضاء في الجمعية مستعدين أن يلبوا نداء هؤلاء الزعماء فيزحفوا مع جنودهم[5].

---

١) انظر الترجمة رقم (٧١).

٢) دولة الاستعارة القومية- حسن العلوي-٨٠-دار الزوراء-لندن-١٤١٤هـــ

٣) الحركة العربية-سليمان موسى-٣٤.

٤) مذكراتي عن الثورة العربية-أحمد قدري- ٣٨-دمشق-١٩٥٦.

٥) يقظة العرب-جورج انطونيوس-٢٤١.

٣) تقديم مشروع حدود البلاد العربية خلال الحرب العالمية الأولى:

قدمت جمعيتا (العهد) و(الفتاة) لفيصل بن الحسين خطة عمل اتفقتا عليها. ووضعوا ميثاقاً يتضمن الشروط التي يطالب الزعماء العرب بتحقيقها لكي يؤازروا بريطانية العظمى على تركية، واتفقوا على أن يحمل فيصل هذا الميثاق إلى مكة ويطلب من والده أن يعرف من الحكومة البريطانية هل تقبل هذه الشروط أساساً للعمل المشترك.... وقد استخدم الشريف حسين نصوص الميثاق حينما استأنفت مباحثاته مع بريطانية العظمى[١] .

٤) مناصرة أعضاء جمعية العهد لحكومة الشريف فيصل:

ومن آثار جمعية العهد في خلال الثورة ضد الدولة العثمانية: أن عزيز علي المصري عهد إليه بالمسؤولية المترتبة على الشئون العسكرية والسيطرة الفعلية على العمليات الحربية، وبدأ بتكوين جيش مدرب نظامي[٢] .

وقد كان لأعضاء جمعية العهد دور في تنظير السياسة العسكرية لبعض البلاد العربية، ويُخَصُّ من أعضاء جمعية العهد الضباطُ العرب العراقيون، فقد شكلوا نسبة كبيرة في الجيش العربي وكان على رأسهم الفريق جعفر العسكري[٣] الذي عين قائداً عاماً لجيش الحجاز. وكان معظم هؤلاء الضباط في جيش فيصل بن الحسين الذي دخل سوريا وحررها أثناء الحرب وأقام حكومة عربية[٤].

ومن أعضاء جمعية العهد ياسين الهاشمي الذي شغل منصب رئيس هيئة أركان الجيش العربي، في حكومة الملك فيصل بن الحسين[٥] . وقد طرح ياسين الهاشمي خلال فترة رئاسته في آذار ١٩٣٥م برنامجاً برزت فيه الاتجاهات الآتية:

---

١) المصدر السابق-٢٤٣-٢٤٤.

٢) الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسمية-٣١.

٣) انظر الترجمة رقم (١٥).

٤) تأسيس الجيش العراقي -رجاء حسين الخطاب- ٢٣-الدار العربية-بغداد-الطبعة الثانية- ١٩٨٢.

٥) الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسمية-١٤٣.

١) التأكيد على الوحدة الوطنية وتجاوز التناقضات القبلية والطائفية.

٢) التأكيد على الوحدة العربية، والتلويح بإمكانية الاستفادة والإقتداء بالنظامين الألماني والإيطالي، كنموذج لنظام الحكم في العراق، وتبني تنشيط العلاقات بين العراق والأقطار العربية.

٣) إيجاد تحالف سياسي مع بعض الأطراف السياسية التقليدية الأساسية (جعفر العسكري، نوري السعيد، رشيد عالي)[١].

٥) مناصرة بعضهم لبعض في العمل القومي:

شُكِّلَت في العراق حكومةٌ انتقالية برئاسة عبدالرحمن النقيب[٢]، تضمنت وزارة للدفاع أسندت إلى الفريق جعفر العسكري، الذي أخذ على عاتقه استدعاء زملائه المشتتين في سوريا والحجاز. وأولئك الذين انسحبوا مع الجيش العثماني من العراق أمام الحملة البريطانية، أو أولئك الذين تركوا الجيش العثماني وبقوا في العراق[٣]. وبسبب هذا التجمع القومي في الجيش العراقي ظهرت كتلة من الضباط أطلقت على نفسها كتلة الضباط القوميين سنة ١٩٢٧(١٣٤٦هـ)[٤].

وحينما رفضت الحكومة البريطانية استقلال العراق، وبدأت الدعاية القومية وكانت أكبر حملات الدعاية تلك التي قامت بها جمعية العهد العراقي في الموصل، التي أدخلها جميل المدفعي[٥]، وهو مواطن من الموصل، وعضو في حكومة فيصل.

---

١) تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره السياسي من ١٩٢١-١٩٤١-رجاء حسين الخطاب-١١٩.

٢) ولد سنة ١٨٤١م من أسرة تنسب إلى الطائفة القادرية، وتوفي سنة ١٩٢٧ انظر(وجوه عراقية -توفيق السويدي-٣٤)

٣) المصدر السابق نفسه- ٢٥.

٤) المصدر السابق نفسه- ٥١.

٥) انظر الترجمة رقم (١٦).

وكانت الجمعية على اتصال بالجمعية الأم في دمشق وتشمل عدداً كبيراً من المثقفين وتظهر عداوة للإدارة البريطانية على شكل احتجاجات ومنشورات ضد الحكومة تدعو للثورة، وتطور النشاط القومي من الاستياء إلى التحدي الصريح(١).

٦) الوصول إلى رئاسة الدولة:

ومن أخطر آثار جمعية العهد أن بعض أعضاء الجمعية، والجمعيات القومية العربية الأخرى، قد وصل إلى رئاسة بعض الدول العربية(٢) . أمثال فيصل بن الحسين، نوري السعيد(٣)، وتوفيق السويدي(٤)، جميل المدفعي(٥)، وهاشم الأتاسي وشكري القوتلي(٦).

ومنذ سنة ١٩١٤قبيل الحرب العالمية الأولى، شعرت حكومة الاتحاد والترقي بتكتل ضباط من العرب في حزب سياسي، فعُقِدَ اجتماع خاص في دار وزارة الحربية حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا، فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة وجمعية العهد عامة، وقرروا المواد الآتية:

---

١) الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسمية- ١٨٨.

٢) ينظر عن تولى بعض أعضاء جمعية العهد رئاسة بعض الدول: ١-العراق وقضايا الشرق العربي القومية -ممدوح الروسان-١١.

٢. خبراتي في الحكم-حسن الحكيم - ٧-٢٧-مجلة الشريعة-عمان-الطبعة الأولى-١٣٩٨.

٣. تأسيس الجيش العراقي وتطوره السياسي من ١٩٢١-١٩٤١-رجاء الخطاب-١١٩

٤. الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسميه- ١٨٨.

٥. مذكراتي نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية-توفيق السويدي-٢٣-دار الكتاب العربي.

٣) انظر الترجمة رقم (٦٩).

٤) انظر الترجمة رقم (١٢).

٥) العراق وقضايا الشرق العربي القومية ١٩٤١-١٩٥٨-ممدوح الروسان-١١-١٢.

٦) خبراتي في الحكم-دولة حسن الحكيم رئيس مجلس وزراء سوريا سابقاً -٩-١٩.

١- إقصاء ضباط العرب المقيمين في الآستانة، وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطاً ينتمي ٣١٥ منهم للعهد. إلى المناطق التركية، كالأناضول• فلا يعود في إمكانهم القيام بأي عمل يساعد على زيادة الجفاء بين العرب والترك .

٢- تولية القيادة في البلاد العربية إلى الضباط الترك، وإقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم بقدر الإمكان .

٣- الإسراع في تنفيذ سياسة تتريك العناصر .. الخ[١] .

فبعثرت جمعية الاتحاد والترقي كبار الضباط في الولايات التركية وسلبتهم قيادة الجند في الولايات العربية، وفي سنة ١٩١٦(١٣٣٤هـ) قتلت من أعضاء جمعية العهد[٢] وانحلت عرى الجمعية بعد زوال الحكومة العربية الفيصلية من الشام، فقد لبث كثير من ضباطه يعملون فرادى في الحركات القومية[٣] .

٦) الجمعيات الإصلاحية:-

أنشئت جمعيات قومية تنادي بإصلاح البلاد العربية، وكان هذا سنة ١٩١٢م، وبروز هذا المسمى (الإصلاحية) كان من آثار الجمعية اللامركزية.

وظهور الجمعيات الإصلاحية كان في ظرف سقوط حكومة الاتحاد والترقي، وقيام حكومة معارضة له برئاسة أحمد مختار باشا، وكان من أركانها كامل باشا. فنشأت الجمعيات الإصلاحية في بيروت، ودمشق، وحلب، وبغداد، والبصرة[٤].

• الأناضول: شبه جزيرة وهي على امتداد الغرب من قارة آسيا. وهي تشكل ٩٧% من أراضي تركيا في الوقت الحاضر. ويطلق على اسم الأناضول اليوم على الأراضي التركية الواقعة في آسيا.انظر : دائرة المعارف الإسلامية-مادة الأناضول-٣/١٠٦.

١) الثورة العربية الكبرى-أمين السعيد-١/٤٧.

٢) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٨٠.

٣) انظر عن أبرز أسماء أعضاء جمعية العهد: نشأة الحرة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٤٧٨.

٤) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٩٩.

تختلف آراء بعض الكتاب في سبب نشأة هذه الجمعيات الإصلاحية، فمنهم من يذهب إلى أن سبب النشأة هو طلبُ والي بيروت رفعَ تقريرٍ إلى الحكومة الجديدة بما يدور على ألسنة الناس والصحف من اهتمام باللامركزية وتطُّلعٍ إليها. فأصدرت الحكومة أمراً إليه ثم إلى ولاة البلاد العربية الأخرى وغيرها تأمرهم بأن يطلبوا من أعيان البلاد ومستنيريها تنظيم وتقديم لوائح بمطالبهم، فكان ذلك وسيلة لقيام جمعيات باسم (الجمعيات الإصلاحية)[1] .

ومن الكتاب من يعلل سبب تأليف جمعيات الإصلاح بقوله: (لما كانت أكثرية سكان بيروت من الموارنة فقد أوجس مسلمو بيروت -وهم أقلية- شراً من الحركة الجديدة التي ظهرت في فرنسا إزاء سورية، وخافوا من أن تستغل الأكثرية الموارنة وهي معروفة بالعطف عليها، ولما ظهر من عجز الدولة وخوفاً من أن تحتل فرنسا البلاد متذرعة بسوء الإدارة وبما لها من نفوذ أدبي ومصالح اقتصادية، فاجتمع أعيان بيروت وكبارها ونوابها وبحثوا الموقف وأبلغوا الوالي العثماني رغبتهم في إدخال الإصلاحات العاجلة، فرفع أمرهم إلى الباب العالي• ببرقية قال فيها: (وإذا لم تأخذ بالإصلاح الصحيح فالبلاد مفلتة من يدنا لا محالة) فأجابه يومئذ الصدر الأعظم• بأن يدعوَ الشعبَ إلى تقديم مطالبه للنظر فيها[2].

---

١) المصدر السابق -٣٩٩.

• الباب العالي هو: أحد المسميات في الترتيب الإداري الداخلي للدولة العثمانية، وقد كان من إنشاء السلطان محمد الفاتح، ويقصد بالباب العالي نفس الحكومة العثمانية.انظر:(تاريخ الدولة العلية العثمانية-محمد فريد بك-١٧٧) و(معجم الدولة العثمانية-حسين مصري).

• الصدر الأعظم هو: رئيس الوزراء. ينظر: (معجم الدولة العثمانية-حسين مصري).

٢) الثورة العربية الكبرى-أمين سعيد-١/١٨. وانظر:

١. العرب والترك-توفيق برو- ٣٦٤.
٢. الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي-وجيه كوثراني-١٨٧.

وأياً كان السبب فإن القضية الأساسية كانت منذ نشأة الجمعيات الإصلاحية هي المطالبة بحكم لا مركزي، ولذا قدمت لوائح بالإصلاحات المطلوبة على هذا الأصل. وكان هذا المطلب يروق لحزب الحرية وائتلاف الحزب الحاكم في ذلك الوقت .

مبادئ وتنظيم الجمعية:-

بعد أن أذن الصدر الأعظم بتقديم مطالب البلاد العربية، قدمت الجمعيات الإصلاحية المطالب والتنظيمات المقترحة. ولقد كانت بيروت هي المسرح الأقوى والأبرز لهذه الحركة حيث صارت جمعيتها هي المذكورة أكثر دون غيرها في صدد ذلك. وكان قيامها في أواخر سنة ١٩١٢م وأعضاؤها خليطٌ من أعيان المسلمين والنصارى[1] . فعقدت أول اجتماع لها في مقر بلدية بيروت ضمت ٨٤ شخصاً (رجال أعمال، ومحامين، وصحفيين) وفي نهاية الاجتماع تشكلت لجنة مؤقتة من ٢٥ عضواً تحددت مهمتها بلائحة المطالب الضرورية لإصلاح أوضاع الولاية ومتابعتها[2]. وهذه المطالب تحدد البعد التنظيمي لدى الجمعيات الإصلاحية، وسنذكر أبرز هذه اللوائح:

مادة أساسية: الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية .

المادة الثانية: للوالي صفتان قانونيتان: الأولى تمثيل الحكومة المركزية، وتولي جميع الأعمال المتعلقة بكيان السلطنة وشؤونها الأساسية.

والصفة الثانية تمثيل الولاية التي يرأسها، ويتولى جميع الأعمال المتعلقة بشؤون الولاية طبقاً لقرارات المجلس العمومي.

---

١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٩٩.

٢) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي-وجيه كوثراني-١٨٨. وانظر:

١. نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٩٩

المادة الثالثة: يؤلف في الولاية مجلس عمومي من ثلاثين عضواً ينتخب نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من غير المسلمين، لمدة أربع سنوات، وهم ينتخبون منهم رئيساً لهم بالاقتراع السري.

وظائف المجلس العمومي:

١) تقرير جميع أعمال الولاية الداخلية والمذاكرة في ما يُعرض عليه من قبل الوالي أو لجنة المجلس أو عشرة من أعضائه.

٢) وضع الأنظمة الداخلية بشرط أن لا تمس شؤون السلطنة الأساسية.

٣) عقد القروض التي لا تتجاوز قيمتها نصف الواردات المختصة بالولاية .

٤) حق استيضاح الوالي، وطلب عزله ولا يتداخل المجلس العمومي في الشؤون السياسية العامة مطلقاً.

المادة الخامسة: ينتخب المجلس العمومي بالاقتراع السري لجنةً من أعضائه واحد منهم من كل لواء ، واثنان من مركز الولاية لمدة سنة واحدة، فتجتمع بإدارة مستشار المجلس العمومي .

المادة السادسة: الوالي وحاكم الشرع في مركز الولاية .. تعينهم الحكومة المركزية على شرط معرفتهم اللغة العربية معرفة تامة، ويستثنى من هذا الشرط والي الولاية لمدة خمس سنوات من تاريخ وضع مواد هذه اللائحة موضع الإجراء.

المادة السابعة: تعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث، اللغة العربية أو التركية أو الفرنسية. وتعين أيضاً مفتشاً أجنبياً عاماً لكل لواء من الولاية يخول حق تفتيش أية دائرة كانت في اللواء، ويكون مرجعُه مستشارَ مركزِ الولايةِ الداخلةِ تلك المسألةِ المراجَعُ فيها، ضمن دائرة اختصاصه .

يعين المجلس العمومي من الدول التي ترضاها الحكومة المركزية مستشارين للدوائر الآتية: وهي مجلس الولاية العمومي والعدلية والنافعة والمعارف والبلدية والبوليس. ويلبس هؤلاء المستشارون الشعار العثماني في أوقات العمل. أما مدة الاستشارة والتفتيش فخمس عشرة سنة ويمكن تجديدها .

المادة الحادية عشرة: لا علاقة للإدارة ولا للمجلس العمومي في الأوقاف، بل يسلم كل وقف إلى مجلس الملة المنسوب إليها لاستخدامه بموجب قانونها (بناءً عليه جميعُ أوقاف المسلمين في الولاية تسلم إلى مجلس ملتهم أسوة بباقي الطوائف)

المادة الثالثة عشرة: يؤلف مجلس يسمى مجلس المستشارين ويكون أعضاؤه: رئيس المجلس العمومي وجميع مستشاري الدوائر في مركز الولاية.

وظائف مجلس المستشارين:

١) تفسير مواد النظام الذي تضعه الحكومة المركزية كدستور لحكومة الولاية ومجلسها العمومي .

٢) تفسير القرارات والأنظمة التي يضعها المجلس العمومي .

٣) النظر والحكم في وجوب عزل الموظف أو عدمه.

٤) النظر والحكم بناء على طلب الوالي أو أحد المستشارين في كل خلاف في الرأي يقع بين أحد المستشارين والمجلس العمومي أو إحدى لجانه أو أية دائرة كانت، ويكون حكمه مبرماً، ويرأس هذا المجلس والي الولاية وينوب عنه في غيابه رئيسُ المجلس العمومي أو مستشار هذا المجلس .

المادة الرابعة عشرة: إن اللغة العربية تعتبر الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية. وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية في مجلس النواب والأعيان .

المادة الخامسة عشرة: تخفض الخدمة العسكرية إلى سنتين وتُقضى الخدمة أيام السلم في الولاية[1].

وفي منتصف فبراير (شباط) سنة ١٩١٣م(٩/٣/١٣٣١هـ) أذاعت جمعية بيروت الإصلاحية خطتها التي تضمنت المبادئ السابقة، وحظيت بتأييد شعبي كبير في أقاليم الشام وبغداد والبصرة والقاهرة، كما أرسلت البرقيات إلى حكومة الآستانة تعتبر البرنامج تعبيراً عن الأماني في كافة الأقاليم العربية[2].

وممن أيد لوائح جمعية بيروت الإصلاحية جمعيةُ اللامركزية، فقال رشيد رضا: (إنني لأشكر لأخواني أهل بيروت هذا العمل الإصلاحي الذي أقيم على أساس الاتفاق بين مسلميهم ونصاراهم، قد بذل الأولون في استمالة الآخرين ما لم يبذله غيرهم من الناس، وهو أنهم رضوا أن تكون قلة النصارى في الولاية مساوية لكثرة المسلمين في الاشتراك بإدارة حكومتهم، فهذا برهان عملي قاطع على تساهل من يُعَدّون أشد المسلمين عصبية في سورية. وقد صدق ظني في أهل بيروت إذ فضّلْتهم على جميع أهل بلادنا فيما كتبته عنها عند زيارتي لها بعد إعلان الدستور)[3].

القضاء على جمعية بيروت الإصلاحية:

خلال وضع وتخطيط اللوائح التنظيمية لجمعية بيروت الإصلاحية، استولت جمعية الاتحاد والترقي على حكم الدولة وأسقطت حكومة الائتلافيين[4]. وكانت جمعية الاتحاد والترقي تختلف في المنهج الإصلاحي بالنسبة للحكم اللامركزي مع

١) ثورة العرب- أحد أعضاء الجمعيات القومية- ٦٢-٦٧(بتصرف).

٢) حركة اليقظة العربية-محمود منسي-١٦٤.

٣) المنار-رشيد رضا-المجلد١٦-الجزء٤-ص ٢٨٠.

٤) انظر: العرب والترك-توفيق برو -٣٧٥.

حكومة الائتلافيين، مما ترتب على ذلك أن الحكومة الجديدة رفضت[1] البرنامج الإصلاحي المقدم من جمعية بيروت الإصلاحية. وذكرت في الصحف:

(بما أن الجمعية التي تشكلت منذ شهرين ونصف من بعض الذوات في بيروت باسم الجمعية العمومية الإصلاحية، والتي اتفق أن أعطي لها (إيصال) من مقام الولاية، قد كان تشكيلها مغايراً لقانون الجمعيات، فضلاً عن أن بعض المطالب التي أخذ هؤلاء يطالبون بها، باسم الاصلاحيات، هي منافية أيضاً لأحكام القانون الأساسي، وبناء عليه فقد صار من الطبيعي منع دوام واجتماع هذه الجمعية. هذا وقد شرع بتطبيق قانون إدارة الولايات الذي نظمته الحكومة السنية وفقاً لقاعدة توسيع المأذونية وتفريق الوظائف فجاء جامعاً الإصلاحات لبيروت ولسائر الولايات العثمانية وعليه نعلن منع اجتماع الجمعية المذكورة)[2].

وبينت حكومة الاتحاد والترقي (أن وحدة السلطنة تنحصر في شخص جلالة السلطان، دين السلطنة الرسمي هو الإسلام، ولغتها الرسمية هي التركية، فالدين الرسمي واللغة الرسمية لا يمكن أن يكونا غير لغة الملك ودينه، ولكن هذا لا يمنعنا من التوسع في استعمال اللغة العربية في المسائل الإدارية والقضائية المرتبطة بحياة الجمهور في الولايات التي تتكلم بالعربية)[3].

لقد عد القوميون إلغاء جمعية بيروت الإصلاحية إلغاءً للحرية، فقد أذاع أعضاء الجمعية بياناً ذكروا فيه: إن قرار الدولة إنما هو مصادرة للحرية الاجتماعية، وخنق للفكرة الإصلاحية، فضلاً عن أنه مناف لأحكام القانون الأساسي. وبينوا بأن الجمعية الإصلاحية في بيروت جمعية فكرية، لا جمعية إنفاذ

---

١) انظر: المنار -رشيد رضا-المجلد١٦-الجزء ٨-ص٦٣٥.

٢) جريدة المفيد -١٢٤٨-بتاريخ١٩١٣/٤/٩.(نقلا من كتاب العرب والترك-توفيق برو-٣٨٨)

٣) العرب والترك-توفيق برو-٣٨٦.

بالقوة والضعف. فعلى فرض مخالفة رأيها في الإصلاح لرأي الحكومة، فإنما يحق للحكومة عدم العمل بآرائها، ولكن لا حق لها بمصادرتها. لذلك نحتج أمام الوطن والتاريخ على عمل حضرة الوالي، هذا الذي عبث بمصلحة الوطن. وخالف به أحكام الدستور، ونيات جلالة السلطان)[1].

كما أرسلت الجمعية اللامركزية من مصر برقية إلى الصدارة العظمى ذكرت فيها: (مصادرةُ والي بيروت لجمعيتها الإصلاحية في عملها القانوني استبدادٌ منكر، مضيع لآمال الأمة، موجب للتقاطع بين الهيئتين. تداركوا سوء العاقبة بعزل الوالي ونقض عمله، ولا تسنوا للشعب سنة سيئة بمخالفة القوانين)[2].

ويصف القنصل البريطاني العام في التقرير الذي كتبه حال الناس عند علمهم بقرار الحكومة الاتحادية، فيقول:(أمس صدرت جميع جرائد بيروت، باستثناء جريدة واحدة، وعلى صفحتها الأولى قرار الوالي بإلغاء الجمعية وإقفال النادي، ضمن إطار أسود دلالة على الحداد، وتركت الصفحات الأخرى بيضاء ، وبعد ثلاثة أيام أقفلت المخازن في بيروت احتجاجاً على القرار)[3].

تقويم المنهج الإصلاحي:

إن لوائح جمعية بيروت الإصلاحية تتفق[4] مع لوائح وتنظيمات الجمعيات الإصلاحية الأخرى . وعند المقارنة بين ما قدمته هذه الجمعيات وجمعية اللامركزية من تنظيمات قد لا يوجد اختلاف كبير بينهما سوى أن الجمعيات الإصلاحية وضعت ضمن موادها العنصر الأجنبي عن طريق مستشارين في بناء

---

١) جريدة المؤيد-عدد٦٩٦٣-بتاريخ١٦/٤/١٩١٣ (نقلا من كتاب العرب والترك-توفيق برو- ٣٨٩)

٢) جريدة الأهرام-عدد ١٠٦٧٦-بتاريخ ١٥/٤/١٩١٣.(نقلا من كتاب العرب والترك-٣٩١)

٣) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٩٩.

٤) الثورة العربية الكبرى-أمين سعيد-١/١٨.وانظر: ثورة العرب- أحد أعضاء الجمعيات القومية-٦٨

الاصلاح، بل جعلت لهم صلاحيات مطلقة، فيخول لهم حق تفتيش أيـــة دائـــرة كانت في اللواء .

ومن الصلاحيات المخولة للمستشارين: تفسير مواد النظام الـــذي تضعـــه الحكومة المركزية كدستورٍ لحكومةِ الولاية ومجلسها العمومي. وهذه الصلاحيـات حددت بأن تكون مدة الاستشارة والتفتيش خمس عشرة سنة ويمكن تجديدها[١].

إن تعيين أجانب كمستشارين ومفتشين في الولايات العربية، لم تسلم مـــن الجدل والنقاش، فقد قال محمد جميل بيهم وهو أحد المطلعين على ما جـــرى في داخل الجمعية من نقاشات:- كانت وجهات نظر البيروتيين مختلفة، خصوصـــاً لوجود فئة ذات وزن كانت حريصة على التخلص من الحكم العثماني، والسـعي لاستقلاله تحت حماية فرنسا. وكان المسلمون من جهة أخرى، مع حرصهم علـى اللامركزية وتأمين حقوق العرب في السلطنة، يضنون بالدولـــة العثمانيـــة، ولا يرضون عنها بديلاً من الدول الأجنبية. ولما كان لا بد من تقارب وجهات النظـر بين طلاب الإصلاح من أنصار فرنسا وأنصار اللامركزية تَجْمَعُ بـــين شـــروط اللامركزية وبين وجود مستشارين أجانب في جهاز حكومة الولاية بالإضافـة إلى مفتش أجنبي لكل لواء)[٢].

ويؤيد الرأي القائل (بوجود فئة ذات وزن كانت حريصة على التخلـــص مـــن الحكم العثماني، والسعي لاستقلاله تحت حماية فرنسا) أن جمعية بيروت الإصلاحية قد شرطت في تعيين الأجانب معرفتهم إحدى اللغات ومن ضمنها اللغة الفرنسية.

ولقد كانت مخاوف الدولة العثمانية من تأثير فرنسا على البلاد العربية، قبـل ظهور جمعية بيروت الإصلاحية. فقد كتب السلطان عبدالحميد في مذكراتـه، أن

١) عن هذه القضية انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة- محمد عزة دروزة-٤٠٥ .

٢) قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور -محمد جميل بيهم-٢/٢٢- بيروت-١٩٥٠

العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا (بدأت تسير نحو الأحسن بعد تعيين سفير لجمهورية فرنسا لدينا. وقد علمت أنه اتصل عن طريق ملحقه العسكري بعدد كبير من ضباطنا. كما وُفّق إلى اجتذاب عدد من النظار -الوزير- وبعض كبار الموظفين في الباب العالي. حتى أن شيخ الإسلام قام بزيارة إلى السفارة الفرنسية، الأمر الذي لم يكن معهوداً من قبل)[١] .

وذكر أمين سعيد في كتابه عن الثورة العربية، أن بعض العناصر المسيحية الموالية لفرنسا في بيروت أرادت استغلال الحركة الإصلاحية لخدمة هذه الحكومة، فتقربت من زعماء الحركة، وتظاهرت بالإخلاص لهم والرغبة في الخدمة الوطنية. عاملة سراً على توسيع الخرق بين الدولة والإصلاحيين[٢] .

ولا يعني هذا عدم الأخذ مطلقاً بشورى الكافرين، إنما المأخذ على تنظيم جمعية بيروت الإصلاحية لأنهم منحوا للمستشارين من الأجانب من الحقوق ما لا يطلب من مثلهم وما هو خطر عظيم على مستقبل البلاد، و لم يجعلوا لأنفسهم عليهم سلطة تبيح لهم مؤاخذتهم إذا أخطؤوا ومعاقبتهم إذا أذنبوا، على أن مؤاخذة الضعيف للقوي بالحق والقانون تكاد تكون متعذرة، فكيف إذا كان القوي صاحب سلطة مطلقة لا توجب عليه للضعيف حقاً ولا تفرض عليه مؤاخذة؟[٣].

٧) جمعية العربية الفتاة السرية:

يعتبر أعضاء الجمعيات القومية أن أكثر الجمعيات شمولا للفكر القومي، وأشدها تأثيراً في الحركة العربية ونهضة العرب، هي جمعية الفتاة العربية السرية.

---

١) السلطان عبدالحميد الثاني-مذكراتي السياسية-١٣١-مؤسسة الرسالة-الطبعة الثالثة-١٤٠٢.

٢) الثورة العربية الكبرى-أمين سعيد-٢٤/١.

٣) المنار-رشيد رضا-المجلد١٦-الجزء٤-ص٢٨٠.

ولقوة تأثير السرية في منهج الجمعية اختلف في تاريخ نشأتها، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن تاريخ نشأة جمعية الفتاة ١٩٠٨ ففي مذكرات أحمد قدري[١] -وهو أحد المؤسسين- :(إننا بدأنا في تكوين جمعية العربية الفتاة بعد إعلان دستور سنة ١٩٠٨ بأربعة أيام لا أكثر)[٢]. وبهذا التاريخ قال مؤسسٌ آخر وهو عوني عبدالهادي[٣]، وأكد على أن تكون السرية طريقاً في تأسيسي الجمعية[٤].

القول الثاني: إن تاريخ نشأة جمعية الفتاة ١٩٠٩ واستند هذا القول إلى وجود منشورين للجمعية بعنوان (الصرخة الأولى) و(الصرخة الثانية)، وعلى كراس يشتمل على منهجها، فَوُجدَ على الوثائق الثلاث ختماً للجمعية تاريخه ١٩٠٩، ووُجِد على كراس المنهج أن تأسيسها كان في الرابع عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٠٩. واستند هذا القول أيضاً: إلى أن توفيق الناطور، وهو أحد المؤسسين للجمعية ومن أكثرهم همة ونشاطاً، قال بهذا التاريخ[٥].

القول الثالث: يذهب أصحاب هذا القول إلى أن تاريخ نشأة الجمعية في سنة ١٩١١.ففي مذكرات عوني عبدالهادي ما يدل على هذا، فقد قال موصياً جميل مردم بك[٦] أثناء سفره إلى أمريكا: بأن يغتنم فرصة اجتماعه بإخواننا في المهجر ليحدثهم عن آمالنا وأمانينا في مستقبل العرب، وأن يعمل على ضم من يأنس بهم الوطنية والخلق الحسن إلى جمعية العربية الفتاة التي **أنشأناها في باريس**

---

١) انظر الترجمة رقم (٢).

٢) ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى-أحمد قدري-١١.

٣) انظر الترجمة رقم (٥١).

٤) انظر: عوني عبدالهادي -أوراق خاصة-إعداد خيرية قاسمية-٩.

٥) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٩١.

٦) انظر الترجمة رقم (١٨).

سنة ١٩١١. وكان جميل مردم بك من أعضائها البارزين)[1]. وقال بهذا القول مصطفى الشهابي ومحمد عزة دروزة[2] وهما من أعضاء الجمعية[3].

وقد قال حسن الحكيم:(أنشئت بعد إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ وقد أسسها عام ١٩١١في باريس ثلاثة من الشبان العرب الذين أتموا دراستهم في استنبول العاصمة، وهم :أحمد قدري، وعوني عبدالهادي، رستم حيدر[4])[5].

وقد يكون الاختلاف بين هذه الأقوال اختلافاً ظاهرياً، والجمع بينها هو: إن بداية فكرة وإنشاء جمعية العربية الفتاة كان في تاريخ ١٩٠٨ وكان في الآستانة، ويؤكده أن من قال بذلك التاريخ هم من المؤسسين للجمعية، ثم انتقلت مرحلة الفكرة إلى مرحلة صياغة العمل وتنفيذ الخطط، وذلك في عام ١٩٠٩ كما في المناشير الذي فيها بيان المنهج وخطة العمل القومي، وأما تكوين هيئة إدارية للجمعية وانضمام أعضاء جدد لها وتطبيق نظام الانتساب، فإن ذلك

---

١) عوني عبدالهادي -أوراق خاصة-إعداد خيرية قاسميه-١٧.

٢) انظر الترجمة رقم (٦١).

٣) انظر: ١- القومية العربية - الشهابي-٧٢.

٢- نشأة الحركة الحديثة-دروزة-٤٨٠.

٣-العرب والترك-توفيق برو-٢٦٧.

٤-يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٨٧.

٥-خبراتي في الحكم-حسن الحكيم-٤٠.

إلا أن الشهابي قد تراجع عن رأيه في تحديد تاريخ النشأة ، قال: كتبت في الجزء الثاني من كتاب الاستعمار: أن الجمعية تأسست في باريس سنة ١٩١١، وقد وهمت ، لأني اطلعت في القاهرة لدى الأستاذ محب الدين الخطيب على منشورين سياسيين للجمعية بعنوان الصرخة الأولى والصرخة الثانية، وكذلك على كراس يشتمل على منهجها، فوجدت على ثلاثتها ختماً للجمعية تأريخه ١٩٠٩وشعاره نخلة. وفي المنهج المذكور أنها تأسست في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٠٩.

٤) انظر الترجمة رقم (٢٥).

٥) خبراتي في الحكم-حسن الحكيم-٤٠. وانظر:

* نشأة الحركة الحديثة-دروزة- ٤٨٥.

كان في أوربا بتاريخ ١٩١١[١] .واستمر نشاط ومركز الجمعية في باريس وبعد أن أنهى مؤسسوها دراستهم وتخرجوا عادوا إلى بلادهم، فنقلت الجمعية إلى بيروت سنة١٩١٣[٢].

مبادئ وتنظيم الجمعية:

مما يلاحظ على مبادئ الجمعيات أنها دائمة التغيير والتبديل في المناهج، وهذا قد يكون من أسبابه طبيعة التعامل مع الواقع، وهذه الملاحظة ظاهرة على جمعية الفتاة، فإن مبدأ الجمعية وتنظيمها أثناء التأسيس يختلف عنها في وقت إقامة الدولة العربية ومناصرة فيصل بن الحسين، وكذلك اختلف مبدؤها بعد معركة ميسلون وتفرق أعضاء الجمعيات القومية واحتلال سورية الطبيعة .

ولكن هذا الاختلاف لا يمنع من معرفة مبادئ الجمعية بصفة عامة، فقد عرضت الجمعية مبادئها[٣] عن طريق منشور يعرف (بالصرخات الثلاث)، ويوجد في مكتبة محب الدين الخطيب نسخة منه.

أولا) السرية في التنظيم: وهذا مبدأ تشترك فيه بعض الجمعيات، ولكن جمعية الفتاة أكثر سرية[٤]، وقد نصت مبادئ الجمعية على مبدأ السرية، فقد جاء في الفصل الأول من الباب الأول، غاية الجمعية ، الفقرة (٢): تبقى الجمعية سرية الآن نظراً للحالة السياسية العمومية[٥]. وعوني عبدالهادي -أحد مؤسسي الجمعية- أكد على: أن تكون السرية طريقاً في تأسيسي الجمعية[٦].

---

١) انظر: ١-نشأة الحركة الحديثة-دروزة-٤٨٤.

٢-جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الريماوي-٦٧-٦٩.

٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٨٨.

٣) انظر: ١-نشأة الحركة الحديثة-محمد عزة دروزه-٤٨٥.

٢-القومية العربية-مصطفى الشهابي-٧٢.

٤) انظر: نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٩١.

٥) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٤٨٩.

٦) انظر: عوني عبدالهادي -أوراق خاصة-اعداد خيرية قاسمية-٩.

فأصبح -من تنظيم الجمعية- التكتم فيها شديداً، والداخل فيها لا يعرف من أعضائها إلا اثنين فقط، وهما اللذان ينتدبان لإدخاله ولتحليفه اليمين، ولا يتم ذلك إلا بعد أن تكون الجمعية قد اختبرت المرشح لعضويتها بوسائل شتى مدة من الزمن[1] . وكانت تحرص حرصاً شديداً على أن لا تضم إليها إلا من عرف بحسن الخلق والأمانة والكتمان وقوة النفس والجرأة، ومما يجدر ذكره عن مبدأ الكتمان والسرية لدى أعضاء جمعية الفتاة، أن أسماء الجمعيات السرية الأخرى وأسماء كثير من أعضائها قد انكشفت في سياق تحقيقات الديوان الحربي في عالية الذي أنشأه جمال باشا في أثناء الحرب، و لم يمكن كشف اسم الفتاة بالرغم من شدة المحاولات والارهاقات[2].

ومما يذكره أعضاء الجمعيات القومية العربية عن محاولة إخفاء نظام وأسرار الجمعية، أن شكري القوتلي كاتم سر الجمعية، لما تم القبض عليه من قبل جمعية الاتحاد والترقي وخشي أن يبدر منه حال الإغماء ما يقضي عليه وعلى إخوانه في الجمعية، فأعد قلماً وقرطاساً وتمدد على سريره الخشبي وقطع شريان يده اليسرى .. ورأى حارس السجن دماً تحت الباب، فأسرع إلى إخبار رئيسه، وكان الطبيب المناوب في تلك الساعة الدكتور أحمد قدري -أحد مؤسسي الجمعية- فحمل القوتلي إلى حيث عولج[3].

وأثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس المنعقد عام ١٩١٣ اتخذت جمعية الفتاة في رسائلها شفرة معينة، وهي:

بزغ فجر وطنك

١) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٧٣.

٢) حول الحركة العربية الحديثة- محمد عزة دروزه-٣٢/١.

٣) الإعلام-خير الدين الزركلي-١٧٣/٣.

مت لعضد شخصي

أحي ثقة ظسذ.

فالباء تقابل العدد الواحد وهكذا .. كيفية الكتابة .. (عبد) تكتب على الصورة التالية: ١٤،١،١٦. رقم ١٤مقابل حرف(ع)، رقم ١مقابل حرف(ب)، رقم ١٦مقابل حرف(د).

وكتابة اسم (رفيق): ٦،٤،٢٢،٢٤. رقم ٦مقابل حرف(ر)، رقم ٤مقابل حرف(ف)، رقم ٢٢مقابل حرف(ي)، رقم ٢٤مقابل حرف(ق)[1].

ومن منطلق السرية والكتمان يقول محب الدين الخطيب :(لم يكن للجمعية مقر معلوم لأنها جمعية سرية، بل كنا نعقد الاجتماع في بيوت أحد الأعضاء ولا يعلن عنه إلا قبل مدة وجيزة)[2].

ثانياً) المبدأ الأساسي للجمعية مبدأ (القومية العربية) ويبدو هذا من الحقائق التالية:

أ- اسم الجمعية وهو: العربية الفتاة، وكان مؤسسوها قد سموها في بادئ الأمر (جمعية الناطقين بالضاد)[3].

ب-عضويتها مقصورة على العرب فقط، ومفتوحة أمام كل عربي منهم مهما كانت الولاية التي ينتسب إليها من الدولة العثمانية، وقد نص نظام الجمعية على ذلك، ففي الفصل الثاني من الباب الأول: شروط الدخول في الجمعية، فقرة (أ) أن يكون عربياً مخلصاً لأمته[4].

١) انظر : جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الريماوي .

٢) سيرة جيل- محب الدين الخطيب- (مخطوط) مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

٣) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٩١.

٤) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٤٨٩.

ج- التأكيد على أن واجب الجمعية الأول -كما نص على ذلك نظام الجمعية في الفصل الثالث من الباب الأول في وظائف الجمعية وتشكيلاتها، فقرة (١٣)- هو تقوية الشعور العربي بين طبقات الأمة العربية كافة، ومبدؤها في ذلك عربي قبل كل شيء وفي كل شيء[١].

والحرص على مبدأ القومية في دستور الجمعية، وسنّ الأنظمة على إقراره يعطي التأكيد على أن الجمعيات القومية اهتمت بالجانب القومي العربي على حساب المعتقد الديني[٢]، وأن أصل الولاء والبراء هو اللغة وليس الدين. ولأهمية هذه القضية خصص لها باب مستقل لمناقشتها .

ثالثاً) الهدف من إنشاء الجمعية -على حسب ما ذكر في الوثيقة الأولى من دستور الجمعية- هو: (أن الأمة العربية في مؤخرة الأمم اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، فوجب على قادة نابتتها المدركين أن يبذلوا حياتهم فيما ينهض بها من هذا التأخر ويتدبروا فيما يؤول إلى ترقيها لتدرك معنى الحياة وتحتفظ بحقوقها الطبيعية .. وغاية الجمعية النهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية)[٣].

وهذا الهدف قد تطور على حسب ما مرت به الجمعية من مراحل، وقد قال أحمد قدري: (وقد تحاشينا ذكر اسم الاستقلال في مضامين برنامج جمعيتنا، وإن كنا في السر نسعى ونعمل وراءه)[٤].

وقد أصبحت الغاية من تأسيس الجمعية -بعد الحرب العالمية الأولى-كما جاء في منشور الجمعية الجديد في الفصل الأول من الباب الأول: (غاية الجمعية استقلال

---

١) انظر: المصدر السابق-٤٩١.

٢) انظر مثالا على ذلك: مجموعة آثار رفيق بك العظم-الجامعة العثمانية-١٣٥.- مطبعة المنار-مصر-الطبعة الأولى-١٣٤٤.

٣) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزه-٤٨٥.

٤) مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى-أحمد قدري-١٢-١٩٥٦.

البلاد العربية استقلالاً تاماً [1] بجميع معانيه الحقوقية والسياسية وتأييد ذلك الاستقلال بجعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحيّة) [2].

رابعاً) قسم الاشتراك في جمعية الفتاة العربية: يشترط في الانضمام لجمعية الفتاة أن يؤدي العضو الجديد قَسَم الجمعية، فقد جاء من شروط الدخول في الجمعية فقرة (د): أن يقسم يمين الإخلاص [3]. وهذا القَسَمُ في تنظيمات جمعية الفتاة يأتي تحقيقاً لمبدأ السرية، ونصُّ القسمِ هو:(أقسم بالله، وبشرفي أنني أسعى في تأييد غاية [الجمعية] وهي الاستقلال العربي التام، والسعي في جعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحية .

أقسم بالله وبشرفي أنني أحافظ على أسرار [الجمعية] وأفضل مصلحتها ومصلحة إخواني فيها على كل مصلحة سواها.

أقسم بالله وبشرفي أنني أطيع قانون [الجمعية] وأوامرها، والله على ما أقول شهيد) [4].

ومما يجدر التنبيه إليه في ألفاظ قسم الجمعية أنها تحتوى على ألفاظ شركية، منها: القسم بغير الله تعالى، وقد قال ابن عمر ﷺ قال النبي ﷺ:[لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ] [5] .

والمخالفة الشرعية الأخرى في قسم الجمعية: الطاعة المطلقة لقانون الجمعية وأوامرها، وترتيب عقوبة مقدرة لمخالف أوامرها. وهذه الطاعة لا

---

١) انظر: حركة اليقظة العربية-محمود منسي-١٦١. وانظر: كتاب جمعية العربية الفتاة -سهيلة الريماوي-٨٢.

٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزه-٤٨٩.

٣) المصدر السابق-٤٨٩.

٤) جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الريماوي-ملحق رقم (٢) ص ٢٩٨.

٥) صحيح البخاري-كتاب التوحيد-بَاب السُّؤَالِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَالاسْتِعَاذَةِ بِهَا-رقم الحديث (٦٨٥٢)

تكون إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ: قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ}[1].

قال ابن كثير رحمه الله: (أطيعوا الله) أي: اتبعوا كتابه (وأطيعوا الرسول) أي: خذوا بسنته، (وأولي الأمر منكم) أي: فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله[2] . ولأهمية المخالفات العقائدية عند الجمعيات القومية خصص لها باب مستقل لمناقشتها وبيان مواقفها .

خامساً) إن مؤسسي جمعية الفتاة هم من الشباب العرب الذين كانوا يواصلون دراستهم في باريس[3] وهم: عبدالغني العريسي[4] متخرج في مدرسة الصحافة وكلية علوم السياسة الدولية، وعوني عبدالهادي من طلاب كلية الحقوق في باريس، ومحمد المحمصاني[5] متخرج في كلية الحقوق في فرنسا وجميل مردم بك طالب حقوق في فرنسا[6].

ويحدث عوني عبدالهادي -وهو أحد المؤسسين للجمعية- عن الوضع المريب الذي اتخذته فرنسا أثناء إعلان الحرب ضد مواطني الدولة العثمانية، فيقول: لبثنا ننتظر مصيرنا الذي لن يكون أقل من أن نزج مع أمثالنا التابعين للبلاد المعادية للحلفاء بالمعتقلات. ولكن لم يمض كثير وقت حتى وافانا الخبر العجيب غير المنتظر، بأن الحكومة الفرنسية قررت زج الأتراك بالمعتقلات والسماح للسوريين في الإقامة أحراراً في باريس[7].

---

١) سورة النساء-رقم الآية(٥٩).

٢) تفسير القرآن العظيم-ابن كثير -٢/٣٠٤-مطبعة الشعب.

٣) الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسميه-١٩.

٤) انظر الترجمة رقم (٤٣).

٥) انظر الترجمة رقم (٥٩).

٦) المؤتمر العربي الأول في باريس - ١٤-١٦.

٧) عوني عبدالهادي-أوراق خاصة- إعداد خيرية قاسميه-١٤.

لقد احتوت الحكومة الفرنسية هذه النخبة من الدارسين في محافلها العلمية، ولذا كان من أبرز القضايا القومية في الفكر القومي، أن تبنى مؤسسو جمعية الفتاة فكرةَ انعقاد مؤتمر عربي يضم أعضاء الجمعيات القومية ، -كما أكدت ذلك الوثائق[1]- وقد سعت الجمعية ببث الدعاية للمؤتمر في باريس، وفرضت سمة السرية لجمعية العربية الفتاة أن يتصل أعضاؤها بالشخصيات العربية المعروفة في باريس، حتى تبدو عملية الدعوة للمؤتمر وكأنها صادرة عن الجالية العربية فيها[2].

سادساً) من أبرز ما ظهرت به جمعية الفتاة العربية في نشأة الفكر القومي، أن أول دولة عربية ظهرت في كيان مستقل كان أهمّ مراكزها بيد أعضاء الجمعية وفي مقدمتهم فيصل نائب الملك[3]، الذي حدد منهج هذه الدولة في البيان الذي أعلنه عند قيام الدولة بتاريخ ٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٩(١٣٣٧هـ) :

١. تشكلت في سوريا حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً.
٢. عهدتُ إلى السيد علي رضا باشا الركابي[4] بالقيادة العامة للحكومة المذكورة نظراً لثقتي باقتداره ولياقته.
٣. ليعلم جميع الناس أن حكومتنا قد تأسست على قاعدة العدالة والمساواة، فهي تنظر إلى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظراً واحداً. لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي[5].

---

١) بين يدي دراسة وافية عن قرارات المؤتمر العربي، صادر من اللجنة العليا لحزب اللامركزية الذي تبنى تنفيذ المؤتمر وقد حصلت على هذه الدراسة من مكتبة (خير الدين الزركلي) وهو من أعضاء الفتاة العربية.

٢) جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الريماوي-١٥٦.

٣) انظر: يقظة العرب-جورج انطونيوس-٢٣٧. أصبح فيصل عضواً فيها بعد أن حلف اليمين.

٤) انظر الترجمة رقم (٤٩).

٥) مؤامرة الغرب على العرب-ياسين سويد-المركز العربي للأبحاث والتوثيق-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٩٢، والمراد بالموسوي: اليهودي.

فكان من أركان هذه الدولة علي رضا الركابي رئيس الحكومة، وياسين الهاشمي المستشار العسكري، ومحمد علي التميمي قائد الشرطة ... وكانت هذه اللجنة تسيطر على الحكومة سيطرة فعلية، وكانت منها بمنزلة جمعية الاتحاد والترقي من الحكومة التركية، فما كان يتم شيء إلا بأمرها وإرادتها[1].

أصبحت الهيئة الإدارية للجمعية تُنتخب انتخاباً، وتطرح في الاجتماعات الثقة بها، بحيث تسقط إذا لم تنل ثقة الأكثرية ويتجدد انتخابها بينما بقي منشؤو الفتاة يعدون أنفسهم هيئة إدارية بصورة طبيعية، وأما رئاسة الجمعية فقد احتفظت بطابعها القديم، وهو انتخاب رئيس لكل جلسة تعقدها اللجنة الإدارية[2]. ومما يلاحظ في الانتساب إلى الجمعيات القومية العربية أنه قد يوجد أحد الأعضاء منتسباً إلى عدد من الجمعيات القومية، ولهذا ترد أسماء بعض أعضاء جمعية الفتاة ، وهم أيضاً من منسوبي جمعية العهد أو اللامركزية .. الخ من الجمعيات السرية والعلنية[3].

سابعاً) المركزية في أنظمة وقرارات الجمعية: سَنّت الجمعيةُ في نظامها الحكمَ المركزيَّ، وهذا ظاهر في لوائح قانون الجمعية والتي منها:

في مقدمة النظام، وتحت موضوع (متفرقات) جاء في البند ٢٣:- يعمل بهذا النظام، ولا يجوز قبول اقتراح الزيادة عليه أو الحذف منه أو التعديل فيه، إلا باتفاق ثلثي مجموع أعضاء اللجنة العليا[4].

---

١) الثورة العربية الكبرى-أمين سعيد-٢/٣٥.

٢) جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الريماوي-٨٥-٨٨. بتصرف.وانظر:

١. خبراتي في الحكم-حسن الحكيم-٤١.
٢. الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسميه-٦٦.

٣) انظر: العرب والترك -توفيق برو-٢٦٩.

٤) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٤٨٨.

وفي المادة الثالثة من المواد الأساسية: (على كل عضو أن يأتمر بقرارات اللجنة العليا ولو كانت عليه وخلافاً لإرادته)[١].

وقد تم حصر إصدار قرارات الجمعية باللجنة العليا، وهي تمثل السلطة القيادية المركزية للجمعية:(اللجنة العليا تتألف من سبعة أعضاء، هم مصدر أعمال الجمعية وإليهم يرجع القول الفصل..)[٢].

فهذه السلطة تكاد تكون موجودة في جميع مواد نظام الجمعية:

- (المادة ٦): مجلس الشورى تنتخبُه اللجنة العليا، وتعيينُ عدده راجع إليها.
- (المادة ١٦):للجنة العليا الخيار في استشارة مجلس الشورى ببعض الأمور الخطيرة.
- (المادة ١٧):إذا رشح أحد الأعضاء شخصاً ليكون عضواً تقرر اللجنة العليا قبوله بثلثي آراء أعضائها .
- (المادة ٢٣): من أتى عملاً يخالف قانون الجمعية أو مبدأها فأمره راجع إلى اللجنة العليا[٣] .

نهاية مسمى جمعية الفتاة العربية:

من أبرز أسباب نهاية مسمى جمعية الفتاة العربية، سببان اثنان، هما:-

السبب الأول: من منطلق التطور والتنظيم الذي اتخذته الجمعية، فقد نصت المادة (١٧) من الفصل الرابع في أعمال الهيئة المركزية العامة على أن: (يكون للجمعية حزب سياسي علني واسع، تُدار بواسطته حركة الانتخابات العمومية وتُطبّق سياستها)[٤].

---

١) المصدر السابق نفسه-٤٨٦.

٢) المصدر السابق نفسه-٤٨٦.

٣) المصدر السابق نفسه-٤٨٦-٤٨٨. وانظر: جمعية الفتاة العربية السرية-سهيلة الريماوي-٧٣.

٤) انظر: ١-نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٤٩١.

٢-القومية العربية-مصطفى الشهابي-٧٨. ٣-ستون عاماً في القافلة العربية-عجاج نويهض-١٦٧.

وتم اتخاذُ حزبٍ علنّي للجمعية من أجل محاولة التوفيق بين سرية الجمعية والتطورات الحديثة التي مرت بها، و أهم تلك التطورات القيامُ بمهام الحكومة العربية الأولى. ومن أجل أن يتسع الحزب في الوقت نفسه لضم أشخاص لا يحسن أن يكونوا في نطاق التشكيلة السرية، ولكن يحسن أن يُستفاد منهم ويُتعاون معهم، ويدخلون في دائرة توجيهاتها.

فأنشأت الجمعية في أوائل عام ١٩٢٠(١٣٣٨هـ) حزباً رسمياً باسم (حزب الاستقلال العربي) ببرنامج قومي يستهدف الوحدة العربية والاستقلال التام الشامل ... وأوجبت على جميع أعضائها القديمين والجديدين الانتساب إليه، وفتحت باب الدخول فيه بمقياس واسع[١].

وقد وضع نظام للحزب في الانتساب إليه وإدارته، فكانت أول لجنة إدارية تتولى أعمال الحزب مؤلفة من: سعيد حيدر، أسعد داغر، محمد عزة دروزة، زكي التميمي، فوزي البكري، عبدالقادر العظم[٢]،[٣]. ومن لوائح ونظام الحزب:-

١) إن غاية الحزب المسمى بحزب الاستقلال العربي المؤسس في دمشق سنة ١٩١٩ هي تأمين استقلال البلاد العربية المحررة استقلالاً سياسياً تاماً من جميع وجهاته.

٢) مركز الحزب مدينة دمشق ، ولحزب الاستقلال فروع في أمهات المدن العربية بقدر ما تسمح به الظروف الحاضرة والمستقبلة.

٣) يتألف الحزب من أعضاء عاملين وأعضاء فخريين. ليس للحزب رئيس، إدارته معلقة بقرارات اللجنة المركزية المؤلفة من خمسة عشر عضواً.

---

١) حول الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١/٨٧

٢) انظر الترجمة رقم (٤٤).

٣) خبراتي في الحكم-حسن الحكيم- ٤٦.

٤) صلاحية اللجنة المركزية القيام بما يلزم من المساعي لتأمين غاية الحزب مع تدقيق حساباته وتفرعاتها[١].

لقد أصبح هذا الحزب العمود الفقري للحياة الحزبية في سورية والمسيطر على البلاد بحيث لا يقرر عمل ولا تؤلف وزارة ولا توضع خطة إلا بالاتفاق معه[٢].

وبهذه الطريقة أصبح حزب الاستقلال الممثل العلني والرسمي لجمعية الفتاة العربية، حتى اختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يفرقون بين الجمعية والحزب[٣]. فكانت نهاية مسمى (جمعية الفتاة العربية السرية).

السبب الثاني: وسبب آخر أدى إلى نهاية مسمى جمعية الفتاة العربية، هو إعدام أبرز مؤسسي جمعية الفتاة السرية على مجموعتين، المجموعة الأولى كانت بنهاية شهر آب سنة ١٩١٥ (١٣٣٣هـ) والمجموعة الثانية بتاريخ ٦ آيار سنة ١٩١٦م(١٣٣٤هـ)[٤] وذلك لإدانتهم بأعمال تخل بأمن الدولة، كالمطالبة باستقلال البلاد العربية، ومناصرة وتأييد حزب اللامركزية، والدعوة للاحتلال الفرنسي .. وذلك بموجب اعترافات بعضهم، والحصول على وثائق ومكاتبات في القنصلية الفرنسية في دمشق تدينهم[٥].

---

١) الرعيل العربي الأول-خيرية قاسميه-١٧١-رياض الريس للكتب والنشر.

٢) خبراتي في الحكم- حسن الحكيم-٤٦.

٣) حول الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١/٨٨ . انظر:١-ستون عاماً مع القافلة العربية- عجاج نويهض-١٦٧. ٢-جمعية الفتاة العربية السرية-سهيلة الريماوي-٩٨.

٤) جمعية الفتاة العربية السرية-سهيلة الريماوي-٢٦١وانظر:مذكرات جمال باشا-٢٣٤.

٥) عن هذه القضية ينظر: ١-مذكرات جمال باشا-٢١٢ .

٢. حول الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١/٥٠.

٣. جمعية الفتاة العربية السرية-سهيلة الريماوي-٢٥٦.

٤. عشت وشاهدت-أنيس النصولي-دار الكتاب-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٥١.

٥. الثورة العربية الكبرى-أمين سعيد-١/٥٨ وما بعدها.

٦. القومية العربية-مصطفى الشهابي-٧٦.

وقد ذكر جمال باشا أثناء التحقيقات في المسائل السياسية التي جرى تدقيقُها بديوان الحرب العرفي بأن: (توفيق أفندي الناطور وعوني عبدالهادي، ومحمد افندي المحمصاني، وغيرهم قد أسسوا جمعية خفية دخل فيها عبدالغني العريسي. وكانوا يقبلون شبان العرب بعد التحليف -أي القسم- وكان الأعضاء مأذونين بقَيْد الشبان الذين يمكنهم أن يقوموا بمطالب الجمعية لا في أوروبا فقط بل في دار الخلافة وسورية أيضاً).

وقال توفيق الناطور: (إننا قد شكّلنا جمعيةً خفية في باريس ومؤسسها أنا ومحمد المحمصاني وعوني عبدالهادي وتوفيق فائد وعبدالغني العريسي، وكل أمة لا تنال حقوقها واستقلالها إلا بالمنوّرين من شبانها) .

ولما سئل سيف الدين الخطيب[1] عن مقصد هذه الجمعية قال هي: جمعية الأمة العربية في مصاف الأمم)[2].

وبهذا كانت نهاية مسمى (جمعية الفتاة العربية) ويقول محمد عزة دروزة- وهو أحد أعضائها-: (إن كثيرا من -أعضائها- القديمين والحديثين الذين تبعثروا في الأردن وفلسطين ومصر والعراق والشام لم يعرفوا عن نشاطها شيئاً. ولم تقم للفتاة قائمةُ كيانٍ رسميٍ بعد ذلك، وكل ما كان من أمر أن بعض أعضاء الفتاة وحزب الاستقلال كانوا يتعاونون[3] أحياناً وفي بعض المجالات الوطنية والمحلية)[4].

---

١) انظر الترجمة رقم (٣٣).

٢) الإيضاحات-جمال باشا-٤٩.

٣) من أعضاء جمعية الفتاة غير ما ذكر: شكري القوتلي،رفيق سلوم،يوسف ياسين،كامل القصاب،مصطفى الشهابي،خير الدين الزركلي،محب الدين الخطيب،خالد بن ياسين الحكيم،معين الماضي. وأكثر أعضاء جمعية الفتاة هم من جمعية العهد.

انظر:-القومية العربية-مصطفى الشهابي٧٥. -حول الحركة العربية الحديثة-دروزة-٨٦/١. -مجلة العربي-العدد١٥١-يونيو ١٩٧١ -ص٥٢-مقال/جمعية العربية الفتاة-سليمان موسى. -جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الريماوي-٣٠٣-٣٠٧ الإعلام-الزركلي.

٤) حول الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٩٢/١.

٨) حزب البعث العربي:

في عام ١٩١٦(١٣٣٤هـ) تم تنفيذ بنود مؤامرة المندوبين (سايكس وبيكو) القاضية بتحديد الأجزاء التي ترغب كل من بريطانية وفرنسة في أخذها من الإمبراطورية العثمانية، ثم أوعز إليهما أن يتوجها إلى الحكومة الروسية ليبحثا مقترحاتهما مع الحكومة الروسية، وحددت المقاطعات العثمانية التي ترغب كل واحدة من تلك الدول الثلاث في أن تعترف لها زميلتاها منطقة لنفوذها[١].

وفي عام ١٩٢٠(١٣٣٨هـ) تم تنفيذ المؤامرة والقضاء على حلم الجمعيات القومية العربية، وذلك بسقوط الدولة العربية الأولى[٢] في سوريا بواقعة ميسلون[٣].

وكانت البلاد العربية -منشأ الجمعيات القومية- بمقتضى هذه المؤامرة قد وزعت على فرنسا وبريطانيا ، فكان نصيب فرنسا القسم الأعظم من سورية ومنطقة الموصل في العراق . وأما بريطانيا فكانت حصتها تتألف من شريط يمتد من أقصى جنوب سورية عبر العراق ويشمل بغداد والبصرة وكل المنطقة الواقعة بين خليج العرب والمنطقة المخصصة لفرنسة[٤].

---

١) انظر نص الاتفاقية : مؤامرة الغرب على العرب-ياسين سويد-٣٨٤-المركز العربي للأبحاث والتوثيق-بيروت-الطبعة الأولى١٩٩٢.

٢) انظر الحكومة العربية الأولى في دمشق- خيرية قاسميه.

٣) ميسلون نهاية عهد-صبحي العمري-١٦٥-دار الريس للكتب والنشر-لندن-قبرص-الطبعة الأولى-١٩٩١. والمؤلف ضابط عربي خاض تلك المعركة وكتب دراسته عنها. وميسلون هضبة تقع شمال غربي دمشق، على الطريق المؤدية منها إلى بيروت، وبالقرب من الحدود اللبنانية السورية، جرت عندها الموقعة المسماة باسمها بين قوات الأمير فيصل بن الحسين بقيادة يوسف العظمة-وزير الحربية في الحكومة العربية السورية- وبين الجيش الفرنسي بقيادة غوبيه-قائد فرقة المشاة الثالثة-وذلك في يوم ٢٤يوليو ١٩٢٠. وأهمية هذه المعركة أنها أنهت استقلال أول دولة وحدوية عربية قامت في بلاد الشام بعد انهيار الحكم العثماني فيها .. ثم أخضعت هذه البلاد لانتداب استمر أكثر من ربع قرن. وتعتبر ميسلون بوابة العبور إلى سوريا الداخلية من الغرب وينظر:

١. مؤامرة الغرب على العرب-ياسين سويد -٥٣
٢. يوم ميسلون-ساطع الحصري.
٣. معركة ميسلون-إحسان الهندي-مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي-١٩٦٧.

٤) يقظة العرب- جورج انطونيوس-٣٤٩-٣٥٠(بتصرف)

لقد وقعت البلاد العربية -المنصوص عليها بالاتفاقية- تحت حكم الاستعمار الصليبي وبين هذا الاستعمار والتفرق وبين ظهور حزب البعث العربي، قصد المستعمر عدة أهداف يجب التنبيه عليها قبل الحديث عن حزب البعث، وهي:

١) أن ينشغل كل جزء من أجزاء الوطن الكبير في حل قضيته بنفسه، وأن ينسى مع الزمن الهدف الكبير الذي بدأ به.

فالسوري الذي يقطن دمشق مثلا كان في البداية يعمل لإنشاء إمبراطورية عربية كبيرة .. ثم انحسر تفكيره إلى المحافظة على سوريا الطبيعية .. ثم انحسر كذلك إلى قطعة أصغر بعد أن تقسمت سوريا إلى فلسطين وشرق الأردن ولبنان وسوريا.

٢) أن تطمئن دولة الاستعمار على نمو الروح الإقليمية مقابل الروح الإسلامية التي تعتبرها الخطر الأول الذي يهدد مصالحها .

٣) إحياء الشعوبية والطائفية .. فدولة صغيرة مثل سوريا قسمتها إلى أربع دول: دولة درزية، ودولة نصيرية، ودولة دمشق، ودولة حلب .. وكل ذلك له تأثير شعوبي وطائفي على مستقبل البلد.

٤) محاربة أي نوع من أنواع الوحدة بين الأقطار العربية .. وإذا كان الاستعمار قد تسامح مع نمو الأحزاب القومية أو الوحدوية .. غير أنه كان يدرك طبيعة هذه الأحزاب الإقليمية والشعوبية[١].

نشأة حزب البعث العربي:

إن الجمعيات القومية سالفة الذكر تختلف مع حزب البعث في مسألة التأسيس اختلافاً جوهرياً، إذ أن الجمعيات القومية سالفة الذكر نشأت تحت مظلة الحكم العثماني، وأما حزب البعث فقد يكون المثال الصحيح للحزب القومي العربي إذ كان منشأ الحزب في بلاد عربية، بل تمكن من استلام السلطة في

---

١) القومية بين النظرية والتطبيق -مصطفى الطحان-١٥٨- دار الوثائق- الكويت -الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

بعض البلاد العربية[١]. ولذا يؤكد أعضاء حزب البعث على ولائهم لثورة الشريف حسين وأنهم امتداد للثورة العربية[٢]، ولهذا يرون أن ثورة الشريف حسين تعد من أهم أسباب نشأة حزب البعث الذي جاء نتيجة لمخاض فكري ولمعاناة نضالية ساهمت في بلورتها منابع رئيسية أربعة:

١- التراث القومي والبعد التاريخي للتجربة النضالية للأمة العربية وخاصة تجربة الإسلام التي جسدت في ماضي العرب أعمق تجربة روحية وثورة فكرية واجتماعية وسياسية .

٢- الثورات المعاصرة التي بدأت بتجربة الإصلاح الديني في أوربا وبلغت ذروتها في ثورة ١٩١٧(١٣٣٥هـ) الاشتراكية التي ساهمت في طرح قضايا الشعوب والأمم المجزأة المضطهدة والجماهير المسحوقة .

٣- العالم الجديد الذي نشأ خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وعلى أنقاضهما وما طرحته التبدلات التي شملت مختلف جوانب الحياة من قضايا مصيرية، تمس مستقبل الإنسانية ومصير الشعب العربي.

٤- التجربة النضالية المعاصرة للأمة العربية التي جسدت اليقظة القومية عبر الصراع مع السيطرة العثمانية والاستعمار الغربي[٣] .

ومن خلال هذه المحاور الأربع نشأ حزب البعث الذي يعد من أهم الأحزاب السياسية التي تبنت القومية العربية، والذي تولى تأسيسه وقيادته ميشيل عفلق وصلاح البيطار[٤] وكلاهما أنهيا دراستهما الجامعية في باريس، الأول حصل على إجازة في

---

١) انظر: ١- القومية بين النظرية والتطبيق- مصطفى محمد طحان-١٩٤-٢٢٧.

٢- حزب البعث العربي-جلال السيد-٢٢-دار النهار-بيروت-١٩٧٣.

٢) انظر: سياسي يتذكر-٥١.

٣) تطور الأيدلوجية العربية الثورية-إلياس فرح-٣٥-المؤسسة العربية للدراسات والنشر- الطبعة السابعة ١٩٧٩.

٤) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-١/١٩-الطبعة الأولى ١٩٧٩.

التاريخ والثاني على إجازة في العلوم، وهناك نما بالفعل تكوينهما الفكري ووعيهما السياسي[١] ، وقد اطلعا على مزيج من التيارات اليسارية التي نشطت في باريس، وتأثرا ببقايا الفكر القومي في أوروبا، وكتابات الثورة الفرنسية[٢].

ويقرر مؤسسو حزب البعث بأنه امتداد لمبادئ وعقائد الجمعيات سابقة الذكر، فيقول أحد المؤسسين لحزب البعث: لم يكن مفاجأة للعرب من حيث المبدئ ومن حيث الفلسفة القومية والسلوك. ولكن هناك منظمات وأحزاب وجمعيات سبقته فجاء هو يحاول استدراك ما فات تلك المنظمات والأحزاب والجمعيات[٣].

وقد يتفق كل من كتب عن حزب البعث أن تاريخ تأسيسه كان في عام ١٩٤٣(١٣٦٢هـ) ثم أعلن عنه رسميا في دمشق ٧نيسان عام ١٩٤٧(١٣٦٦هـ)، وبين فترة التأسيس والإعلان فقد أصدرت نشرة هامة تحمل توقيع عفلق والبيطار، وتحمل التنظير الفكري للحزب وهي بعنوان (القومية العربية وموقفها من الشيوعية) .. ومما جاء فيها: (إننا عدنا إلى الوطن نحمل فكرة الاشتراكية كتعبير عن الغايتين اللتين وقفنا أنفسنا على تحقيقهما : مكافحة الاستعمار الأجنبي، ومكافحة الرجعية الداخلية بكل أشكالها، وقد فهمنا عن طريق تلك الفكرة أن النضال ضد المستعمر لن يكون صادقا شاملا مجديا إلا إذا كان نضالا شعبيا .. وفهمنا أيضا أن هذا النضال مرتبط أوثق الارتباط بحالة الأمة الفكرية والأخلاقية، وأنه لا بد لنجوع النضال ضد المستعمر من تهيئة انقلاب فكري يغير المفاهيم القديمة العقيمة، ويهز النفوس إلى الأعماق .. ويخلق لها نظرة أخلاقية جديدة جدية[٤].

---

١) المصدر السابق-١/١٩.

٢) سياسي يتذكر-٥١.

٣) حزب البعث العربي-جلال السيد-٢١-دار النهار-بيروت-١٩٧٣.

٤) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-١/٢٧.

وانظر: ١- حزب البعث العربي -جلال السيد-٢٨.

٢- حزب البعث- سامي الجندي-١٩.

٣- الحركات القومية في ميزان الإسلام- منير محمد نجيب-٣٣.

الدعوة لحزب البعث العربي:

من مبادئ حزب البعث العربي الإيمان بالنضال الشعبي لبعث القومية العربية[1]، ومن هذا المنطلق فقد بدأ عفلق والبيطار منذ عام ١٩٤٣ الدعوة إلى أفكار ومعتقدات الحزب، وقد ساهم في تسهيل دعوتهما أن في تلك الفترة:

١) الأوضاع السياسية في البلاد العربية: فقد كان الحلفاء الإنكليز والفرنسيون يحتلون سوريا ولبنان، وكانت جيوشهم معسكرة في مختلف أنحاء المشرق .. في هذه الظروف تكونت (الحلقة) السياسية الجديدة التي كان من أبرز وجوهها ميشيل عفلق وصلاح البيطار، وأطلقت على نفسها أسم (شباب البعث العربي)، في هذه السنة - ١٩٤٣- تقدمت هذه المجموعة من السلطة للحصول على ترخيص بإصدار صحيفة خاصة بها ولكنها لم توفق في ذلك واقتصرت النشاطات الرئيسية للحركة في ذلك الوقت على الدعوة للفكرة العربية من خلال تنظيم الاجتماعات الصغيرة العدد، وبإصدار البيانات المعادية للاحتلال الفرنسي والمطالبة بالاستقلال الكامل لسوريا، بين الفينة والأخرى[2].

٢) لم تكن العضوية في حزب البعث صعبة المنال، ذلك لأن طبيعة الحزب كانت أقرب إلى كونها حركة تبشيرية من كونها عقيدة متكاملة الجوانب، أو برنامجا محددا، و لم يكن العمل سريا بالمعنى المتعارف عليه في الحركات الثورية، كما مر ذكره من برامج وتنظيمات الجمعيات القومية العربية سالفة الذكر.

٣) معظم قيادات الحزب ومقرراته لم تكن سرا، سواء في سوريا أم لبنان أم الأردن أم العراق، ولقد ساعد ذلك طبيعة الحياة السياسية في تلك البلدان، وطبيعة أنظمة الحكم[3] .

---

١) الأحزاب السياسية في الأردن-هانيء الحوراني وأخرون-٨٧.

٢) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣٤.

٣) سياسي يتذكر-٥٦.

٤) ومن أبرز الظروف التي ساعدت على نشر مبادئ حزب البعث أن ميشيل عفلق وصلاح البيطار (مؤسسي الحزب)كانا مدرسين في مدرسة التجهيز والتي يدرس فيها أغلب أبناء العائلات الكبيرة والاعيان، ومن مختلف المناطق السورية وكان هؤلاء يقصدون دمشق بقصد التحصيل الدراسي. فكان عفلق أستاذاً للتاريخ وصلاح البيطار أستاذاً للعلوم الطبيعية والفيزياء، وقد تحلقت حول عفلق مجموعة من المعجبين به والمتعاطفين معه، وكانت هذه المجموعة ترى فيه (المعلم والمفكر). وعندما تتخرج هذه المجموعة فمنهم من يدخل سلك التعليم كمدرسين .. وهكذا كانوا يحملون راية البعث وينشرون أفكاره في مناطقهم المختلفة[١].

لقد كان عفلق من خلال تدريسه للتاريخ ينشر الفكر البعثي، فمما قال: (نحن في دور الممهدين، مهمتنا شق الطريق للجيل الجديد لا تعبيدها .. مهمتنا رفع الأشواك لا زرع الرياحين.. مهمتنا زرع البذور الخالدة لا قطف الثمار اليافعة .. وهذا الجيل لن يكون إلا بانفصاله عن الجيل القديم..إن عملنا عمل نضالي طويل يستهدف المستقبل البعيد..إن الإسلام كان ثمرة العبقرية العربية أكثر منه وحياً من عند الله.. نحن أصحاب رسالة لا سياسة).

ويقول أحد طلابه :(إن طلاب عفلق، بل مريديه كانوا يرددون أفكار عفلق، وكان يتلوها بعضنا على بعض ونتغنى بها سكارى على اختلاف أدياننا وطوائفنا حيث لا فرق بيننا، ولا يضعفنا أننا قلة وأننا وحدنا .. لقد كان تفاؤل (أستاذنا) عفلق يغمرنا لقد أطلقنا عليه (محمد ميشيل)[٢].

ويصف أحد البعثيين شخصية (المعلم المفكر) عفلق، فيقول: ..نظرة سائر الحزبيين إلى ميشيل عفلق كإله ذي صورة قدسية .. ونحن في العراق كنا كلنا

---

١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣٤.

٢) ميشيل عفلق -ذوقان قرقوط-٢٣٢و٢٣٤-المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت- ١٩٩٣.

عفلقيين قلبا وقالبا، حين نجلس أمامه نشعر أننا في حضرة المسيح (عليه أفضل الصلاة والسلام)، يأخذنا كلامه ولغته الساحرة وأسلوبه الصوفي[1].

وكان عفلق يستغل كل فرصة مواتية له من أجل بث وبيان حزبه البعثي، فلما سنحت له فرصة انتخابات تموز ١٩٤٣ التي خاضها بشخصه كمرشح مستقل .. لم يكن البعثيون في ذلك الوقت غير نواة صغيرة من المثقفين والطلاب، ولم يكن هدفهم الحصول على مقعد في البرلمان، بقدر ما كان همهم التعريف بالاتجاهات القومية والسياسية لحركتهم .. وفي هذه المناسبة أطلق لأول مرة الشعار البعثي (أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة) وفي بيانه إلى الشعب قال عفلق مرشح البعث: (ندخل الانتخابات لا باسم طائفة، ولا مدينة ، ولا مصالح قريبة أو ظروف سياسية عاجلة، بل باسم فلسفة قومية نريد أن تكون إفصاحا صادقا عن الحياة العربية في حقيقتها الخالدة ..)[2].

المبدأ والتنظيم لحزب البعث العربي:

سبقت الإشارة إلى أن مقررات حزب البعث ليست سرية، ولذا فإن بيان موقف حزب البعث العربي من الإسلام والمسلمين، من خلال تنظيمه وتنظيره ليس بالأمر الصعب، وبخاصة أنه تولى قيادة بعض البلاد العربية وسن فيها التشريعات البعثيه[3] .

لم يكن حزب البعث العربي الحزب الموجود في الساحة العربية في وقت إنشاء الحزب، فقد كانت هناك الكتل الوطنية العربية، والأحزاب الشيوعية .. الخ، ومن أجل أن يتخذ حزب البعث العربي وجوده الفعلي في البلاد العربية كانت قراراته

---

١) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي- هاني الفكيكي- ٧٨.

٢) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣٤.

٣) انظر: ١-أوكار الهزيمة تجربتي مع حزب البعث العربي-هاني الفكيكي.

٢. الحركات القومية في ميزان الإسلام-منير محمد نجيب.

٣. دولة البعث وإسلام عفلق-مطيع النونو.

تصدر في إطار جماعي ومن خلال مؤتمرات تعقد، وفيها يصدر منهج ودستور الحزب، والتي مرت بمراحل مختلفة تقتضيها ظروف معينة(١)، حتى تمكن أعضاء الحزب من النفوذ في المجتمع، عن طريق القبض على زمام الأمور في بعض البلاد العربية.

ومن هذا المنطلق كانت قرارات الحزب تختلف من فترة إلى أخرى، وبدراسة جميع قرارات الحزب يتبين للباحث محاولة تحديد مبدأ وتنظيم الحزب(٢)، بما يلي:-

أولا) موقف حزب البعث العربي من الدين الإسلامي:

أ- يقرر عفلق -النصراني- موقف الحزب من الإسلام، فيقول:(لا يفهمنا إلا المؤمنون، المؤمنون بالله، قد لا نرى نصلي مع المصلين، أو نصوم مع الصائمين، ولكننا نؤمن بالله لأننا في حاجة ملحة وفقر إليه عصيب.. ونحن وصلنا إلى هذا الإيمان و لم نبدأ به، وكسبناه بالمشقة والألم و لم نرثه إرثا، ولا استلمناه تقليدا)(٣). إن عفلق يقرر إيمانه بوجود الله فقط من غير التزام للإسلام.

وقد قرر هذا المبدأ في محاضرة (ذكرى الرسول العربي) ألقاها علم ١٩٤٣، ويقول أحد أعضاء الحزب عن تأثير هذه الكلمات في نفسه:(عندما اقرأ كراسه (ذكرى الرسول العربي) أقف مأخوذا بلغته وعندما أصل إلى نهايته حيث يقول (إذا كان محمد كل العرب فليكن كل العرب محمدا) تنتابني قشعريرة وتسري في أوصالي برودة... ومع اعتقادي بالعلمانية لم أجد أي فاصل بين القومية العربية والإسلام، فرسالتنا الخالدة كأنبياء صغار هي: بعث الأمة العربية وتجديد روحها كي تبدع ثانية كما أبدعت الإسلام)(٤).

---

١) انظر: نضال البعث-منشورات دار الطليعة- بيروت-١٩٦٣ ١٨٧/٤.

٢) انظر: حزب البعث العربي-جلال السيد -من صفحة ٨٨ إلى صفحة ١٠٦- يتحدث المؤلف فيها عن عملية الدمج بين حزب البعث العربي وبين العربي الاشتراكي والظروف والمتغيرات التي مر بها حزب البعث العربي الاشتراكي.

٣) في سبيل البعث-ميشيل عفلق-٤٢-٥٢-دار الطليعة للطباعة والنشر-الطبعة الخامسة-١٩٧١.

٤) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي-هاني الفكيكي- ٧٨.

لذا يعتبر حزب البعث الإسلام جزءا أساسيا من التراث العربي وليس جزءا بديلا عن الوجود العربي. فالأساس بالنسبة للبعث ليس الإسلام الذي يمكن أن يصادف وجوده عند العرب وغيرهم، بل العروبة ذات الحضارة الإسلامية، دون أن يكون الدين الإسلامي بالضرورة هو المقياس للعروبة[1].

ثانيا) **حزب البعث والعلمانية:**

البعث والعلمانية توأمان، فكل الأحزاب التي قامت على أساس القومية أو الوطنية .. علمانية، ولبيان علمانية حزب البعث يقول عفلق:(إن علمانية البعث هي التي تحرر الدين من ظروف السياسة وملابساتها..وتسمح له بالتالي أن يتحرر وينطلق في حياة الأفراد والمجتمع)[2].

ومن توصيات المؤتمر القومي الرابع، تعتبر الرجعية الدينية إحدى المخاطر الأساسية التي تهدد الانطلاقة التقدمية في المرحلة الحاضرة ولذلك يوصي القيادة القومية بالتركيز في النشاط الثقافي والعملي على ما يلي:

أ- علمانية الحزب، خاصة في الأقطار التي تشوه فيها الطائفية العمل السياسي

ب- إبراز التناقضات بين مصالح الفئات الرجعية المتاجرة بالدين وبين مصالح الجماهير الشعبية، وتعميق هذه التناقضات بتبني المطالب الشعبية وتشجيع الجماهير على النضال من أجل مطالبها الاجتماعية والاقتصادية ... لذلك تقرر أن أفضل سبيل لتوضيح فكرتنا القومية هو شرح وإبراز مفهومها التقدمي العلماني، وتجنب الأسلوب التقليدي في عرض الفكرة القومية، وعلى ذلك سيكون نضالنا في هذه المرحلة مركزا حول تأكيد علمانية حركتنا ومضمونها الاشتراكي لاستقطاب قاعدة شعبية لا طائفية من كل فئات الشعب وطبقاته.

---

١) سياسي يتذكر تجربة في العمل السياسي-جمال الشاعر- ٥٨.

٢) في سبيل البعث-ميشيل عفلق-١٤٤.

ج-حرية الاعتقاد: حزب البعث العربي الاشتراكي يعتبر حرية الكلام والاجتماع والاعتقاد والفن مقدسة لا يمكن لسلطة أن تنقصها[1] .

وحين إعلان البيان الأول لحزب البعث العربي في العراق ١٩٦٣، استخدمت عبارات وأفكار تضمنها البيان، قال عنها أحد مؤسسي الحزب: (غريبة عن لغة الحزب السياسية وجديدة علينا كـ{عدو الله وعدوكم} ورغم أن مسألة الإيمان بالله كانت قضية محسومة في الحزب و لم يطلها أي نقاش أو تساؤل، فإن خطاب الحزب السياسي كان ذا لثغة علمانية ورنين قوي[2].

ثالثاً) حزب البعث والقومية العربية:

من أبرز ركائز حزب البعث القومية العربية، وقد لقن ميشيل عفلق أعضاء الحزب هذه الأبيات الكفرية:

آمنت بالبعث رباً لا شريك له وبالعروبة ديناً ما له ثان

فيقرر الحزب: أن الأمة العربية فكرة خالدة، قيمة مطلقة، وبكلمة واحدة إنها الروح. ويمكن القول إن القومية العربية قد ارتفعت إلى مستوى الروح العلوية بالقدر الذي كان للدين[3]. ويؤكد عدم الاكتفاء بأن (القومية العربية) ديناً للحزب، بل إن معالجة القضايا العربية لا تكن إلا من وجهة النظرة القومية ، فهي المُحكّمة في معالجة القضايا العربية في قوميته[4].

فحزب البعث العربي الاشتراكي قومي يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة وبأن الشعور القومي الواعي الذي يربط الفرد بأمته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس.. والفكرة القومية التي يدعوا إليها الحزب هي: إرادة الشعب العربي أن يتحرر ويتوحد، وأن تعطى له فرصة تحقيق الشخصية العربية في التاريخ[5].

---

١) نضال البعث-١/١٧٢-١٨١-منشورات دار الطليعة- بيروت-١٩٦٣.

٢) أوركار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي-هاني الفكيكي - ٢٦٧.

٣) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-١/٨٠.

٤) في الثقافة والحضارة-إلياس فرح-٨٦-العراق وزارة الثقافة والفنون-دار الرشيد-١٩٧٩.

٥) نضال البعث-١/١٧٢.

لقد قرر حزب البعث العربي: إذا كانت القومية العربية هي الدين الجديد الذي أفرزته الأمة العربية في الوقت الحاضر، فإن البعث بالتالي هو الحركة التي جسدت هذه القومية. وإذا كان علم الكلام قد أساء للدين وزجه في إطار ليس له أساس .. فإن القومية العربية كالدين تماماً لا يمكن أن يستوعبها تحليل نظري جاهز.. وإذا كان الدين قديماً يقول كلمته في أوضاع الأمة جميعاً.. فإن القومية العربية اليوم هي: نظرية متكاملة لحياة ونظام للمجتمع، لها رأيها الصريح في الاقتصاد والنظام والأخلاق والإنسانية والدين[1].

رابعاً) **الولاء والبراء في تنظيم حزب البعث:**

من نتائج تقرير (العروبة) ديناً للحزب فقد أصبح الولاء والبراء من أجلها، لذا نص دستور الحزب على أن: الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدول العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين، وانصهارهم في بوتقة واحدة، وتكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية. وأن الأمة العربية وحدة ثقافية، جميع الفوارق القائمة بين أبنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي .

وتحقيقاً لمبدأ الولاء للقومية العربية فقد نص دستور الحزب على ما يلي:

أ- يُجلى عن الوطن العربي كل من دعا أو انضم إلى تكتل عنصري ضد العرب، وكل من هاجر إلى الوطن العربي لغاية استعمارية[2].

ب- ترمي سياسة الحزب التربوية إلى خلق جيلٍ عربي جديد مؤمن بوحدة أمته وخلود رسالتها آخذٍ بالتفكير العلمي، وطليقٍ من قيود الخرافات والتقاليد الرجعية..ولذا يقرر الحزب: طبعَ كل مظاهر الحياة الفكرية والاقتصادية والسياسية والعمرانية والفنية بطابع قومي عربي، يعيد للأمة صلتها بتاريخها المجيد وتحفزها إلى أن تتطلع إلى مستقبل أمجد وأمثل..[3].

---

١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٨٤.

٢) نضال البعث-١/١٧٢-١٨١

٣) المصدر السابق-١/١٧٢-١٨١.

خامسا) **حزب البعث العربي ومصدر التشريع:**

تحقيقا لعلمانية حزب البعث فقد أعطي الشعب سلطة التشريع، و لم يعبد الناس بالوحي الإلهي، فنص دستور الحزب بأنه: حزب شعبي يؤمن بأن السلطة هي ملك للشعب، وأنه وحده مصدر السلطات. كما يؤمن بالنضال الشعبي لبث القومية العربية وبناء نظام اقتصادي اشتراكي يحقق العدالة الاجتماعية وتوزيع الثورة توزيعا عادلا[1].

وتوسيعا لشمولية حزب البعث العربي، فقد قرر دستور الحزب: يوضع بملء الحرية تشريع موحد للدولة العربية ينسجم مع روح العصر الحاضر على ضوء تجارب الأمة العربية في ماضيها.

كما يرى حزب البعث العربي الاشتراكي أن الإنسانية مجموع متضامن في مصلحته، مشترك في قيمه وحضاراته. فالعرب يتغذون من الحضارة الإنسانية ويغذونها، ويمدون الإخاء إلى الأمم الأخرى ويتعاونون معها على إيجاد نظم عادلة تضمن لجميع الشعوب الرفاهية والسلام[2].

ويقول أحد أعضاء الحزب: لقد أصدر حزب البعث قانونا للأحوال الشخصية انصف المرأة وساواها في الإرث مع الرجل، مؤكدا حقها الموازي للرجل في الطلاق، وحدد سن الزواج بثمانية عشر عاما، ومنع تعدد الزوجات إلا في الحالات الاستثنائية، الشيء الذي أثار حفيظة المرجعات الدينية السنية والشيعية على السواء باعتباره قانونا مخالفا للشرع.. وقد قررت القيادة القطرية وبعد مناقشات مطولة الإبقاء على القانون باعتباره منصفا للمرأة حاميا لها، فضلا عن أنه ترك الحرية للمواطن في الأخذ به أو التزام الشرع الإسلامي[3].

---

١) الأحزاب السياسية في الأردن -هاني الوراني وأخرون- ٨٧.

٢) نضال البعث - ١٧٢/١-١٨١

٣) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي-هاني الفكيكي-١٢٩.

وفي بداية تولي الحزب السلطة في العراق، عقد اجتماعا واتخذ جملة قرارات تنظيمية وسياسية أولى فيها توضيح هوية الحكم أهمية كبرى والتأكيد على التمسك بقانون الإصلاح .. وأكد على وزراء الحزب ضرورة الإفصاح عن نهج الحكم التقدمي المعادي للاستعمار والرجعية[١].

سادسا) **حزب البعث والثورة العربية الكبرى:**

إن مؤسسي حزب البعث يعتبرون أنفسهم استمرارا للثورة العربية الكبرى، واختيارهم علم تلك الثورة علما للحزب نفسه[٢].ويبين صلاح البيطار وهو أحد مؤسسي الحزب أن سبب قبول الناس لحزب البعث ما أحدثته الثورة العربية الكبرى من وعي قومي، فيقول: كانت الناس والشباب تأتي إلى حزب البعث أفواجا في سورية الطبيعية التي تنزع بفطرتها إلى بعث القومية كقوة عربية ثورية، لأن سوريا الطبيعية وجدت في ظروف تاريخية وجغرافية جعلتها تسبق البلاد العربية في موضوع الوعي القومي.. فمثلا كانت سوريا مع ثورة الشريف حسين منذ مطلعها.. الأمير فيصل توج ملكا في دمشق عام ١٩٢٠.. هيئة أركان الملك فيصل كانت عربية فيها العراقي والسوري والفلسطيني[٣].

وقد نص في دستور الحزب فقرة رقم (٩): (راية الدولة العربية هي الثورة العربية التي انفجرت عام ١٩١٦ لتحرير الأمة العربية وتوحيدها)[٤].

سابعا) **العقائد الباطلة وانتماؤها لحزب البعث:**

في الدراسة السابقة عن الجمعيات القومية تبين الخلط العقائدي عند منتسبي الجمعيات القومية، وهذا الخلط يلزم مراعاته في دساتيرها وتنظيماتها .

---

١) المصدر السابق -٢٧٢.

٢) سياسي يتذكر تجربة في العمل السياسي-جمال الشاعر-٥١.

٣) المصدر نفسه-٦٨.

٤) نضال البعث - ١٧٢/١-١٨١

إن حزب البعث كغيره من التنظيمات القومية لم يسلم من هذا الانتماء الطائفي، ومؤسس الحزب (ميشيل عفلق نصراني. وعندما قام الكيان اللبناني على أساس طليعية المارونيين وأكثرية المسيحيين، ظلت طوائف المسلمين تستجيب لمختلف الدعوات غير اللبنانية، والعربية منها خاصةً أو الإسلامية، كذلك فإن المسيحيين من غير الموارنة كانوا أكثر استجابة من الموارنة لمثل تلك الدعوات، كالدعوة السورية القومية والشيوعية والأفكار العربية.

وكانت نسبة المسيحيين (النصارى) في حزب البعث مرتفعة لدرجة أن معظم الكوادر القيادية دون القيادة القطرية كانت مسيحية، وفي العراق فقد بدأ تكوين الحزب في أوساط السنة من العرب وكان الشيعة قد أقبلوا على الحوب في بداية تأسيسه إلا أن اقتراب البعثيين من السلطة أعاد للأقلية السنية امتيازاتها التقليدية وسيطرتها على الدولة والحزب[1].

ويصف أحد أعضاء حزب البعث العربي حال أعضاء قيادة الفرقة الحزبية، بأنهم: (جميعهم في الكاظمية شيعة، وكذلك كان حال أعضاء التنظيم.. حتى أن عملنا الحزبي كان يتوقف في شهر محرم ويوم عاشوراء من كل عام.. ولم يشذ أعضاء الحزب عن غيرهم من أبناء الكاظمية .. هذا التعايش بين العقائدي والمذهبي كان عاماً، ولم يقتصر على البعثيين، فقد كنت تجد الشيوعي والقومي والديموقرطي الوطني يمارسون بدورهم النشاطات نفسها)[2].

وعند الإعلان عن تأسيس حزب البعث، تردد عفلق في توليه قيادة الحزب، بسبب كون أمين الحزب (والذي يشغله ميشيل عفلق) رجل نصراني مع أن حزب البعث قد نشأ في بلاد مسلمة. فقد ذكر أحد مؤسسي الحزب، بأن عفلق قد قال له: (إذا كان الحزب ينوي أن يمارس العمل السياسي ويحصل على

---

١) سياسي يتذكر تجربة في العمل السياسي-جمال الشاعر-٦٤.

٢) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي-هاني الفكيكي-٨٣.

مكاسب فيجب عليه أن يتخذ الأساليب النافعة في هذا المضمار. -فذكر منها:إن حزباً قومياً في مدينة دمشق المحافظة، وهو يتألف من أكثرية ساحقة من المسلمين بحكم التكوين العام للوطن، كيف يجوز له أن يكون أمينه العام مسيحياً).

فكان رد على هذا الأمر بأن منهج الحزب إذا كان يسير تماماً وفق الأعراف الدارجة ويخضع للمفاهيم العارضة فما هي الانقلابية التي نص عليها دستور الحزب. وهل الانقلابية تعني شيئاً غير التمسك بالحق ولو خالفه الكثيرون. أكد لعفلق أنه ليس في الحزب أحد غيره يستطيع أداء هذه المهمة وأن الحزب ما يزال بقضه وقضيضه يكن له الاحترام ويمنحه التأييد.. وأنه الوحيد الذي يصلح للأمانة العامة. وأن المسايرة واللين والتأثير الروحي التي ينطبع بها عفلق ليست متوافرة في غيره[1].

وبعد هذا التعريف الموجز عن حزب البعث العربي، يجب الإشارة إلى قضية مهمة وهي، أن الحزب قد رفع شعار(أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة)[2].

ومن دستور حزب البعث كما في المادة رقم (٣): الفكرة القومية التي يدعو إليها الحزب هي: إرادة الشعب أن يتحرر ويتوحد، وأن تعطى له فرصة تحقيق الشخصية العربية في التاريخ...)[3] .

هذا الشعارات في نظام حزب البعث لا تخرج عن كونها شعارات رمزية، ويدل على ذلك ما يلي:

الأمر الأول:- قال أحد أعضاء الحزب:- كان معتقدي الديني ذابلاً متراجعاً لا لمصلحة عقلانية متنورة، بل أمام طغيان المعتقدية القومية على نفسي. وبطبيعة الحال لم يصاحب ذلك إيمان بالديمقراطية أو حرص على مؤسساتها. وما

---

١) حزب البعث العربي-جلال السيد-٨٤. (بتصرف يسير).

٢) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٨٤.

٣) نضال البعث-١/١٧٢-١٨١

كنا نقوله ونكتبه عن الحريات لم يعد كونه لغواً ثقافياً وحزبياً أو استخداماً لمصطلحات درجَتِ الأحزاب على مخاطبة الناس بها[1].

الأمر الثاني:- تصريح مؤسس الحزب -ميشيل عفلق- في طريقة مقاومة المخالف فيقول: إن مقاومة الأفكار الهدامة لا تقتصر على مناقشتها ودحضها، بل تملي تصفية المؤمنين بها والداعين إليها[2]. ولذا من دستور الحزب كما في المادة (٦): حزب البعث العربي الاشتراكي، انقلابي يؤمن بأن أهدافه الرئيسية في بعث القومية العربية وبناء الاشتراكية لا يمكن أن تتم إلا عن طريق الانقلاب والنضال. وأن الاعتماد على التطور البطيء والاكتفاء بالإصلاح الجزئي يهددان هذه الأهداف بالفشل والضياع[3].

الأمر الثالث:-تاريخ حزب البعث وصراعه السياسي يناقض دعواه ودستوره (أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة) فمنذ بدايات تأسيس الحزب وهو في صراع من أجل الوصول إلى السلطة[4].

ويقول أحد المؤسسين للحزب: وحزب البعث عندما استلم السلطة في العراق وسورية جنح إلى الأسلوب الشديد، فعاقب على الشُّبْهة ونفذ مبدأ المسؤولية الجماعية وقتل وسجن وأفقر وأجاع كلَّ من يرى أنه ليس مؤيداً ولا مؤمناً بالحزب، ثم مد بعضُهم يَدَه إلى خزانة الدولة فعمل فيها إسرافاً وبعثرة[5].

ففي سوريا مثلاً -نشأة الحزب- يقرر ميشيل عفلق تعمد تأييد وسائل العنف والثورة لأنه كان يشعر بأن مجال نجاح أهدافه الاجتماعية نادراً ما يتحقق

١) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي-هاني الفكيكي- ١٠٩.

٢) المصدر السابق نفسه-٧٧.

٣) نضال البعث-١/١٧٢-١٨١وانظر: خبراتي في الحكم-حسن الحكيم- ٥٥.

٤) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٨٤

٥) حزب البعث العربي-جلال السيد- ٢٠٤.

إلا إذا أطيح بأنظمة الحكم القديمة بانقلاب عسكري، ثم يتولى الحكم صفوة مختلوة من الناس يعملون على تطوير أنظمة حكم جديدة وفقاً لأفكار ومثل عليا جديد[1].

ويقول أحد مؤسسي حزب البعث:(منذ عام ١٩٤٩ أخذ الحزب يمهد لانقلاب عسكري.. وفي ٢٩ مارس من هذه السنة أطاح الجيش بنظام القوتلي وحل محله الزعيم حسني الزعيم[2])[3] .. الذي حل البرلمان وعلق الدستور، ووقع اتفاقية الهدنة مع إسرائيل...(و لم يستطع البعثيون أن يفوزوا بالكثير في ظل مثل هذا الحاكم المتسلط، فوقع الصِّدام)[4] وزج حسني الزعيم بقيادة البعث في المعتقل لمدة ثلاث أسابيع.. وقد تعرض عفلق في معتقله إلى المضايقات.. الأمر الذي جعله يكتب لحسني الزعيم رسالة[5] يعترف بها عفلق بأخطائه وأخطاء حزبه.. وقد كثف حزب البعث وأكرم الحوراني اتصالاتهم بالضباط الشبان، وكان الانقلاب الثاني بتاريخ ١٤/٨/١٩٤٩(٢٠/١٠/١٣٦٨هـ) بقيادة اللواء سامي الحناوي... وشكل الحناوي وزارة برئاسة هاشم الأتاسي[6]، دخلها ميشيل عفلق وزيراً للتربية وأكرم الحوراني وزيراً للزراعة..وفي الانتخابات النيابية ..فاز فيها

---

١) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٧٣-الدار المتحدة للنشر-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٧٣.

٢) انظر الترجمة رقم (١٩).

٣) حزب البعث-سامي الجندي-٥١-دار النهار-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٦٩.

٤) نضال البعث-١/٢٩٢.

٥) قيادة حزب البعث المرتدة-محمود عبدالرحيم-٦-القاهرة-الدار القومية. وانظر رسالة عفلق وبخط يده في كتاب: دولة البعث وإسلام عفلق-مطيع النونو-٥٦١. وعن تأثير هذه الرسالة على الحزب، قال سامي الجندي: عندما خرج الأستاذ من السجن جُوبِه بثورةٍ من الحزبيين رفضوا جميعاً كل تعليل أعطي لهم، كانوا مجمعين على أن الموت أفضل وأن المهم أن يبقى شرف الحزب ورسالته، وأن شهيداً ينقلها للأجيال خير من أحياء تراجعوا أمام التهديد والتعذيب. والبادرة كانت خطيرة وهي إنما تدل على أن القائد ميشيل عفلق قد انتهى وحل محله الأستاذ الذي ظل الحزب على ولائه له واحترام فكره دون الإيمان بقدرته على الزعامة. حزب البعث-سامي الجندي-٥٤-٥٥. وعن التبريرات التي ذكرها البعثيون عن هذه الرسالة.انظر:حزب البعث العربي-جلال السيد-٦٢-٦٥.وقيادة حزب البعث المرتدة-محمود عبدالرحيم-٦.

٦) انظر الترجمة رقم (٧٠).

جلال السيد -عضو اللجنة التنفيذية للحزب- عن منطقة دير الزور...وفي ملرس ١٩٥٤ غادر الشيشكلي البلاد بعد إعلان النقيب مصطفى حمدون عن انقلاب جديد وكان للبعثيين كالعادة دور طليعي في إسقاط الحكم السابق وفي تأييد الانقلاب اللاحق[١].

وحزب البعث العربي في العراق لم يخل من صراع مع مخالفيه، بل وبين أعضائه، وقد قال أحد مؤسسي الحزب في العراق: (لا أذكر أن حزب البعث أوقف هذه الاغتيالات أو حاول الوقوف في وجهها، بل يمكنني القول إننا في بعض المناطق والأحياء شجعناها ورعيناها من دون أن يكون ثمة دور مكشوف أو مباشر للحزب الذي أدان الاغتيال السياسي سابقا)[٢].

ومثال الصراعات السياسية في حزب البعث العراقي: تكاتف عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف بانقلاب ١٤تموز ١٩٥٨(١٣٧٧هـ) الذي نفذه مجموعة من القوميين والشيوعيين وكان لحزب البعث علم به فقد قال أحد أعضاء الحزب: (وقبيل ١٤ تموز أبلغنا جعفر قاسم حمودي-عضو القيادة القطرية- أن أحداثا عربية حاسمة ستحصل في القريب العاجل، طالبا وضع أجهزة الحزب ومؤيديه في حالة طوارئ ..وكانت قيادة البعث على علم دقيق وتفصيلي بالثورة وتنظيمات الضباط) [٣].

ومن آثار هذا الانقلاب أن حزب البعث الذي نزل أفراده إلى الشارع بعد تموز[٤]، كان أصبح، على ضعفه، التنظيم الحزبي الأقوى للحركة القومية في العراق .. وعين فؤاد الركابي-أمين سر الحزب- وزيرا للإعمار[٥] . وبعد انفراد

---

١) القومية بين النظرية والتطبيق- مصطفى محمد طحان-٢٠١-٢١٦.

وانظر: خبراتي في الحكم-دولة حسن الحكيم-١٦-٢٨-فقد استعرض بداية ونهاية تولي الحكومات القومية في سوريا، والتي من ضمنها حزب البعث العربي .

٢) أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي-هاني الفكيكي-١٦٧.

٣) المصدر السابق نفسه-٨٥.

٤) انظر: العراق دراسة في علاقاته الخارجية وتطوراته الداخلية-عبدالمجيد القيسي-١/٣٢١.

٥) المصدر السابق نفسه-٨٧.

عبدالكريم قاسم بالسلطة قامت مجموعة من البعثيين في أكتوبر ١٩٥٩(١٣٧٩هـ) بمحاولة اغتيال قاسم.[١] وخطط للعملية فؤاد الركابي.. وتفرد حزب البعث مع بعض أنصاره في الانقلاب الدموي ضد عبدالكريم قاسم في ٨ فبراير ١٩٦٣، والذي أسفر عن تولية عبدالسلام عارف رئاسة الجمهورية، وتأليف حكومة برئاسة أحمد حسن البكر من بعثيين وقوميين عرب..أما المجلس الوطني لقيادة الثورة فقد كان أغلبه من البعثيين ... في غمرة الفوضى وتضارب المصالح البعثية قام عبدالسلام عارف بحركة يوم ١٨ نوفمبر ١٩٦٣ وخلص العراق من شلة المغامرين البعثيين.. وفي ١٩٦٦ قام عبدالرزاق النايف وعبدالرحمن الداوود بانقلاب جديد تعاونا فيه مع قيادة حزب البعث[٢]. وهكذا كان وما زال تاريخ حزب البعث وواقعه صراع .. وانقلاب.

---

١) لقد تمت تسع محاولات اغتيال لعبدالكريم قاسم، وكانت الجهة المسؤولة عن ذلك حزب البعث. انظر:

١. عبدالكريم قاسم وساعاته الأخيرة-أحمد فوزي ٧٢-٩٩-دار الحرية للطباعة-العراق-الطبعة الأولى-١٤٠٩هـ.

٢. العراق في عهد عبدالكريم قاسم دراسة في القوى السياسية والصراع الأيدلوجي(١٩٥٨-١٩٦٣)-محمد كاظم-١٣٣-مكتبة اليقظة العربية-العراق-بغداد.

٢) القومية بين النظرية والتطبيق- مصطفى محمد طحان-٢١٧-٢٢١. وانظر: أوكار الهزيمة تجربتي في حزب البعث العراقي-هاني الفكيكي-٢١٣-٣١٧.

الفصل الثاني

أهم أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية

تمهيد

المبحث الأول: الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيات القومية

١. الجمعيات الماسونية في البلاد العثمانية

٢. الدعوة إلى القومية التركية

٣. تآمر الدول الغربية على الدولة العثمانية

٤. الاستعمار العسكري

٥. التنظيمات الجاهلية في الدولة العثمانية

المبحث الثاني: الأسباب الفرعية في نشأة الجمعيات القومية

١-دور البعثات العلمية في نشأة الجمعيات

٢-دور كتابات بعض دعاة الفكر القومي

٣-دور الصحافة في نشأة الجمعيات

٤-دور نصارى العرب في نشأة الجمعيات

الفصل الثاني

أهم أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية

تمهيد

وبعد التعريف بنشأة الجمعيات القومية ، وعرض المنهج القومي الذي سلكته في المجتمعات الإسلامية،نذكر في هذا الفصل أهم أسباب نشأة الجمعيات القومية.

من خلال تتبع المراجع التي ترجمت الجمعيات القومية، وبدراسة مناهج وتنظيم تلك الجمعيات، يظهر للدارس أن هذه الجمعيات القومية العربية لم تظهر في الأمة الإسلامية بدون سبب، وإنما يقطع الباحث في تاريخها ، أن ظهور الجمعيات القومية العربية في واقع المجتمعات الإسلامية؛ كانت لأسبابٍ وعواملَ قد تكون أساسية أو فرعية خضع لها المجتمع العربي خلال فترة معينة، فكانت سبباً لنشأة هذه الجمعيات.

ويمكن حصر هذه الأسباب في قسمين:

القسم الأول) أسباب أساسية.

القسم الثاني) أسباب فرعية.

المبحث الأول: الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيات القومية

السبب الأول: الجمعيات الماسونية في البلاد العثمانية.

قبل الحديث عن المحافل الماسونية ودورها في تأسيس الجمعيات القومية، سأورد تعريفاً موجزاً بالماسونية، والتي تعد من أخطر الجمعيات السرية، ثم أنقل الحكم الشرعيَّ في المحافل الماسونية والانتساب إليها وخطرها على الأمة.

أما التعريف بالماسونية فهي: تعني (Free Mason) أي البنّاء الحر، وهي من أقدم الجمعيات السرية التي مازالت قائمة حتى عصرنا الراهن، وكثير من الكتابات تختلف في تاريخ نشأة الماسونية وذلك بسبب سريتها، ولأنها جمعية ذات فروع ومجالات وميادين متعددة ومتشعبة في مختلف العالم(1) .

ومقصدُ هذه الجمعيات المختلفة واحدٌ وهو القضاء على الدين، ولهذا كان هناك ارتباط اليهود بالمعتقد الماسوني، ويصرح أعضاء المحافل الماسونية بانتساب الماسونية لليهود، فيقولون: (إن الماسونية يهودية، وهذا ما لاشك فيه)(2).

ويقول الحاخام اليهودي إسحق وايزمن عن الماسونية: إنها مؤسسة يهودية وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وشروحها إلا أفكاراً يهودية من البداية إلى النهاية(3).

---

١) عن تاريخ نشأة الماسونية انظر:

١. تاريخ الماسونية العام-جرجي زيدان-٨٨-٨٩-مطبعة المحروسة-مصر-١٨٨٩.

٢. الحقائق الأصلية في تاريخ الماسونية العملية-شاهين مكاريوس-١٨٢-مطبعة المقتطف-مصر-١٨٩٧.

٣. الماسونية عقيدة المولد وعار النهاية-محمود الشاذلي-مكتبة وهبة-مصر.

٢) دائرة المعارف الماسونية المصورة-الماسوني: حنا أبي راشد-٢٤-مكتبة الفكر العربي-بيروت-لبنان.

٣) اليهودية-أحمد شلبي-٣٢٦-مكتبة النهضة المصرية-القاهرة-الطبعة السابعة-١٩٨٤.

ومن أبرز أهداف الماسونية القضاء على الدين ونشر الإلحاد، فيقول شاهين مكاريوس الماسوني: (إننا نؤكد أن الماسون يعتبرون الأديان كلها خرافة متساوية). كما تؤكد المحافل الماسونية أنها تتجاهل الفوارق الدينية والجنسية، وأن دينها العقل المحرر من شوائب الأديان[1] -كما يقولون-.

وقد قام زعماء الماسونية من اليهود عام ١٧٧٦(١١٨٩هـ) بإعداد مخطط على أسس حديثة نظموه من أجل السيطرة على العالم عن طريق فرض عقيدة الإلحاد، ويحقق هذا المخطط الأهداف التالية:

١. تدمير جميع الحكومات الشرعية وتقويض الأديان السماوية.

٢. تقسيم البشر إلى معسكرات متنابذة تتصارع فيما بينها بشكل دائم حول عدد من المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعنصرية.

٣. بث سموم الشقاق والنزاع داخل البلد الواحد وتمزيقه إلى فئات متناحرة وإشاعة الحقد فيه، وتقويض دعاماته الأخلاقية والدينية والمادية.

وقد نصت مضابط المحفل الماسوني الأكبر عام ١٨٩٧ (١٣١٤هـ): لا يقبل المتدينون في المحافل الماسونية لأن الذي ينخرط في المحافل يجب أن يكون حراً، والماسوني الحقيقي لا يكون متديناً، وعلى الماسونية أن تتفق مع أولئك الذين لا يدعون إلى الدين أمثال الاشتراكيين والديمقراطيين، ودعاة حقوق الإنسان

١) دائرة المعارف الماسونية-٨٠.

والجمعيات المتحررة الأخرى، وعليها أن تشترك في المجالات الأخرى للعمل كالجامعات الشعبية والمدارس السياسية والمؤسسات الأخرى(1).

ولخطورة هذه المبادئ على عقيدة المسلمين، فقد صدر القرار من المجمع الفقهي في مكة المكرمة حكما شرعيا حول الماسونية والانتماء إليها، ونص القرار ما يلي:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه، أما بعد:

نظر المجمع الفقهي في دورته الأولى المنعقدة بمكة المكرمة في ١٠/٨/١٣٩٨هـ، الموافق ١٥/٧/١٩٧٨م في قضية الماسونية والمنتسبين إليها، وحكم الشريعة الإسلامية في ذلك.

وقد قام أعضاء المجمع بدراسة وافية عن هذه المنظمة الخطيرة، وطالع ما كتب عنها من قديم وجديد، وما نشر من وثائقها نفسها فيما كتبه ونشره أعضاؤها وبعض أقطابها، من مؤلفات ومن مقالات، في المجلات التي تنطق باسمها.

وقد تبين للمجمع في صورة لا تقبل الريب من مجموع ما اطلع عليه من كتابات ونصوص، ما يلي:

١- إن الماسونية منظمة سرية، تخفي تنظيمها تارة، وتعلنه تارة بحسب ظروف الزمان والمكان، ولكن مبادئها الحقيقية التي تقوم عليها هي سرية في جميع

---

1) اليهودية والماسونية-عبدالرحمن الدوسري-٤٣و٤٧-دار السنة-الرياض-الطبعة الأولى-١٤١٤هـوانظر:

١. الماسونية والماسونيين في الوطن العربي-حسين حماده.
٢. الماسونية ذلك العالم المجهول-صابر طعيمة.
٣. الماسونية في العراء-محمد الزغبي.
٤. أسرار الماسونية-جواد رفعت.

الأحوال، محجوبٌ عِلْمُها حتى على أعضائها إلا خواص الخواص الذين يصلون بالتجارب العديدة إلى مراتب عليا فيها.

٢- إنها تبني صلة أعضائها بعضهم ببعض في جميع بقاع الأرض على أساس ظاهري للتمويه على المغفلين، هو الإخاء الإنساني المزعوم بين جميع الداخلين في تنظيمها، دون تمييز بين مختلف العقائد والنحل والمذاهب.

٣- إنها تجتذب الأشخاص إليها ممن يهمها ضمهم إلى تنظيمها بطرق الإغراء بالمنفعة الشخصية، على أساس أن كلّ أخٍ ماسوني مجندٍ عونُ كلّ أخٍ ماسوني آخر في أي بقعة من بقاع الأرض، يعينه في حاجاته وأهدافه ومشكلاته، ويؤيده في الأهداف إذا كان من ذوي الطموح السياسي ويعينه إذا وقع في مأزق من المآزق أيّاً كان، على أساس معاونته في الحق والباطل ظالماً أو ومظلوماً، وإن كانت تستر ذلك ظاهرياً، بأنها تعينه على الحق والباطل، وهذا أعظم إغراء تصطاد به الناس من مختلف المراكز الاجتماعية.

٤- إن الدخول فيها يقوم على أساس احتفال بانتساب عضو جديد تحت مراسم وأشكال رمزية إرهابية لإرهاب العضو إذا خالف تعليماتها، والأوامر التي تصدر إليه بطريق التسلسل في الرتبة.

٥- إن الأعضاء المغفلين يُتْركون أحراراً في ممارسة عباداتهم الدينية، وتستفيد من توجيههم وتكليفهم في الحدود التي يصلحون لها، ويبقون في مراتب دنيا، أما الملاحدة أو المستعدون للإلحاد فترتقي مراتبهم تدريجياً في ضوء التجارب والامتحانات المتكررة للعضو، على حسب استعداده لخدمة مخططاتها ومبادئها الخطيرة.

٦- إنها ذات أهداف سياسية، ولها في معظم الانقلابات السياسية والعسكرية والتغييرات الخطيرة ضلع وأصابع ظاهرة أو خفية.

٧- إنها في أصلها وأساس تنظيمها يهودية الجذور، ويهودية الإدارة العليا العالمية السرية، وصهيونية النشاط.

٨- إنها في أهدافها الحقيقية السرية ضد الأديان جميعاً لتهدمها بصورة عامة، وتهدم الإسلام في نفوس أبنائه بصورة خاصة.

٩- إنها تحرص على اختيار المنتسبين إليها من ذوي المكانة المالية أو السياسية أو الاجتماعية العلمية أو أية مكانة يمكن أن تستغل نفوذها لأصحابها في مجتمعاتهم، ولا يهمها انتساب من ليس له مكانة يمكن استغلالها، ولذلك تحرص كل الحرص على ضم الملوك والرؤساء والوزراء وكبار موظفي الدولة ونحوهم.

١٠- إنها ذات فروع تأخذ أسماء أخرى تمويهاً وتحويلاً للأنظار، لكي تستطيع ممارسة نشاطاتها تحت مختلف الأسماء إذا لقيت مقاومة لاسم الماسونية في محيط ما، وتلك الفروع المستورة-بأسماء مختلفة، من أبرزها منظمة الأسود (الليونز)، والروتاري- إلى غير ذلك من المبادئ والنشاطات الخبيثة، التي تتنافى كلياً مع قواعد الإسلام وتناقضه مناقضة كلية.

وقد تبين للمجمع بصورة واضحة العلاقة الوثيقة للماسونية باليهودية الصهيونية العالمية... لذلك ولكثير من المعلومات الأخرى التفصيلية عن نشاطات الماسونية وخطورتها العظمى، وتلبيساتها الخبيثة، وأهدافها الماكرة، **يقرر المجمع الفقهي اعتبار الماسونية من أخطر المنظمات الهدامة على الإسلام والمسلمين، وأن من ينتسب إليها وهو على علم بحقيقتها وأهدافها فهو كافر بالإسلام مجانب لأهله. والله ولي التوفيق**[1].

---

١) جريدة أخبار العالم الإسلامي-تاريخ ١٣٩٩/٦/١١هـ.

ولقد سبق الحديث في الفصل الأول عن علاقة بعض أعضاء الجمعيات القومية بالمحافل الماسونية، وبيان أسماء المحافل الماسونية في البلاد العربية[1].

وفي هذا المبحث سأبين أن المحافل الماسونية والتي أنشئت في البلاد العربية كانت من الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيات القومية العربية، حيث شكلت المحافل أطرا لتبادل الأفكار القومية التحررية من الدين ونشرها.

لقد أكد الباحثون في تاريخ الماسونية في الوطن العربي أن الماسونية قد وجدت طريقها إلى سوريا. واشترك فيها الكثير من أعضاء الجمعيات القومية، حيث رأوا أن انتسابهم إلى المحافل الماسونية فيه كل الخير لقضيتهم[2] كما واهتمت المحافل الماسونية بشاغلي الدرجات الرفيعة في الجمعيات القومية العربية [3].

ويمكن حصر تأثير وإملاء الأسس الماسونية على نظم ومبادئ الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر، بما يلي:-

أولا) تزعم بعض أعضاء الجمعيات القومية رئاسة وتأسيس محافل الماسونية:

سبق الإشارة في الفصل الأول من الباب الأول بيان بعض أسماء المحافل الماسونية في الوطن العربي، وقد تزعم بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية رئاسة المحافل الماسونية، ومنهم:

١. عادل أرسلان -أحد أعضاء المنتدى الأدبي-[4] شارك في رئاسة المحفل الأكبر الوطني السوري اللبناني[5].

---

١) انظر: ص (**٣٧**) من الرسالة.

٢) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده-١٧٧.

٣) يقظة العرب-جورج انطونيوس- ٧٩-الطبعة الغير معربة.

٤) انظر: ذكرياتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-١٢٦.

٥) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده- ١٥٧.

٢. فارس الخوري: من مؤسسي جمعية بيروت السرية[١]، فقد كان من أعضاء المحفل الاسكتلندي، وهو من أقدم محافل الماسونية في سوريا ولبنان[٢].

٣. إلياس حبالين: وقد شارك في محافل الماسونية في سورية[٣].

٤. عبدالرحمن الشهبندر: من أعضاء المنتدى الأدبي[٤] وقد كان من أعضاء المحفل الاسكتلدني في دمشق[٥].

٥. محمد جميل بيهم: من المؤسسين للجمعيات القومية قد تولى رئاسة المحفل الماسوني في لبنان عام ١٩٢٤[٦].

٦. سعيد الجزائري: الذي حصل على لقب القطب الأعظم[٧] وكان من أبرز دعاة القومية العربية، فكان أول من نادى في دمشق بالثورة العربية[٨].

وقد ضمت محافل الماسونية .بعض زعماء القوميين، مثال ذلك: نوري السعيد، توفيق السويدي، وأديب الشيشكلي [٩].

ويؤكد من كتب عن رموز الحركة العربية الحديثة، أن أعضاء الجمعيات القومية العربية قد نظموا صفوفهم **مستفيدين من الأنظمة الماسونية السرية، فأخذوا يؤسسون الجمعيات السرية على غرار تلك الأنظمة مقتبسين بعض**

---

١) انظر: نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦٠.

٢) الماسونية ذلك العالم المجهول-عبدالحليم الياس الخوري- ٥٤.

٣) جريدة المقتطف الجزء ٣٦-٢٥٠-٢٧٠-مارس ١٩١٠. وانظر العرب والترك-توفيق برو-٤٣.

٤) انظر الترجمة رقم (٤٢). وانظر : مذكراتي على هامش القضية العربية- أسعد داغر-١٢٦.

٥) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده- ١٦٣.

٦) انظر الترجمة رقم (٦٠). وانظر:مقدمة كتاب فلسفة تاريخ محمد ﷺ-حسان حلاق-١٣.

٧) انظر الترجمة رقم (٢٩). وانظر:الماسونية مالها وما عليها ماضيها وحاضرها-سعيد الجزائري-٣٥٤.

٨) جهاد نصف قرن الأمير سعيد آل عبدالقادر الجزائري- أنور الرفاعي-٩٨.

٩) انظر الترجمة رقم (٣). وانظر:الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده-١٦٨.

طقوسها للمحافظة على سريتها، حتى يمكن القول بحق كما قيل يوماً في فرنسة بأن تاريخ النهضة العربية هو تاريخ الجمعيات السرية التي أسسها متعصبون لقوميتهم دفاعاً عنها ورداً على تحدي دعاة القومية التركية[1].

ويذكر الباحث (نجدة صفوت) أنه حصل على إحدى القوائم بأسماء الماسونيين في العراق، ووجد فيها أن المنتمين للماسونية جميعهم من الطبقة البورجوازية والعليا في المجتمع العراقي، وبينهم ٣٥ وزيراً ورئيس وزراء سابق على الأقل، وعدد من الشخصيات البارزة التي احتلت مراكز هامة في الدولة، وعدد من كبار ضباط الجيش[2].

وقد قال السفير البريطاني جيرارد لاثر: (إن بعض نواب المعارضة وخاصة العرب منهم، أدركوا بأنهم أصبحوا مبعدين عن مصادر السلطة وخارج تيار الأسوار السياسية والمؤتمرات المحلية، فبدؤوا ينشئون لهم محافل ماسونية خاصة بهم، أو ينضمون إلى المحافل القائمة)[3].

ومما أكده الباحثون عن تاريخ تأسيس المحافل الماسونية أن الانتساب إلى المحفل الماسونية كان يخص الفئة التي تشربت أفكار الثورات الأوربية فقط، و أما العامة فيصف أحد أعضاء الجمعيات والمنتسب إلى المحافل الماسونية، موقفهم منها، فيقول: ..أما العامة فلا تسأل عما غرس في أذهانهم من الكره والاحتقار لجماعة الماسون حتى اصبح اسمهم مرادفاً لأدنى صفات الاحتقار عندهم، فكانوا إذا أرادوا المبالغة في وصف أحد الكفرة أو المنافقين لا يجدون أنسب من قولهم (فارماسون)[4] وهذا مما يجعل من ينتسب إلى هذه المحافل أن يكتم أمره عن الناس.

---

١) الشيخ طاهر الجزائري (رائد النهضة العلمية في بلاد الشام)- عدنان الخطيب-١٣٣-١٣٤.

٢) الماسونية في الوطن العربي- نجدة صفوت-٥٤.

٣) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده- ١١٣.

٤) السر المصون في شيعة الفرمسون-لويس شيخو اليسوعي-١٤-المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين-بيروت-١٩١٠ وانظر: تاريخ الماسونية-جرجي زيدان-١٩٨. وكلمة (فارماسون) كلمة لاتينية، وتعني (البناؤون الأحرار). كما ذكرت ذلك: دائرة المعارف الماسونية-حنا أبي راشد.

وقال محمد كرد علي[1]:(قل أن رأيت موظفا كبيرا لم يدخل الماسونية، ومعظم من انضموا إلى حظيرتها عندما كانوا من الطامعين في حمايتها)[2].

وانتساب الفئة التي تشربت الثقافة العلمانية في المحافل الماسونية قد ذكرها السلطان عبدالحميد في مذكراته، -الذي كان على علم بالمحافل الماسونية وأهدافها في الدولة العثمانية-، فقد قال في مذكراته عن المحافل الماسونية:- (إنهم يحاولون بحماس زائد نشر أفكار تجديدية لا يفهمها الناس.. والذين يميلون إلى التعاون مع هؤلاء حفنة من الناس بقيت خارج البلاد ردحا من الزمن فانقطعت عن جذورها، وتثقفت ثقافة أوربية سطحية براقة)[3].

ثانيا) **تشابه في التنظيم والتأسيس:**

وعن تأثير المحافل الماسونية في الجمعيات القومية العربية، ظهور التشابه البين في النظم والمبادئ وقد صرح أعضاء الجمعيات بأن للمحافل الماسونية دورا بارزا في نشأة الجمعيات القومية، كما قال فارس نمر: إن كثيرين من أحرار سورية النابغين يعترفون بالفضل في خدمة الحرية لرجال العشيرة الماسونية في سورية من مسلمين ومسيحيين. فيا طالما سهروا الليالي وبذلوا الرخيص والغالي لإعداد أبناء سورية لقبول المبادئ الحرة والنظامات الدستورية[4].

ويقول شاهين مكاريوس -أحد أعضاء جمعية بيروت السرية-: (في سنة ١٨٨٨(١٣٠٣هـ) ترأس المحفل الأكبر توفيق باشا[5] خديوي مصر، وأناب عنه

---

١) انظر الترجمة رقم (٦٣).

٢) مذكرات محمد كرد علي-١/٣٢٥-نقلا من كتاب الشيخ طاهر الجزائري-عدنان الخطيب-١٣٩.

٣) مذكراتي السياسية -السلطان عبدالحميد-٧٣.

٤) مجلة المقتطف-الجزء الثالث-المجلد(٣٦)-سنة ١٣٢٨/١٩١٠-مقال:(النهضة الدستورية-فارس نمر)

٥) محمد توفيق باشا بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي، ولد عام ١٢٦٩هـ وتعلم في القاهرة، أكبر أبناء (إسماعيل) تولى الخديوية بعد عزل والده عام ١٢٩٦هـ أنشئ نظام الشورى ومحاكم أهليه، في عصره نشبت الثورة العرابية، توفي بالقاهرة عام ١٣٠٩هـ. انظر:الإعلام-الزركلي-٦/٦٥.

حسين فخري باشا. وكان بين سعادة فخري باشا وبيننا مودة فكنا نزوره مراراً في مترله ونتلقى منه التعليمات اللازمة ونزور بصحبته المحافل الوطنية وغيرها، فزهت بمدته الماسونية وكثر عدد أعضائها وكان الخديوي توفيق باشا يود نجاح الماسونية ويشجعها في أعمالها ويهتم في شؤون أعضائها وترقيتهم[١].

فمن أوجه التشابه في النظام بين المحافل الماسونية والجمعيات القومية أن طريقة الانتساب إلى الجمعيات القومية واحدة، ففي نظام الانتساب إلى الجمعيات القومية يلاحظ تطبيق مبدأ السرية، وينص نظام الجمعية بأنه: إذا ما أنس أحد الأعضاء في شخص عربي نزعة وطنية عربية نظير نزعتنا وجب عليه أن يقدم تقريراً حتى إذا ما دُرس الدراسة الوافية واستوثقت الجمعية من أهليته، أصدر القرار بقبول انتسابه مبدئياً، ثم عُهد إلى شخصين هما مُقَدِّمُهُ وأحدُ الأعضاء بدراسة كافّةِ أحواله وملابساته .. ومتى تم هذا كله دعي إلى تأدية القسم أمامهما فقط، وهو لا يعرف من أعضاء الجمعية غيرهما[٢].

وفي تنظيم محافل الماسونية لا يترك أمر الدخول في عضويته عفوياً ولمن شاء فقد كان لزاماً أن يمر العضو الماسوني بمجرد انخراطه في التنظيم الماسوني بمراحل أو بأشكال تنظيمية لاختيار معدن العضو الجديد ومعرفة مدى كفاءته[٣].

ولقد أولت المحافل الماسونية عناية فائقة بتثقيف أعضائها، وقامت بنشر أفكارها بين الأعضاء على أساس الإخاء والمساواة بين البشر من كل الطبقات دون تمييز للمهنة والقومية والدين[٤] .

---

١) تاريخ الماسونية القديمة وآثارها-شاهين مكاريوس-١٤٩-دار مارون عبود-١٩٨٤.

٢) جمعية العربية الفتاة السرية-سيهلة الريماوي-٧٧.

٣) الآداب الماسونية-شاهين مكاريوس وهو أحد أعضاء جمعية بيروت السرية. انظر: الماسونية ذلك العالم المجهول-صابر طعيمه-١٦١-دار الجيل-بيروت-الطبعة الثانية-١٩٨١.

٤) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية-الكوثراني-١١٥.

هذه هي العقيدة الحقيقة للماسونية، وأما تأسيس الجمعيات القومية العربية فهي قضية مرحلية لتطبيق أهداف الماسونية ولذا أوصت المحافل الماسونية أتباعها، بأن ينفذوا في صفوف **الجمعيات الدينية وغيرها**، بل عليهم إن احتاج الأمر أن يقوموا بتأسيس تلك **الجمعيات** على أن لا تشم منها أي رائحة حقيقية للدين[1].

ومن أجل هذه التوصيات فقد ظهر في تأسيس الجمعيات القومية أن القوميين اتبعوا مبدأ تأسيس الجمعيات على أسس ماسونية، فجمعية زهرة الآداب -مثلا- والتي تأسست في بيروت، يقول سليمان البستاني-أحد مؤسسيها-: (نهض شبان البلاد على اختلاف نزعاتهم إلى إنشاء المنتديات وتأليف الجمعيات العلمية والأدبية طلباً للإفادة والاستفادة.. ولا أزال أذكر ذلك اليوم الميمون إذ حدا بيننا هذا الحادي فألفنا جمعية زهرة الآداب في بيروت، وتآلفنا عصابة لم يكن فيها أثر لفارق بين مسلم ومسيحي، وسننّا قانوناً فجعلنا أول مواده منع التعرض للبحث في الدين والسياسة)[2] وجمعية زهرة الآداب تعد من المحافل الماسونية في البلاد العربية[3].

ثالثاً) تبني أعضاء الجمعيات القومية المبادئ الماسونية:

إن كثيراً من المبادئ التي دعت إليها الجمعيات القومية العربية تتفق مع المبادئ الماسونية، وسوف أذكر نماذج من أوجه تأثير المبادئ الماسونية على الجمعيات القومية. فمن ذلك ما يلي:

١) الأجوبة المفيدة -عبدالرحمن الدوسري-١٧٩-دار الأرقم-الكويت-الطبعة الأولى- ١٤٠٢هـ.

٢) عبرة وذكرى-سليمان البستاني-٥٥-مطبعة الأخبار-أكتوبر-١٩٠٨.

٣) السر المصون في شيعة الفرمسون-لويس شيخو اليسوعي- ٤٦/٢. تأسست سنة ١٨٧٣ وبلغ عدد أعضائها ٤٠ عضواً.

١) الدعوة للشعار الماسوني:

إن شعار الماسونية (حرية -عدالة-أخوة-مساواة) أصبح دارجاً على مبادئ وأنظمة الجمعيات القومية العربية[١]، فيقول محمد عزة دروزة عن شعار الماسونية لقد أصبح شعاراً عاماً تردده الأفواه وتوضع به الشعارات الحمراء والبيضاء على الصدور والحوانيت والمؤسسات[٢].

لقد أصبح الشعار الماسوني ضمن المبادئ القومية التي تنادي بها الجمعيات، فقد قال البارودي[٣] في مذكراته: (المثقفون من أبناء البلاد -العربية- مشوا مع أحرار الأتراك ينادون مثلهم، ويخطبون ويرشدون إلى تفسير (الحرية والمساواة والعدالة والأخوة) وجدت هذه الكلمات صدى في نفوس الناس، وراح الاتحاديون-جمعية الاتحاد والترقي- ينادون بالإخاء، فيجمعون رجال الأديان المختلفة، ويطلبون إليهم أن يتعانقوا بعضهم مع بعض، ويخطبوا بعد العناق بتأييد هذا الإخاء... قام شبان الأتراك يخطبون باللغة التركية، وخريجو المدارس العالية من أبنائنا يخطبون باللغة العربية، ومنهم السادة: الإنكليزي[٤]، والشهبندر[٥]، وفارس الخوري[٦]. وكانوا يؤثرون على الجماهير بأقوالهم ويسترسلون في الحديث عن الحرية ومعانيها)[٧] وجميع من ذكرهم البارودي من أعضاء الجمعيات القومية.

---

١) انظر الاتجاهات الفكرية في عصر النهضة (١٧٩٨-١٩١٤) علي المحافظة-٩٧-الأهلية للنشر-بيروت-١٩٨٣. (أخوة -حرية -مساواة) هو الشعار الماسوني انظر: دائرة المعارف الماسونية-حنا أبي راشد-١/٢٥١.

٢) نشأة الحركة العربية الحديثة- محمد عزة دروزة-٢٧٧.

٣) انظر الترجمة رقم (٥٦).

٤) انظر الترجمة رقم (٤٦).

٥) انظر: مذكرات عبدالرحمن الشهبندر-دار الإرشاد-بيروت-الطبعة الأولى-١٣٨٦هـ.

٦) انظر الترجمة رقم (٤٥).

٧) مذكرات البارودي-١/٦٣.

وتفاعل أعضاء الجمعيات القومية مع هذه المبادئ الجديدة وفق المنهج الماسوني، فقد عالج أعضاء الجمعيات موضوع الحرية مثلاً، وكلهم مجمعون على أنها الضالة الحبيبة المنشودة وعرفوها: أنه يباح للمرء عمل كل ما يريد شرط أن لا يؤذي غيره .. وكما سعت الثورة الفرنسية إلى حرية الرأي والعقيدة الدينية والطباعة والخطابة والانتخاب، وحرية التصرف بالأملاك وتنظيم الجمعيات..فقد سعى أعضاء الجمعيات إلى هذه الحريات جميعها وعالجوا قضية المساواة، وفهموها كما فهمتها الماسونية وأقرتها، أي: مساواة أمام قانون واحد يسري على جميع المواطنين، يَمْثُلون كلهم أمامه لا فرق بين غني وفقير وأبناء مذهب ومذهب[1].

٢) الثناء على الثورة الفرنسية والتأثر بمنهجها الثوري:

إن أفكار الثورة الفرنسية، ذات الفكر والمعتقد الماسوني[2] كان لها عظيم الأثر على الجمعيات القومية، وقد اعتبر أعضاء الجمعيات الثورة الفرنسية من أسباب الرقي وقالوا عنها: لولا الثورة الفرنسية لما ارتقى الإنسان واصطلح نوع الأحكام إلى ما هي عليه الآن، ليس في فرنسا وحدها، بل في أوربا كلها، بل في العالم قاطبة[3].

---

١) الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي-رئيف الخوري-١٥١.(بتصرف يسير)

٢) وقف كثير من المؤرخين على العلاقة الوثيقة بين الماسونية وبين الثورة الفرنسية. وفي مقدمتهم المسيو (تموترو) الذي نشر مذكراته التاريخية عام ١٩١٢. والذي أكد صراحةً بأن الثورة الفرنسية كان ضبط أزمتها في أيدي الماسونية، وأنهم هم الذين دبروا كل فصولها ولعبوا كافة أدوارها. انظر:العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي-أنور الجندي-٤٥٧-دار الكتاب اللبناني-بيروت-الطبعة الثانية-١٩٨٣.

٣) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي-رئيف الخوري-١٢٢-دار المكشوف-بيروت-لبنان-الطبعة الثانية ١٩٧٣

وأثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس تحدث رئيس المؤتمر عبدالحميد الزهراوي عن موضوع (تربيتنا السياسية) مبيناً موقف الجمعيات القومية تجاه الأفكار الأوربية في مجال السياسة والاجتماع، ومما قاله الزهراوي: إنه حان للشرق أن يمشي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه (الغرب)، والغرب اليوم مقتد بالشرق ومهما أردنا أن نقول يجب على الشرقي أن يحتاط فيما يريد أخذه من بدع الغرب فإننا لا نستطيع أن ننكر أن عدم اقتباس الشرقيين شيئاً من وسائل حرية الغربيين فيه من الخطر أضعاف أضعاف ما في الجمود على الحالات المعهودة فالاقتباس لا بد منه.

وبعد تقرير هذه التبعية للمبادئ الغربية قال الزهراوي: واجب علينا الشكر لأساتذتنا الذين لم يبلغوا مكانتهم في الاجتماع والسياسة مجاناً ، ولهذا رأيت أن أعلن في مقدمة خطبتي أننا سنعترف بالجميل دائماً وأننا سنحتفظ لأوربا ذكرى ما نقتبسه منها .. وجئنا أوربا ونريد أن يجيئها كثيرون منا لتكبر عقولنا وهممنا برؤية آثار العقول والهمم، جئنا أوربا ليزداد علمنا في حضارتها وأساليب اجتماعها الراقي..)[1].

كما قد شبه أعضاء الجمعيات (الثورة العربية) -التي قادها أعضاء الجمعيات- بالثورة الفرنسية، واعتبروا الثورة العربية ثورة عامة على سائر نظم البلاد، غايتها قلب النظم الاجتماعية قبل النظم السياسية، وقد حذا فريق من قادتها حذو أمثالهم في فرنسا، وقلدوهم تقليداً تاماً، ورَمَوْا إلى ما رَمَوْا إليه من أهداف في الثورة الفرنسية الكبرى[2].

---

١) المؤتمر العربي الأول المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية في باريس - ٣١.

٢) معروف الرصافي (دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية)- بدوي أحمد طبانة-٥-القاهرة-١٩٤٦.

إن الدول الصليبية وبالذات فرنسا أصبحت حامية ومباركة للجمعيات القومية العربية، ولذا كانت نشأة بعض الجمعيـــات القوميـــة علـــى أرض فرنســـا في (باريس)[1] ومؤسسوا الجمعيات قد درسوا وتخرجوا من جامعتها[2].

ولقد كان من نتائج انتساب أعضاء الجمعيات القومية العربية إلى المحـــافل الماسونية، أن تولدت كما يقول فيليب حتي: مبادئ القومية العربيـــة الشـــاملة، واستمدت وحيها على الأغلب من النظريات السياسية الأمريكية، التي اســـتمدت إلهامها من مبادئ الثورة الفرنسية، وكان ظهور مبادئ القومية العربية على يـــد رجال الفكر السوريين، وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين الذين تثقفوا في المـــدارس الأمريكية في بلادهم.

وبعد أن بين فيليب أثر انتساب أعضاء الجمعيات القومية إلى المحافل الماســـونية قال فيليب: (ومما لا ريب فيه أن القومية الحديثة إنما هي بضاعة غربية اســـتوردها العالم بما فيه الشرق العربي من أوربا الغربية)[3].

٣) نشر المعتقدات العلمانية في واقع المسلمين:

من قرارات المؤتمر الماسوني، الذي عقدته المحافل الماسونية الســـورية اللبنانيـــة في مدينة دمشق سنة ١٩٢٤وترأسه القطب الأعظم صاحب الشوكة الأمير محمــــد سعيد الجزائري، ما يلي:

١) أن يكون التعليم علمانياً، مع المطالبة بتسليم الكليات التابعـــة لجامعـــة (ليون) إلى إدارة فرنسية غير مقيدة بواجبات مذهبية (كاثوليكية).

---

١) كجمعية رابطة الوطن العربي، وجمعية العربية الفتاة، وحزب البعث. انظر : ص(٥٢و١١٧) من الرسالة.

٢) انظر أثر البعثات العلمية في تأسيس الجمعيات القومية العربية-ص (١٩٨) من الرسالة.

٣) العرب تاريخ موجز-فيليب حتي-٢٧٢-٢٧٣-دار العلم للملايين-بيروت-الطبعة الخامسة-١٩٨٠.

٢) إزالة الطائفية في الوظائف الإدارية، وجعل الكفاءة أساس التوظيف[١].

ويذكر فؤاد الغصن[٢] الماسوني في مذكراته عن هذا المؤتمر بأنه قد: قامت مختلف الهيئات في سوريا ولبنان تدرس وتخطط في سبيل السير قُدماً نحو التقدم والفلاح، وكان في طليعة هذه الهيئات البناؤون الأحرار -أو الماسونيون إذا شئت-، فعقدت محافلهم مؤتمراً تمهيدياً في سوريا العام ١٩٢٤ اتُّخذت فيه مقررات لدرس الأمور التالية:-

١) القانون الأساسي للبلاد.

٢) الحرية الشخصية في المسكن والقول والنشر .

٣) التشريع الفردي وأنظمة القضاء، ووضع القوانين.

٤) مسائل التربية والتعليم[٣].

ولنشر أفكار محافل الماسونية أصدروا عدداً من الصحف والمجلات في البلاد العربية، مثال ذلك: جريدة الأحرار، فقد اتفقت جماعة البنّائين الأحرار على تأسيس جريدة كبرى تنطق بلسانهم وتعبر عن أمانيهم بالاتحاد والتعاون في سبيل دعم النهضة الجديدة، فكان أن استقر رأيهم على أن يؤسس لهذه الغاية شركة مساهمة لجريدة أطلق عليها اسم (الأحرار)، وتولى جبران التويني[٤] الصحفي -أحد أعضاء محافل الماسونية- إدارة الجريدة ورئاسة تحريرها، فكانت أوسع الجرائد انتشاراً إذ كانت تقرأ في كل مكان من البلاد العربية[٥].

١) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده-١٣٦(بتصرف).
٢) انظر الترجمة رقم (٥٣).
٣) مذكراتي خلال قرن-فؤاد غصن-٢٤٠.
٤) انظر الترجمة رقم (١٣).
٥) مذكراتي خلال قرن-فؤاد غصن-١٤١. (بتصرف يسير)

ومن الصحف الماسونية في البلاد العربية، (مجلة اللطائف) وكان صدور المجلة سنة ١٨٨٦(١٣٠٣هـ) أصدرها شاهين مكاريوس الماسوني وأحد أعضاء جمعية بيروت السرية ، وقد روجت المجلة لأفكار الماسونية، وتوقفت المجلة لوفاة شاهين مكاريوس سنة ١٩١٠(١٣٢٨هـ) ثم استمر في النشر سنة ١٩١٥(١٣٣٣هـ) على يد إسكندر بن شاهين مكاريوس[١].

ومن الصحف أيضاً مجلة (المقتطف) ومن مؤسسيها فارس نمر وكذلك صحيفة الهلال وحررها جرجي زيدان[٢] الذي صور الماسونية بأنها حركة حرية وخير[٣].

٤) تهميش الدين الإسلامي:

ومن المبادئ الماسونية التي تأثرت بها الجمعيات، تهميش الدين وعدم الاهتمام به، حيث اعتبرت الماسونية الأديان كلها خرافة متساوية، قال كولفين: (إننا إذا سمحنا ليهودي أو لمسلم أو لكاثوليكي أو لبروتستانتي بالدخول في أحد هياكل الماسونية فإنما ذلك يتم على شرط أن الداخل يتجرد عن أضاليله السابقة ويجحد خرافاته وأوهامه التي خدع بها في شبابه فيصير رجلاً جديداً فلو بقي على ما كان عليه لا يستفيد ألبته من محافلنا الماسونية)[٤].

وهذا الموقف الماسوني من الدين تأثرت به الجمعيات القومية العربية، فقد أصبح مفهوم (الأخوة) عند رجال الحركة القومية العربية: هو كل من آمن ببلاد العرب وطناً له، وبالعرب إخواناً له، دون اعتبار لدينه أو مذهبه.

---

١) الماسونية في منطقة ٢٤٥-أبو إسلام أحمد عبدالله-٤٣-٤٤.

٢) انظر الترجمة رقم (١٤).

٣) اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب-أنور الجندي-١٦٥-دار الاعتصام-القاهرة-١٩٩١.

٤) السر المصون في شيعة الفرمسون-لويس شيخو اليسوعي-٢٣.

وقررت الجمعيات القومية أن الحركة القومية الحديثة لم تقم على أي مبدأ عنصري أو تعصبي أو ديني. ومنذ البداية قامت التشكيلات الحزبية على اشتراك العرب المسلمين والمسيحيين[١]. فكانت بمقتضى مناهجها -قد قررت الجمعيات القومية- أن يُترك كلٌّ إنسانٍ ومعتقده، فلست على أحد بمسيطر، والناس أحرار لهم أن يدينوا بما يشاؤون، ويتعصبوا بما يريدون[٢].

وقد ورث أعضاء الجمعيات القومية العربية، البغض الشديد للدين و القصيدة التالية التي قالها أحد أعضاء الجمعيات القومية والمتأثر بالمحافل الماسونية، تعبر عن ذلك :

الخير كل الخير في هدم الجوامع والكنائس

والشر كل الشر ما بين العمائم والقلانس

ما هم رجال الله فـ ـيكم بل هم القوم الأبالس

يمشون بين ظهوركم تحت القلانس والطيالس[٣]

فمن الدروس التي تعلمتها الجمعيات القومية العربية من المحافل الماسونية، أن تتفق جميع الملل ولا يكفّر بعضها البعض، لأن جميعهم يعبدون إلهاً واحداً -ولا يقصد العبادة بمعناها الشامل فهذا غير حاصل-ويسكنون أرضاً واحدة ويأكلون الطعام نفسه.. وأن الفرق الأساسي بين المذاهب ناشئ عن اختلاف في الإدراك، وتفاوت المشارب بإمكان التوفيق بينها وجمعها على عتبة واحدة، فالأصل لازم والفروعات تترك وتهمل[٤].

١) الحركة العربية سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة-سليمان موسى-٦٣.

٢) جريدة المفيد برقم ١٣٧٩ وتاريخ ١٩١٣/٩/١٨(نقلا من كتاب العرب والترك-توفيق برو-٤٨١)

٣) السر المصون في شيعة الفرمسون-لويس شيخو -٢٤ والشاعر هو: إبراهيم اليازجي. وقيل إنها لمكاريوس.

٤) مذكرات طه الهاشمي-(١٩١٩-١٩٤٣)-٤٦-منشورات دار الطليعة-بيروت-الطبعة الأولى ١٩٦٧.

وانطلاقاً من مبدأ إزالة التنافر من المجتمع يلزم تحقيق مبدأ: اتحاد عناصر المجتمع المؤلف من أجناس وأديان وعادات مختلفة[1].

رابعاً) التعاون مع الماسونية للقضاء على مفهوم الخلافة الشرعية في الإسلام:

لقد اتفقت المبادئ الماسونية مع مبادئ الجمعيات القومية في الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية، وقد قال أحد أعضاء الماسونية: الماسونيون هم الذين حرروا العالم من سلطان البابوية، وفرقوا بين السلطة المدنية والسلطة الدينية للبابا... وإن تركيا قد نالت دستورها بفضل محافلها-وبخاصة في سلانيك مدينة يهود الدونمة-[2].

وهذا المنهج الجاهلي كان من ضمن المبادئ التي اقتبستها الجمعيات القومية، من المحافل الماسونية، فقد أجمعت الجمعيات القومية على تأييد مطلب فصل الدين عن الدولة، وحصر نفوذ السلطات الروحية في نطاق خاص بها لا تتعداه[3].

ولتحقيق هذا المبدأ ناصر أعضاء الجمعيات القومية جمعية الاتحاد والترقي، وانتسب بعض الأعضاء فيها مثل رفيق العظم، وحقي العظم[4]، وعزيز علي المصري، وسليمان البستاني[5]، ورشيد رضا، وسليم الجزائري[6]. وهي جمعية أكثر أعضائها من الماسونيين، وقدمت الماسونية الدولية كل المساعدات الممكنة لهذه الجمعية[7].

---

١) ثورة العرب- أحد أعضاء الجمعيات القومية- ٥٨.

٢) جريدة السياسة الأسبوعية-١١/١٢/١٩٢٦. كتابة/عزيز ميرهم.

٣) الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي-رئيف الخوري-١٥٦.

وانظر: -دراسات الفكر العربي-٦٣-١٥٩-معهد الإنماء العربي- بيروت-لبنان-الطبعة الأولى ١٩٨٣.

٤) انظر الترجمة رقم (٢٢).

٥) انظر الترجمة رقم (٣٢).

٦) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢٩٧

٧) انظر: أحمد نوري النعيمي: أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين-١٣٢.

وانطلاقاً من مبدأ احتواء المحافل الماسونية للجمعيات المعارضة لحكم السلطان عبدالحميد ، فقد دأب أعضاء الجمعيات على عقد اجتماعاتهم السرية في المحافل الماسونية، وفتحت السفارات الأجنبية أبوابها لكل مخطط عصيان على السلطان[1].

وبهذا فقد كانت المحافل الماسونية وبناءً على توصيات محاضرها قد ضمت المحافل الماسونية القوميين العرب الذين يعيشون خارج حدود الدولة العثمانية -قبل إعلان الدستور-، مثال أمين أرسلان[2] وخليل غانم[3].

وكان خليل غانم يكتب في عدة صحف أوربية ذات نفوذ اتحادي وأجنبي وتمويل يهودي ضد السلطان عبدالحميد. ففي عام ١٨٩٥(١٣١٣هـ) كتب مقالاً بالاشتراك مع أمين أرسلان في صحيفة (تركيا الفتاة) في سنتها الأولى وعددها الأول عدّدَ فيه أهداف الجمعية وغاياتها في الحصول على حرية شخصية وحرية معتدلة..واستئصال الأغراض والمنافع الشخصية وتعديل الضرائب ومساواتها[4].

وجمعية الاتحاد والترقي أو (تركيا الفتاة) منذ إنشائها لم يظهر بين قادتها وزعمائها عضو واحد من أصل تركي خالص، فأنور باشا -مثلا- هو ابن رجل بولندي، وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة، وقلوصوه من اليهود الأسبان القاطنين في سلانيك[5]. الحاخام الأكبر، وكان يسمى

١) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية-حسان علي حلاق-٢٨٨-جامعة بيروت -بيروت-١٣٩٨.

٢) انظر الترجمة رقم (٧).

٣) انظر الترجمة رقم (٢٣).

٤) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية-حسان علي حلاق-٢٨٨-٢٨٩.

٥) المصدر السابق نفسه-٣٠٥.

(ناعوم) القطب الأعظم لمحفل سلانيك الماسوني[1]. وكان طلعت باشا بلغاريا من أصل غجري اعتنق الإسلام ظاهرا، أما أحمد رضا -أحد زعمائهم في تلك الفترة- فقد كان نصفه شركسيا، والنصف الآخر مجريا[2].

فاتفقت المبادئ الماسونية والمبادئ القومية العربية وتحالف أعضاء الجمعيات القومية مع جمعية الاتحاد والترقي لإسقاط السلطان عبدالحميد[3]، والقضاء على مفهوم الخلافة الشرعية في الإسلام ثم إعلان الدستور[4]، وأخذ كثيرون من شباب الطليعة-كما تقول مجلة الهلال القومية- يشتركون مع الأتراك والعناصر الأخرى الحاقدة على حكم السلطان للإطاحة به[5]، ولم يتأخر بعض كبارهم عن الانتساب إلى جمعية الاتحاد والترقي، والظهور بمظهر غلاة الداعين إلى التحرر[6].

وبعد تحقيق القضاء على الخلافة الشرعية والإطاحة بالسلطان عبدالحميد- كشف الغطاء عن المحافل والجمعيات الماسونية، كما قال أعضاء المحافل الماسونية: قد رأينا في أصقاعنا -الدولة العثمانية-نهضة الماسونية منذ أعلن الدستور وما مر علينا بعض أشهر حتى ذقنا من ثمار تلك الشجرة السيئة، فقام (ماسون) بلادنا

---

١) الماسونية في العراء-محمد علي الزعبي-٢٢٠.

٢) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية-حسان علي الحلاق-٣٠٥

٣) انظر :مذكراتي السياسية-السلطان عبدالحميد-٧٣.

٤) انظر: الباب الثالث-الفصل الأول من الرسالة ص: (٦٥٧).

٥) انظر:مجلة الهلال-الجزء الأول من السنة (١٧) -٦/٩/١٣٢٦-بعنوان:الانقلاب السياسي العثماني ص٣.

٦) الشيخ طاهر الجزائري (رائد النهضة العلمية في بلاد الشام)- عدنان الخطيب-٧١-معهد البحوث والدراسات العربية-١٩٧١.

وقعدوا لضبط أزمة السياسة وعلى الأقل لعقد الأحزاب السياسية وتغليب آرائهم الثورية بإلقاء الخطب..)[1].

كما صرح أحد أعضاء جمعية الاتحاد عقب نجاح الانقلاب بالمساعدات التي حصلوا عليها، فقال:- (لقد كان للمساعدات المالية والمعنوية التي تلقيناها من الجمعية الماسونية الأثر الكبير في حركتنا، ويجب ألا نستغرب ذلك لأننا ماسونيون أيضاً، وأود أن أوجه شكري إلى الجمعية الماسونية الإيطالية التي أمدتنا بالعون العظيم نظراً لارتباطنا الوثيق بها)[2].

السبب الثاني) الدعوة إلى القومية التركية:

يعتبر القرن التاسع عشر الميلادي عصر القوميات في القارة الأوروبية، فكانت عوامل التغيير والتبديل تنطلق من هذا الأساس الجاهلي، وتأثرت البلاد العثمانية بهذا الواقع، ونحو منتهى القرن التاسع عشر الميلادي اجتازت العصبية الجنسية حدود أوربة وبلغت الأقطار الآسيوية وانتشرت فيها انتشاراً سريعاً فنشأت حركة [3] تركية الفتاة ومصر الفتاة[4] وحركات وطنية أخرى .. وما كاد يطلع القرن العشرون حتى بدأت صادقات الأدلة وواقعات الحال تفيد أن العصبية الجنسية في آسية .. قد اجتازت مخاضها ودخلت في دورها الثاني أعني دور التئام العروق وتألبها الجنسي، فنشأت جامعات جنسية عديدة[5] .

---

١) السر المصون في شيعة الفرمسون-لويس شيخو اليسوعي-٣٤.

٢) الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري-سهيل صابان-١٦٧.

٣) جمعية الفتاة وهي التي تولت سلطة الحكم بأسم جمعية الاتحاد والترقي.

٤) جمعية العربية الفتاة انظر: الباب الأول-الفصل الأول ص (١٠٢)

٥) حاضر العالم الإسلامي-لوثروب ستؤارد-٤/٧٧-دار الفكر-بيروت-الطبعة الرابعة ١٣٩٤.

وقبل ظهور المبدأ القومي عند الأتراك حيث مبدأ الوحدة الإسلامية هو الحاكم والفاصل ما كانت تُعرَّفُ كلمةُ (التركية) -في عرف رجال الدولة وكتابها- إلا مرادفةً للعامية والبدائية، فكانت لا تستعمل إلا للدلالة على السوقة والسذج من الناس .. واللغة الرسمية نفسها ما كانت تنسب إلى التركية بل كانت تنعت بـ(العثمانية) فإنهم كانوا يقولون: (لساني عثماني) بمعنى اللغة العثمانية و(صرف عثماني) بمعنى الصرف العثماني و(أدبيات عثمانية) بمعنى الآداب العثمانية.. ويظهر من كل ما تقدم أن كل شيء في السلطنة العثمانية كان ينعت تارة وطوراً بالإسلامية ولكنه ما كان ينسب إلى التركية أبداً[١].

وقد زار أحد المستشرقين القسطنطينية سنة ١٨٥٦(١٢٧٢هـ)، وذكر من ضمن ملحوظاته على الناس: أن كلمة (تركلك)-ترك- تُفْهم وتُعَدّ من مترادفات الفظاظة والشكاسة والهمجية، فيقول: (لما كنت أقدم على تنبيه الناس إلى الخطورة العظمى التي يجب اعتبارها في شأن متحدر الجنس التركي، كانوا يجيبونني: [ولكن بالله عليك لا تجعلنا في مصاف الكير غيز وجفاة التتر]. كدت لا أرى إلا أقل من القليل من الترك في القسطنطينية من يذهب مذهب الجد والاهتمام في شأن الجنسية التركية أو اللغة التركية)[٢].

ولذا ظل الترك كما يصفهم -لوثروب ستؤارز- حتى نصف القرن الذي خلا -التاسع عشر- يكادون لا يعرفون شيئاً من ماضيهم وتاريخهم وأصلهم ومنتسبهم ... وكانوا بمعزل عن تصفح تاريخ بلادهم وصحف آبائهم وأجدادهم -بمنطلق قومي جاهلي- إذ كانت تلاوة الكتب الدينية والسيرة النبوية والأحاديث

---

١) محاضرات في نشوء الفكرة القومية-ساطع الحصري-٩٢-مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت-لبنان-الطبعة الثانية- ١٩٨٥.

٢) حاضر العالم الإسلامي-لوثروب- ٤/١١١.

عن مجمل ماضي الإسلام، أمراً يلذهم أكثر من تلاوة أنباء انتشار الفتوح العثمانية في القارات الثلاث[1].

وإضافة إلى التأثر الأوربي في الالتقاء على مبادئ قومية ، فقد ظهرت مجموعة من الكتابات، وفي أوقات متقاربة جداً دراساتٌ أوجدت عند (الأتراك) حوافِزَ قوميةً أيدت الدعوة إلى القومية التركية، منها:

١) المؤرخ الفرنسي ج.دكيني: حيث وضع عام ١٧٥٦(١١٦٩هـ) كتاباً عن التاريخ العام .. للترك والمغول . وقد أصبح هذا الكتاب فيما بعد أحد أهم مصادر الفكر القومي التركي.

إن أهمية هذا الكتاب تكمن في كونه قد كشف عن الأسس التاريخية التي يمكن أن يقوم عليها المشروع القومي التركي.

٢) اليهودي الإنجليزي [دافيد لوملى]: وضع كتابه قواعد اللغة التركية، وهذا الكتاب أصبح واضحاً أن تَوَفُّر تاريخ للترك ولغة يستدعيان بالضرورة الانتماء إلى أمة ووطن يشكلان القاعدة والهدف معاً لوحدة شعوب .. التتار والترك.

٣) ولتعميق الشعور التركي وبلورة هوية الأمة وتأكيد خصوصيتها الثقافية والانتماء للوطن، بدأ المؤرخ [بونسن] عام ١٨٥٤(١٢٧٠هـ) بالكتابة عن اللغة الطورانية التي اعتبرها تختلف عن اللغات السامية وهي غير أوربية أو هندية، بل لغة آسية الوسطى .. هيأت تلك المقدمات الباحثين الغربيين لاستخدام مصطلح الطورانية على نطاق واسع.

٤) اليهودي المجري [أرمنيوس فامبري]: فقد تنكر بلباس درويش تركي وطاف في أرجاء آسية الوسطى وخرج من رحلته هذه بكتاب (رحلة درويش شاب في آسية

---

١) المصدر السابق نفسه-٤/٧٩.

الوسطى) أرسى من خلاله، وبعهد نظريته الخاصة القائلة: بضرورة قيام اتحاد قومي تركي، أطلق عليه (بان تور كيزم)وقد تبناه الإنكليز.

٥) المسيوليون كوهين الفرنسي: وضع كتاباً تاريخياً عن آسية الأتراك في منغولية، وأصلهم منذ عام ١٤٠٥م(٨٠٨هـ)، وقد صدر الكتاب سنة ١٨٩٦(١٣١٤هـ)، وقد أفاض المسيو كوهين في وصف المزايا العسكرية[1].

ويرى (لوثروب) أن لأرمينيوس وكوهين يرجع إليهما كبير الفضل في كشف الحقائق المؤيدة لوحدة الأرومة الطورانية، وكان لأعمال هذين العالمين القطبين أكبر دوي في أنحاء العالم، فطفقت كتب أرمينيوس وزملائه تنتشر في كل بقعة من بقاع العالم الطوراني الجديد انتشاراً سريعاً، فأقبلت عليها العقول الطورانية المستعدة الاستعداد العجيب للأخذ عنها والاقتباس منها[2].

وعن تأثير هذه الدراسات الغربية على منظري (جمعية تركيا الفتاة)، يقول ساطع الحصري: (إن المؤلفات القومية الغربية تلك، كانت تركز دوماً على الترك قبل الإسلام، فقد وجد بعض الكتاب في تلك المؤلفات مباحث عديدة تبرهن على أن الأتراك كانوا متقدمين في الحضارة تقدماً بيناً قبل ظهور الإسلام أيضاً، ولذلك صاروا يقتبسون منها ما يتعلق بتاريخ الأتراك السابق للإسلام والمستقبل عن الإسلام[3].

---

١) الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط-قيس جواد العزاوي-١٢٧ (بتصرف يسير)-مركز دراسات الإسلام والعالم-تامبا- الولايات المتحدة الأمريكية-الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٢) حاضر العالم الإسلامي-لوثروب- ١١١/٤

٣) محاضرات في نشو الفكرة القومية -ساطع الحصري-١٠٣.

فكانت من الآثار الفكرية لهذه الدراسات الغربية، أن أول من تبنى هذه الأفكار القومية عالمان من علماء الترك وهما: أحمد وفيق باشا[1] وسليمان حسن باشا، ففي سنة ١٨٧٦(١٢٩٣هـ) نشر أحمد وفيق باشا قاموسه (لهجة عثماني) وأثبت فيه أن اللهجة العثمانية فرع من اللغة التركية العامة.. وأخرج سليمان باشا في تلك الفترة كتابه (صرف تركي) وحرص على وصف كتابه بكلمة التركي بدلا من كلمة العثماني.

وكان سليمان باشا ناظراً -وزيراً- على المدارس العسكرية فقرر كتابه على هذه المدارس، وهكذا بدأ ضباط المستقبل يدرسون مبادئ القومية التركية جنباً إلى جنب مع دراستهم العسكرية الفنية.

كما قام نجيب عاصم [2]بترجمة كتاب (ليون كوهين) عن تاريخ آسيا الوسطى، الأجزاء الخاصة بتاريخ الترك من هذا الكتاب، فقد بدأ الترك بعد هذه الترجمة يعالجون القومية التركية في الكتب وفي الصحف، وكانت أولى هذه الصحف هي صحيفة (إقدام)، فقد تحولت على يد صاحبها أحمد جودت إلى أداة لنشر هذه القومية[3].

١) أحمد وفيق باشا:(١٢٣٨-١٣٠٨هـ-١٨٢٣-١٨٩١م): كاتب ورجل الدولة العثمانية. درس ثانوية (سن لوي) في باريس بمناسبة وجود أبيه سفيراً للدولة العثمانية في باريس. وقد عين في مكتب الترجمة بعد تخرجه. ثم أصبح سفيراً للدولة في (طهران) وارتقى في السلك الوظيفي إلى أن أصبح صدراً أعظم (١٢٩٥هـ-١٨٧٨م) يعتبر من أوائل دعاة الثقافة الغربية والقومية التركية في الدولة العثمانية. انظر:(قاموس المؤلفين-١٤-إحسان إشق).

٢) نجيب عاصم:(١٢٧٧-١٣٥٤هـ-١٨٦١-١٩٣٥م): كاتب لغوي خريج المدرسة الحربية في استنبول. درّس بعد المشروطية مادة اللغة التركية والفرنسية في دار الفنون. ثم رشح عن ولاية (أرضروم) نائباً في البرلمان (١٣٤٦هـ-١٩٢٧م). يعد من أوائل المدافعين عن القومية التركية، وعرف بكتاباته ومقالاته الكثيرة في هذا الصدد. انظر: (قاموس المؤلفين-٣٢١-إحسان إشق).

٣) التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة-أحمد السعيد سليمان-٢٤-دار المعرفة-القاهرة .

وممن تأثر بهذه الكتب العالم التركي (ضياء كوك آلب)، فقد قرر في كتابه (تور ككجيلكك أساسارى) -أسس القومية التركية- أن كتاب كوهين كان أول كتاب تأثر به عند وصوله إلى استنبول قادماً من سالونيك[1].

وقد قرأ الدكتور ناظم المرخص المسؤول لجمعية الاتحاد -الكتاب المذكور- فكان كالجذوة أصابت هشيماً يابساً لأنه أوقد في نفوسهم نار الحماسة والحمية ..وبما أن الجمعية الفرنساوية قرظته وخصته بالعناية فقد حل عند الاتحاديين مكاناً رفيعاً فنقلوه إلى التركية بعبارات بالغوا فيها ما استطاعوا[2].

وممن تأثر بكتاب [كوهين]، الدكتور رضا نور، وقد نقل عنه كثيراً في كتابه تاريخ الترك) الذي أراد أن يلقن به الأجيال القادمة أصول العقيدة التركية[3].

والقضية المعنية في حديثنا، هي أن هذه النزعة القومية التركية قد كانت من أسباب نشأة الجمعيات القومية، حيث يرى أعضاء الجمعيات القومية، أن الأمة العثمانية صارت كلها كتلة واحدة مع الاتحاديين-جمعية الاتحاد والترقي- لما أظهروا أنهم معها. ولكن لما انفردوا عنها فارقتهم وعادت إلى الانقسام على نفسها.. انفصل الاتحاديون عن الأمة وصاروا في شق وهي في شق آخر، منذ تظاهروا بالنعرة القومية وأعلنوا ما كانوا يضمرونه من الاستمساك بمبدأ سيادة

---

١) أسس القومية التركية-ضياء كوك-١٠-استنبول-وزارة التعليم الوطني-١٩٩٠-إعداد محمد قابلان-(باللغة التركية)، وذكر في نفس الصفحة : أن نجيب عاصم ترجم له الأقسام إلى اللغة التركية. وكان أحمد جودت بك جعل جريدة الأقدام عضواً حياً لنشر القومية التركية، فكان أمر الله أفندي-ولد شلبي أفندي-ونجيب عاصم بلو من أوائل دعاة القومية التركية.

٢) المنار-رشيد رضا-المجلد ١٩ الجزء ٨ -٥٠٤- بتاريخ ١٩١٧/١٢/٢٥.

٣) التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة-أحمد السعيد سليمان ٢٤.

الترك لسائر العناصر العثمانية، فنبهوا بذلك العصب الحساس في العثمانيين كافة، فابتعدت قلوبهم عنهم وعادت روح القومية إلى صدورهم[1].

وعلى نداء الطورانية وتتريك تركيا ردت العناصر الأخرى بنداءات مماثلة، وهبت شعوب البلقان تسعى إلى التحرر والاستقلال، ثم تبعها الأرمن والعرب والأكراد. غير أن جماعة تركيا الفتاة سرعان ما تناسوا الدوافع الدستورية وراحوا يقمعون تلك الثورات .. وأصاب العرب من هذا القمع أَشُدَّه، لأنهم كانوا يشكلون أكبر أقلية في جسم الدولة العثمانية، ولكنهم لم يستسلموا، بل لجؤوا إلى العمل السري، وأسسوا الجمعيات القومية في الداخل والخارج[2] .

ويؤكد أن الدعوة إلى التركية، كانت من أسباب نشأة الجمعيات القومية، قول أحد مؤسسي الجمعيات القومية بعد إسقاط السلطان عبدالحميد وإعلان الدستور:(..بدا لفئة قوية من رجال الاتحاد والترقي أن يعنوا بالعنصر التركي وأن يركزوا الدولة فيه ويعاملوا بقية العناصر بالطريقة التي تتبعها فرنسا في الجزائر، وأسسوا لذلك الأندية التركية والجمعيات التركية (تورك يوردى). واخترعوا الشعر القومي الذي يحيي مآثر جنكيز وتيمور، وصاروا ينتصرون لتيمورلنك على السلطان بايزيد[3] ويدعون إلى الطورانية، ونظروا إلى العربية بعين العداء والارتياب.

---

١) ثورة العرب -أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية- الفصل الثاني.

٢) أعمدة الحكمة السبعة-لورانس-١٥-١٦.

٣) السلطان بايزيد الابن الأكبر للسلطان محمد الفاتح، ولد عام ٨٥١هـ، وتسلم مقاليد السلطة بعد وفات والده عام ٨٨٦هـ، وفي عصره ابتداء فتح علاقات مع الدول الأوربية، وتنازل عن السلطة لابنه سليم عام ٩١٨هـ وتوفي بعد ذلك بعشرين يوماً في مدينة ديموتيقا عن ٦٧ سنة ومدة حكمه ٣٢ سنة. انظر: (تاريخ الدولة العلية العثمانية-محمد فريد-١٧٩-١٨٧).

فكان لذلك رد فعل مباشر من دعاة القومية العربية في المدارس العليا بالآستانة نفسها، وتأسس (المنتدى الأدبي) ثم تأسس من ورائه (الجمعية القحطانية) و(حزب العهد). وكلاهما من ضباط الجيش. وتأسست في بيروت (العربية الفتاة)[1].

وقد رافق الدعوة إلى القومية التركية، تطبيع البلاد العربية بالحركة القومية التركية، فمن ذلك: أصبحت اللغة الرسمية في كل الولايات العثمانية هي اللغة التركية، وأصبحت معاهد التعليم تركية فقط. كما كان هذا التتريك يعني مركزية في الحكم[2].

ولقد أخذ يصدر عن بعض رجالات الجمعية تصريحات وأقوال عجيبة في حق العنصر التركي في التمايز على غيره في الدولة. من ذلك مقال كتب في جريدة (طنين) بعد شهور قليلة من إعلان الدستور:(إن الأمة التركية كانت وستظل هي الأمة الحاكمة، وأن لها الحق في التمتع بحقوق وامتيازات أكسبها إياها حق الفتح. وإنه ليس من إمكان ولا محل للاعتراف بحقوق مساوية في الدولة للعناصر الأخرى).

ولتحقيق مبدأ تتريك الدولة العثمانية، فقد أنشئت جمعيات قومية تركية، تسعى لتحقيق هذا الأمر، مما جعل ذلك مبرراً للعرب في إنشاء جمعيات تتبنى قوميتهم العربية . وقد أصدرت الحكومة التركية قانوناً حظرت به تسمية المنظمات والأندية بأسماء قومية، وأخذت تتشدد في هذا الحظر بالنسبة للمنشآت

---

١) مذكرات محب الدين الخطيب-١٩. نقلا من كتاب الشيخ طاهر الجزائري (رائد النهضة العلمية في بلاد الشام)- عدنان الخطيب-٤٦ -وانظر: نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٠٤.

٢) الدولة العثمانية والشرق العربي-محمد أنيس-١٧٨.

التي ينشئها العرب، في حين تغافلت عما قام من منظمات ومنشآت قومية تركية كانت وظلت تحتفظ بالتسميات التركية وتنهج نهجاً تركياً عنصرياً[١].

وباستعراض لأسماء بعض الجمعيات التركية، وتاريخ نشأتها نجد التشابه بينها وبين الجمعيات القومية، فمن ذلك :

أولاً: جمعية تركية الفتاة:

في سنة ١٨٨٩(١٣٠٦هـ) شكل جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية الإمبراطورية في استنبول منظمة ثورية هدفها الواضح عزل عبدالحميد الثاني[٢].

وبعد تحديد الهدف سعى مؤسس الجمعية إبراهيم تيمو الذي باحث ثلاثة من زملائه الطلاب الذين كان يعرف آراءهم، وهم اسحق سكوتي، وشركس محمد رشيد، وعبدالله جودت، واقترح عليهم أن يشكلوا جمعية وطنية سرية[٣].

وقد باشرت أعمالها منذ عام ١٨٩١(١٣٠٨هـ) في جنيف أولا ثم نقلوها إلى باريس، وكانوا يعملون على نشر دعوتهم سراً [٤].

وسلكت الجمعية بعد أن كشف أمرها، وأصبح عدد من الطلبة القدامى الذين صاروا موضع شبهة، وجدوا من الخير لهم الآن أن يغادروا البلاد. وفي سنة ١٨٩٤(١٣١١هـ)-١٨٩٥(١٣١٢هـ)، أخذ هؤلاء الأعضاء يهربون باستمرار إلى أوربة، حيث تركز معظمهم في باريس. وقد ذهب القادرون على السفر لغرضين، أحدهما: الهروب من انتقام السلطان. والثاني لإكمال دراستهم..

---

١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٠١-٣٠٢.

٢) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨-أرنست أ.رامزور-٤٩-ترجمة صالح أحمد العلي-منشورات دار مكتبة الحياة-بيروت-١٩٦٠ .انظر:العرب والعثمانيون-عبدالكريم رافق-٣٨٣.

٣) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨-أرنست أ.رامزور-٥٢.

٤) موقف الدولة العثمانية من الصهيونية-حسان علي حلاق-٢٨٧. انظر: تاريخ الدولة العلية-محمد فريد-٤١٠.

وفي باريس وجد المتآمرون الشبان أن جماعة صغيرة من الأحـــرار الأتـــراك قـــد اجتمعت بالفعل، ومنها خليل غانم، وهو مسيحي من بيروت[1].

وجمعية تركية الفتاة لم تخرج عن التنظيم الماسوني كغيرها من الجمعيـــات التركية والعربية، فقد كانت على طراز جمعية (الكاربوناري)[2] الإيطاليـــة الـــتي تشكلت في القسم الأول من القرن التاسع عشر، ففي العطلة الصيفيـــة الســـنة السابقة لتشكيل الجمعية توقف إبراهيم تيمو في (برنديز) لما كان في طريقـــه إلى بلاده ألبانية، وزار خلال إقامته في (برنديز) ونابولي محفلا ماسونياً برفقـــة أحـــد أصدقائه، وتعلم شيئاً كافياً عن دور الكاربوناري في التاريخ الإيطالي. وقد تـــأثر بتنظيمها فيما بعد لما قرر أن ينشئ في تركية جمعية سرية تشبهها.

إن هذه الجمعية الأولى لتركية الفتاة... كان أثر الكاربوناري فيها واضحـــاً من حيث أن المفروض في أعضائها أن يعرفَ بعضهم بعضـــاً بأرقـــام كســـرية، وتتكون هذه الأرقام الكسرية من ترقيم كل خلية جديدة في المنظمة، ثم بإعطـــاء رقم لكل عضو في تلك الجماعة، فكان رقم الخلية أو الفرع هو المقام ورقم العضو البسط، ولتوضيح ذلك نقول: إن العضو الخامس في الخلية الســـابعة في قائمـــة الجمعية برقم (٧/٥) وكان رقم إبراهيم تيمو منشئ الحركة (١/١)[3] .

---

١) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨ -أرنست أ.رامزور-٥٤.

٢) جمعية الكاربوناري :جمعية سياسية سرية إيطالية يكتنف الغموض أصولها وبرنامجها السياســـي نفســـه. والواقع أن <محافل> جمعية الكاربوناري الأولى ظهرت عند مطلع القرن التاسع عشر في إيطاليا الجنوبيـــة. وكانت من المحافل الماسونية من حيث رموزها وهيكليتها الهرمية. وعلى الجملة، فقد نادى أعضـــاء هـــذه الجمعية بتحرير إيطاليا من الحكم الأجنبي ودعوا إلى إقامة الحكم الدستوري فيها، من غير أن يكون لهـــم برنامج سياسي موحد. ولعب <مشعلو الفحم> دوراً بارزاً في التمهيد للوحدة الإيطالية. انظر: (الموسوعة العربية-منير البعلبكي).

٣) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨ -أرنست أ.رامزور-٥٠

وقد كان لليهود تأثير في جمعية تركية الفتاة، فنسيم روسو ونسيم مازلياح كانا من العناصر المؤسسة والفعالة فيها[1]. فكانت خليطا من أجناس وأديان مختلفة، وكانت الكثرة الغالبة فيها من الأتراك ويليهم اليهود، وانجذب إليهم بعض الرعايا العثمانيين من الأجناس الأخرى[2].

لقد صرحت جمعية تركية الفتاة بمنهجها من خلال نشرة (مشورت) -وهي لسان حال تركية الفتاة- صدرت بتاريخ ٣-ديسمبر -١٨٩٥(١٣١٣هـ) وبينت أهداف الجمعية وقدمتها إلى قرائها، (منها):

١) إننا نطالب بالإصلاحات، ولا نقصرها على هذه الولاية أو تلك، بل نطلبها للإمبراطورية كافة، لا لمصلحة قومية واحدة، بل لمصلحة العثمانيين كافة سواء كانوا يهودا أو نصارى أو مسلمين.

٢) لقد تأكدنا بأنفسنا من تعاون شخصيات معينة، رغبتها القومية هي أن ترى عودة الروابط السابقة من الانسجام والصداقة الطيبة مع العثمانيين.

٣) إننا نعارض إحلال التدخل المباشر للدول الغربية محل السلطة العثمانية، وهذا ليس ناجما عن التعصب لأن المسألة الدينية عندنا أمر خاص، ولكنه منبعث من العاطفة المشروعة للكرامة المدنية والقومية[3].

وبعد هذا العرض الموجز عن جمعية تركية الفتاة ، فقد سلكت الجمعيات القومية العربية، منهج جمعية تركية الفتاة، فتأسست جمعية في تونس سميت (تونس الفتاة) أنشئت بنفس تاريخ إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ وأنشئت جريدة (التونسي) بالفرنسية ناطقة لها، ودعت إلى إيجاد دولة تونسية عصرية متحررة،

---

١) موقف الدولة العثمانية من الصهيونية-حسان علي حلاق-٣٠٥.

٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٧٦.

٣) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨-أرنست أ.رامزور-٥٦.

ولو اقتضى ذلك دوام الاحتلال الفرنسي، شريطة أن يطور البلاد [1]. ونظم الشبان ذوو الثقافة الفرنسية أنفسهم في عام ١٩١٢ في جمعية الجزائر الفتاة، ودعوا إلى الاندماج في المجموعة الفرنسية، على أساس المساواة[2]. وأنشئت جمعية (العربية الفتاة)[3]. تأثراً بتركية الفتاة.

ومسمى (الفتاة) على بعض الجمعيات ظهر عند الأتراك ثم عند العرب، وهذا مما يقوي الاعتقاد بأنها سلسلة متصلة بالثورات الغربية، فقد ظهرت جمعية في إيطاليا عام ١٨٣٢، باسم (إيطاليا الفتاة) وكانت هذه الجمعية لا تضم إلا رجالاً سنهم دون الأربعين عاماً، وكانت جمعية سرية عملها ثوري وفي الوقت نفسه تربوي[4].

ثانياً: جمعية ترك درنكي (المنتدى التركي):

وكان تأسيسه في ديسمبر ١٩٠٨ في الآستانة، وهو أول ناد تركي أسس لغاية أدبية وعلمية، كي يكون في خدمة القومية التركية. وكان من مؤسسيه بعض من عرفوا بشديد تعصبهم للقومية التركية، أو الرابطة الطورانيه: مثل زعيمه يوسف آقجورة، وأحمد فريد بك. وكانت البحوث التي انصرف أعضاء هذا المحل إلى دراستها هي كل ما يتعلق بالشعب التركي، من تاريخ ولغة وخصائص عرقية وحضارة وأدب، وحياة اجتماعية،

---

١) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٢٥٣. وانظر: الحركة الوطنية -رؤية شعبية قومية جديدة-الطاهر عبدالله-٣٩. العرب والعثمانيون-عبدالكريم رافق-٤٧٥.

٢) العرب والعثمانيون-عبدالكريم رافق-٤٧٢.

٣) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨-أرنست أ.رامزور-٣٣. من مقدم الكتاب نقولا زيادة.

٤) تاريخ الحركات القومية-نور الدين حاطوم-٢/١٢٣-١٢٤.

وجغرافية تركيا القديمة، والعمل على إعادة الطابع الأصلي القديم للغة التركية[1]. وهذا المنتدى مقابل للمنتدى الأدبي العربي .

ثالثاً: جمعية ترك يورتي جمعيتي (جمعية الوطن التركي):

أسسها الترك في عام ١٩١١، وكانت غاية الجمعية أدبية اجتماعية قومية تشبه غاية المنتدى الأدبي العربي[2]. وهذه الجمعية التركية مقابل جمعية رابطة الوطن العربي .

السبب الثالث: تآمر الدول الغربية على الدولة العثمانية:

لقد أخبر ربنا في كتابه عن تآمر أهل الكفر على أهل الإيمان، فقد قال تعالى: { **وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** }[3] وقال تعالى: { **لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ** }[4].

هذا التآمر الذي حدث على الأمة في القرن الرابع عشر الهجري، كان سبباً في نشأة الجمعيات القومية العربية، فقد بينت الدول الاستعمارية مقاصدها، وسعت لهدف غلبة المبادئ القومية على النزعة الدينية، وغلبة الاعتقاد الوطني على المعتقدات الدينية، وأن تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام، وتستبدل سوريا (الطبيعية) مثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني؟[5].

---

١) العرب والترك-توفيق برو-٢٧٠.

٢) المصدر السابق-٢٧٣.

٣) سورة آل عمران-رقم الآية (٦٩).

٤) سورة التوبة- رقم الآية (١٠).

٥) الثورة العربية-لورانس-١٢.

ويعتبر لورانس العقل المدبر في تسيير ثورة فيصل بن الحسين، وقد ذكر كيد وتآمر الدول الاستعمارية على الأمة الإسلامية، وحرصهم على تأسيس الجمعيات القومية العربية، فقد قال لورانس: (كنت أؤمن بالحركة العربية إيماناً عميقاً، وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة التي ستمزق تركيا شذر مذر)[1].

كما اعتبر منظرو السياسية البريطانيةِ الجمعياتِ القوميةَ حلفاءَ وأصدقاءَ لهم، حيث يقول:(إننا نعد الجمعيات والأحزاب العربية حلفاء لنا وأصدقاء.. ونوليها ما تستحقه من الاحترام والتقدير)[2].

وهذا التآمر الاستعماري على الأمة الإسلامية وتمزيقها قد جاء بأساليب متنوعة. ومن هذه الأساليب السعي من أجل إنشاء جمعيات قومية، فقد ورد في خطاب وزير المستعمرات (أورمسبي غور) إلى رئيس الوزارة البريطانية (نيفيل تشمبرلين) بتاريخ ١٩٣٨/١/٩(١٩٥٦/١١/٨هـ):[..إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية البريطانية وحدها بل فرنسا أيضاً..إن سياستنا تهدف أبداً إلى منع الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، وينبغي أن تكون كذلك، ففي السودان ونيجريا كما هو الحال في مصر ودول إسلامية أخرى، شجعنا وبصواب نمو القوميات المحلية لكونها أقل خطراً من الوحدة والتضامن الإسلامي..][3].

ولتحقيق نشر القوميات أنشؤوا الجمعيات التي تدعو إلى القوميات، وكان السلطان عبدالحميد قد بين جهود ما تبذله الدول الاستعمارية في تأسيس

---

١) أعمدة الحكمة السبعة-لورانس-٥٥ ولورانس يعتبر أحد رجال المخابرات الإنكليزية.

٢) أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين-أمين سعيد-٢٤٤.

٣) بريطانيا والخلافة الإسلامية-وثيقة تاريخية سياسية-عبدالوهاب أحمد-جامعة الإمارات-العين-١٩٨٠.

الجمعيات القومية في البلاد العربية، والإنكليز بصفة خاصة، فقد قال في مذكراته عن الإنكليز: (استطاعوا بدعاياتهم المسمومة أن يبثوا بذور القومية والعصبية.. وقد تحرك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا، وقد ظهرت في سوريا بوادر تحرك مماثل..وأن هؤلاء المستعمرين بذلوا جهوداً كبيرة في الدعاية للإقليمية في البلاد الإسلامية بغية إضعاف هيبتنا، وقد لقيت هذه الدعاية قدراً كبيراً من الرواج)[1].

ويمكن حصر وسائل الدول الاستعمارية في إنشاء الجمعيات القومية، بالأمور التالية:

١) القنصليات والسفارات للدول المستعمرة:

من منطلق مسايرة التطور الصناعي الذي تشهده الدول الأوربية، وبغية تنظيم شؤون الدولة على غرار الدول الغربية وتقريب العالم الإسلامي من العالم الغربي الذي عاش بعيداً عنه[2]، فقد خضعت الدولة العثمانية لعدة مراحل إصلاحية[3]، أعطت الدول الاستعمارية فرصة التدخل في شؤونها، ومنحوا امتيازات أصبحت حقوقاً شرعية لا يمكن التراجع عنها، بل إنها تعدت ذلك إلى أن أصبحت تطال فئات اجتماعية واسعة كانت تعتبر أصلاً من رعايا السلطان فاعتبرت فرنسا مثلاً أن لها حق حماية الكاثوليك الأوروبيين والعثمانيين والإرساليات الأوربية الكاثوليكية العاملة بينهم[4] .

---

١) مذكراتي السياسية-السلطان عبدالحميد-١٧٧.

٢) الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري-سهيل صابان-٣.

٣) انظر: ١-البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-١٥٥.

٢-مجلة الهلال-الجزء الثاني- السنة السابعة عشرة- ١٣٢٦/١٠/٧-ص٨٩-القانون الأساسي.

٣-سوريا والعهد العثماني-يوسف الحكيم-١٩٢.

٤) أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة-محمد مخزم-٢١-معهد الإنماء العربي-بيروت لبنان-الطبعة الأولى ١٩٨٦.

فكانت هذه الامتيازات والتنظيمات العثمانية من أهم الوسائل التي استغلتها الدول الغربية فسارعت بتأثير هذا التوجه الجديد إلى إقامة مؤسساتها التي ترعى مصالحها وتعمل على تحقيق أهدافها[1].

ومن أهم هذه المؤسسات الحكومية، القنصليات والسفارات الصليبية، حيث لقيت الجمعيات القومية العربية تشجيعاً من بعض الدول الغربية وفي مقدمتها فرنسا، فقد وضعت هذه الدولة قنصلياتها تحت تصرف أعضاء هذه الجمعيات، وأخذ جل رؤسائها وأقطابها ينظرون إلى فرنسا وبريطانيا بعين الصداقة والإخلاص[2].

ويؤكد جورج كيرك مؤلف (كتاب موجز تاريخ الشرق الأوسط) أن القومية العربية ولدت في دار المندوب السامي البريطاني[3]. ومن صور عناية قنصليات الدول الاستعمارية بالجمعيات القومية العربية، حينما ألغت جمعية الاتحاد والترقي المطالبَ التي قدمتها جمعية بيروت الإصلاحية[4] واعتبرتها خيانة للدولة العثمانية وحلت الجمعية، وبعد ثلاثة أيام من اتخاذ هذا الإجراء، ذهب بعض أعضاء الجمعية إلى القنصلية البريطانية ومن ثم إلى القنصلية الفرنسية ليحتجوا على عمل الوالي، وفي القنصلية البريطانية قيل لهم إنهم يستطيعون أن يعقدوا اجتماعاتهم في قاعة الكلية السورية الإنجيلية لأنهم في تلك الحقبة من الزمن، كانوا يعتبرون مجتمعين على أرض أجنبية حيث يكون لهم ملء الحرية بعقد أي اجتماع من اجتماعات الجمعية هناك. وقد وافق القنصل الفرنسي على هذا التدبير ونصح لهم

---

١) سوريا والعهد العثماني-يوسف الحكيم-١٩٢.

٢) تاريخ المملكة العربية السعودية-صلاح الدين المختار-١١٠-مكتبة الحياة-بيروت

٣) مذاهب فكرية معاصرة-محمد قطب-٥٨٥.

٤) انظر ص (٩٣) من الرسالة .

أن يتصرفوا بموجبه[1]. وعليه عقدت الجمعية العامة اجتماعاً في القاعة الكبرى في الكلية السورية -الجامعة الأمريكية-، وقررت الدعوة للإضراب العام في ١٢ نيسان والاحتجاج على حل الجمعية[2].

ونتيجة لهذا القرار، فقد أرسل بعض أعضاء الجمعية وجميعهم من النصارى رسالة -تحمل توقيعاتهم- إلى القنصلية الفرنسية باسم أبناء طوائفهم ويوضحوا بدقة أماني نصارى سورية، وعلى تأكيد ارتباطهم بفرنسا. ويدل هذا على تأثير الدول الاستعمارية على الجمعيات القومية العربية[3].

وتعتبر قنصليات دول البلاد المستعمرة مَعْبراً آمناً لنشرات ومطبوعات الجمعيات القومية، إذ أن إدخال المنشورات السرية داخل البلاد كان من رابع المستحيلات بسبب صرامة المراقبة الموضوعة على المطابع، صغيرة كانت أم كبيرة. فكان لا بد من أن يسافر بعض (الأحرار) إلى خارج المملكة لكي يطبع المنشورات هناك، وفي معظم المدن الرئيسية عدة دوائر بريد أجنبية تابعة لسفارات الدول (المعظمة) وقنصلياتها، وكلها كانت مصونة في مراقبة الدولة بسبب الامتيازات الأجنبية المعلومة[4]. فكانت هذه القنصليات تحميهم -بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية- من الخضوع لأوامر القبض التي يصدرها السلطان ومن تفتيش البوليس لمنازلهم، أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية لأن لهم محاكمهم القنصلية الخاصة[5].

١) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٢١١-حاشية الفصل الخامس رقم ٤٩.
٢) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي-وجيه كوثراني-١٩٠.
٣) بلاد الشام (قراءة في الوثائق)-وجيه كوثراني-٢٦٩-معهد الإنماء العربي
٤) البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٩١.
٥) الذئب الأغبر-مصطفى كمال- هـ.س. مسترونج-نشر دار الهلال.

وقد قضت الامتيازات الممنوحة للجاليات الأجنبية بتشكيل محاكم قنصلية خاصة ذات صلاحية تامة للنظر في الدعاوى بين الرعايا الذين ينتمون إلى هذه القنصلية أو تلك. وكان رعايا الدول الأجنبية المقيمون في الدولة العثمانية من غير المسلمين لا يخضعون للقوانين العثمانية، بل كانوا يتمتعون بأحكام خاصة بهم، وكان القاضي في هذه المحاكم القنصلية القنصل نفسه، يعاونه مستشاران[١].

ويحدث عوني عبدالهادي -وهو أحد المؤسسين للجمعية- عن الوضع المريب الذي اتخذته فرنسا أثناء إعلان الحرب ضد مواطني الدولة العثمانية، فيقول: لبثنا ننتظر مصيرنا الذي لن يكون أقل من أن نزج مع أمثالنا التابعين للبلاد المعادية للحلفاء بالمعتقلات. ولكن لم يمض كثير وقت حتى وافانا الخبر العجيب غير المنتظر، بأن الحكومة الإفرنسية قررت زج الأتراك بالمعتقلات والسماح للسوريين في الإقامة أحراراً في باريس[٢].

وكانت الدول الاستعمارية تراقب تطورات نشأة الجمعيات القومية، فقد استدعى مكماهون -معتمد بريطانيا في مصر-، الكولونيل لورانس ، والسير رونالد ستورس-سكرتير الإدارة الشرقية في السفارة، وقال لهما: لقد تأكد لنا من أن فكرة ما أخذت تتغلغل بين العرب في جميع الأقطار التي يسكنونها، وعرفنا بأن سورية أصبحت البؤرة الأساسية لتلك الفكرة[٣].

وتولى مسؤولو القناصل كتابة التقارير إلى حكوماتها مفصلة عن أوضاع الدولة العثمانية، مثال ذلك: التقرير الذي رفعه مدير القنصلية الفرنسية في بيروت، حول

١) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٣٣.

٢) عوني عبدالهادي-أوراق خاصة- إعداد خيرية قاسمية-١٤.

٣) معركة ميسلون-احسان هندي-١٢.

توقيع معاهدة السلام الإيطالية -التركية وحرب البلقان، وأثـــر ذلــك في الاتجاهــات السياسية في سورية. وتقرير القنصلية الفرنسية عن الدعاية المؤيدة للإنكليز في سورية[١].

وكانت تقارير قناصل الدول الاستعمارية تدل على الاطلاع التام على أحــوال وسير الجمعيات القومية العربية، فمن ذلك تقرير القنصل البريطاني، ومما جاء فيــه (إن جوهر الإصلاح كان يدور حول مطلب رئيس: [إدارة لا مركزية] ..وأن أطــــراف مطلب من مطالب الإصلاح [استقدام خبراء ومستشارين ومفتشين من الأجانب])[٢].

وكان هذا التقرير عن مطالب جمعية الإصلاح البيروتية، فقد جاء تقرير القنصل البريطاني مصرحاً بذلك، حيث يقول (كان أعضاء الجمعية الإصلاحية يبدون نشــاطاً سياسياً غير مألوف في البلاد، وشجاعة في حملتهم الإصلاحية لا عهد للناس بها مــــن قبل)[٣].

كما اعتنت الدول الاستعمارية بالجمعيات القومية العربية، خــــارج الدولــة العثمانية فقد احتوت أكبر تمثيل عربي للجمعيات القومية العربية من خــــلال المؤتمـــر العربي الأول، الذي أقيم في باريس (فرنسا).

وعندما سئل رئيس المؤتمر: عن سبب اختيار باريس ليعقد فيــــها المؤتمـــر؟ قال:(.. أنْ نُسمع مطالبنا ونفهم رأينا لأوربا التي تزداد أهمية مصالحها في البــــلاد العثمانية يوماً بعد يوم... ويمكننا أن نضع أساس تفاهم بين الشرق والغرب. وهو مؤتمر لم يكن له صبغة دينية كما صرح رئيس المؤتمر بذلك)[٤].

٢) المدارس والكليات التنصيرية:

---

١) بلاد الشام (قراءة في الوثائق)-وجنيه كوثراني-٢٥٣-٢٨٩.

٢) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٩٨.

٣) المصدر السابق-٩٩.

٤) المؤتمر العربي الأول-ص١٩.

نشأت في البلاد العربية مؤسسات تعليمية كثيرة، تبنت الدعوة إلى النصرانية[1]، وليس غرض الباحث في هذه القضية إلا بيان دور هذه المؤسسات التعليمية في نشأة الجمعيات القومية العربية.

ويظهر أن أبلغ تأثير للمؤسسات التعليمية في نشأة الجمعيات القومية العربية، هو تأثير الجامعة الأمريكية في بيروت والتي تأسست أولا باسم الكلية السورية الإنجيلية في سنة ١٨٦٦(١٢٨٣هـ) وتولى رئاستها دانيال بلس[2]. وقد ذكر القوميون عن دور الجامعة الأمريكية بأنها: أيقظت فيهم روح العزة العربية، وجمعت أبناء البلاد العربية في حظيرة هذه القومية .. وإن طلاب الجامعة العربية نظرتهم أنهم (أرباب عقيدة عربية)[3].

ويقول أحد أعضاء الجمعيات القومية، عن دور هذه المؤسسات ومنها الجامعة الأمريكية، بأنها كانت ذات مآرب سياسية استعمارية.. مما كان له أثر كبير في تناقض أفكار الناشئة العربية التي كانت تؤمها وأهدافها فصارت الجامعة الأمريكية التي تخرج منها آلاف طلاب العرب حرة النزعة فكان لخريجيها مساهمة فعالة في حركة الوعي القومي العربي[4] .

---

١) حول هذا الموضوع انظر:

١. التبشير والاستعمار في البلاد العربية-مصطفى الخالدي وعمر فروخ-٩١-١١٢.
٢. يقظة العرب-جورج انطونيوس-٩٨١٠٩.
٣. البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٨١.
٤. حول الحركة العربية الحديثة-محمد عزو دروزة-١٢١/٢.
٥. الحركة الوحدوية في لبنان-سعيد مراد٨٣.
٦. واقعنا المعاصر-محمد قطب-٢١٧-٢٣٥.

٢) انظر:يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٠٦.

٣) التبشير والاستعمار-مصطفى الخالدي وعمر فروخ-٩٢.

٤) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٢٥. (بتصرف)

طرحت الجامعة الأمريكية جائزة (هورد بلس)[1]-ابن مؤسس الجامعة- لمن يبرز في كتابة (أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر)، فانتدب لذلك أنيس الصولي، فكتب في ذلك بحثاً، فاز بالجائزة، وقد ذكر المؤلف أن من أسباب النهضة العربية مدارس المبشرين في بيروت، وفي مقدمتها الجامعة الأمريكية، وقال: (إن الجامعة بلا جدال ركن متين من أركان النهضة العربية الحديثة وثمرة طيبة من ثمرات الإرساليات)[2].

وعن دور الجامعة في تأسيس الجمعيات قال:(عمد شبان الجامعة الأمريكية إلى تأسيس الجمعيات واتباع الأنظمة البرلمانية والخضوع لها)[3].

وعن الدور السياسي الذي قامت به الجامعة الأمريكية في ذلك الوقت، يقول أحد الدارسين فيها:(حينما كنا طلاباً كنا نتخذ القرار بالإضراب السياسي في قلب الجامعة الأمريكية، وكانت المظاهرات من الجامعة-معقل الوطنية-ثم كان الطلاب يعودون من المظاهرات ويدخلون إلى صفوفهم في اليوم التالي كأنهم آتون من عطلة[4].

وقد بيّن أعضاء الجمعيات القومية العربية دور الجامعة الأمريكية في نشأة الجمعيات القومية، بأنها كانت تربي تلامذتها على حرية الفكر وحرية القول، وعودتهم على الحرية الشخصية والمساواة في الحقوق...هذا الروح الذي تمتاز به هذه المدرسة من مدارس الشرق كان لها تأثير كبير في ترقية النفوس في هذه النهضة[5]. وبخاصة منذ أن كانت تدرس العلوم بالعربية[6] .

---

١) انظر الإعلام-خير الدين الزركلي-٢/٣٣٠.

٢) مجلة الزهراء-محب الدين الخطيب-المجلد ٣-ربيع الأول ١٣٤٥-ص ٢٠١. وانظر: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر- أنيس الصولي-٨٥-دار ابن زيدون-بيروت-الطبعة الأولى-١٤٠٥هـ.

٣) أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر- أنيس النصولي-١٧١.

٤) التبشير والاستعمار-مصطفى الخالدي وعمر فروخ-١٠٩.

٥) لبنانيات تاريخ وصور-نقولا زيادة-١٤٩-دار الريس-لندن-الطبعة الأولى-١٩٩٢.

٦) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٤٤.

وكان من نتائج الجامعة الأمريكية على أعضاء الجمعيات القومية العربية أن التحقوا في جمعية شمس البر الماسونية وهي فرع من جمعية اتحاد الشبان المسيحيين[1] بإنكلترا، وكان من ضمن أعضاء جمعية شمس البر الماسونية من أعضاء الجمعيات القومية، منهم: جرجي زيدان، اسكندر البارودي، وسليم جريديني، ويعقوب صروف[2]، وفارس نمر[3].

وقد صرح فارس نمر -أحد أعضاء جمعية بيروت السرية- بأن من قام بتأسيسها، هم النخبة المفكرة وجلهم من النصارى الذين درسوا في الكلية السورية الإنجيلية[4]. وكان هؤلاء النخبة يتلقون دروسهم داخل الكلية من إلياس حبالين النصراني الماسوني، والذي يدرس اللغة الفرنسية، وكما يقول عنه طلابه: كان تقدميا وثوريا في أفكاره، وكان يختصر درس الفرنسية في صفوفه، ليعود إلى موضوع السياسة فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الأتراك والتخلص من حكومتهم الفاسدة الظالمة[5].

إن جمعية الآداب والعلوم، تعد من أوائل الجمعيات العلمية التي أنشئت في البلاد العربية، وقد كان من مؤسسيها (كورنيليوس فان دايك)[6]، وهو ممن أسس الجامعة الأمريكية في بيروت[7].

---

١) جمعية الشبان المسيحيين رابطة دينية احتماعية ألفها السير جورج ويليمس في انكلترا سنة ١٨٤٤، وهي لا تشترط على أعضائها اتباع مذهب معين من المذاهب النصرانية، ويباح الاشتراك فيها لكل من يرتاحون إلى مبادئها وإن لم يكونوا نصارى. ويبلغ عدد فروعها ٩٠٠ فرع تضم ١٥٠٠٠٠٠ عضو بينهم النصراني واليهودي والمسلم. وفي تركيا وفلسطين فروع لها . انظر مجلة الهلال الجزء السادس- السنة ٣٦ بتاريخ ١٠/١٠/١٣٤٦هـ.

٢) انظر الترجمة رقم (٧٢).

٣) لبنانيات تاريخ وصور-نقولا زيادة-١٤٩.

٤) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦٠.

٥) المصدر السابق نفسه-١٩٦-هامش الفصل الرابع برقم ١٦.

٦) انظر: يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٧.

٧) التبشير والاستعمار في البلاد العربية-مصطفى الخالدي وعمر فروخ-٩٦.

وتأثير الجامعة الأمريكية على أعضاء الجمعيات القومية العربية، انطلق من الهدف الأول لتأسيس الجامعة وهو (تنصير أبناء المسلمين)كما نص على ذلك الأعضاء المؤسسون للجامعة، فقد قالوا: (نحن نصر على الطابع التبشيري للكلية، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشرا مسيحيا)[١]، ولذا كان المنصر القس[٢] دانيال بلس هو أول رئيس لها، والذي وصل إلى بيروت سنة ١٨٥٦(١٢٧٢هـ)، وظل في البلاد إلى حين وفاته سنة ١٩١٦(١٣٣٤هـ) (أي ستين سنة) وقد جاء مبشرا، وعمل في بيروت وعبية .

وممن تولى العناية بالجامعة الأمريكية ويقوم بزيارتها: ثيودور روزفلت[٣]، الذي تولى فيما بعد رئاسة الولايات المتحدة. وكان بلس كثير الاتصال بأهل الفكر والعلم من العرب المقيمين في بيروت. ويذكر أن بطرس البستاني كان صديقا له[٤].

وعندما استقال هذا المنصر من رئاسة الجامعة سنة ١٩٠٢، أقام أعضاء الجمعيات القومية العربية تمثالا له من الرخام الأبيض، وأقيم بهذه المناسبة احتفال باهر، ألقى فيه بعض أعضاء الجمعيات كلمات وقصائد، فمما قيل في الحفل:(إن أبناءك المنتشرين في هذا القطر السعيد يزرعون ويتجرون ويتعلمون ويطببون وينشئون

---

١) المصدر السابق-٩٧.

٢) انظر يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٠٦حاشية رقم (٢).

٣) الرئيس الوحيد للولايات المتحدة الذي انتخب ٤ مرات، استمرت لمدة ١٢ عاما، ولد في نيويورك وفي عام ١٩٠٠ التحق بجامعة هارفارد ودرس التاريخ وتخرج فيها ١٩٠٣ ثم التحق بكلية الحقوق بجامعة كولومبيا ١٩٠٤ وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول أمريكا الحرب عمل رزوفلت مساعدا لوزير البحرية، وأقام عدة مشاريع حربية، انتخب حاكما لولاية نيويورك عام ١٩٢٨ وأعيد عام ١٩٣٢ وأصبح رئيسا لأمريكا عام ١٩٣٣ وعمره ٥١ عاما. تولى الرئاسة وأصدر عام ١٩٤١ الحقوق الأربعة وهي: حرية التعبير وحرية العبادة وتحرر الحاجة والخوف، وأعلن أن جميع الناس يجب أن يتمتعوا بها وفي عام ١٩٤٤ سافر روزفلت للالتقاء بتشرشل وستالين حيث اتفقوا على الهجوم النهائي على ألمانيا وفي عام ١٩٤٥ أصيب بتريف في الدماغ بينما كان يعمل في مكتبه وتوفي. انظر: (الموسوعة العربية-١١/٣٢٤-حرف (الراء).

٤) لبنانيات تاريخ وصور- نقولا زيادة-٢٤٨.

الصحف والمجلات... وأجمعوا كلهم على أن تكون علامة الشكر لك مما يرى بالعيان ويبقى راسخاً على كرور الأزمان ...وقد لا يتصور أبناء المدرسة مقدار المصاعب التي ذللتها حتى أنشئت هذه المدرسة وبلغت ما بلغته من السعة والشهرة، فإن المدارس الكلية تحتاج إلى نفقات كبيرة.. فطرقت أبواب قومك الأميركيين في مواطنهم وما زلت تحث الأغنياء وترغبهم في هذا العمل المبرور حتى جمعت ما يكفي من المال للشروع في هذا العمل[1].

٣) الدعم المادي:

لقد أخبر ربنا عن إنفاق الذين كفروا ليصدوا عن سبيل الله كما في قوله تعالى {**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**}[2]. إنهم ينفقون أموالهم، ويبذلون جهودهم، ويستنفذون كيدهم، في الصد عن سبيل الله، وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين. وفي حرب العصبة المسلمة في كل أرض وفي كل حين[3].

وقد سلكت الدول الاستعمارية هذا المنهج، فقد قال لورانس مبيناً دور بريطانيا في الدعم المادي الذي قدمته لتأسيس الجمعيات القومية العربية، بأن بريطانيا، لم تكن شحيحة، فمساعدتها للحركة العربية بالسلاح والمال تجاوزت عشرة ملايين من الجنيهات[4].

وفي البصرة أخذ لورانس يبحث عن رجال الأحزاب العرب بقصد تشجيعهم على القيام بحركة ضد الأتراك، وقاده البحث إلى سليمان فيضي –

---

١) مجلة المقتطف-الجزء السابع من المجلد التاسع والعشرين-١٣٢٢/٤/١٧ الموافق ايوليو سنة ١٩٠٤-ص ٥٦١. وانظر: الجزء الثامن المجلد التاسع والعشرين-ص ٦٩٢.

٢) سورة الأنفال-رقم الآية (٣٦).

٣) في ظلال القرآن سيد قطب-١٥٠٦/٣.

٤) أعمدة الحكمة السبعة-لورانس-١١٤.

سكرتير الجمعية الإصلاحية- فاستدعاه وعرض عليه العمل على تنظيم ثورة عربية بعد أن أكد له أن بريطانيا (بدون شك عازمة على إفساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها، بشرط أن يساهم العرب أنفسهم في الحصول على ذلك الاستقلال)[1].

وتم الاتصال ببعض مؤسسي الجمعيات القومية العربية، من أجل التنسيق في إعلان الثورة ضد الدولة العثمانية، وقدموا مبلغا لمستلزمات إعلان الثورة وقدر بألف جنيه[2]. وقد طلب بعض أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية مطالب إلى القنصلية الفرنسية وتتضمن الدعم المادي ومد يد المساعدة والدعم المعنوي[3].

ومن صور الدعم المالي الذي تقدمه الدول الاستعمارية للجمعيات القومية العربية، شراء بعض صحف الجمعيات ، فمن ذلك صحيفة المقتبس وهي جريدة وطنية... وكانت إدارتها مجمعا للعلماء والأدباء من العرب على اختلاف أقطارهم .. فكانت الأولى التي نبهت أذهان الناس-كما يقول عنها أعضاء الجمعيات- إلى واجبهم نحو وطنهم[4].

ويصف القنصل الفرنسي العام القيمة المعنوية لصحيفة المقتبس، بأنها أهم جريدة دمشقية على الإطلاق، والوحيدة التي تؤثر في السكان المسلمين تأثيرا شاملا ونافذا. ولذا قرر القنصل احتواء هذه الجريدة، فيقول: لم يكن بإمكاني مقابلة صاحب الجريدة[5] بنفسي بسبب العادات المحلية حول العلاقات ما بين القناصل والأهالي فكان علي انتظار زيارته .. وكان علي، فضلا عن ذلك أن ألجأ

---

١) مذكرات سليمان فيضي-٢٠٨-٢٢٦-فصل (لورنس في العراق)-بغداد-١٩٥٢.

٢) انظر: أسرار الثورة العربية الكبرى-أمين سعيد-٣٧.

٣) بلاد الشام-وجيه كوثراني-٢٧١.

٤) مذكرات البارودي-١/٥٧.

٥) صاحب الجريدة محمد كرد علي.وانظر: محمد كرد علي (المثقف وقضية الولاء السياسي)-محمد الناصر النفزاوي-دار الجنوب-تونس-١٩٩٣.

إلى الموارنة الشرقية حتى لا أفضح نفسي أمام الوسطاء الذين أستخدمهم. وقد أظهرنا نحوه عطفاً، وأدينا له خدمات إنْ في القسطنطينية أو في باريس وقد عاد يبدي لنا أسمى عواطفه. وتوقفت المقتبس عن مهاجمتنا. وإذا لم يقم بزيارتي فالسبب، كما قال لي بعفوية، أنه لا يريد سماع من يردد أنه[باع نفسه للأجانب].

و لم تقف رغبة القنصل عند هذا الحد، فقد قال: إن حصولنا على حياد المقتبس لا يمكن أن يكفينا بل علينا كسب هذه الجريدة كسباً تاماً والفوز، دون أن تتظاهر بتغيير رأيها . وبعد أن حصل ما يريده القنصل من كسب صحيفة المقتبس، قال: لم نعد اليوم أمام عدو معلن ينبغي الإطاحة بمخططاته، بل صرنا أمام شبه صديق لا ينسى الخدمات التي قدمت له، ويسر إلينا حول الفوضى الحالية بآراء لا يباح بها إلا لأشخاص هم موضع الثقة(١).

وكان خليل غانم وأمين أرسلان ، يكتبان في عدة صحف أوربية ذات نفوذ اتحادي وأجنبي وتمويل يهودي ضد السلطان عبدالحميد. كما في صحيفة (تركيا الفتاة) والتركيز على الحصول على حرية شخصية وحرية معتدلة..واستئصال الأغراض والمنافع الشخصية وتعديل الضرائب ومساواتها(٢).

ومن أبرز المآخذ التي ذكرها جمال باشا على أعضاء الجمعيات القومية العربية، الإعانات المالية من الدول الغربية، فمن ذلك ما ذكره شكري بك الحسيني لسيف الدين الخطيب أن أحد نصارى العرب المقيم في أمريكا بعث مكتوباً ذكر فيه أنه سيرسل ألف دولار لتصرف في سبيل تشكيل الجمعيات القومية العربية(٣).

---

١) بلاد الشام-وجيه كوثراني-٢٨٩-(بتصرف) وقد كتبت الرسالة بتاريخ ٧ نيسان سنة ١٩١٣(سري).

٢) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية-حسان علي حلاق-٢٨٨-٢٨٩.

٣) الإيضاحات عن المسائل السياسية-جمال باشا-٩.

السبب الرابع: الاستعمار العسكري:

خلال أواخر القرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر الهجري، استعمرت بعض البلاد العربية الواقعة تحت الحكم العثماني من قبل الدول الاستعمارية، فكان استعمار لبنان في عام ١٨٦٠(١٢٧٦هـ) حيث قامت فرنسا بموافقة الدول الأوربية الكبرى وبناء على اتفاق بينهما وضع في باريس، بإرسال حملة فرنسية عسكرية احتلت لبنان، وقد استمر الاحتلال الفرنسي للبنان سبعة أشهر.. وبناء على مقترحات اللجنة الدولية أصدروا نظاماً إدارياً في حزيران سنة ١٨٦١ ووضعوا نظاماً خاصاً لحكم لبنان عرف باسم (متصرفية لبنان) قوامه الحكم الذاتي للبنان على أن يحكم في لبنان حاكم نصراني مسؤول مباشرة أمام السلطان بضمانة الدول الأوربية.

ويساعد المتصرف مجلس إداري مركزي يمثل المذاهب المختلفة. وأقر نظام المتصرفية مساواة جميع المواطنين أمام القانون[١].

واحتلت فرنسا مدينة الجزائر في عام ١٨٣٠(١٢٤٦هـ)، كما استعمرت أيضا مدينة تونس في عام ١٨٨١(١٢٩٨هـ)[٢]. ووقعت مصر تحت حكم الاستعمار ، فقد عقد مؤتمر في الآستانة بحضور كل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا وروسيا والنمسا وإيطاليا، و لم تحضره الدولة العثمانية نفسها صاحبة القضية الأساسية .. واحتفظ المندوب البريطاني في المؤتمر لدولته بحق التدخل[٣] . وقد دخل الجيش الإنجليزي القاهرة وبدأ الاحتلال البريطاني لمصر منذ خريف ١٨٨٢(١٢٩٩هـ)[٤] .

---

١) الدولة العثمانية والشرق العربي-محمد أنيس-٢٠٨. وانظر: العرب والعثمانيون-عبدالكريم رافق-٤٢٦

٢) العرب والعثمانيون-عبدالكريم رافق-٤٣٢-٤٣٨.

٣) تاريخ العرب الحديث-عبدالوهاب أحمد -١٩١.

٤) تاريخ العرب المعاصر (مصر والعراق)-عبدالعزيز نوار-١٦١-دار النهضة العربية-بيروت. وعن الآثار العقائدية للاحتلال البريطاني لمصر انظر: واقعنا المعاصر-محمد قطب-٢١٥-٣٢٤

وفي سنة ١٩١١ احتلت إيطاليا مدينة طرابلس الغرب، وأعلنت إلحاق كل الولاية إلى بلادها.. وإقدام إيطاليا على احتلال طرابلس الغرب كان بمثابة اقتطاع[١] جزء من البلاد العثمانية اقتطاعاً مباشراً، دون أي عذر ومبرر[٢].

فكان هذا التقسيم الاستعماري للبلاد العربية حافزاً للبلاد العربية إلى مقاومة الاستعمار بجميع معانية ومظاهره المختلفة، ودفعت بهذه الشعوب إلى التسلح ببعض أسلحة الغرب المستعمر نفسه من أجل توفير القدرة على الصمود في وجهه والمقدرة على الانتصار في المعركة، وكان التنظيم الحزبي والسياسي في مقدمة تلك الأسلحة[٣].

ومن جانب آخر فقد كان استعمار بعض البلاد العربية سبباً من أسباب نشأة الجمعيات القومية، إذ أصبحت بعض البلاد المستعمرة كمصر مثلاً مكاناً آمناً لتأسيس الجمعيات القومية العربية، ورغم أن مصر كانت تتمتع باستقلال شبه ذاتي تحت حكم أسرة محمد علي منذ عام ١٨٤٠(١٢٥٦هـ) إلا أنها بقيت مرتبطة بحكم شبه مركزي، أي أن مصر بقيت عثمانية في عنوانها الرسمي[٤].

وعندما بدأت الدعوة إلى تتريك الشعوب العثمانية، هرب مجموعة من القوميين العرب إلى مصر حيث يجدون فيها المكان الآمن تحت حماية المستعمر، وكان أكثرهم من الشاميين .. وقد استقر بعضهم في مصر، حيث كان الإنجليز يشجعون كل متمرد في الدولة العثمانية، ويحمون كل خارج عنها[٥].

شجع المستعمر التمرد على الدولة العثمانية تنفيذاً لقرارات وزير المستعمرات البريطاني، القائل:[... إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي

١) عن أثر الاعتداء الإيطالي على علاقة العرب والترك. انظر:العرب والترك-توفيق برو-٣٠٥.

٢) البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-١٠١.

٣) جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الريماوي-٣٢

٤) العثمانيون وتكوين العرب الحديث-سيار الجميل-١٧٩.

٥) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر-محمد محمد حسين-٢/١٠٠.

الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية البريطانية وحدها بل فرنسا أيضاً..إن سياستنا تهدف أبداً إلى منع الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، وينبغي أن تكون كذلك... في مصر ودول إسلامية أخرى، شجعنا وبصواب نمو القوميات المحلية لكونها أقل خطراً من الوحدة والتضامن الإسلامي][1].

ويرى بعض أعضاء الجمعيات القومية أن استقلال هذه البلاد -عن الدولة العثمانية- وأخذه منذ ذلك الزمن بوسائل المدنية الغربية، واقتباسه للعلوم الحديثة، وفتح أبوابه لأحرار العرب وأدبائهم، كل ذلك أوجد في مصر نهضة فكرية وأدبية تقدمت وفاقت نهضة الأقطار العربية السائرة، حتى أمست مصر في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر مباءة يأوي إليها ويستجن بها القوميون العرب[2].

وقد أدى انفتاح مصر على أوربا.. وعودة المبعوثين المصريين من فرنسا وغيرها من الدول الأوربية وهجرة بعض رجال الشام البارزين إلى مصر إلى نهضة ثقافية وسياسية مبكرة.

وقامت في مصر آنذاك نهضة صحفية واسعة ساهم فيها بعض رجال الشام البارزين الذين أتوا لمصر لنشر أفكارهم وآرائهم السياسية والأدبية التي لم يتمكنوا من نشرها في بلاد الشام. وأنشأ بعض هؤلاء صحفاً ومجلات مهمة[3]، تمثل توجهات الجمعيات القومية، فمن هذه الصحف:

جريدة الهلال ومحررها جرجي زيدان وجريدة المقطم وجريدة المقتطف ويصدرهما يعقوب صروف وفارس نمر[4] وصحيفة الأهرام التي هي فرنسية النزعة

---

١) بريطانيا والخلافة الإسلامية-وثيقة تاريخية سياسية-عبدالوهاب أحمد.

٢) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٤٠.

٣) تاريخ العرب الحديث-عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن-٣٤٦.

٤) اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب-أنور الجندي-١٦٥. وانظر: الحلقة المفقودة في تاريخ العرب-محمد جميل بيهم-٢١٨-مكتبة مصطفى البابي الحلبي -مصر-الطبعة الأولى-١٣٦٩.

مارونية الهدف[1] والتي أنشأها سليم وبشارة نقلا[2]ويقارب أن ثلث الجرائد التي يصدرها القوميون كانت تصدر من مصر[3].

وكانت مصر قد استقبلت أوائل أعضاء الجمعيات القومية، حيث لجأ إلى القاهرة أبرز مؤسسي (جمعية بيروت السرية) في عام ١٨٨٥(١٣٠٢هـ)وهم : فارس نمر، وشاهين مكاريوس، ويعقوب صروف. ليؤسسوا هناك جريدة (المقطم) ومجلة فكرية: (المقتطف)، وليتابعوا من خلالها نشر أفكارهم في خط (ليبرالي) ذي صلة أكيدة بتلك البداية التي نشأت في بيروت[4].

وفي مصر أسست جماعة من السوريين من أهل الفكر والاختبار السياسي حزباً سياسياً بمعرفة الحكومة التركية، أطلقوا عليه اسم (حزب اللامركزية الإدارية العثماني)[5] -جمعية اللامركزية- وتبنت (المنار) نشر قانون الجمعية.

وقد كانت الجمعية على صلة بكتشنر-وزير الحربية البريطاني- القنصل البريطاني في مصر، وقد تدخل كتشنر بناءً على رغبة الجمعية لدى الباب العالي للعفو عن عزيز علي المصري، الذي كان من أبرز المناضلين العرب ضد الدولة العثمانية-ومؤسس جمعيتي العهد والقحطانية-والذي كانت الدولة العثمانية قد قبضت عليه[6].

---

١) عقبات في طريق النهضة-أنور الجندي-١٧٨-دار الاعتصام.

٢) تاريخ العرب الحديث-عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن-٣٤٦.

٣) البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٩٣.

٤) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي-وجيه كوثراني-١١٣.

٥) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٩٤.

٦) الدولة العثمانية والشرق العربي-محمد أنيس -٢٧١. وانظر تفاصيل اعتقال عزيز المصري في: مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٤٩. وعزيز علي والحركة العربية-محمد عبدالرحمن برج-٩٢.

وقال لورانس عن عزيز علي المصري يعيش في مصر بمثابة المثل الأعلى للضباط العرب، وقد اتصل به اللورد كتشنر في الأيام الأولى للحرب، مؤملاً أن يستطيع بواسطته كسب القوات العسكرية العربية في الجيش التركي إلى جانبنا.

وعن لقائه بعزيز علي قال لورانس: على ظهر السفينة -الباخرة الحربية (لاما)- التقينا بعزيز علي المصري الذي ترك الجيش التركي حيث كان يشغل رتبة كولونيل ليلتحق بالجيش العربي. لقد كان طريقه إلى مكة ليبحث وأميرها تسليح الجيش النظامي، فتعرفنا إلى بعضنا وشرع الضابط الشركسي يتكلم بلغة ألمانية طليقة[1].

السبب الخامس: التنظيمات الجاهلية في الدولة العثمانية:

قد يكون هذا السبب من أهم الأسباب في نشأة الجمعيات القومية العربية، وقد أخبر ربنا عز وجل في كتابه ما أصاب الأمم السابقة بتقسيمهم أحزاباً وطوائف يكيد بعضهم لبعض، بعد أن استبدلوا شريعة الرحمن وشرعوا للأمة ما لم يأذن به الله. فقد قال تعالى {**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض**}[2].

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني أمية فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً، ثم قال:(سألت ربي ثلاثاً سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)[3].

إن إحداث هذه التشريعات الجاهلية، والتي تسمى (أنظمة) في الأمة، كانت سبباً لشقاء البشرية بظهور الأحزاب والشيع، وعرفت البشرية في فترات كثيرة من

---

١) أعمدة الحكمة السبعة-لورانس-٢٥

٢) سورة الأنعام-آية (٦٥).

٣) صحيح مسلم-كتاب الفتن وأشراط الساعة-بَاب هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ-رقم الحديث (٥١٤٤).

تاريخها ذلك اللون من العذاب -والدولة العثمانية تعتبر من ضمن تاريخ البشرية- كلما انحرفت عن منهج الله، وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم.. تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور.

وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعاً وشرائع وقوانين وقيماً وموازين من عند أنفسهم، يتعبد بها الناس بعضهم بعضاً، ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمته وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعض الآخر، والبعض الآخر يأبى ويعارض، وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم. فيذوق بعضهم بأس بعض، ويحقد بعضهم على بعض، وينكر بعضهم بعضاً، لأنهم لا يفيئون جميعاً إلى ميزان واحد، يضعه لهم المعبود الذي يعنو له كل العبيد، حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكباراً عن الخضوع له، ولا يحس في نفسه صغاراً حين يخضع له.

إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم، ثم يزاول هذا الحق فعلاً، إنها الفتنة التي تجعل الناس شيعاً ملتبسة، لأنهم من ناحية المظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعاً واحداً، ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيداً لبعض، ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها -لأنها غير مقيدة بشريعة من الله- ويكون بعضهم في نفسه الحقد والتربص.. ويُذوق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضَهم بأسَ بعض وهم شيع، ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة[1].

والدولة العثمانية كانت تعتبر دولة المسلمين من شرقها إلى غربها، وتُمَثِّلُ بِبَعْضِ خلفائها الحاكم العادل، وأصبح لقب الخليفة يُنادى به المسلمون وينتمون إليه، ولكن

١) في ظلال القرآن-سيد قطب-٢/١١٢٥.

حينما أدخلت الدولة العثمانية على مبادئها قوانين بشرية، وموروثات جاهلية حل بها كما حل بمن قبلها من الأمم {ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا}[1].

لقد عجزت الدولة العثمانية والشعوب الإسلامية عن مواصلة الإبداع، وآل أمرها إلى السقوط.. بسبب الانحراف المادي والعلمي والرهباني الذي أدى إلى تمزيق النشاط الاجتماعي... وسادت نزعة التشاؤم والانشقاق، ومحاولة الفصل بين شؤون الدين والدنيا في أواخر عهدها وعندها فقد الإنسان المسلم العثماني التوازن وحل الانحراف، وتعرقلت مسيرة حركة التاريخ[2].

وسبقت الإشارة عن التنظيمات التي حدثت بالدولة العثمانية، وكان الغرض من التنظيمات، ما يلي:

١) تقريب الهيئة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية التي عاشت منذ قرون بعيدةً عنها معنىً وسياسةً، وفي الحقيقة: إن الإسلام الذي قد كان مؤسسَ الحكومة العثمانية بقي حاكماً مطلقاً فوق الحكومة ناظماً، فقد كان القانون المدني متحداً مع القرآن... ولكون تشكيلات الأمة اشتبكت بالعقائد الدينية بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض، كانت تشكيلات الأمة لا تقبل التغيير كالعقائد الدينية... فوجب لتحصيل الائتلاف الذي لا تستطيع تركيا الاستمرار على الاستغناء عنه، إما إزالة الحائل في البين بالمرة أو تخفيف وطأته. ومعناه إما أن تحول الحكومة من الروحانية إلى الدنيوية بتخليصها عن تأثير القوانين الدينية.. وإما أن تخلص بالتدرج من الحدود

---

١) سورة فاطر-رقم الآية (٤٣).

٢) تاريخ الدولة العثمانية-علي حسون-١١١-المكتب الإسلامي-بيروت- الطبعة الثالثة-١٤١٥هـ

والقيود الدينية من طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيراً موسعاً... وللاحتراز من الحالات الموجبة للاشمئزاز..كانت الحكومة العثمانية اختارت الشق الثاني[1].

٢) ضغط الدول الأوربية ومطالبتها بإصلاح أحوال النصارى التابعين للدولة العثمانية. ويعتبر الباحثون أن معاهدة (كوتشك كاينرجي) عام ١٧٧٤(١١٤٨هـ)، أساساً حقوقياً لتلك العلاقات، وتعتبر علامة مميزة في تاريخ العلاقات العثمانية الروسية.. فأصبح من حقها إنشاء قنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية، وأصبح لرعاياها حق التجارة في أملاك الدولة... ومن أهم المكاسب التي حصلت عليها روسيا بمقتضى هذه المعاهدة أن أضحى لها حق إقامة كنيسة أرثوذكسية في القسطنطينية[2].

ويبين الشيخ مصطفى صبري، أن فصل المحاكم عن المشيخة الإسلامية في تركيا وفي حكومة الاتحاديين خاصةً، حدث بعد مراجعات مزعجة من الدول الكبيرة النصرانية[3].

وصورة أخرى من الضغط الأوربي على الدولة العثمانية، أن مصطفى رشيد باشا[4] -يعتبر أبا التنظيمات- جمع مجلس العلماء، وقال: إن سفير إنجلترا قال لنا في مناسبات عديدة..إنكم لا تقبلون شهادة الذمي على المسلم، مع أنكم تحكمون

---

١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين-مصطفى صبري-١/٨٠-٨١. وانظر: تركيا والتنظيمات في تاريخ إصلاحات الدولة العثمانية-اد.انكلهارد.

٢) الدولة العثمانية والشرق العربي-محمد أنيس-١٦٩.

٣) موقف العقل والعالم من رب العالمين-مصطفى صبري-٤/٣٥٩.

٤) مصطفى رشيد باشا:(١٢١٥-١٢٧٤هـ)-(١٨٠٠-١٨٥٨م): من مواليد استنبول. تقلد وظائف عالية في الدولة العثمانية، منها: السفير فوق العادة في لندن وباريس، وأصبح وزيراً للخارجية ثم صدراً أعظم، كان دوره كبيراً في إعلان حركة الإصلاح العثمانية عام (١٢٥٥هـ). وقد انتسب إلى المحافل الماسونية في استنبول.[مصطفى رشيد باشا وتنظيمات-رشاد قاينار-٤١].

بلاداً كثيرة جميع سكانها مسيحيون..) ورشيد باشا، بعد أن عرض على المجلس هذه القضية بتفاصيل وافية، وجه إلى العلماء هذا السؤال: ألا يمكن قبول شهادة غير المسلمين، على الأقل في المحلات التي لا يوجد فيها سكان مسلمون؟.

ولكن مجلس العلماء قال-بإجماع آراء الحاضرين-:(لا مساغ شرعي لذلك على الإطلاق) وأردف هذه الفتوى (إلا أنه يجوز للحكومة أن تتخذ ما تراه من التدابير الإدارية في أمثال هذه الحالات، إذا صدر أمر سلطان بذلك. لأن الأوامر السلطانية المبنية على المصلحة العامة، تكون مطاعة وواجبة التنفيذ) فاستند رجال التنظيمات على هذه الفتوى، وأخذوا يصدرون الأنظمة والقوانين على شكل أوامر سلطانية[1].

٣) مسايرة الدول الأوربية في مبدأ التنظيم ، وقد ورد هذا الغرض في قانون ما يسمى بـ(الإصلاحات الخيرية) والذي صدر سنة ١٢٧٢هـ (١٨٥٦)، : ونصه (تأييد وتوسيع نطاق النظامات الجديدة التي توفقنا إلى الآن لوضعها وتدوينها بالموافقة للموقع العالي الحائزة له دولتنا العلية بين الدول المتمدنة مطلوبنا إيصالها إلى درجة الكمال...فهذا العصر يعد بالنسبة لدولتنا العلية مبدأ زمن الخير..)[2].

وبالإشارة إلى بعض التنظيمات في الدولة العثمانية، والتي فيها مخالفات عقائدية، يظهر للدارس أنها أوجدت مبررات ساعدت في نشأة الجمعيات القومية العربية، وغيرها من الأفكار الملحدة. ومن هذه التنظيمات ما يلي:

١.إبقاء الحقوق والامتيازات الممنوحة لرؤساء الملل غير المسلمة. وتمنح لرؤساء الدين سلطات خاصة على شؤون أبناء طبقاتهم.

---

١) البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٧٩.

٢) تاريخ الدولة العلية-محمد فريد بك المحامي-٤٨٤. وانظر: البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٧٩.

٢.جعل لكل طائفة دينية مجلس خاص بها، وحددت سلطات المجلس .. وتركت جميع القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية لأبناء الطائفة إلى هؤلاء الرؤساء ، وتلك المجالس.

٣.إحداث محاكم نظامية، تعمل بجانب المحاكم الشرعية القديمة، بموجب قوانين جديدة. وتحال كافة الدعاوى التجارية أو الجنائية التي تقع بين المسلمين والمسيحيين وسائر الملل غير المسلمة، أو بين التبعة المسيحية وسائر التبعة غير المسلمة مع بعضهم، على هذه المحاكم[1].

٤.وضع الأنظمة اللازمة لإصلاح شؤون المحاكم الشرعية، وجمع الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات في (مجلة الأحكام العدلية)[2]. وهي ما تسمى بتقنين الأحكام الشرعية، وحينما تحدد الأحكام الشرعية بشكل مواد يتسنى تطبيقها من كل أحد حتى لو لم يكن فقيهاً. كما جاء في تبرير إعداد هذه المجلة[3].

٥.تمحى وتزال إلى الأبد من المحررات الرسمية الديوانية كافة التعبيرات والألفاظ المتضمنة تحقير جنس لجنس آخر في اللسان أو الجنسية أو المذهب من أفراد الدولة العثمانية.

٦.لا يمنع أي شخص من أفراد الدولة العثمانية من إجراء رسوم الدين المتمسك به، ولا يؤذى بالنسبة لتمسكه به ولا يجبر على تبديل دينه ومذهبه.

---

١) تاريخ الدولة العلية العثمانية-محمد فريد بك المحامي-٤٨٤-٤٨٧. (نصوص مختارة)

٢) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٧٦-٨٠ والتي صدرت في عام ١٢٩٣هـ. وقد اعتبرت هذه المجلة في وقتها القانون المدني للدولة العثمانية بجميع أقاليمها.(انظر:أحكام المرأة في الفقه الإسلامي-أحمد الحجي الكردي-٢١٣).

٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية-محمد فريد-٥٤٦-٥٥٣.

٧.قبول أفراد الدولة العثمانية، من أي ملة كانت في خدماتها ومأمورياتها..ويصير قبولهم في المدارس الملكية والعسكرية بلا فرق ولا تمييز بينهم وبين المسلمين[1].

وأصدر في الدولة العثمانية قراراً لمسايرة الإصلاح العالمي -كما يسمونه- نص فيه السلطان العثماني، بقوله: ..إنني لا أريد -ابتداء من الآن- أن يميز المسلمون إلا في المسجد، والمسيحيون إلا في الكنيسة، واليهود إلا في المعبد، إني أريد ما دام يتوجه الجميع نحوي بالتحية أن يتمتع الجميع بالمساواة في الحقوق وبحمايتي الأبوية[2].

ويصف مصطفى صبري، -شيخ الإسلام في الدولة العثمانية-حال الدولة العثمانية في أخر عمرها، فيقول: (تألب دول أعداء الإسلام عليها من الخارج ومشايعيهم المنافقين في الداخل. وكان تجريد الدولة من دينها ومحاكمها الشرعية ومعاهدها الدينية، استجلاباً لمرضاة الدول الكبيرة الغالبة في الحرب العالمية الأولى، ثم أضلفوا إلى ذلك تغيير كل شيء من مشخصات الأمة)[3].

لقد كانت هذه التنظيمات الجاهلية من أكبر عوامل تغير واقع الأمة الإسلامية، حيث تعذر على محدثي التنظيمات وبخاصة في عهد الحكومة الاتحادية التوفيق بين الدستور وبين الشرع الإسلامي، ولا يطمئنون إلى أن يكون من الأوربيين ثقة بمثل هذه الدولة المشروطة الإسلامية، إذ لا تستوعب عقولهم كعقول الأوربيين أنه كيف يمكن التوفيق بين الحرية وبين الدين المقيد؟ وقيوده مستثقلة عندهم من جهة عدم

١) المصدر السابق نفسه-٤٨٤-٤٨٧. (نصوص مختارة)

٢) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني(١٨٠٨-١٨٣٩)-محمد عبداللطيف البحراوي-٢١٤-دار التراث- القاهرة-الطبعة الأولى-١٣٩٨هـ.

٣) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين-مصطفى صبري-٨٢/١. (مع الحاشية)

موافقته للحكومة الزمنية الأوربية، ومن جهة معارضته لأهوائهم ومظالمهم في داخل المملكة. فالدين يشق عليهم، ويثقل أعناقهم دائماً، لأنهم في تاراتهم وتطوراتهم إذا خضعوا لحكم الحرية، وحاولوا أن يسيروا بسيرها فالدين لا يخليهم، لما أن الحرية والحضارة عندهم عبارة عما يرى في أوربة بمحاسنها ومساوئها حذو النعل بالنعل، وإذا خلوا إلى طباعهم الطاغية فالدين بكل قوته يمنعهم عن طغيانهم وعدوانهم، فهو مانع يمنعهم في حريتهم واستبدادهم[1].

لقد حققت هذه التنظيمات مبدأ الحريات، والتقرب لبعض مبادئ الكافرين فأضعفت مبدأ الولاء والبراء. وذلك حينما يكون النظام القائم المساواة في الحقوق بين جميع أبناء الشعب، دون النظر إلى أصولهم أو دينهم كان أول المنتفع بهذا النظام من غير المسلمين[2].

ومن منطلق هذه الحريات حصل نصارى لبنان على استقلالية[3] في التنظيم والحكم والتحاكم. وأصبحت بعض الدول الاستعمارية تتدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية أتباعهم في الديانة[4].

كما أنشأت الدول الاستعمارية لنصارى العرب المدارس التي تدرس باللغة العربية جميع العلوم، ولهذا يلاحظ في نشأة جمعيات القومية العربية أن النصارى العرب لعبوا دوراً كبيراً في إثارة الوعي القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر..وقد أتيح لهم فرصة الاطلاع والبحث في تاريخ العرب

---

١) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة-مصطفى صبري-١٠- دار القادري-بيروت-الطبعة الأولى-١٤١١

٢) انظر: المصدر السابق نفسه-٢١.

٣) انظر عن التنظيمات في الدولة العثمانية :مصطفى رشيد باشا والتنظيمات-رشاد قاي نار-الطبعة الثانية-انقره-مجمع التاريخ التركي-١٩٨٥.(باللغة التركية).التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية-محمود رئيف.

٤) انظر: الفكر العربي في عصر النهضة -البرت حوراني-٥٧.

ولغتهم وآدابهم في هذه المدارس ومما ساعد النصارى العرب على أن يلعبوا هذا الدور في تأسيس الجمعيات القومية العربية، أنهم كانوا يعيشون في مستوى اقتصادي مرتفع، ويشكلون عنصراً اقتصادياً في المجتمع العربي .. وكانوا أوثق اتصالا بأوروبا من العرب المسلمين [1].

وحينما يحصر نقد بعض نصوص التنظيمات، وهي المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يتفق مع بعض آراء الكتاب [2] في تأييد التنظيم والتجديد، حماية للدولة العثمانية من كيد وتآمر الدول الأوربية، مع عدم المساس بجناب الوحي الإلهي. ولا شك في جواز مبدأ التجديد ولكن ليس على حساب الدين.

---

١) حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي–محمود منسي–٩٥.(بتصرف)

٢) انظر:

١. أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك–خير الدين التونسي–١٦٥.

٢. العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا–عبدالكريم مشهداني–٧٦–المكتبة الدولية–الرياض–الطبعة الأولى–١٤٠٣.

المبحث الثاني:

الأسباب الفرعية في نشأة الجمعيات القومية

في المبحث الأول أوضحت الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيـــات القوميـــة العربية، وكانت تلك الأسباب قد رافقتها أسباب فرعية، وأعرضها على النحو التالي:

السبب الأول: البعثات العلمية:

بناءً على مبدأ التنظيمات والإصلاحات الذي حدث في الدولة العثمانية، فقد حرصت الدولة على أن تقتبس من الدول الصناعية مبادئ العلوم، فأرسلت عـدداً كبيراً من شباب العرب لتلقي العلوم في أوربا.

كان أول من نفذها محمد علي وذلك بإرسال الطلاب الشبان إلى أوربـا ليتعلموا هناك وكان هذا أخطر ما فعله لأنه من هناك بدأ الخط (العلمـــاني) يدخل ساحة التعليم[1].

وبخاصة أن أفكار ومبادئ الثورة الفرنسية المنتشرة في أوربا تجد قبولاً عند بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية في مهجرهم، لذا حـاولوا أن يحذوا حذو أدباء فرنسا في القرن الثامن عشر، مثـل جـان روسـو[2]

١) واقعنا المعاصر-محمد قطب-٢٠٧.وانظر: البعثات العلمية في عهد محمد علي-عمر طوسون-٦.

٢) جان روسو: (١٧١٢ - ١٧٧٨): كاتب وفيلسوف فرنسي. اعتبره بعض النقاد الوجه الأبعد نفوذا في الأدب الفرنسي الحديث والفلسفة الفرنسية الحديثة. وليس من ريب في أن مقالاته ورواياته قـد مـهدت السبيل لاندلاع الثورة الفرنسية وانبثاق الحركة الرومانتيكية في آن واحد. عرف بتمجيده للطبيعة عامـة وللطبيعة البشرية خاصة. أشهر آثاره: <في العقد الاجتمـاعي> Du contral social (عـام ١٧٦٢)، و <أميل> انظر: (الموسوعة العربية-منير البعلبكي).

وفولتير[1] ومونتسكيو، في تخطيط المبادئ الفلسفية للانقلاب الاجتماعي والسياسي الذي ارتسم في أذهانهم[2]. وقد صرح أحد أعضاء الجمعيات القومية بأنهم إذا عادوا إلى بلادهم سيحملون إليها معارف أوروبا وأمريكا، وسيحملون إليه آداب القوم من سياسية واجتماعية ومن علوم وفنون ..الخ[3].

فكان من أوائل الدروس التي تعلمها أعضاء الجمعيات القومية العربية من الثورة الفرنسية هي فكرة الثورة نفسها، لقد رأوا أن حياة الأمم ربما اعترتها المفاسد والظلامات في شؤون الحكومة والسياسة والاجتماع والاقتصاد، ورأوا أن الإصلاح ربما أصبح غير ممكن عن طريق الإقناع والتسوية السلمية، فآمنوا بوجوب الثورة في بعض الأحوال، ورأوا بناءً على الانقلاب الفرنسي (العظيم)، أن الثورة إذا أجيدت وكانت في موضعها أتت بخير كثير .. وهذا الخط من التفكير شديد الوضوح والجلاء عند أمين الريحاني، ولكنه ملموس عند المفكرين والأدباء -من أعضاء الجمعيات القومية العربية-.

فيقول الريحاني عن الثورة: (من الحقائق الرائعة أن الثورة للأمة كالحمّام للإنسان، تنبه فيه الدم وتوقظ النشاط، ناهيك بالنظافة) وفي حكم منطقة الشرق

---

١) فولتير: (١٦٩٤-١٧٧٨) واحد من أشهر الكتاب والفلاسفة الفرنسيين ويعتبر كتابه (كانديد) أشهر أعماله إذ ترجم إلى أكثر من مائة لغة. دخل السجن بتهمة تأليف أشعار تسخر من الحكومة، وأودع سجن الباستيل عام ١٧١٧ وخلال فترت سجنه استطاع إكمال مسرحيته المأساوية (أوديب) التي جعل بنجاحها من فولتير أشهر مؤلف مسرحي في فرنسا. نفي إلى بريطانيا وعاش فيها بين فترتي ١٧٢٦و١٧٢٩ وبعد صدور كتابه الرسائل الفلسفية الذي امتدح فيه الملك والنظم والمؤسسات الإنجليزية غضبت عليه السلطات الفرنسية باعتبار أن ذلك المدح تعريض بها ولهذا أدين الكتاب وفر المؤلف من باريس وعاش فولتير في سويسرا في قصر ريفي بالقرب من مدينة (جنيف) وعندما بلغ عمره ٨٣ عاماً عاد إلى باريس حيث توفي فيها، انظر: (الموسوعة العربية -١٧/٥٩٦-حرف الفاء).

٢) العرب والترك-توفيق برو-٣٩.

٣) المؤتمر العربي الأول-٦٨

من يقول: (إن الخمود الملازم لحكومات الشرق كلها، والفساد الذي اعتراها، والأقذار التي تراكمت عليها، لا يزيلها غير الحمّام حمّام الثورة الغالي)[١].

ومن خلال تتبع دراسات أعضاء الجمعيات القومية التركية والعربية نجد أن الكثير منهم قد تلقوا العلوم والمعارف في أوربا، فكان الأعضاء البارزون في جمعية تركية الفتاة قد ذهبوا إلى أوربة، حيث تركز معظمهم في باريس. وقد ذهب القادرون على السفر لغرضين، أحدهما: الهروب من انتقام السلطان، وثانيهما: لإكمال دراستهم [٢].

وجمعية العربية الفتاة كما يقول أحمد قدري -أحد المؤسسين لها-: إن الهيئة الإدارية للجمعية تألفت في باريس، وكانت تضم سبعة أشخاص هم: عوني عبدالهادي،رفيق التميمي[٣]،محمد رستم حيدر،محمد المحمصاني، عبدالغني العريسي،صبري الخوجة، توفيق الناطور،أحمد قدري، وجميعهم كانوا يواصلون دراساتهم العالية في العاصمة الفرنسية[٤].

وغيرهم كثير من أعضاء الجمعيات القومية العربية، الذين تلقوا تعليمهم في أنحاء أوربا وفرنسا خاصةً، وعندما عادوا إلى بلادهم أخذوا يطالبون بإصلاح جذري يشمل جميع مرافق الإمبراطورية ومؤسساتها[٥]، ويؤسسون لهذه المطالب جمعيات وأحزاب تتبنى قضيتهم ومطالبهم.

---

١) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والإجتماعي-رئيف خوري-١٢٩.

٢) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨-أرنست أ.رامزور-٥٤.

٣) انظر الترجمة رقم (٢٧).

٤) مجلة العربي-العدد١٥١-يونيو ١٩٧١-مقال بعنوان/العربية الفتاة-سليمان موسى-ص٥٢.

٥) جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الريماوي-٣٥. وانظر: اتجاهات الفكر المعاصر في مصر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري-حمد الجمال-١/٣٤٣.

ويحدث أحد أعضاء الجمعيات القومية عن حياتهم في البعثة العلميـــة إلى باريس، فيقول: (إننا نحن السوريين، كنا نعيش أحرارا في بـــاريس، بينمـــا زجت الحكومة الفرنسية بالأتراك في غياهب السجون.. وقررت فرنســا أن تحاول استخدامنا في بث الدعاية لها في البلاد التي تقيم فيها جاليات سورية في أوربة، وخاصة أمريكة، وكان ممن لبى دعوتها هذه لحاجتهم الماسة جميل مردم بك ويوسف الخازن. وقلت لجميل مردم، أن يغتنم فرصة اجتماعه بإخواننـــا في المهجر ليحدثهم عن آمالنا وأمانينا في مستقبل العرب، وأن يعمل علـــى ضم من يأنس بهم الوطنية والخلق الحسن إلى جمعية العربية الفتاة التي أنشأناها في باريس سنة ١٩١١(١٣٢٩هـــ). وكان جميل بك من أعضائها[١].

ويستمر أثر البعثات العلمية في نشأة الجمعيات القومية العربية، حتى بعـد تقسيم البلاد العربية. فقد نشأ حزب البعث الذي يعد من أهــم الأحــزاب السياسية التي تبنت القومية العربية في تلك الفترة، وتولى تأسيســه وقيادتــه ميشيل عفلق وصلاح البيطار عن طريق البعثات التعليميـــة، حيــث كانــا المؤسسين له وقد أنهيا دراستهما الجامعية في باريس، الأول: حصــل علــى إجازة في التاريخ، والثاني: على إجازة في العلوم، وهناك نما بالفعل تكوينـهما الفكري ووعيهما السياسي[٢] .

وقد اطلعا على مزيج من التيارات اليسارية التي نشـــطت في بـــاريس، وتأثرا ببقايا الفكر القومي في أوروبا، وكتابات الثورة الفرنسية[٣].

---

١) عوني عبدالهادي أوراق خاصة-إعداد:خيرية قاسمية- ١٧.

٢) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-١/١٩-الطبعة الأولى ١٩٧٩.

٣) سياسي يتذكر-٥١.

السبب الثاني: كتابات بعض دعاة الفكر القومي:

إن عملية التطور التي تصل بين ظهور الجمعيات العلمية ونشـــوء التنظيمـــات والجمعيات السياسية، عملية أسهم بها إسهاما خاصا، الرواد من المفكرين والدعـــاة الذين دعا بعضهم بدعوات لفتت نظر كثير من شباب العرب، وقدحت في أذهـــانهم كثيرا من الأفكار مما كانت سببا من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربيـــة، مـــع الملاحظة أن المبادئ القومية التي دعا إليها بعض المفكرين قبل نشأة الجمعيات القوميـــة تركزت حول المطالبة بالإصلاح، إصلاح الحكم، والقضاء على الفساد فيه. وكـــانت تعني أيضا مطالبة العرب بمساواتهم مع الأتراك في الحقوق والواجبات، والمطالبة بقسط أوفر من الحرية السياسية والمدنية[1]. وبناء على المساواة فقد أثاروا قضية علاقة المسلم العربي بالنصراني العربي، وأنهما أخوان على مبدأ العروبة، والوطنية . ويلزم من هـــذا تناسي التفرقة في الأديان.

وأختار نموذجا واحدا للدعاة والمفكريـــن القوميـــين، وهـــو: عبدالرحمـــن الكواكبي، وسأحصر الحديث عن الموضوعات التي طرحها وكانت ســـببا مـــن أسباب نشأة الجمعيات القومية.

يذكر أحد معاصريه بأن الكواكبي قد أكثر من الكتابة في أغراض سياســـية وإدارية وحقوقية واقتصادية. وألف أربعة كتب لم يبق منها إلا (طبائع الاستبداد) و(أم القرى). أما الكتابان الآخران (صحائف قريش)[2] و(العظمة لله). وكـــانت

---

١) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦٩.

٢) أشار إليه في أم القرى، فقال: (أخطار):من يظفر بنسخة من هذا السجل فليحرص على إشاعته بـــين الموحدين، وليحفظ نسخة منه ليضيف إليه ما سيتلوه من نشريات الجمعية باسم (صحائف قريش) الـــتي سيكون لها شأن إن شاء الله في النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية-أم القـــرى-٢. ويتحـــدث أســـعد الكواكبي عن هذا الكتاب، فيقول: إنه كان معدا للطبع ولكن حال دون ذلك سياحته الطويلة ، ثم وقـــوع الوفاة الفجائية، فصودر مع الأوراق المصادرة وأرسل هدية إلى السلطان، فلم أعثر له على أثر.-عبدالرحمـــن الكواكبي-أسعد الكواكبي-مجلة الحديث-(حلب) السنة ٢٦-العددان ٩-١٠-١٩٥٢-٥٤٨-٥٤٩.

كتابات الكواكبي تدور في دائرة لا تكاد تتبدل، وهي الإصلاح السياسي والديني. وأنشأ في مصر حلقة واسعة ومتنوعة تضم النصارى واليهود إلى جانب المسلمين، وكان يطبق في حياته المبدأ الذي دعا إليه.

وعن تأثير كتابات عبدالرحمن الكواكبي في تأسيس الجمعيات القومية العربية، فقد قال عنه محمد كرد علي: بأن له الفضل بتنبيهه الأفكار، ووصف شقاء الأمة فأبدع بدعوته بدعة حسنة لم يسبق إليها. فأودى بحياته ليؤسس للعرب دولة ترعاهم، وتَوَفَّرَ على حمل النور إليهم[١].

قدم الكواكبي كتابين عرض فيهما أطروحاته الفكرية والتي أثرت في أعضاء الجمعيات القومية العربية، وهما كتابي: (طبائع الاستبداد) وكتاب (أم القرى)[٢]. وفي هذين الكتابين بيان لضعف العالم الإسلامي عامة وأقطاره العربية خاصة، وبيان أسباب هذا الضعف وأنواع علاجه الممكنة، وفيهما دعوة حارة إلى اقتبلس العلاج الصحيح.. وهذان الكتابان من حيث هما مشاركة في الحركة العربية، يتبوأان مكانة فريدة وحدهما في أصالتهما، واتساع أفقهما وجرأتهما[٣].

---

١) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٨٤(بتصرف)

٢) بعض الدراسات عن عبدالرحمن الكواكبي، ما يلي:

١. المعاصرون -محمد كرد علي-٢٧٩.
٢. الكواكبي إحياؤه وآراؤه-محمد أحمد خلف الله.
٣. عبدالرحمن الكواكبي الرحالة-عباس محمود العقاد
٤. عبدالرحمن الكواكبي-سامي الدهان.
٥. مهرجان عبدالرحمن الكواكبي-الجمهورية العربية المتحدة
٦. عبدالرحمن الكواكبي (شهيد الحرية ومجد الإسلام)-محمد عمارة.
٧. الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة-جان دايه
٨. الأعمال الكاملة للكواكبي-محمد جمال الطحان.

٣) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٧٠.

ويؤكد محمد عزة دروزة -أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية- أن ما قدمه الكواكبي من كتابات ومقالات كان لها أثر عظيم في أفكار ناشئة العرب ووعيهم ويقظتهم، مما جعلهم يعدونه من أبرز رجال النهضة القومية وموقظيها[1].

بل لقد قرر بعض القوميين أن آراء الكواكبي لا تختلف عما ينادي به اليوم أعمق الوطنيين من زعماء العرب، فهو يدعو إلى التسامح الديني، واجتماع المسلمين والنصارى على حب الوطن والدفاع عنه، ويهاجم الاستعمار الغربي[2].

ويقول مصطفى الشهابي- أحد أعضاء الجمعيات القومية-: لقد عُد الكواكبي من كبار رجال النهضة الحديثة، وانتفع بكتاب (أم القرى) كثير من شبان الرعيل الأول وكانوا يطالعونه في دمشق، وينقلونه في السر من واحد إلى آخر[3].

وعن علاقة الكتابين وترابطهما الفكري القومي، يقول رشيد رضا: (إن سجل (أم القرى) يتطرق إلى الإصلاح الديني والاجتماعي، وكتاب طبائع الاستبداد يتطرق إلى الإصلاح السياسي)[4].

و لم تقتصر الجهود الفكرية التي قدمها الكواكبي في هذين الكتابين، فقد كان له جهود في المجال الصحفي، فمن ذلك: تولى في شبابه تحرير جريدة (الفرات) الرسمية التي كانت تصدر باللغتين العربية والتركية، وأصدر خلال ذلك جريدة سماها (الشهباء) فأغلقتها الحكومة بعد مدة بدعوى أنها نشرت أفكاراً لا يجوز نشرها.. ووافى مصر وأخذ ينشر في مصر جريدة (المؤيد)[5].

---

١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٤٢.

٢) مهرجان عبدالرحمن الكواكبي-أثر الكواكبي في النهضة العربية-صالح الأشقر-٨٥-القاهرة-١٩٦٠.

٣) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٥٨.

٤) المنار-السنة العاشرة-العدد العاشر-١٩٠٨-ص ٧٢٧.

٥) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٨٠-٢٨١.

لم تكن معالجات الكواكبي لواقع مجتمعه مجرد أطروحات فكرية فقط، وإنما قال عنه أعضاء الجمعيات القومية دخل إلى ميدان الوظائف الحكومية، وأعلن سخطه على الطغيان وندد به.. وهرب إلى مصر ليعيش في جوها الذي يتيح قسطا أكبر من الحرية[1].

وباستعراض للموضوعات التي ناقشها الكواكبي في كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نجد أنه يعتبر من أجرأ من كتب في الدعوة إلى الحرية وإلى الحياة النيابية. وفي محاربة الاستبداد وبيان أثره السيىء في شتى نواحي المجتمع، علمية وخلقية ودينية واقتصادية وعمرانية[2].

وكتاب طبائع الاستبداد، يحتوي على مقدمة وسبعة فصول منها، الاستبداد والدين، الاستبداد والمجد، الاستبداد والتربية، الاستبداد والترقي، الاستبداد والتخلص منه[3].

وفي تفصيل أدق لبعض مباحث هذا الكتاب، نجد الكواكبي حينما يعالج موضوع الاستبداد في الحياة السياسة وأبعاد هذه المسألة يقول:(هذه خمسة وعشرون مبحثا كل منها يحتاج إلى تدقيق عميق، وتفصيل طويل، وتطبيق عن الأحوال والمقتضيات الخصوصية، وقد ذكرت هذه المباحث تذكرة لأولى الألباب وتنشيطا للنجباء. -نذكر بعض هذه المباحث:

١-مبحث ما هي الأمة أي الشعب.

٢- مبحث ما هي الحكومة.

---

١) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٦٨.

٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر-محمد محمد حسين-١/٢٦٦.

٣) انظر : طبائع الاستبداد-الكواكبي -٧-مطبعة الدستور-مصر.

٣-مبحث ما هي الحقوق العمومية.

٤-مبحث التساوي في الحقوق.

٥-مبحث الحقوق الشخصية .

٦-مبحث نوعية الحكومة.

٧-مبحث المراقبة على الحكومة.

٨-مبحث حفظ السلطة في القوانين.

٩-مبحث كيف توضع القوانين.

١٠-مبحث توزيع الأعمال والوظائف.

١١-مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم[1].

وتعرض الكواكبي لبعض الأفكار والمبادئ عن موضوع الاستبداد التي ذكرها في كتابه. فقال: (الاستبداد ريح صرصر فيه إعصار يجعل الإنسان كل ساعة في شأن، وهو مفسد للدين في أهم قسميه ، أي الأخلاق.. ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الأمور، أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات)[2].

ولما كانت الإرادة والاستبداد عنصران متناقضان، قرر الكواكبي قيمة الإرادة، بأنها (لو جازت عبادة غير الله لاختارَ العقلاء عبادة الإرادة، فهي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النباتات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة. فأسير الاستبداد الفاقد الإرادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلا عن الإنسانية)[3].

---

١) طبائع الاستبداد-الكواكبي-١٣٩-١٤٦.

٢) المصدر السابق نفسه-٩٥.

٣) المصدر السابق نفسه-٨٠.

وبيّن الكواكبي مفهوم الحرية، وأن أكثر المصائب جاءت بفقدانها، فقال: (إن البليةَ فقدُنا الحرية، وما أدري ما الحرية، هي ما حرمنا معناه حتى نسيناه، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه، وقد عرف الحرية من عرفها: بأن يكون الإنسان مختاراً في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم). ومن فروع الحرية تساوي الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء، وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة. ومنها: حرية التعليم، وحرية الخطابة والمطبوعات، وحرية المباحثات العلمية، ومنها العدالة بأسرها[1].

ومطلب الحرية أكثرت الجمعيات القومية في مطالبته، حتى أصبح من الشعارات التي نادت به، وأكد أعضاء الجمعيات القومية في المؤتمر العربي الأول، أن من أماني العرب أن تكون .. صحافتهم مطلقة، وأقلام كتابهم غير مقيدة، ومدارسهم تضاء بكهرباء الوطنية السورية[2].

ويرى الكواكبي أن موضوع الاستبداد داء ينتشر في الأمة أجمع، فقال:(الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها، من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفرّاش إلى كنّاس الشوارع) ويشير بعبارة موجزة إلى أن هذا التسلسل لا يكون في الحكومة الدستورية، حيث:(إن وزير المستبد هو وزير المستبد، لا وزير الدولة، كما هو في الحكومات الدستورية..)[3].

وللاستبداد دور مهم في قلب كثير من المفاهيم، فمن ذلك كما يقول: (وقَبِل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه، من اعتقاد أن طالب الحق فاجر، وتارك حقه مطيع، والمشتكي المتظلم مفسد. والنبيه المدقق ملحد، والخامل

---

١) أم القرى-الكواكبي-٣٢.

٢) المؤتمر العربي الأول-٦٨.

٣) طبائع الاستبداد -الكواكبي-٥٢-٥٤.

المسكين هو الصالح الأمين. وقد اتّبع الناسُ الاستبدادَ في تسميتهِ النصحَ فُضولاً، والغيرة عداوة، والشهامة عتواً، والحمية جنوناً..كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة، والتحايل كياسة..)[1].

وهكذا صور الكواكبي في كتابه آثار السلطة المطلقة التي لا يحدها قيد في الحاكم والمحكومين على السواء، ليصل آخر الأمر إلى أن كل عللنا يمكن أن ترد آخر الأمر إلى الاستبداد، وحينما حدد الداء قدم حلا لهذه المشاكل، وهو التخلص من الاستبداد. ويكون ذلك بالطريقة التالية:(..إن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس.. ومَبْنى قاعدةٍ، وأنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به[2].

لقد كانت هذه الكتابات من أبرز القضايا التي تبنتها الجمعيات القومية، بل قد يقال إن الجمعيات القومية العربية لم تؤسس إلا لتحقيق هذه القضايا. وبطرحه القومي لموضوع الاستبداد، قد يظهر عليه التأثر بالثورة الفرنسية، حيث عرض في كتابه طبائع الاستبداد سبيلين من سبل الإصلاح في نظره وأثنى عليهما، فأولهما: (سبيل النبيين) وثانيهما: (سبيل الفئة التي اتبعت أثرهم) يعني (فئة الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد، ولا تمسكوا بمعاداة كل دين، بل ارتقوا فوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا) وضرب مثلاً لهذه الفئة فذكر (مؤسسي جمهورية الفرنسيس)[3].

١) المصدر السابق نفسه-٧٧.

٢) المصدر السابق نفسه-١٤٧.

٣) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجهه السياسي والاجتماعي-رئيف خوري-١٢١.
وانظر: طبائع الاستبداد-٩٢.

والكتاب الآخر للكواكبي هو كتاب (أم القرى) وهو عبارة عن أسلوب محاضر جلسات مؤتمر تخيل انعقاده في مكة لبحث شؤون المسلمين، وما ألم بهم وبالإسلام وطرق معالجة ذلك، يحضره علماء وزعماء المسلمين، من اثنين وعشرين قطراً من أقطار العالم الإسلامي، قد اجتمعوا في مكة للحج. ويناقش المجتمعون أحوال المسلمين. ويندون في سياق ذلك بالاستبداد والظلم وانتقاد الحرية.

وبعد أن تبادلوا الآراء في أكثر من اثني عشر اجتماعاً رسمياً، قرروا أن ينشئوا جمعية ترمي إلى إحياء الإسلام والنهوض به[١]، ونبذ سيادة الجهل والبدع والضلالات والتدجيل، ويقررون وجوب الرجوع إلى المبادئ الإسلامية من حق وعدل وحرية ومساواة وشورى وعلم وعمل، وإقامة خلافة عربية قرشية مستكملة للشروط الشرعية، وقائمة على أساس الشورى والحرية والحق، على أن يقوم في كل قطر حُكْمٌ يقوم عليه الصالحون من أهله بمصادقة الخليفة وعلى أساس الحرية والحق والشورى[٢].

وكتاب أم القرى قد يكون أقوى صراحة في عباراته ومعانيه في مواجهة الدولة العثمانية، والحكم العثماني، حيث صرح الكواكبي في أم القرى بأن الخلافة يجب أن تكون عربية، بل يجب إقامة خلافة عربية مقام الخلافة العثمانية، وألقى بذور الشك في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء المسلمين.[٣]

لقد أبرز الكواكبي في (أم القرى) عدة قضايا فكرية هامة كانت سبباً في تأسيس الجمعيات القومية العربية، ويمكن حصرها بالنقاط التالية:

---

١) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٧٠.

٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٤٢.

٣) الاتجاهات الفكرية عند العرب-علي المحافظة-١٣٣.

وانظر : أم القرى-عبدالرحمن الكواكبي-٢٣٤-٢٣٥.

١) تحقيق مطلب إقامة خلافة عربية قرشية:

قال عبدالرحمن الكواكبي:(الجمعية لا يعنيها غير أمر النهضة الدينية بناء عليه رأت الجمعية ... أن يكون الخليفة، خليفة المسلمين، عربيا قرشـــيا مســتجمعا للشرائط في مكة)[١].

وقد نادت الجمعيات القومية العربية بوجوب إقامة خلافة عربية قرشية يكون مقرها مكة المكرمة، ويتمتع الخليفة الديني باحترام الملك ويملك سلطة روحية فعلية على كافة مسلمي الأرض[٢].

ولتحقيق هذا المطلب تبنت الجمعيات القومية العربية قضيـــة ومنــاصرة ثــورة الشريف حسين بن علي، لإقامة خلافة عربية، فهو عربي ينتهي نسبه ببيت النبـــوة. كما تبنت أن يكون مقر الخلافة في مكة[٣]. ويذكر نبيه العظمـــه -أحـــد أعضـــاء الجمعيات القومية العربية- في مذكراته أن الشريف حسين كان يقول لنا: (أنـــا خاتم في إصبعكم)[٤].

فيكون طرح الكواكبي لمسألة شروط اختيار الخليفة[٥]ومقر الخلافة، من أبـرز أسباب اختيار الجمعيات القومية العربية للشريف حسين قائدا للثورة العربية.

---

١) أم القرى-الكواكبي-٢٣٤.

٢) يقظة الأمة العربية-نجيب عازوري-٢٢٠.

٣) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر-محمد محمد حسين-٢٨٤/١.

٤) الرعيل العربي الأول (حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة)-جمع خيرية قاسمية٣٢.

٥) من شروط الإمامة العظمى القرشية؛ كما نصت على ذلك الأحاديث الصحيحة عن رســـول الله ﷺ و عن مسألة اشتراط القرشية في الإمامة، انظر:

١. مقدمة ابن خلدون-٢٤٧/١.
٢. الأحكام السلطانية-الماوردي-٦.
٣. الفصل في الملل والأهواء والنحل-ابن حزم- ٨٩/٤.
٤. الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة-عبدالله الدميجي-٢٦٥.

وتأكيداً[1] لأحقية العرب بالخلافة بيّن الكواكبي قيمة العرب وبالذات عـوب الجزيرة ومكانة الجزيرة العربية، ومدى صلاحية أهلها أن يقوموا بالخلافة الدينيـة، لذا أصدرت الجمعية القرارات ومنها:

قرار عدد (٦) إن الجمعية بعد البحث الدقيق والنظـر العميـق في أحـوال وخصال الأقوام المسلمين الموجودين، وخصائص مواقعهم، والظروف المحيطة بهـم، واستعداداتهم، وجدت أن الجزيرة العربية ولأهلها بالنظر إلى السياســة الدينيـة مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر في غيرهم... والتي منها:

١-الجزيرة أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوســطها بــين أقصى آسيا شرقاً وأقصى أفريقيا غرباً.

٢-الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسية وأدياناً ومذاهب .

٣-الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب.

٤-عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين لأنه مناســب لطبائعـهم الأهلية أكثر من مناسبته لغيرهم

٥-عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال[2].

وعلى منهج الكواكبي في قيمة الجنس العربي، قرر أعضاء الجمعيات القوميـة أن الدم العربي الأصلي ما يزال حياً متمثلاً إلى الآن في حزيرة العرب، التي يتصـل

---

١) انظر:
١. تاريخ الدولة السعودية-أمين سعيد- ١٠٦/٢.
٢. الهاشميون والثورة العربية الكبرى-٢٥.
٣. العرب والعثمانيون-عبدالكريم عثمان-٥٤٥.
٢) أم القرى-الكواكبي-٢١٨-٢٢٠.

سكانها بسائر مواطن العرب الأخرى...اتصالا وثيقاً، والتي ظلت وما تزال تمدهم من آن لآخر بحيويتها المستمرة وموجاتها الكبرى والصغرى الدائمة[1].

٢) الطعن في حكم الأتراك:

قد يكون هناك تلازم في الفكر القومي عند الكواكبي بين الثناء على العرب، وبين القدح في الأتراك، وقد أكثر من ذم سلاطين الترك في كتابه أم القرى، من جوانب متعددة من أبرزها ما يلي:

أ) الشك في إسلام الترك: فقد قال: (إن إسلامهم -الترك- فيه ريبة، وسبب الريبة أن الأتراك لم يخدموا الإسلام بغير إقامة بعض جوامع لولا حظ نفوس ملوكهم بذكر أسمائهم على منابرها لم تقم. وأنهم أتوا الإسلام بالطاعة العمياء للكبراء)[2].

وعن إعلان حكام الترك للإسلام وإقامة شرع الدين، بين الكواكبي أنهم يفعلون ذلك بقصد الرياء، فإنهم لا يتراءون بالدين إلا بقصد تمكين سلطتهم على البسطاء من الأمة، كما أن ظواهر عقائدهم وبواطنها تحكم عليهم بأنهم مشركون ولو شركاً خفياً من حيث لا يشعرون[3]. فاحترام الشعائر الدينية في أكثر ملوك آل عثمان هي ظواهر محضة، وليس من غرضهم، بل ولا من شأنهم أن يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك[4].

ب) ضعف قدرة سلاطين الأتراك على سياسة البلاد: الترك قد تركوا الأمة أربعة قرون ولا خليفة، وتركوا الدين تعبث به الأهواء ولا مرجع، وتركوا

---

١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢١.

٢) أم القرى-الكواكبي-١٧١.

٣) المصدر السابق نفسه-٣٧.

٤) المصدر السابق نفسه-٢٢٨.

المسلمين صماً بكماً عمياً ولا مرشد. أليس الترك قد تركوا الهند مساهلة، وتركوا الممالك الجسيمة الآسيوية للروسيين، وتركوا قارة أفريقيا الإسلامية للطامعين...أفما آن لهم -الترك- أن يستيقظوا ويصبحوا من النادمين على ما فرطوا في القرون الخالية، فيتركون الخلافة لأهلها والدين لحماته[1].

ووقعت حوادث بعد إعلان الدستور، أظهرت عند أعضاء الجمعيات القومية حقيقة ضعف الأتراك على إدارة الدولة، فمن تلك: موقف حكومة الاتحاديين من غزو إيطاليا لطرابلس الغرب، وكتابة معاهدة بينها وبين إيطاليا في عام ١٩١٢ تقضي باعتراف تركيا بسيادة إيطاليا على طرابلس وأن تكون خاضعة خضوعاً تاماً للسيادة الملكية الإيطالية. فكان لهذا الصلح أثره السيئ على أعضاء الجمعيات القومية العربية، مما جعل عزيز علي المصري -مؤسس جمعية العهد- يترك طرابلس الغرب ويعود إلى الآستانة، وأصبح يقال ويشاع: (إن الترك قد سلموا العرب لأعدائهم)[2].

ومن صور قدح الكواكبي في حكام الأتراك، قضية توزيع الزكوات، حيث قال: إن شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم، فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء، وهذه الحكومات الإسلامية، قد قلبت الموضوع، فصارت تجبي الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابي بها المسرفين والسفهاء[3].

وعلى غرار مآخذ الكواكبي على سلاطين الدولة العثمانية، سلكت الجمعيات القومية العربية هذا المسلك متأثرة بكتابات الكواكبي، فمما قالوا: (لم يهتم الترك منذ أن استولوا على البلاد العربية وعلى الخلافة بالتفاهم مع العناصر

---

١) المصدر السابق -٢٣٩.

٢) انظر: العرب والترك-توفيق برو-٣٣٦-٣٣٧. وانظر:العرب والعثمانيون-عبدالكريم رافق-٤٧٧.

٣) أم القرى-الكواكبي-٦٠.

الأخرى التي يحكمونها، ولا سيما العنصر العربي، وقد جعل هذا العنصر بعد ثورة ١٩٠٩ يشكو من سوء ما يعامل به، وكيف أن المراكز التي جعلت للعرب في الوزارات المتعاقبة كانت ثانوية لا تتكافأ مع أهميتهم، -ثم بينوا هضم حق العروب - وقالوا: كأن الترك يخافون منا، ومن عددنا، ومن فكرتنا الاستقلالية(١).

ويصف أعضاء الجمعيات القومية الدولة العثمانية بأنها دولة محتلة للبلاد العربية، وأن اعتقاد المسلمين بالخلافة العثمانية، قوى نفوذ الدولة العثمانية وسهل حكمها تسهيلاً كبيراً.. بل إن فكرة (الخلافة العثمانية) ساعدت كثيراً على استسلام العرب للحكم العثماني، وأخرت كثيراً نشوء فكرة القومية العربية(٢).

وقد بين عبدالغني العريسي أثناء انعقاد المؤتمر الأول الذي عقد في باريس، أن الحكومة العثمانية تعامل الجنسيات العثمانية معاملة الغالب للمغلوب على قاعدة (حق الفتح)، وأكد بأن الدولة العثمانية إذا استطاعت أن تدعي (حق الفتح) في بلاد البلقان مثلاً فلا تستطيع أن تدعيه لا حقاً ولا حقيقة في البلاد العربية... فإنما نحن الرعاة لا الرعية(٣).

٣) العداء بين العرب والترك:

قد يكون إثارة موضوع الخلاف بين الترك والعرب من الموضوعات التي أثيرت بعد إعلان الدستور ، ومحاولة فرض سيطرة أعضاء تركية الفتاة على زمام الحكم ومن ثم الدعوة إلى تتريك الدولة، إلا أن في كتابات الكواكبي نجده طرح مسألة الخلاف بين الترك والعرب، مما يؤكد أن كتاباته تعد من أبرز أسباب تحيز العرب لعروبتهم.

---

١) العرب والترك-توفيق برو-١٥٠.

٢) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري- ٢٩و٣٦.

٣) المؤتمر العربي الأول-٤٣-٤٤.

وقد استعرض الكواكبي قضية عدم تطابق الأخلاق بين الرعاة والرعية، وبين أن هناك أمماً مختلفة قد تخلقت بأخلاق الرعية، واتحدت معها في عوائدها ومشاربها حتى ولو في العوائد غير المستحسنة في ذاتها(١).

وبعد هذا العرض لموقف الدولة العثمانية من رعاياها، قال: (فلم يشذ في هذا الباب غير المغول الأتراك أي العثمانيين، فإنهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيرية رعاياهم لهم، فلم يسعوا باستتراكهم كما أنهم لم يقبلوا أن يستعربوا.. ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم للعرب كما يستدل عليه من أقوالهم التي تجري على ألسنتهم مجرى الأمثال في حق العرب: كإطلاقهم على عرب الحجاز (ديلنجي عرب) أي العرب الشحاذين .. وتعبيرهم بلفظة (عرب) عن الرقيق وعن كل حيوان أسود. وقولهم (بس عرب) أي عربي قذر..)(٢).

لقد كانت هذه الكلمات من المبررات عند العرب للتحيز لعروبتهم، كما قال أحمد قدري:(أنه شاهدنا ضابطاً تركيا يخطب في جمهور غفير عن حسنات الدستور والعهد الجديد وعن مساوئ العهد البائد، ويتحامل أثناء ذلك على اثنين من كبار خاصة السلطان عبدالحميد، وهما عزت العابد، والشيخ أبو الهدى الصيادي، فينعتهما بقوله [الخائن عرب عزة] و[الخائن عرب أبو الهدى](٣).

٤) فصل السياسة عن الدين:

من أبرز المسائل التي ناقشتها الجمعية في اجتماعها، مسألة علاقة السياسة بالدين، وما مدى علاقة الخليفة (الديني) بتنظيم الدولة.

---

١) أم القرى-الكواكبي-١٦٨.

٢) المصدر السابق نفسه-١٦٩-١٧٠.

٣) مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى-أحمد قدري-٦-١٣-دمشق-١٩٥٦.

لقد كان من مبادئ جمعية أم القرى، كما في القضية (١٤): لا تتداخل في الشؤون السياسية مطلقاً فيما عدا إرشادات أو إخطارات بمسائل أصول التعليم وتعميمه(١).

وعن قرارات وأنشطة الجمعية ما ورد في القضية رقم(٤٣): تتجول الجمعية في البلاد الإسلامية القريبة والبعيدة، للاطلاع على أحوال البلاد وأهلها من حيث الدين والمعارف، وإرشادهم إلى ما يلزم إرشادهم إليه في ذلك حسبما تقتضيه الأخوة الدينية، بدون التعرض للأحوال السياسية قطعياً(٢).

وبهذا حدد مجال نظر الجمعية بأنه منحصر في النهضة الدينية فقط، وتؤمل أن يأتي الانتظام السياسي تبعاً للدين، ولكن الأصل في قرار الجمعية: أن السلطان المعظم يصلح أن يكون عضداً عظيماً في الأمر، أما إذا أراد أن يكون هو القائم به فلا يتم قطعياً، لأن الدين شيء والملك شيء آخر، والسلطان غير الدولة(٣).

وبعد فصل السلطة السياسية عن الدين، أصّل الكواكبي قواعد ومهام الخلافة، في نظر الجمعية، فقال:

فقرة(٢):يكون حكم الخليفة سياسة مقصوراً على الخطة الحجازية، ومربوطاً بشورى خاصة حجازية.

فقرة (٤):تتشكل هيئة الشورى العامة من نحو مائة عضو منتخبين، مندوبين من قبل جميع السلطنات والإمارات الإسلامية، وتكون وظائفها منحصرة في شؤون السياسة العامة الدينية فقط.

---

١) أم القرى-الكواكبي-١٩٩.

٢) المصدر السابق نفسه-٢٠٩.

٣) أم القرى-الكواكبي-٢٢٧-٢٢٨.

فقرة (١٢): الخليفة لا يتداخل في شيء من الشؤون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات قطعياً.

فقرة (١٤): الخليفة لا يكون تحت أمره قوة عسكرية مطلقاً، ويذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين ... أما وظائف الشورى العامة فيقتضي أن لا تخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية التي لها تعلق مهم في سياسة الأمة، وتأثير قوي في أخلاقها ونشاطها. ومن ذلك:...فتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة والاستفادة من إرشاداتها وإن كانت غير مسلمة، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب[١].

ولقد أكثَرَ أعضاء الجمعيات القومية العربية من الحديث في مسألة الظلم والعدل، والطاعة المستنيرة والطاعة المطلقة، وقرر أعضاء الجمعيات القومية العربية أن حكومة الآستانة غير مستوفية الشروط والأركان من وجهة العدل مادام حقنا غير محفوظ، لأن الحكومات في نظر (إعلان حقوق الإنسان) لا تكون مشروعة إلا إذا احترمت حق الأفراد فمن باب أولى حق الجماعات والشعوب[٢].

٥) الحكم المركزي واللامركزي عند الكواكبي:

في تحديد مهام الملك عند الكواكبي يظهر طرحه لمبدأ الحكم المركزي واللا مركزي، فقد قال:(الملك وظيفته النظارة العامة وانتخاب وزير يثق بأخلاقه، ويعتمد على خبرته... فالملك إذا تغرر وتنزل للتداخل في أمور السياسة أو الإدارة الملكية أو الأمور الحربية أو القضاء، فلا شك أن يكون كرَبُّ بيت يداخل طبّاخه في مهنته، ويشارك بستانيه في صنعته، فيفسد طعامه ويبور بستانه، فيشتكي ولا يدري أنّ آفته في نفسه[٣].

---

١) المصدر السابق نفسه-٢٣٠.

٢) المؤتمر العربي الأول-٤٩.

٣) أم القرى-الكواكبي-١٧٧.

ويندرج هذا الحكم على الأمة، فتصاب بالفتور والذي من أبرز أسبابه: السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤولية. وحرمان الأمة من حرية القول والعمل، وفقدانها الأمن والأمل، وكذلك فقدان العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمة، وإبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار. وينتج من هذا فقدان قوة الرأي العام بالحجر والتفريق[1].

لقد ركز الكواكبي على مطلب الحكم اللامركزي، وبين أن اللامركزية في الحكم، لا تتحقق بتوحيد القوانين في الدولة، مع اختلاف طبائع أطراف المملكة واختلاف الأهالي في الأجناس والعادات، وأكد الكواكبي ضرورة أن يحصل كل قوم من أهالي تركيا على استقلال نوعي إداري، يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم، كما هي الحالة في إمارات ألمانيا وولايات أمريكا الشمالية.

وبعد أن بين الكواكبي مفاسد الحكم المركزي، ومحاسن الحكم اللامركزي، ذكر أن الدولة العثمانية تطبق الحكم المركزي، ذاكراً بعض صور مركزية الحكم في ذلك، منها:

- التمسك بأصول الإدارة المركزية مع بُعْد الأطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الإدارة في المركز على أحوال تلك الأطراف المتباعدة وخصائص سكانها.
- وكذلك: التزام المخالفة الجنسية في استخدام العمال بقصد تعسر التفاهم بين العمال والأهالي، وتعذر الامتزاج بينهم لتأمن الإدارة غائلة الاتفاق عليها. والتمييز الفاحش بين أجناس الرعية في الغُنْم والْغُرم، وإدارة المصالح المهمة السياسية والملكية بدون استشارة الرعية ولا قبول مناقشة فيها. وإن كانت إدارة مشهودة المضرة في كل حركة وسكون.

---

١) المصدر السابق نفسه-١٦٠.

وهذا المسلك غير محمود في الحكم، كان من آثاره على الدولة العثمانية - كما ذكر الكواكبي-أن الدولة العثمانية وقعت في الغفلة أو التغافل عن مقتضيات الزمان ومباراة الجيران وترقية السكان، بسبب عدم الاهتمام بالمستقبل والضغط على الأفكار المتنبهة بقصد منع نموها وسموها واطلاعها على مجاري الإدارة، محاسنها ومعايبها [1].

إن قضية الحكم اللامركزي شغلت حيزا كبيرا من مطالب الجمعيات القومية العربية، ولذا أسس أعضاء الجمعيات القومية العربية جمعية باسم (الجمعية اللامركزية). وخلال المؤتمر العربي الأول تناول أعضاء الجمعيات القومية العربية، قضية الحكومة اللامركزية، وكان أكثر من تناولها بالتركيز، مندوب الجمعية اللامركزية (اسكندر عمون)[2][3] .

ويتفق مفهوم الحكومة اللامركزية عند الجمعيات القومية العربية، مع مفهوم الكواكبي، بأنها توزيع السلطة الإدارية على المراكز المختلة التي يتألف منها الجسم السياسي والاجتماعي، عوضا عن حصرها في جزء واحد مركزي، ليتيسر لكل جزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة به بنفسه عن علم، مع حفظ الصلة بالمركز حرصا على مصلحة الكل[4].

وتعتبر مجلة (المنار) ما قدمته من كتابات حول موضوع فوائد الحكم اللامركزي، تأصيلا لهذه القضية، فقد قامت (المنار) بدراسة مقارنة عن فوائد الحكم اللامركزي، وضرر المركزية، مبينة أن الحكومة العثمانية قد أعجزها تنائي

---

١) أم القرى-الكواكبي-١٦٣-١٦٦.

٢) انظر الترجمة رقم (٦).

٣) المؤتمر العربي الأول-٩٨-١٠٤

٤) مجلة دراسات تاريخية-السنة الرابعة-العدد الحادي عشر-ربيع الأول ١٤٠٣هـ. مقال بعنوان تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين-سهيلة الريماوي.

أطراف المملكة، و اختلاف لغات وأجناس ومشارب أهلها عن تنفيذ قوانينها في كل ولاية، فجاءت اللامركزية توزع التبعة على أفراد الأمة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن... وتصل دراسة (المنار) إلى : أن الحكومة المركزية غير قادرة على الدفاع عن أكثر البلاد العثمانية إذا هاجمها عدو أجنبي، ولذلك فإن المملكة ستكون عرضة لخطر الزوال، وبالتالي تكون الحكومة المركزية مهددة بفقد الاستقلال[1].

٦) الولاء والبراء عند الكواكبي:

إن ما كتبه الكواكبي عن موضوع الولاء والبراء يُمَكن من حَصْرِ القضايا التي تناولها في المناقشة، بما يلي:

أ) الرابطة القومية مقدمة على الرابطة الدينية: قال الكواكبي (يا قوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين. أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون. فهذه أمم أستراليا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى، وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري.. -ويتساءل الكواكبي-.. فما لنا نحن ألا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها، فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الأعاجم والأجانب: دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالإخاء، ونتواسى في الضراء، ونتساوى في السراء، دعونا ندبر حياتنا الدنيا **ونجعل الأديان تحكم في الآخرة فقط**، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي (فلتحيى الأمة، فليحيى الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء)[2].

---

١) مجلة المنار-المجلد السادس عشر-الجزء الثالث-٨ مارس سنة ١٩١٣.

٢) طبائع الاستبداد-الكواكبي-١١٠-١١١.

لقد كانت هذه الكلمات ومثيلاتها، من أبلغ الحجج عند أعضاء الجمعيات القومية، في تأسيس الجمعيات القومية العربية على أساس الرابطة القومية، وأن يقولوا: استطاعت المثل العليا المشتركة أن تجمع بين العقائد المتناحرة، وتوحدها في رابطة إيجابية فعالة، تعمل لتحقيق أهداف مشتركة، وأن يكون الحافز لهم إلى العمل هو اهتمامهم بتقدم البلاد على أساس الوحدة الوطنية. كما أصبح الرابط الذي يؤلف بينهم هو اعتزازهم بالتراث العربي(١).

ب-مجاراة العرب للغرب: إن النهوض العلمي المادي في الدول الغربية كان من عوامل انبهار الكواكبي بالدول الأوربية، ووجوب الأخذ بما عندهم من الصغير والكبير. فمما قال في تطور العلوم الرياضية والطبيعية في أوربا: أخذت هذه العلوم تنمو في الغرب، وعلى مَرِّ القرون، ترقت وظهر لها ثمرات عظيمة في كافة الشئون المادية والأدبية، حتى صارت كالشمس، لا حياة لذي حياة إلا بنورها، فأصبح المسلمون مع شاسع بعدهم عنها محتاجين إليها لمجاراة جيرانهم، احتياجا يعم الجزئيات والكليات: من تربية الطفل إلى سياسة الممالك... بل أضحى المسلمون محتاجين للحكمة العقلية، التي كادت تجعل الغربيين أدرى منا حتى في مباني ديننا(٢).

ويقرر الكواكبي أن مبدأ مجاراة المسلم للغرب، والأخذ عنهم من الشئون المادية والأدبية، ويعم الجزئيات والكليات: من تربية الطفل إلى سياسة الممالك. أنه مبدأ لا يخالف الإسلام، حيث أن أصل الإسلامي لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم، بل يستلزم الألفة، وذلك أن العرب أينما حلوا من البلاد، جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم. ويشمل مبدأ الألفة للغرب كما قرره

---

١) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٩.

٢) أم القرى-الكواكبي-٥٣-٥٤.

الكواكبي لو أن الغرب استعمروا بلاد المسلمين، فيقول : إن المسلمين لم ينفروا من الأمم التي حلت بلادهم وحكمتهم، فلم يهاجروا منها كعدن وتونس ومصر بخلاف الأتراك، بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله لأنهم يذعنون لكلمة ربهم تعالى {وتلك الأيام نداولها بين الناس} [١].

ج-تفضيل الحكم الأجنبي الكافر على حكم الأتراك: انطلاقاً من دافع مقاومة ما يسميه الكواكبي -ظلم واستبداد حكام الأتراك. فضل حكم من سماه الكافر العادل على حكم الأتراك، إذ أن حكام الترك حينما يضاف إلى شركهم ما هم عليه من الظلم والجور، يحكم عليهم بالشرع والعقل بأن ملوك الأجانب أفضل منهم وأولى بحكم المسلمين، لأنهم أقرب للعدل ولإقامة المصالح العامة، وأقدر على إعمار البلاد وترقية العباد[٢]. قد يكون من أسباب تفضيل الكواكبي حكم الكفار أنهم : لا يحذرون من الخلافة العربية، بل يرون من صوالحهم الخصوصية، وصوالح النصرانية، وصوالح الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية[٣].

وينقم الكواكبي على من ينتقد طالبي الإصلاح وبخاصة حينما يتعرضون لنقد أمراء المسلمين، فيقول عن معارضي الإصلاح: يعتبرون طالبي الإصلاح من المارقين من الدين، كأن بجرد كون الأمير مسلماً يغني عن كل شيء حتى عن العدل، وكأن طاعته واجبة على المسلمين، وإن كان يخرب بلادهم ويقتل أولادهم ويقودهم ليسلمهم لحكومات أجنبية [٤].

---

١) المصدر السابق نفسه-٢٤٣-٢٤٤. وعن موقف الكواكبي من الجهاد. انظر: أم القرى-٢٤٢.

٢) أم القرى-الكواكبي-٣٧.

٣) المصدر السابق نفسه-٢٤٣-٢٤٤.

٤) المصدر السابق نفسه-٣٤.

٧) التنظير في مسألة تأسيس الجمعيات:

في كتاب الكواكبي (أم القرى) إشارات وتصريحات في فضائل الجمعيات، وقد تعتبر بعض الآراء التي ذكرها الكواكبي، في مقام التنظير لتأسيس الجمعيات القومية العربية، ومن تلك الآراء، قال الكواكبي: (..إن الجمعيات المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمراً طويلاً .. وتأتي بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يفسدها التردد ..وهذا هو سر كون الجمعيات تقوم بالعظائم وتأتي بالعجائب، وهذا لا يبعد أن يتم لنا انعقاد جمعية منتظمة تنعقد الآمال بناصيتها، ولا ينبغي الاسترسال مع الوهم إلى أن الجمعيات معرضة في شرقنا لتيار السياسة فلا تعيش طويلاً، ولا سيما إذا كانت فقيرة و لم تكن كغالب الأكاديميات (أي المجامع العلمية) تحت حماية رسمية، بل الأليق بالحكمة والحزم الإقدام والثبات وتوقع الخير إلى أن يتم المطلوب... انتظام جمعية يكون لها صوت جهوري، إذا نادى مؤذنها حي على الفلاح.. ووظيفتها الأساسية أن تنهض بالأمة من وهدة الجهالة وترقى بها في معارج المعارف، متباعدة عن كل صبغة سياسية[١]).

ويعتبر عبدالرحمن الكواكبي فقدان الجمعيات في بلاد المسلمين من أسباب انحطاط المسلمين، فيقول:لا تربية قويمة المبادئ، ينتج منها رأي عام لا يطرقه تخاذل وانقسام، ولا جمعيات منتظمة تسعى بالخير وتتابع السير، ولذلك حل فينا الفتور.. فلا تفقد الجمعيات إلا بسبب فقد الإحساس[٢].

إن ظهور الفتور في الأمة في رأي الكواكبي بسبب فقد قوة الجمعيات وثمرة دوام قيامها[٣]. حيث أن دور الجمعيات عند الكواكبي أنها تسعى إلى: أولاً- لتنوير الأفكار بالتعليم، ثانياً- إيجاد شوق للترقي في رؤوس الناشئة[٤].

---

١) أم القرى-الكواكبي-١٨.

٢) المصدر السابق نفسه-٥٩.

٣) المصدر السابق نفسه-١٦١.

٤) المصدر السابق نفسه-١٩٢.

وهذا الانحطاط الذي حل بالمسلمين، لا يوجد بالأمم الغربية -كما يقول الكواكبي -لاهتمامهم بوسائل الاجتماعات والمفاوضات، فذكر من تلك الوسائل:-إعدادهم في مدنهم ساحات ومنتديات، تسهيلاً للاجتماع والمذاكرات وإلقاء الخطب وإبداء التظاهرات. ومنها: نشرهم في الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكرية[1].

هذا بعض ما قدمه الكواكبي من أطروحات قومية، كانت -مع الأسباب الأخرى- سبباً من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية.

ومن خلال العرض السابق يلحظ أن الكواكبي قد وقع في مخالفات عقائدية، وذلك في تقريره لكثير من المسائل القومية، وسترجى المناقشة في باب مستقل إن شاء الله تعالى.

السبب الثالث: دور الصحافة في نشأة الجمعيات القومية:

والسبب الثالث من الأسباب الفرعية في نشأة الجمعيات القومية العربية الصحافة، ومما يؤكد على دورها قول البارودي -أحد أعضاء الجمعيات القومية- في مذكراته: بدأت عيوننا تتفتح على الحقائق القومية حول السنة ١٩٠٥-١٩٠٦(١٣٢٣-١٣٢٤هـ).. بدأت أطالع بعض الصحف المصرية التي كانت تتسرب إلى دمشق، كالمقطم والأهرام والمؤيد، ولا أدري كيف تصل إلى دمشق لأنها كانت ممنوعة. وأذكر أن بعض أصدقاء لي كمحب الدين الخطيب وعثمان مردم بك، كانوا يأتون بعدد أو عددين من الجرائد المصرية وينقلونها إلى عدد محدود من أصدقائهم من الشبان الناشئين، فيمر العدد من يد ليد بصورة خفية، دون أن يطلع على ذلك أحد[2].

---

١) المصدر السابق -٦٣.

٢) مذكرات البارودي-فخري البارودي-١/٥٧.

فكان أعضاء الجمعيات القومية، يقولون: طالما شاقنا استطلاع الأخبار فتسقطناها من بريد أجنبي أو جريدة في سفارة أو دار قنصلية...وليس هذا كل البلاء إذ لو حرمت علينا الكتابة في جرائدنا وأبيحت لنا قراءة الصحف المنتشرة في سائر الأقطار لقلنا شر أهون من شرين ولكن هيهات. حظرت المراقبة قراءة كثير من الجرائد المنتشرة في كل بلاد الله ولا سيما ما صدر في مصر[1].

لقد ظهرت جهود فردية مبكرة في نشر المبدأ القومي بالجانب الصحفي. تمثلت بصحيفة (نفير سوريا) وهي صحيفة أسبوعية سياسية. وكذلك صحيفة (الجنان) وهي صحيفة سياسية أدبية تصدر كل أسبوعين وتولى إصدارهما بطرس البستاني[2]. وغيرها من الصحف. إلا أن هذه الصحف ركزت على قضية ما يسميه القوميون بالتسامح الديني، والدعوة إلى التوفيق بين العقائد المختلفة. وذلك تعايشاً مع النظام المقرر و(الإصلاحات) التي قدمتها الدولة العثمانية على الأمة الإسلامية وكان من أبرزها: (عدم التفرقة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، دون النظر إلى مذاهبهم أو انتمائهم القومي، وحرية الممارسة للشعائر الدينية لكل المذاهب، وعدم تطبيق عقوبة الإعدام على المرتدين[3].

لذلك جاءت أكثر المقالات مركزة على الانتماء القومي دون الديني، مثال ذلك ما نشرته صحيفة الجنان عام ١٨٧٠(١٢٢٢هـ):(..لا أمل لنا بالعصبة الدينية لأن زمان النبوة قد مضى وقد تركنا الدين. والتمسك بالعصبة الدينية في هذا العصر هو سبب الضعف والتأخر، ولا سبيل للنجاح إلا بتركها وبالتمسك بالعصبة الوطنية[4].

---

١) الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده- سليمان البستاني-٢٩

٢) يقضة العرب-جورج انطونيوس-١١٤.

٣) الأوضاع الثقافية في تركيا-سهيل صابان-٥.وانظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية-فريد بك المحامي.

٤) مجلة (الجنان) ١٨٧٠ نقلاً عن سليم البستاني-سلسلة الأعمال المجهولة-ميشال جحا-١١٦.

ويعتبر أعضاء الجمعيات القومية إعلان الدستور إعلان لحرية الصحافة، وفتح لباب الصحافة على مصراعيه، فصدرت في دمشق أول جريدة يومية وطنية وهي جريدة (المقتبس) لمحمد كرد علي، وكانت إدارتها مجمعاً للعلماء على اختلاف أقطارهم، ومما لاشك فيه أنها كانت الأولى التي نبهت أذهان الناس إلى واجبهم نحو وطنهم وكان يصدر منها يومياً (١٠٠٠) صحيفة[1].

وعن دور هذه الصحف في نشأة الجمعيات القومية وإشاعة الفكر القومي، يقول محمد كرد علي: إن الصحف قد علمتهم بسائط من التاريخ وحال الأمم وسياسات السياسيين وقوانين المشرعين واستعمار المستعمرين وتدليس المدلسين... ولا حياة للأحفاد بدون الأخذ من سيرة الأجداد، والاقتباس من المدنية الحديثة كل ما لا ينـزع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم. علمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربية، وأن نغمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأمور الدين والدنيا يذهب بالدين والدنيا معاً[2].

وقد كانت بعض الصحف القومية تنص على أهدافها، فمن ذلك صحيفة القبس التي قال عنها شكري العسلي[3]-أحد أعضاء الجمعية اللامركزية- : الغاية من إصدارها في هذه الآونة هي تنوير الفكر العام ببث الحقائق العلمية ونشر الأخبار الصحيحة وإحياء شعور الأمة ... فإن كانت الأمة جاهلة فيجب علينا أن نعلمها، وإن كانت غافلة فينبغي لنا أن نوقظها، وإن كانت تائهة فيحتم علينا أن نرشدها، وإن كانت قانطة فالواجب يقضي علينا أن نغرس في قلبها غرس الأمل الواسع[4].

١) تطور الصحافة السورية في مائة عام(١٨٦٥-١٩٦٥)-جوزيف الياس-١٨١.

٢) خطط الشام-محمد كرد علي-٨٢/٤-مكتبة النوري-دمشق-الطبعة الثالثة-١٤٠٣.

٣) انظر الترجمة رقم (٣٨).

٤) تطور الصحافة السورية في مائة عام(١٨٦٥-١٩٦٥)-جوزيف الياس-١٣٢-دار النضال-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٨٢. وانظر:القبس-العدد الأول-٣٠ أيلول ١٩١٣.

وقد صرحت صحيفة (الشعب) في عددها الأول والذي صدر عـام ١٩٠٩، بأن من مبادئ (الشعب): التهذيب، الانتقاد العادل، صدق الوطنيـة، تشـجيع الناشئة وترقيتها .. ومن أخص مبادئ الشعب: مساعدة الجمعيات والأندية الأدبية والمدارس والمكاتب والسعي في نشر ما طوي من محاسن اللغة العربية[١].

لقد أصبحت الصحف العربية تبحث في المسائل التي تطـالب بها الجمعيـات القومية، فمن ذلك الدفاع عن العنصر العربي، والتغني بأمجاد العرب بمناسبة أو غـير مناسبة، وتندد بالإجراءات المتخذة ضد العنصر العربي. كمقالة بعنوان (المسألة العربية)، ومما جاء فيه:..إن لفظة عربي وتركي لا يسوغ أن تقال في عصر الاستبداد، فهل يليـق أن يتلفظ بها في عهد الدستور. وإن كان بعض أفرادنا يشكون من حرماننا مـن الوظـائف العالية..ثم دعى المقال إلى المساواة بين العرب والترك، وتعليم اللغة العربية[٢].

وتشارك الصحف الصادرة في مصر الصحفَ العربية الأخرى في إثارة القوميـين في تأسيس الجمعيات الخاصة بهم، فمن تلك الصحف صحيفة (مصر)، ففـي بيـان منهج الصحيفة قال محررها : (مسلكي أن أكشف حقائق الأمـور ملتزمـاً جـانب التصريح متجافياً عن التعريض والتلميح وأن أجلو مبادئ الحرية وآراء ذوي النقـد، وأن أبين ما يظهره البحث من عواقب الحوادث ومقاصد أهـل الحـل والعقـد... ومقصدي أن أثير بقية الحمية الشرقية، أهيج فصالة الدم العربي، وأرفع الغشاوة عـن أعين الساذجين، وأحيي الغيرة في قلوب العارفين، ليعلم قومي أن لهم حقاً مسـلوباً فيلتمسوه ومالاً منهوباً فيطلبوه وليخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل مدلس يشتري بحقوقهم ثمناً قليلاً)[٣].

---

١) تطور الصحافة السورية-١٤٣.

٢) المقتبس-عدد٢٠-بتاريخ ١٢/١/ ١٩٠٩نقلا من كتاب:تطور الصحافة السورية-جوزيف الياس-٩٩.

٣) صحيفة مصر-العدد الأول-٢٤كانون الأول عام ١٨٧٩. نقلا من كتاب: الاتجاهات الفكرية عنـد العرب-علي المحافظة-٣٠.

وكان شكري غانم يكتب في الصحف الباريسية ويبين آراءه في السياسة العثمانية الخارجية والداخلية. وكان يحلل الحوادث، ويورد الأخبار عن تعصب الترك لعنصريتهم، ومحاولتهم تتريك العناصر غير التركية، وحكم الدولة حكما مركزيا، وحرمان تلك العناصر من حقوقها[١].

وجميع مقالات شكري غانم الصحفية تركزت على مطالب الجمعيات القومية العربية، ومن مقالات شكري غانم:(لم يهتم الترك منذ أن استولوا على البلاد العربية وعلى الخلافة بالتفاهم مع العناصر التي يحكمونها، ولا سيما العنصر العربي. وقد جعل هذا العنصر بعد ثورة ١٩٠٩ يشكو من سوء ما يعامل به، وكيف أن المراكز التي جعلت للعرب في الوزارات المتعاقبة كانت ثانوية لا تتكافأ مع أهميتهم...)[٢].

لقد حدثت بعد إعلان الدستور حرب بين الصحف التركية والصحف العربية، مما جعل بعض الصحف العربية تفسح المجال لكتاب العرب الذين يهاجمون حكومة الاتحاد والترقي، ويطالبون بتأسيس الجمعيات القومية. ومن تلك الصحف (مجلة المنار) والتي يصدرها رشيد رضا، وتعتبر الناطقة بلسان الجمعية اللامركزية. فأصدرت حكومة الاتحاديين مذكرة توقيف بحقه، نشرها في (المنار) بهذا النص: مذكرة أخذ وقبض بحق الشيخ محمد رشيد رضا.. الفار إلى مصر، وصاحب و محرر جريدة (المنار) الهذيانية، والمظنون عليه بالتجاسر على نشر مواد الخيانة المعلنة في الورقة المذكورة[٣].

وقد صرحت بعض الصحف القومية بنقد حكومة الاتحاديين، كما في المقال الصادر في صحيفة (دليل حمص)، ومما جاء فيه: ليس من عربي في سورية يجري

١) العرب والترك-توفيق برو-١٥٠.

٢) معضلة الشرق، أو الأقطار العربية المحررة-خير الله خيرالله-٤٢.

٣) المنار-مجلد ١٢-الجزء ٩-اكتوبر ١٩٠٩- ص ٧١٦.

فيه دم آبائه وأجداده يتقاعس عن طلب الإصلاح، إن السوريين يريدون أن يحيـــوا، وليس من حائل يقف في سبيل مطالبهم الحقة .. بلاد العربية تتجـــاذب أصداؤهـــا مرددة طلب الإصلاح[1].

وتؤكد صحيفة (المقتبس) على حقوق العرب، ومن أمثلة ذلك مقالتها بعنـــوان: (الترك والعرب) عام ١٩٠٩(١٣٢٧هـ)، وفيها مطالبة بمساواة العرب بـــالأتراك، وإعادة حقوقهم المغتصبة في العهد البائد، وأتبعت ذلك في عام ١٩١٠(١٣٢٨هـ) بمقالة هي (الترك والعرب) وفيها يدعو المقال إلى وحدة العناصر وينبه إلى أن جرائـــد العاصمة -الآستانة- تكتب ضد العرب[2].

ولتضامن الصحف وتأييدها للجمعيات القومية، ما اتخذته بعض الصحف مـــن إجراءت حينما يتعرض بعض أعضاء الجمعيات القومية، أو الجمعيات القومية نفســها لأذى، فحينما رفضت حكومة الاتحاد والترقي مطالب جمعية بـــيروت الإصلاحيـــة، واعتبرت الجمعية غير قانونية، في عام ١٩١٣(١٣٣١هـ) صدرت جميع الجرائـــد ببيروت، وعلى صفحاتها الأولى قرار الوالي بإلغاء الجمعية وإقفال النادي، ضمن إطـــار أسود دلالة على الحداد، وتركت الصفحات الأخرى بيضاء[3].

ويؤكد أعضاء الجمعيات القومية في خلال حكم جمعية الاتحاد والترقي، بفتح بـــاب الحرية أكثر في المجال الصحفي، وقد صدر قانون الصحافة العثماني في أواسط عـــام ١٩٠٩ يقضي بأحكام مختلفة على كل صحفي يهين السلطان أو القناصل أو السفراء ... بمـــدد من الحبس تختلف بين أسبوع أو ١٥ يوما إلى ستة أشهر، مع غرامات نقدية، كما كـــان من مواد القانون مادة تقضي بالتعطيل لمدد مختلفة. وقد تكون لأجل غير مسمى[4].

١) دليل حمص عدد ٨٠- بتاريخ ١٩١٣/٤/٢٣. نقلا من كتاب : تطور الصحافة السورية- جوزيف الياس-٩٩.
٢) المقتبس-العدد ١٨-بتاريخ ١٠ كانون الثاني-١٩٠٩.
٣) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٩٩.
٤) انظر: الأهرام-العدد ٩٥٤٨-١٩٠٩/٨/١٢ و٩٥٩٥-١٩٠٩/١٠/٦. نقلا من: العرب والترك-١٥٥.

لقد طالب أعضاء الجمعيات القومية العربية: بأن تباح لهم راوية الأخبار وترديد صدى الأفكار، والنظر في شؤون أنفسهم من إلقاء درس مفيد وعرض مقترح جديد ونقد عامل وعمل، والبحث في كل ما من شأنه أن يلذ ويهذب ويفيد. وعلى الجملة إطلاق الحرية إلى مالا يفضي بها إلى الفوضى[1].

وفي الجانب الآخر انحازت أكثر الصحف العربية في تأييد حزب (الحرية والائتلاف) المعارض لجمعية الاتحاد والترقي، فقد نشرت صحيفة المقتبس مقالة لشكري العسلي، بعنوان: (حزب الأحرار المعتدلين) وفي هذه المقالة يشرح شكري العسلي مواد نظام الحزب، ويعلق عليها. وفي مقالة أخرى بعنوان (الحزب الجديد) بقلم حقي العظم-أحد مؤسسي حزب اللامركزية- وفيها تعريف وافي بحزب (الحرية والائتلاف) ودفاع عن خطته وسياسته، فكان مما قال: (قد يسر الله لهذه الأمة حزب الحرية والوفاق أو حزب الأحرار المؤتلف لتكون مخلصة للأمة والوطن من الاستبداد الذي خلف استبداد عبدالحميد)[2].

ولبيان منهجية بعض الصحف المؤثرة في تأسيس الجمعيات القومية، أبين نموذجا منها وهي صحيفة (المقتطف)، التي تعتبر من أبرز صحف الجمعيات القومية العربية، وذكر محرروها سياسة المجلة: الأوربيون أنفسهم على كثرة المتعلمين منهم ورواج الكتب العلمية عندهم رأوا أن لا بد لهم من إنشاء جرائد علمية تذيع المعارف بين الخاصة والعامةِ، وتنشر أخبار العلماء وتحقيقاتهم حال حدوثها.. وقالت مجلة المقتطف: وقد اقتدينا بهم في ذلك منذ ١٩ سنة فأنشأنَا المقتطف واعتنينا اعتناء خاصا بنشر ما ليس في كتبنا العربية... فتجد في كل جزء

---

١) الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده-سليمان البستاني-٣٣.

٢) صحيفة المقتبس-عدد ٨٤٥-بتاريخ ١٩١١/١٢/٨ . نقلا من كتاب: تطور الصحافة السورية-جوزيف الياس-١١٦.

منها -المقتطف- شيئاً من نتائج ما حصلناه بالدرس والتدريس.. وما حصله أشهر علماء الأرض في آسيا وأوربا وأمريكا وما كتبوه وخلدوا به ذكرهم[1].

لقد نهجت مجلة المقتطف المنهج القومي العلماني، حيث كانت أفكار مؤسسيها الماسونيين القوميين النصارى ظاهرة عليه، وهم شاهين مكاريوس، وفارس نمر ، وتعتبر (المقتطف) من أكثر المجلات الصادرة عن خارج سيطرة الدولة العثمانية، تأثيراً في تأسيس الجمعيات القومية العربية.

وحينما تقدم (المقتطف) في مقالاتها عن الثورات الغربية، والثناء على مؤسسي الثورات والجمعيات في الدول الغربية، فإنها تؤكد على مبدأ الاقتداء بهم والسير على منهجهم. كما تقول في أحد مقالاتها: ومن يطالع (المقتطف) وهو جالس في بيته وبين أهله يجد فيها مقالات غلادستون التاريخية، ثمرة ذلك العقل العظيم، الذي يدير الممالك كما يدير الربان السفينة، وقد أفرغ فيها نتائج درسه وبحثه مدة ٧٠٠ عاماً [2].

واتبعت الصحف القومية أسلوب الترجمة لكتب تختار بعناية ثم نشرها في الصحف، مثال ذلك كتاب (التحفة الأدبية) للدبلوماسي المفكر الفرنسي هنري غيزو الذي ترجمه ونشره أعضاء الجمعية السرية، والكتاب من الغلاف إلى الغلاف يدعو إلى نظام سياسي متقدم نسبياً خصوصاً على الصعيد الديمقراطي[3].

وتضفي مجلة (المقتطف) عبارة الثناء والمدح على علماء وقادة الشرق والغرب، من الملاحدة والكافرين كأرسطو طاليس وأفلاطون وكنت، ونيوتن وبونابرت[4].

---

١) المقتطف-الجزء ١٢-من السنة ١٨-سبتمبر ١٨٩٤- ص ٧٩٢.

٢) المصدر السابق نفسه.

٣) صحافة الكواكبي-جان دايه-٣٢.

٤) المقتطف-الجزء ١٢-من السنة ١٨-١٨٩٤. وانظر: الجزء ٧-السنة ١٨-سنة ١٨٩٤.

لقد أيقظت الصحافة الأذهان، وحملت إلى قرائها لواء الدعوات السياسية والفكرية المختلفة: التجزئة والوحدة الوطنية والإقليمية... والقومية العربية[1]. وغير ذلك من الموضوعات السياسية الحساسة، التي كانت تتناول الوضع السياسي والوطني السائد في ذلك العهد. ونشأ عن التفاعل بين الحركات الوطنية والتقدمية في العالم سلسلة من الكتب والأبحاث، نقلت إلى المجتمع العربي أفكارا ومبادئ جديدة عليه[2].ولهذا كان المراقبون في الدولة العثمانية يهتمون اهتماما خاصا بالصحافة والطباعة، ويخضعونها -على الدوام- لمراقبة دقيقة وصارمة. ما كان يسوغ لجريدة تنشر كلمة واحدة، ولو كانت في باب الإعلانات، دون أن تحصل على موافقة الرقيب الدائم[3].

السبب الرابع: دور نصارى العرب في نشأة الجمعيات القومية:

يلاحظ في تاريخ تأسيس الجمعيات القومية العربية الدور البارز الذي قام به[4] نصارى العرب، وقد كان النصراني يشعر دوما بأنه واحد من (رعايا) السلطان وأن الحكومة التركية لا يمكن لها أن تكون حكومته[5].

ما من صلة دينية، ولا صلة قومية تصل النصراني العربي بالدولة العثمانية. وكانت المدارس الأجنبية خاصة تبعد تلاميذها النصارى عن تاريخ العرب وتاريخ العثمانيين على السواء، وكانت توحي إليهم أن لا يبالوا بتاريخ يهم المسلمين وحدهم[6].

---

١) الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة-علي المحافظة-٣٠.

٢) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية-وليم الخازن-٢٢٦-دار المشرق -بيروت- ١٩٧٩.

٣) البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٨٨.

٤) عن دور نصارى العرب في تأسيس الجمعيات: انظر:سقوط الدولة العثمانية-مجدي الصافوري-٢٢٣-٢٣٤.

٥) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦٠.

٦) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٤٣.

ويرى مدير القنصلية العامة الفرنسية في بيروت أن واقع نصارى العرب في الدولة العثمانية كان من أبرز الدوافع لتأسيسهم جمعيات على أسس قومية عربية، وذلك في رسالته لوزير الخارجية باريس، حيث يقول:(لقد تحمل المسيحيون دوماً، بنفاذ صبر، النير التركي، فسياسة تركيا، التي بسبب روح التعصب وحب الاستفادة كانت تفضل دائماً قمعهم واستغلالهم، مضيقة عليهم الخناق عوضاً عن كسبهم إلى قضيتها عن طريق إشراكهم بحكومتها، لم تكن لتقنعهم بقبول فكرة وطن عثماني، ويَعْتَبِر مسيحيو هذه البلاد أنفسهم في حالة عبودية كما يتمنون الاحتلال الأجنبي الذي ينتظرون منه تحريرهم[1].

ويعتبر نصارى العرب أول من بدأ في تأسيس الجمعيات على أسس قومية، وأَوْضحُ برهان على ذلك دورُ بطرس البستاني وناصيف اليازجي، الذي قال عنه أعضاء الجمعيات القومية العربية بأنهما : دعوا إلى التوفيق بين العقائد المختلفة، وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة. لأن المعرفة تؤدي إلى الاستنارة العقلية، والاستنارة العقلية تؤدي إلى القضاء على التعصب وتحل محله المثل العليا المشتركة بين الدينين[2].

لقد اتفق اليازجي والبستاني مع المنصرين في تأسيس الجمعيات القومية العربية، كجمعية (الآداب والعلوم) , (الجمعية الشرقية) و(الجمعية العلمية السورية)، وشلوكا في ترجمة التوراة إلى العربية، وكان لهما جهود علمية تمثلت في تأليف الكتب المختصرة لتستعمل في المدارس التنصيرية، وإلقاء المحاضرات في الجمعية الأدبية التي حثا الأمريكان على إنشائها، وكتابة النشرات لهذه الجمعية[3]. التي تضرب على وتر الوحدة الإسلامية والمسيحية من الوجهة الوطنية والقومية[4].

---

١) بلاد الشام-وجيه كوثراني-٢٥٤.

٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٤.

٣) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٢-١١٣. وانظر: ١-رواد النهضة الأدبية-كمال اليازجي-٩٠.

٢. الفكر العربي في عصر النهضة-ألبرت حوراني-١٢٧.

٤) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٩٤.

وعلى آثار اليازجي والبستاني في تأسيس الجمعيات القومية العربية، سلك نصارى العرب ، أمثال: ندرة مطران في المشاركة في تأسيس جمعية بيروت الإصلاحية، ونجيب عازوري في تأسيس جمعية رابطة الوطن العربي، وأسعد داغر في المشاركة في تأسيس المنتدى الأدبي، وإسكندر عمون نائباً ومشاركاً في تأسيس حزب اللامركزية وميشيل عفلق تأسيس حزب البعث. الخ.

وقد أكد أعضاء الجمعيات القومية العربية، على أن تأسيس جمعية بيروت السرية يعتبر أول محاولة لإثارة الفكر القومي، وكان الذي تولى نشأة جمعية بيروت السرية نصارى العرب الذين درسوا في الكلية السورية-الجامعة الأمريكية-[1].

ومن أبرز مساعي نصارى العرب، المطالب التي قدمها نصارى العرب في جمعية بيروت الإصلاحية، للقنصلية الفرنسية العامة في بيروت، بعد أن بينوا -كما في رسالتهم-ما سموه التعصب الديني بين المسلمين (الأتراك) وبين النصارى. ولهذا كان من أماني النصارى في سورية (إن نصارى سورية مرتبطون بفرنسا ارتباطاً نهائياً وهم لا يمكنهم إلى الأبد أن ينسوا ما يدينون به من إكبار لعظمتها وحضارتها ومن اعتراف لعطفها عليهم أيام الشدائد. إن [الأمنية الكبرى] لمسيحيي سورية هي بسط الحماية الفرنسية على سورية .. وإما الحكم الذاتي لولاية بيروت تحت حماية فرنسا ورقابتها الفعليتين..)[2].

ومن أمثلة التعصب الديني الذي ذكره نصارى العرب ما وقع عليهم في حرب البلقان[3]، حيث قالوا عن هذه الحرب: (إن الحرب البلقانية حرباً دينية،

---

١) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦٠.

٢) بلاد الشام-وجيه كوثراني-٢٧٢.وانظر: المارونية في لبنان قديماً وحديثاً -٣٦٨.

٣) انظر: ١- تاريخ حرب البلقان الأولى والثانية-يوسف البستاني-٣٣ وما بعدها-مطبعة الهلال-القاهرة.

٢- العرب والترك-توفيق برو-٣٣٨.

٣- تاريخ الدولة العثمانية-علي حسون-٢٨٤.

حرباً صليبية، حرب الصليب ضد الهلال، حرب المسيحية المتحالفة ضد الإسلام. من هنا، لا يستبعد أن يعتقد المسلمون أن وجود المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية هو السبب الرئيسي في انحطاط وانهزام الأتراك. وتصل عقلية المسلمين في الواقع إلى حد اعتبار المسيحيين المسؤولين الفعليين عن المصائب التي تحل بالإمبراطورية، إلى حد اعتبارهم الأعداء الحقيقيين) .

وإضفاء الصبغة الدينية في حرب البلقان، وأن المسلمين (الأتراك) قد استغلوا الحرب لإبادة النصارى عموماً ونصارى العرب خصوصاً، كما في رسالة الأعضاء النصارى لجمعية بيروت الإصلاحية، يخالف كتابات من حضر الحرب وعايش الآثار المترتبة على الحرب البلقانية، الذين ذكروا أن منشورات رسمية ظهرت قبل الحرب، من قبل ملوك البلقان، تصف الحرب البلقانية بأنها حرب الصليبية[١].

وحينما دخلت الجيوش البلقانية أحد الولايات العثمانية فاتحين مشى فيها كبار رجالهم الدينيين بملابسهم المذهبة التي يتزينون بها في الحفلات الدينية الكبرى. وفي مقابل ذلك رفض السلطان العثماني إعلان الجهاد، وجندت الدولة العثمانية جنوداً من رعاياهم البلغاريين والصربيين واليونانيين، فإنها ظنت أن وضعهم في مقدمة ألوف من المسلمين يضطرهم إلى إطلاق النار على أعداء الدولة، ولكنهم كانوا يطلقون رصاصهم في الفضاء كما قال غير واحد منهم. ولما لاحت بارقة النصر في جانب إخوانهم في الجنسية والدين طاروا إليهم ورموا طرابيشهم ووضعوا القبعات على رؤوسهم[٢].

ولتقرير مبدأ أن الحرب البلقانية حرب صليبية، فقد نشر جماعة من القسس في مقدونيا رسالة قالوا فيها: إن الواجب المفروض على كل

---

١) تاريخ حرب البلقان الأولى والثانية-سليمان البستاني-٦٩.

٢) المصدر السابق نفسه-٧٥.

(مسيحي) أن يقدم روحاً إسلامية على هيكل الكنيسة، فكان لتلك الرسالة صدى عظيم فأخذ الجنود يعملون بهذه الوصية[1]. فقال أحد الضباط: إن خير وسيلة لنشر لواء الراحة والسلام في ألبانيا إنما هي إبادة المسلمين فيها، وإلزام عدد من المسلمين أن يدينوا بالنصرانية [2].

فاستغلال الحرب البلقانية لمبدأ التعصب الديني -كما في رسالة أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية- إنما كان من قبل نصارى البلقان، وليس المسلمين الأتراك.

لقد وجد نصارى العرب مجالاً لتمزيق الأمة الإسلامية، والقضاء على هذا الدين من خلال مشاركتهم في تأسيس الجمعيات القومية العربية، فكان مما قال ندرة مطران وهو نصراني وأحد أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية، وتربطه علاقات وثيقة مع أقطاب السياسة الفرنسية[3] قال خلال انعقاد المؤتمر العربي الأول: عُهد إلي أن أبحث عن الوسائل التي تكفل حفظ الحياة الوطنية ووقاية البلاد العربية العثمانية من المطامع. وربما قصد الذين اختاروا لهذا الموضوع خطيباً مسيحياً أن يصيبوا معه مواضيع أخرى مهمة كبيان تضامن مسلمي ومسيحيي العرب...إن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين، وهي فضيلة الشعوب الحية فضيلة الشعوب التي لا تريد أن تموت . وما زال هذا الولاء مستحكماً بين المسلم والمسيحي..[4].

ومن المنطلق القومي رفض أعضاء الجمعيات القومية العربية من النصارى، مبدأ الوحدة على أساس الدين الإسلامي، فيقول أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية، من النصارى: لم يكن بين أصدقائي الذين قامت النهضة على أكتافهم أم

---

١) المصدر السابق نفسه-١٨٢.
٢) المصدر السابق نفسه-١٧٨و ١٨٥.
٣) المارونية في لبنان قديماً وحديثاً-محمد زعيتر- ٣٦٩-الوكالة الشرقية-الطبعة الأولى-١٤١٤هـ
٤) المؤتمر العربي الأول-محب الدين الخطيب-٥٤-٥٨. خطبة :ندرة مطران بك.

على جماجمهم، سواء في سورية أم العراق أم فلسطين أم لبنان أم غيرها، من يفكر في اتخاذ الفكرة الإسلامية أساساً للوحدة والاستقلال، بل إنهم جميعاً يعملون على تعزيز الروح القومية البحتة وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح[1].

ومسايرة لهذا المبدأ الجاهلي، تبنى بعض المسلمين من أعضاء الجمعيات القومية العربية هذا المبدأ، فيقول أحد أعضاء الجمعيات القومية، من المسلمين: (إننا لا نبني نظريتنا في القضية العربية على أساس وحدة الدم والجنس والدين فقط، وإنما نبنيها أيضاً على الأساس القومي .. وهو وحدة الوطن واللغة والمصلحة.. وظاهر إن هذا الأساس أوسع شمولاً وأرحب صدراً من نظرية الدم والجنس والدين. لأنه يعتبر به عربياً قومياً كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها، ومستقر بالوطن العربي..)[2].

---

١) مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٤٦.

٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٩.وانظر: القومية العربية-مصطفى الشهابي-١٥.

الباب الأول

التعريف بالجمعيات القومية وأبرز رجالاتها ومبادئها

الفصل الثالث

الأهداف العامة للجمعيات القومية العربية

المبحث الأول:

١. الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال البلاد العربية
٢. قيام خلافة عربية بدلاً عن الدولة العثمانية
٣. فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية
٤. تحكيم الدستور

المبحث الثاني:

١. الولاء القومي مقدم على الولاء الديني
٢. تقرير مبدأ الولاء للقومية العربية
٣. نشر الأفكار الغربية النصرانية
٤. تطبيق الحكم الديموقراطي في البلاد العربية

الفصل الثالث

الأهداف العامة للجمعيات القومية العربية

من خلال استعراض التعريف بالجمعيات القومية العربية، وبيان ظروف نشأتها في الأمة الإسلامية خلال القرن الرابع عشر الهجري، يتبين أنها نشأت أو أنشئت في البلاد العربية لأهداف معينة ومحددة، كما في بيانات بعض هذه الجمعيات أو تصريح الأعضاء المنتسبين لها، وفي هذا الفصل سوف أبين أهم أهداف الجمعيات، وهي كما يلي:

المبحث الأول:

الهدف الأول) الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال البلاد العربية[1].

يكاد يكون أبرز الأهداف العامة عند الجمعيات القومية، الانفصال التام عن الدولة العثمانية، بل إن بعض الجمعيات القومية لم تؤسس إلا لهذا الهدف.

إن علاقة الجمعيات القومية العربية بالدولة العثمانية وموقف الجمعيات منها، سواء في مرحلة إعلان الدستور، أم في مرحلة مشاركة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ... وغيرها من المباحث المتعلقة بهذا الموضوع سأتناوله إن شاء الله بالدراسة والبحث في الباب الثالث، ولكن في هذا المبحث أستعرض بعض النصوص الواردة عن أعضاء الجمعيات القومية، التي تدل على أن من أهداف الجمعيات القومية العربية استقلال البلاد العربية عن سيادة وحكم الدولة العثمانية.

وقد قال محمد عزة دروزة -أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية- عن خطة الجمعيات القومية العربية: كنا نعمل بتحفظ وحيناً بسرية في سبيل إيقاظ الروح

---

١) انظر: سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية-مجدي عبدالمجيد الصافوري-١٦٥.

العربية وتحريك الشعور العربي ، والتذكير بأمجاد العرب والتوجيه لاستقلال العرب الذاتي أو التام بالكتابة والخطابة[١].

ولتحقيق الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلالية البلاد العربية، سلك أعضاء الجمعيات القومية العربية، ثلاثة محاور، وهي:

١. المطالبة بتعيين نواب من العرب في المجالس المختلفة:

بعد إسقاط السلطان عبدالحميد الثاني، تولت جمعية الاتحاد والترقي مقاليد الحكم وحددت سلطة السلطان العثماني بأعمال محددة كتعيين الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، منح الصدر الأعظم حق اختيار الوزراء ورفع أسمائهم إلى السلطان للمصادقة عليها ...[٢] الخ وأعلن ما يسمى بالدستور[٣] الذي حدد فيه تنظيم للدولة بحيث لا يكون للسلطان سلطة مطلقة. وكان الذي قام بهذا الانقلاب جمعية الاتحاد والترقي والجمعيات القومية العربية.

ويصف أعضاء الجمعيات القومية العربية، تسلط جمعية الاتحاد والترقي على السلطة بقولهم: قامت جمعية الاتحاد والترقي بتقسيم الدوائر الانتخابية وفرض عدد أعضاء مجلس النواب بتخطيط لضمان الأكثرية للعنصر التركي.. وحرصوا على أن يكون المنتخبون من المنتسبين إلى جمعيتهم المتحمسين لها سواء أكانوا من الترك أم غيرهم.. وحرصوا بقدر ما أمكنهم أن يكون من نواب البلاد العربية أناس من العنصر التركي[٤].

---

١) حول الحركة العربية الحديثة - ١٩/١.

٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢٣٢.

٣) انظر: مجلة الهلال-الجزء الأول من السنة السابعة عشرة-١٣٢٦/٩/٦-ص:٦.

٤) نشأة الحركة العربية الحديثة-٢٩٨.

وبالنسبة لأصحاب المناصب من العرب قبل إعلان الدستور، فيقول أعضاء الجمعيات القومية العربية: قامت جمعية الاتحاد والترقي بتنسيق موظفي (العهد البائد)، وألفوا اللجان في الآستانة وعواصم الولايات، وأسرفوا في عملية تنسيق موظفي العناصر غير التركية وبخاصة منها العرب..وكانت لجان التنسيق كي تفرق بين التركي والعربي تضع إلى جانب اسم العربي حرف (ع) في جداول التنسيق.. ولم يبق عرب آخرون لهم من الأهمية والنفوذ من يذكر في مناصب الدولة[١].

كان لهذه الإجراءات الحزبية أثر عظيم على أعضاء الجمعيات القومية العربية، ولذا طالبوا المشاركة بمجالس الدولة، فكان مما قالوه: إن المراكز التي جعلت للعرب في الوزارات المتعاقبة كانت ثانوية لا تتكافأ مع أهميتهم، وإن ما نالهم من الإجحاف في مجلس النواب والأعيان[٢] جعلهم يظنون بأن ثمة حركة ترمي إلى القضاء عليهم[٣].

وأبرز مقاصد جمعية الإخاء العربي العثماني هو: معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسي (الدستور) وجمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب . وتمكين الرابطة الجامعة بينهم، وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية وإصلاح الشؤون المختلة. و السعي لإعلاء شأن الأمة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين

---

١) مجلة المنار-مجلد ١٢، الجزء ١٢، يناير ١٩١٢، ص:٩١٧. وانظر:

١. مؤلفات رفيق العظم-١٣٣

٢. العرب والترك-توفيق برو-٩٦.

٢) في بداية عهد عبدالحميد ورغبة في مشاركة الجميع في شؤون الدولة اصدر قرار بتنظيم مجلس عمومي يكون من مجلسين أحدهما ينتخب الأهالي أعضاؤه ويسمى مجلس المبعوثان أو النواب، والآخر تعين أعضاؤه من طرف الدولة ويسمى مجلس الأعيان. وكان ذلك سنة ١٢٩٣هـ.انظر: (تاريخ الدولة العلية-٥٩٠).

٣) معضلة الشرق أو الأقطار العربية المحررة-خير الله خير الله-٤٠.تعريب عارف النكدي.

أبنائها كتأسيس مدارس وطبع جرائد .. وصيانة حقوق أبناء العرب جميعاً من الغدر والاعتساف وتبليغ شكاياتهم، ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية[1].

ومن الموضوعات التي تم مناقشتها في المؤتمر العربي الأول موضوع (حقوق العرب في المملكة العثمانية)، ومما جاء فيه غمط العرب حقهم في المجالس المختلفة في الدولة العثمانية، وقال عبدالغني العريسي: نحن - أعضاء الجمعيات القومية (المؤتمر) - نطلب تمثيلنا فيه -المجالس- على استحقاق حفظاً لكرامتنا ومترلتنا السياسية..ويتساءل الناس عن قلة نواب العرب في هذه المجالس مع أن عدد العرب يفوق غيرهم في هذه المملكة، فإذا عرفنا أن انتخاب النواب أصبح بين أيدي من احتكروا السلطة واستلموا الإدارة زال العجب.. وما دام أقدس حق لهذه الأمة مغموطاً وهو حق التمثيل فإننا نُعذر إذا صممنا على أن نتذرع بالوسائل التي تصون حقوقنا في هذه المجالس سواء في زيادة نوابنا أم حرية تمثيلنا[2].

وبعد أن تبنت الجمعيات القومية العربية الدفاع عن دعوة هضم حقوق العرب، وعدم تمكينهم للمشاركة في المجالس، أو مشاركة العدد الذي لا يتناسب مع حجم أعداد العرب في الدولة العثمانية، رافق هذا الدفاع المطالبة باستقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية[3].

---

١) انظر: ص (٥٧) من الرسالة.

٢) المؤتمر العربي الأول -خطبة عبدالغني العريسي-٤٥.

٣) انظر: عن واقع بعض المجالس المشتركة بين الاترك والعرب والبعيدة عن الصبغة الإسلامية: العرب والترك-توفيق برو-٢٣٢-٢٣٨.

٢. المطالبة بالحكم اللا مركزي:

انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية يعتبر مرحلة أخيره من أهداف الجمعيات القومية العربية، وقبل الوصول إلى هذه المرحلة، مرت مطالبة الجمعيات بمرحلة الحكم اللا مركزي، وقد صرح أعضاء الجمعيات القومية العربية بهذا الترتيب، ومن ذلك قول محمد عزة دروزة: إن الجمعيات القومية المُسَيِّرة للحركة العربية (كانت تهدف إلى قيام كيان عربي قومي بضم جميع بلاد العرب، ويكون له استقلال ذاتي تحت تاج السلطان العثماني المشترك، ثم تطورت إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وإنشاء مملكة عربية كبرى تشتمل على أقطارهم المتعددة... وكانت هذه المطالب نتيجة للاتصالات التي جرت بين الشريف وأولاده من ناحية، والجمعيات العربية السرية التي تطورت أهدافها ، وغدت مركزة في الوحدة العربية الشاملة من ناحية أخرى[١]. ويؤكد هذا الأمر تشدد جمعية الاتحاد والترقي على الأعضاء المنتسبين للجمعية اللامركزية[٢].

وقد اتفقت الجمعيات القومية العربية على المطالبة بالإدارة اللامركزية في السلطنة العثمانية المؤلفة من عناصر مختلفة الأجناس والأديان واللغات والعادات .. وكما كان للحزب اللامركزي تأثير في هذه الغاية، فقد كان المنتدى الأدبي أيضاً، أقوى عامل في بث الفكرة الوطنية في نفوس العرب. وبث الدعوة إلى الانفصال عن الترك وإعلان الاستقلال العربي[٣].

---

١) مختارات قومية-محمد عزة دروزة-٦٦٣ -٦٦٤.

٢) إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعالية-٤٤-٦٢.

٣) مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٣٦.

٣. طلب الحماية والاستشارية من الدول الاستعمارية:

مما لا شك فيه تأثر أعضاء الجمعيات القومية العربية بالعالم النصراني، والذي كان من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية، وقد صرح أعضاء الجمعيات القومية العربية بهذا التأثر. وأن فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية كانت بسبب ما حدث في العالم الأوربي من صراعات ومنازعات دينية وسياسية في ظل الحكم الإقطاعي وتسيطر عليه قوميات عديدة، نتج عن هذه الصراعات حركة قومية تستهدف التخلص من السيطرة الإمبراطورية وتحقيق الذات لكل قومية.

إن هذه النتيجة التي ظهرت في البلاد الأوربية سرت إلى الشرق بقضايا قومية مختلفة تركية وكردية وبلغارية.. عربية، وكانت تعيش هذه القوميات في نطاق الإمبراطورية التركية العثمانية ولتأثر الشرق بما حدث في العالم الأوربي فقد سعت هذه القوميات للتخلص من سيطرة هذه الإمبراطورية وتحقيق ذاتها وسلطانها[1].

وقال عبدالحميد الزهراوي -رئيس المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس-: (جئنا أوربا ونريد أن يجيئها كثيرون منا لتكبر عقولنا وهممنا برؤية آثار العقول والهمم، جئنا أوربا ليزداد علمنا في حضارتها وأساليب اجتماعها الراقي.. إن أوربا ليست هي الغول وإنما الغول سوء الإدارة وفساد السياسة[2]).

فكانت هذه مواقف بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية من البلاد المستعمرة، وتحت شعار الحرية والعدل ومناصرة المظلومين، تقدم بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية بطلب الحماية من البلاد الاستعمارية. حيث كاتب الأعضاء النصارى في جمعية بيروت الإصلاحية فرنسا طالبين منها الحماية حيث أن نصارى سورية مرتبطون بفرنسا ارتباطا نهائياً وهم لا يمكنهم إلى الأبد أن

١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٩-١٠ (بتصرف).

٢) المؤتمر العربي الأول في باريس-٣٨.

ينسوا ما يدينون به من إكبار لعظمتها وحضارتها ومن اعتراف لعطفها عليهم أيام الشدائد. إن [الأمنية الكبرى] لمسيحيي سورية هي بسط الحماية الفرنسية على سورية .. وإما الحكم الذاتي لولاية بيروت تحت حماية فرنسا ورقابتها الفعليتين..)[١].

وتناول الكواكبي حكم الكافر لبلاد المسلمين، وذلك ضمن قضية المساواة بين حكم الكافر العادل وبين حكم الظالم المسلم، وقرر أنه يحكم عليهم بالشرع والعقل بأن ملوك الأجانب أفضل منهم -أي من الأتراك-وأولى بحكم المسلمين، لأنهم أقرب للعدل ولإقامة المصالح العامة، وأقدر على إعمار البلاد وترقية العباد[٢].

وسعياً لطلب الحماية فقد انتدب أعضاء الجمعيات القومية العربية كامل القصاب[٣] -عضو جمعية الفتاة- للسفر إلى مصر من أجل إبلاغ أعضاء الحركة العربية في مصر أن أعضاء الجمعيات القومية العربية لا يرضون بما دون الاستقلال التام لبلاد العرب[٤] وذلك أثناء تهيُّؤ الدولة العثمانية للدخول في الحرب الأولى.

وأما عن قبول المستعمر في البلاد العربية، بحجة الاستشارة، ففي المؤتمر العربي الأول -الذي يعتبر أكبر تمثيل عربي لأعضاء الجمعيات القومية العربية- استعرض المؤتمرون موضوع الاستعانة بالأجانب فمما جاء فيه: لا نكون ناجحين بأي طريقة من طرق الإدارة إلا إذا استعنا في تنفيذها بمعارف الاختصاصين من الأجانب يوم يكونون مستشارين لنا. وأن الاستعانة بمعارف الأجانب الاختصاصين ليس فيها ما يخشى منه على جامعتنا السورية .

---

١) بلاد الشام-وجيه كوثراني-٢٧٢.وانظر: المارونية في لبنان قديماً وحديثاً -٣٦٨.

٢) أم القرى-الكواكبي-٣٧.

٣) انظر الترجمة رقم (٦٢).

٤) أسرار الثورة العربية الكبرى- أمين سعيد-٣٨.

واعتبر الأعضاء أن الاستعانة بالأجانب لا يتناقض مع الحكم اللا مركزي، إذ ليس في النظام اللامركزي ما يمنع الاستعانة لا بالقريب ولا بالبعيد، بل هو قائم على أساس الحاجة الداخلية لكل ولاية من الولايات... فإن برنامج حزب اللامركزية نص على أن اختيار موظفي كل ولاية من حقوق مجلس إدارة تلك الولاية .. فهو مطلق الإرادة في أمر الموظفين وفي كل الأمور الداخلية للولاية[1].

ومن خلال هذه المحاور الثلاث، أبرز أعضاء الجمعيات القومية العربية تحقيق هدفهم: استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية.

الهدف الثاني) قيام خلافة عربية بدلا عن الدولة العثمانية:

تبنت الجمعيات القومية العربية –من منطلق المبدأ القومي– قيام (خلافة) عربية، وسعى أعضاء الجمعيات القومية العربية لتحقيق هذا الهدف وخاصة بعد تزعزع الوفاق بين العرب من جهة أعضاء الجمعيات القومية، وبين الترك من جهة جمعية الاتحاد والترقي.

ولتحقيق هذا الهدف –بعد إسقاط السلطان عبدالحميد خاصة– اتخذ أعضاء الجمعيات القومية العربية بعض الوسائل لتبرير تحقيق هذا الهدف، ومنها:

١. اشتراط القرشية في تولي الإمامة العظمى:

لا شك أن من شروط تولي الإمامة العظمى أن يكون قرشيا، كما ثبت في السنة الصحيحة، ولكن استغل بعض أعضاء الجمعيات القومية هذا الأمر من مبدأ قومي، كما استغلت كثير من المبادئ الشرعية كالوحدة ومناصرة المظلوم والولاء .. الخ المبادئ القومية.

---

١) المؤتمر العربي الأول–١٠٥

ولذا قرر أعضاء الجمعيات القومية العربية أن العرب هم أولى بالخلافة، وأكدوا أن الإجماع على اشتراط القرشية ثبت بالنقل والفعل ورواهُ ثِقاةُ المحدثين، واستدل به المتكلمون وفقهاء ومذاهب السنة كلهم، وجرى عليه العمل بتسليم الأنصار وإذعانهم لبني قريش، ثم إذعان السواد الأعظم من الأمة عدة قرون[١].

لقد شكك أعضاء الجمعيات القومية في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين، خلفاء للمسلمين، كما ذكر ذلك ساطع الحِصري، لفقدان شرط (النسب القرشي) في سلاطين آل عثمان.. وعلى هذا سلاطين آل عثمان ليسوا خلفاء شرعيين، وأن الخلافة الإسلامية من حق العرب، فيجب أن تعود إلى العرب[٢].

وبيّن أعضاء الجمعيات القومية العربية أن حكام الدولة العثمانية قد سطوا على لقب الخلافة، وأن الأتراك الأغراب القادمين من بلاد التتر أصبحوا خلفاء للنبي العربي القرشي محمد[٣]. واعتبرت الجمعيات القومية العربية تسمية حكام الدولة العثمانية بالخلفاء، كان لمطامح سياسية، وذلك من جانبين:-

الجانب الأول: لقد كان اهتمام السلاطين العثمانيين بلقب الخلافة لمداها العظيم في العهود الأخيرة خاصةً، التي تكالب فيها ملوك أوربا النصارى على الدولة ، حيث كانوا يذهبون إلى أن ذلك يجعل دولتهم ذات مكانة وأهمية عند جميع المسلمين وبالتالي يجعل هؤلاء الملوك يترددون كثيراً في الإقدام على تحقيق مطامعهم في بلاد الدولة [٤].

---

١) الخلافة -رشيد رضا-١٩-مطبعة المنار-سنة ١٣١٤. وانظر:الهاشميون والثورة العربية الكبرى-٢٥.

٢) محاضرات في نشوء الفكرة القومية-ساطع الحصري-١٢٢-مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- الطبعة الثانية-١٩٨٥.

٣) الفكر العربي في عصر النهضة-البرت حوران-٣١٨.

٤) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٨٧.

الجانب الثاني: إن اعتقاد المسلمين بالخلافة العثمانية، قوي نفوذ الدولة العثمانية وسهل حكمها تسهيلا كبيراً.. وساعدت كثيراً على استسلام العرب للحكم العثماني وأخرت كثيراً نشوء فكرة القومية في البلاد العربية[1]. وأدى في الوقت نفسه إلى تخدير شعور المسلمين العرب واستنامة جمهورهم إلى الحكم العثماني [2].

لقد أصبح لقب (الخلافة) كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، ذا أثر عظيم في جماهير المسلمين في بلاد الدولة وخارجها حتى صار هؤلاء خاصة يعتبرون أنفسهم مرتبطين بالخلافة العثمانية، ويتحمسون لها، ويفرحون لما تصيبه من نجاح، ويحزنون مما يلم بها من ملمات. وكان ذلك من أسباب ما لقيته الحركة العربية والثورة العربية من تجهم في أوساط وجماهير المسلمين في بلاد الدولة وخارجها[3].

وقبل وقوع الخلاف بين العرب والترك كانت مبادئ (جمعية) الكواكبي، قد قررت :... أن يكون الخليفة، خليفة المسلمين، عربياً قرشياً مستجمعاً للشرائط في مكة)[4]. وقد قال بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية: لقد كان في مطاوي الحركة العربية القومية قبل الدستور أفكار عديدة منها الدعوة إلى خلافة عربية. ومنها الدعوة إلى انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية واستقلالها[5].

ويقول محمد عزة دروزة: حينما اشتد الخلاف بين أعضاء الجمعيات القومية العربية والترك، طمحوا إلى إعادة مجدهم القومي في ظل سلطان عربي وراية عربية[6].

---

١) ما هي القومية–ساطع الحصري–٢٠٣.

٢) نشأة الحركة العربية الحديثة–محمد عزة دروزة–١٨٧.

٣) المصدر السابق نفسه–١٨٢.

٤) أم القرى–الكواكبي–٢٣٤.

٥) نشأة الحركة العربية الحديثة–محمد عزة دروزة–٢٨٩.

٦) المصدر السابق نفسه–١٨٧.

ويعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية انفراد جمعية الاتحاد والترقي بالسلطة، وتسلطها الظالم على العرب خاصة ظلماً وأن هذا الظلم جرح قلوب العرب جرحاً أليماً. فزادت كراهتهم للأتراك، وأصبحوا يتمنون زوال حكمهم ودولتهم.. وأن العرب أحق منهم بالملك والخلافة والاستقلال[1].

وقد استعرض أعضاء الجمعيات القومية العربية حكم الدولة العثمانية لبلاد اليمن، وبينوا أن الدولة العثمانية وأهل اليمن في عراك مستمر، وقتال دائم مع الدولة، لأسباب، من أهمها: أن الإمامة واجبة عندهم (الزيدية)[2] كوجوبها عند سائر المسلمين، إلا أنها متعينة في آل البيت.[3][4] .

وانتصاراً للمبدأ القومي فقد اعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية إقامة حكم عربي زيدي في اليمن، من ملامح اليقظة أو الحركة العربية الحديثة[5].

---

١) مختارات قومية–محمد عزة دروزة–٢٠٨.

٢) الزيدية:هي أحد فرق الشيعة وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم. ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمي عالم شجاع سخي. وقد تبنت الزيدية المنهج الإعتزالي في مسائل الأصول .انظر:

١. مقالات الإسلاميين–أبو الحسن الأشعري–١/١٢٩–مكتبة النهضة المصرية–الطبعة الأولى.
٢. موسوعة الملل والنحل–الشهرستاني–٦٦–مؤسسة ناصر للثقافة–الطبعة الأولى–بيروت–١٩٨١.
٣. رسائل العدل والتوحيد–يحي بن الحسين–٢/٦٨–دار الشروق–القاهرة–الطبعة الأولى–١٤٠٨هـ
٤. الفرق بين الفرق–عبدالقاهر البغدادي–٢٢–دار المعرفة–بيروت–لبنان.

٣) عن موقف الزيدية من الإمامة انظر:

١. رسائل العدل والتوحيد–يحي بن الحسين–٢/٦٨.
٢. مقالات الإسلاميين–أبو الحسن الأشعري–١/١٣٣.
٣. أصول الدين–عبدالقاهر البغدادي–٢٧٨.
٤. منهاج السنة النبوية–ابن تيمية–١/٣٥و٧٠.

٤) مؤلفات رفيق العظم–١٤٥.وانظر: مختارات قومية –محمد عزة دروزة–٦٣٩–٦٤٠.

٥) نشأة الحركة العربية الحديثة–محمد عزة دروزة–٧٠.

ولتحقيق مطلب إقامة خلافة عربية ناصر أعضاء الجمعيات القومية العربيـة ثورةَ الحسين بن علي بعد أن تم التنسيق بين أعضاء الجمعيات القومية العربية وبين فيصل بن الحسين في مسألة تحديد نفوذ البلاد العربية[1]، ويعتَبرُ أعضاءُ الجمعيـات القومية العربية مناصرةَ الإنجليزِ للثورة العربية بسبب مكانة الشريف الفريدة التي لا تعادلها مكانة شخص آخر في العالم الإسلامي، تلك المكانة التي تستمد قوتها مـن نسبه.. فهو حفيد النبي القيم على الأماكن المقدسة[2]. فكانت ثورة العرب بقيادة الحسين بن علي ضد الدولة العثمانية.

وقد صرح الحسين بن علي عن الهدف من ثورته حين قال: (إن القصـد الأساسي من النهضة هو وحدة العرب واستقلالهم ببلادهم المعروفة مـع رعايـة كافة حقوق أبنائها بلا تفريق بين نحلهم ومللهم وحقوق كافة العالم[3] .

ويؤكد أعضاء الجمعيات القومية العربية على دور الجمعيـات القوميـة العربية، في ثورة الشريف حسين، حيث قالوا: يخطئ من يظن أن الثورة العربيـة قامت على أكتاف الحسين بن علي الهاشمي وآله وحدهم، فالحقيقة أن تلك الثورة كانت ثورة الشعوب العربية التابعة للدولة العثمانية[4].

وفيما بعد أشار فيصل إلى تأثير أعضاء الجمعيات في إعلان الثـورة ، في خطاب ألقاه في دمشق يوم ٥ أيار ١٩١٩(١٣٣٧هـ) بقوله [ولا شـك أن المسؤول في الحركة الثورية العربية هو أولاً والدي ثم الحجازيون الذين قـاموا بها فعلاً، أمّا السوريون فإنهم مسؤولون عنها معنىً لأنهم شوقوا الحجـازيين

---

١) انظر: يقظة العرب-جورج انطونيوس-٢٤٣.

٢) المصدر السابق نفسه-٢٢١.

٣) القبلة-السنة الثامنة-العدد ٧٣٧-بتاريخ ١٣٤٢/٤/٦.

٤) القومية العربية-مصطفى الشهابي-١١٤.

لهذه الحركة، لهذا قام والدي بالحركة بعد أن أتيت إلى سورية وقابلت بعض الرجال])[1].

٢. تقرير مبدأ استعمار الدولة العثمانية للبلاد العربية:

يعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية أن البلاد العربية قد خضعت لحكم استعمار في ظل الدولة العثمانية، فيقول أعضاء الجمعيات القومية: استولت الدولة العثمانية على معظم البلاد العربية، خلال القرن السادس عشر في مدة لا تتجاوز الأربعين عاماً.. وبعد ذلك أخذ العثمانيون يتغلغلون غرباً وشرقاً وجنوباً، ويستولون على البلاد العربية، الواحدة بعد الأخرى.. ومما يلاحظ أن استيلاء العثمانيين على البلاد العربية، إنما حدث عندما قاربت دولتهم ذروة مجدها[2].

كما أن إجماع الجمعيات القومية العربية، على أن أهم أهدافها مبدأ (استقلال البلاد العربية)، سواء أكان داخلياً أم استقلالاً انفصالياً تاماً، بجميع معانيه الحقوقية والسياسية، دليل على أن الجمعيات القومية العربية، تعتبر الدولة العثمانية مُسْتَعِمرةً البلادَ العربيةَ.

الهدف الثالث: فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية:

لقد سبق بيان تأثر بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية، بمبادئ الثورة الفرنسية، والتي من أبرز مبادئها (فصل الدين عن الدنيا).

ويُعتبر الكواكبي أول من دعا إلى هذا الهدف من القوميين العرب، وذلك من خلال جمعية أم القرى، حيث يقول: لقد كان من مبادئ جمعية أم القرى، كما في القضية (١٤): لا تتداخل في الشؤون السياسية مطلقاً فيما عدا إرشادات أو

---

١) الحركة العربية – سليمان موسى – ١٣٣ وانظر: الثورة العربية الكبرى – أمين سعيد ٢/٢٦-٢٧.

٢) البلاد العربية والدولة العثمانية–ساطع الحصري–٧-٩.

إخطارات بمسائل أصول التعليم وتعميمه[1]. حسبما تقتضيه الأخوة الدينية، بدون التعرض للأحوال السياسية قطعياً[2].

وعن مهام الإمام الأعظم عند الكواكبي: أن يكون عضداً عظيماً في الأمر، أما إذا أراد أن يكون هو القائم به فلا يتم قطعياً، لأن الدين شيء والملك شيء آخر، والسلطان غير الدولة[3].

وبعد فصل السلطة السياسية عن الدين، أصّل الكواكبي قواعد ومهام الخلافة، في نظر الجمعية، فقال: في فقرة (١٢): الخليفة لا يتداخل في شيء من الشؤون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات قطعياً.

وقال في فقرة (١٤): الخليفة لا يكون تحت أمره قوة عسكرية مطلقاً، ويذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين ..[4].

ولمثل هذا المبدأ دَعَتِ الجمعياتُ القومية العربية، حيث قررت أن تؤلف ولايةُ الحجاز الحالية مع منطقةِ المدينة المنورة إمبراطوريةً مستقلة يكون حاكمها في الوقت نفسه الخليفة الديني لجميع المسلمين.

وظنوا بهذا الفصل أنهم قد وجدوا -كما قالوا- حلاً لصعوبة كبيرة بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية في الإسلام من أجل خير الجميع الأكبر[5].

وكما حُصِرتْ مهام الخليفة كذلك حُدِّدَ مكانُ إقامته، بأنه سيكون لهذه الخلافةِ الدينيةِ دولةٌ سياسية مستقلة تماماً ، تشمل ولاية الحجاز الحالية ومنطقة

١) أم القرى-الكواكبي-١٩٩.
٢) المصدر نفسه-٢٠٩.
٣) المصدر نفسه-٢٢٧-٢٢٨.
٤) المصدر نفسه-٢٣٠.
٥) يقظة الأمة العربية - ٣٧- نجيب عازوري

المدينة المنورة حتى العقبة، ويتمتع الخليفة الديني باحترام الملك ويملك سلطة روحية فعلية على كافة مسلمي الأرض... إن خليفة نبي الله يجب أن يتمتع بنفوذ أو هيبة روحية بلا منازع، ويجب أن يبقى محترماً لا ينتقد طوال حياته ولا يرتقي إلى سلطته ويجب أن تبقى عظمته مستقلة.

هكذا تكون سلطته شاملة ويحكم من مقره -حكما روحياً- جميع مسلمي العالم الذين يخفون إلى مقامات محمد المقدسة لتأدية (فريضة) الحج[1].

وانطلاقاً من هذا الهدف القومي أيّد أعضاء الجمعيات القومية العربية، الكتابات التي نادت بفصل الدين عن الدولة، فقد قالوا عن كتابات علي عبدالرازق[2]: إن أحسن المؤلفات التي عالجت مسألة الخلافة معالجة علمية رزينة، هو كتاب (الإسلام وأصول الحكم).

ومما أيدوه فيه: قول علي عبدالرازق:إن الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارف عليها المسلمون. وبريء من كل ما هيأوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عزة وقوة، والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية، ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها و لم ينكرها، لا أمر بها ولا نهى لنا، لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم، وقواعد السياسة[3].

إن رأي عبدالرازق في فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية يتفق مع رأي أعضاء الجمعيات القومية العربية، حينما قالوا: لقد أصبح من الأمور المسلمة

---

١) يقظة الأمة العربية - ٢٢٠- نجيب عازوري

٢) انظر الترجمة رقم (٥٠).

٣) الإسلام وأصول الحكم-علي عبدالرازق- ١٠٣.

لدى جميع الدول، أن السياسة شيء والديانة شيء آخر، فلا يمكن إقامة السياسة على الديانة ، بصورة من الصور[1].

كما واعتبرت الجمعيات القومية العربية، أن تحكيم الدين في أمور الدنيا صورة من صور خلط الدين بالدنيا، وفيه انحطاط بشأن السماويات بمزجها في الأرضيات. وبهذا نجعل للاعتقادات دخلاً في الأعمال، فتؤثر اختلافاتنا الدينية في أعمالنا العالمية فينشأ عنها ذلك الشقاق الذي طالما دمّر الأمم وأتى بالحروب والويلات[2].

فالواجب تتريهاً لمقام الدين كما تعتقده الجمعيات القومية العربية أن يضعوا أديانهم جانباً في مكان مقدس محترم، ليتمكنوا من الاتحاد اتحاداً حقيقياً ومجاراة تيار التمدن الأوربي الجديد لمزاحمة أهله، وإلا جرفهم جميعاً وجعلهم مسخرين لغيرهم[3].

وقرر أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن الحكم الديني والحكم الاستبدادي ليسا فاسدين فحسب، بل هما غير صحيحين، فالحكم الديني يرفع بعض الناس فوق سواهم، ويستخدم السلطة لمنع نمو العقل البشري نمواً صحيحاً... والأمم تقوى بمقدار ما يعف الدين، فهذه أوربا فهي لم تصبح قوية ومتمدنة فعلا إلا عندما حطم الإصلاح (إصلاح لوثر) والثورة الفرنسية سلطة الاكليروس –سلطة رجال الكنسية– على المجتمع، وهذا يصح أيضاً على المجتمعات الإسلامية[4].

ومن هذا المنطلق القومي العلماني، أصبحت عبارة (الدين لله والوطن للجميع) تنادي بها الجمعيات القومية العربية، وقد استفتح بها فيصل بن الحسين الحكومة العربية الأولى قائلاً:(الدين لله والوطن للجميع، نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد، إن محمداً لعربي قبل أن يكون مسلماً)[5].

---

١) ما هي القومية–ساطع الحصري–١٩٨–١٩٩.

٢) سلسلة الأعمال الكاملة–سليم البستاني–١٢٢.

٣) الفكر العربي في عصر النهضة–ألبرت حوراني–٣٠٤.

٤) المصدر السابق نفسه–٢٩٩–٣٠٢.

٥) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية–وليم الخازن–٨٠.

ووقف بعض شعراء الجمعيات القومية العربية، أمام الملك فيصل بن الحسين خلال حكمه في سورية، قائلاً:

فابدأ بفصلِ الدينِ عن شَرعِ الوَرَى تُبعَ الإمامُ إذا يسيرُ أمامُ[1].

الهدف الرابع) تحكيم الدستور:

سارت الدولة العثمانية انطلاقاً من مبدأ تنظيم السلطة والإصلاح، إلى وضع دستور للبلاد يكون مرجعاً للحكم والتحاكم، ويرى أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن إنقاذ الدولة العثمانية من ضعفها لا يتم إلا بنقلها من الحكم الاستبدادي إلى الدستوري واقتفاء آثار أصحاب التمدن بنشر العلم والتسوية بين أصناف الرعية ..[2].

وقبل الحديث عن هذا الهدف لدى الجمعيات القومية العربية، أنبّه إلى أن الدستور العثماني يعود تأسيسه إلى مدحت باشا، الذي يسمى بـ(أبي الدستور)[3] ويعده أعضاء الجمعيات القومية العربية، ممن كان له أعظم الأثر في تأسيس الجمعيات القومية وخاصة بعد أن أصبح والياً على دمشق[4]. كما أسس الجمعيات الماسونية كجمعية زهرة الإحسان، وهي إحدى الجمعيات الماسونية[5].

كما وصف أعضاء الجمعيات القومية العربية مدحت باشا بأنه نابهة من نبهاء الدولة الأتراك، وزعيم من زعماء الفكر .. وأنشأ منشآت عديدة عمرانية

---

١) المصدر السابق نفسه-٣٢٧. قائل القصيدة: محبوب الخوري الشرتوني. وهو من نصارى العرب.

٢) مجلة الهلال-٦/٩/١٣٢٦ (١ أكتوبر/١٩٠٨)-الجزء الأول من السنة (١٦).

٣) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٣٧.

٤) الحلقة المفقودة في تاريخ العرب-محمد جميل بيهم-١/٢٠٦.-مكتبة مصطفى البابي الحلبي-مصر-الطبعة الأولى-١٣٦٩.

٥) مدحت باشا أبو الدستور وخالع السلاطين-قدري قلعجي-٧٥.

وعلمية، ولمس مقدار الحاجة إلى إصلاحات جذرية في الدولة، ثم تولى رئاسة الوزراء فبذل جهده في تحقيق ذلك.. وأصدر الدستور الذي تضمن كثيراً من الأسس والقواعد والحقوق المطلوبة[1].

وبعد تنقل مدحت باشا سائحاً لمدة ستة أشهر في أوربا يتفقد أحوال دولها ويدرس نظام بعض الإدارات الأوربية[2]؛ قدم للدولة العثمانية دستوراً[3] تسير عليه، وقال عن الدستور: إن الدستور سراج منير، سيرشدنا ويهدينا إلى الكمال الحقيقي. وبهدي هذا السراج انتقلت دول أوروبا من ظلمة الجهل إلى عالم النور. وبفضل المجالس النيابية أصبحت هذه الدول مثلاً جميلاً وقدوة حسنة تستفيد منها الأمم، ويقتدى بها العالم، دولاً يعرف كل فرد من أفرادها ماله من الحقوق وما عليه من الواجبات[4].

ويعتبر الدستور عند أعضاء الجمعيات القومية العربية من ثمار التمدن الحديث. وأهم ما يمتاز به أنه مبني على إرادة الأمة أو هو خلاصة إرادتها وأساسه الإنابة؛ أي تنتخب الأمة من ينوب عنها في سن القوانين ومراقبة سير الحكومة.. والفضل الأكبر -كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية- في إنشاء الحكم الدستوري على هذه القواعد للإنكليز.. وكل ما عند الأمم الأخرى من الأحكام الدستورية

---

١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٦٧.

٢) مجلة الهلال-الجزء الرابع من السنة السابعة عشرة- (٨/٩/١٣٢٦-١/يناير/١٩٠٩م)بعنوان: (مدحت باشا أبو الأحرار) ص:١٩٥.

٣) انظر عن نصوص الدستور:

١. مجلة الهلال- -الجزء الأول من السنة السابعة عشرة-(٦/٩/١٣٢٦-١ أكتوبر/١٩٠٨)
٢. البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-١٥٥.
٣. العرب والترك في العهد الدستوري العثماني-توفيق برو-٥٠١.
٤. نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢١٦.

٤) مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين-قدري قلعجي-٥٦.

مبني على الأساس الذي وضعه الإنكليز، وكان تاريخهم قدوة الحكومات الدستورية في أثناء هذا التمدن[1].

ومن أبرز معالم الدستور علمنة الدولة العثمانية، وإقصاء شريعة الرحمن، وتبني النظام الدستوري الغربي في الحكم، ذلك النظام الذي يقول مدحت باشا فيه: (إنه العامل الأول في تقدم الشعوب ورقيها) ويضيف قائلاً:(ولأن تركيا تعتبر في مصاف الدول العظمى، عليها، إذا أرادت أن تحتفظ بهذه المكانة وإذا رغبت في مواكبة سائر الدول على قدم المساواة في مضمار التقدم العلمي، أن تتبع الأنظمة ذاتها التي تتبعها الدول العظيمة)[2].

ولذا لما أُقر الدستور في الدولة العثمانية؛ عرض مدحت باشا على الحكومة تعيين بعض الولاة من المسيحيين عملاً بالمساواة، وأصبحت مصالح الأمة في الدولة العثمانية، تدار على مختلف المذاهب فكان فيهم المسلم، والمسيحي على اختلاف الطوائف، واليهودي والدرزي والنصيري .. وغيرهم[3].

وتناولت صحف نصارى العرب قضية تجنيد غير المسلمين، ذاكرين أن هذا الحدث هو جرّاء تطبيق الدستور فكان مما قالوا: كل الذين تجندوا من المسيحيين يشكرون نعمة الدستور ويعدون أمر التجنيد أكبر بركة لهم، و لم يروا من إخوانهم المسلمين إلا كل ولاء ومحبة[4].

وقد قال شيخ الإسلام في عصره عن هذا المنهج في إدارة شؤون الأمة: .. لا أمير للمؤمنين بعد نزع الأمر منه، وما آراء المسلمين إلا بآراء شرذمة أكثرهم لا

---

١) مجلة الهلال-الجزء الأول من السنة (١٧) -(٦/٩/١٣٢٦ -١ أكتوبر/١٩٠٨)بعنوان ص:٤٣.

٢) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-١٨٦.

٣) مجلة الهلال-الجزء الأول من السنة (١٧)-(٦/٩/١٣٢٦ -١ أكتوبر/١٩٠٨) ص٩-١٠.

٤) مجلة الإخاء-مدير التحرير:جبران مسوح-عدد ٣٠-بتاريخ ٢٣/أيلول ١٩١٠-السنة الأولى

يؤمنون بالله ورسوله، وهل تدري كيف انعقد مجلسهم بأنقرة، وكيف انتخبتهم الأمة، ولا تدري بهم الأناضول التي هي محيطهم الأدنى[1].

هذا تعريف موجز عن الدستور والهدف من تطبيقه، وأما عن مساعي الجمعيات القومية العربية في تحقيق تطبيق الدستور، فأكثر من أن تعد أو تحصر، وقد أطلق أعضاء الجمعيات القومية العربية على مدحت باشا ومن ناصره في إعداد الدستور، في منزلة شهداء الحرية، وكانت أجسادهم الطاهرة أول دفينة من دفائن الحرية واراها السلطان السابق[2].

وعرّف أعضاء الجمعيات القومية العربية الدستورَ وهدفهَ، بمعنى تعريفِ وهدفِ مؤسسيه، حيث قال أعضاء الجمعيات القومية العربية: من طبيعة الدستور ربط أواصر الأخوة العامة بين الأمة، لأنه عبارة عن نزع السلطة من الأفراد، ووضعها بين يدي الجماعات، وأية جامعة تجمع بين عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات أقوى من حكم الأمة نفسها لنفسها، وأية رابطة تربط العناصر العثمانية أعظم من هذه الرابطة[3].

واعتبرت الجمعيات القومية العربية إعلانَ الدستور في الدولة العثمانية رحمة بهذه الدولة، وإنقاذاً لها..وإن يوم (٢٣ يوليو) الذي نودي فيه بالحكومة الدستورية ومحو السلطة الاستبدادية في المملكة العثمانية، كان يوماً سعيداً على هذه الأمة، لم يشهد مثله العثمانيون إلا اليوم الذي افتتح فيه السلطان محمد مدينة القسطنطينية، ويصف مؤسس حزب اللامركزية، حال البلاد العربية بعد إعلان الدستور، قائلاً:

---

١) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة-مصطفى صبري-٢٦.

٢) مؤلفات رفيق العظم-الجامعة العثمانية-١٢٠.

٣) المصدر السابق نفسه-١٢٥.

ولم أر في سورية شاعراً أو خطيباً إلا وهو ينادي باسم الاتحاد، ويدعو إلى معاضدة الأحرار وتأييد الدستور بالنفس والمال، والناس كلهم صاغون منصتون.. وهكذا كانت الحال في سائر البلاد العربية..[1].

ويُعِدّ أعضاء الجمعيات القومية العربية أنّ من آثار إعلان الدستور انبثاقَ روح الوئام بين النصارى والمسلمين في بلاد الشام، وتكرَّرَ مشهد تعانق بعض المَشايخ والقسس والرهبان في بعض التجمعات .. وقال أحد نصارى بيروت:

تعانق الشيخ والقسيس واصطحبا   من بعد ما افترقا ضدين واختصما

تآخيا في حمى الدستور واتحدا   ورفرفت راية التوحيد فوقهما[2].

وحينما وقع الخلاف بين الترك والعرب، وذلك بظهور الدعوة إلى القوميات، وانفراد جمعية الاتحاد والترقي بسياسة الدولة العثمانية[3]، يقول مؤسس الحزب اللامركزي: في إبان هذا السرور وفي مبدأ تلك النهضة الآخذة بنفوس العثمانيين إلى مرتقى السعادة والوفاق والحب، بدأ الاتحاديون باضطهاد العرب قبل كل الشعوب... ذلك أن العثمانيين هبوا بعد إعلان الدستور .. بتأليف الجمعيات وفتح المنتديات.. حيث قامت بهذا العمل كل أبناء العناصر الموجودة، فألف الأرناؤوط جمعية وافتتحوا منتدى، والشركس مثل ذلك، ثم الأكراد والروم والأرمن وغيرهم والعرب كذلك، فإنهم ألفوا جمعية سموها جمعية (الإخاء العربي العثماني) وافتتحوا منتدى[4] بهذا الاسم أيضاً.

١) المصدر السابق نفسه- ١٢٣ و ١٢٩.

٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢٧٨.

٣) انظر: ١-نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢٩٦.

٢-القومية العربية-مصطفى الشهابي-٦٣.

٤) انظر: الباب الأول-الفصل الأول-التعريف بالجمعيات القومية العربية- ص: (٦٢) من الرسالة.

فما نوهض قوم من أولئك الأقوام بهذا العمل الجليل -كما يسميه- إلا العرب، وما زالوا يناهضون ويضارّون حتى حلوا هذه الجمعية وأقفلوا ذلك المنتدى وغيره قائم. فكانت هذه أول بادرة من بوادر سوء الظن صدرت من الاتحاديين فسوت إلى العرب أيضاً، وأخذ هذا الخطب يتفاقم إلى اليوم[1].

وحينما بلغت هذه الحال مبلغها، تأكدت المطالبة بتنفيذ أحكام الدستور من قبل الجمعيات القومية العربية، وأصبح هدفاً بارزاً من أهدافها، بحجة أن فيه ضمان لحقوقهم، فقد قال أعضاء الجمعيات القومية: إذا كانت أحكام الدستور مطبقة اليوم عند الحكومة الجديدة (الاتحاد والترقي) تطبيقاً صحيحاً على مبادئ الحرية والمساواة، وسلطة الأمة هي الحاكمة على الضمائر المحققة بطبيعتها لمعنى التعاون والإخاء، فما هي الحاجة لدعوة العناصر كل يوم إلى الاتحاد والوئام والصلح والسلام. والحقيقة التي لا ريب فيها أن الاتحاديين قد انفصلوا عن الأمة انفصالاً لا يرضاه لهم صديق للحرية، فأصبحوا في شِقٍّ والأمة في شقّ آخر منذ تظاهروا بالنعرة الجنسية، وأعلنوا ما كانوا يضمرونه من الاستمساك بمبدأ سيادة التركي على العناصر العثمانية كلها، فنبهوا بذلك العصب الحساس من الشعوب العثمانية..[2].

وبيّن أعضاء الجمعيات القومية العربية أن للعرب حقاً في السلطنة، ولكن لا يرغبون المطالبة فيه ما دام الدستور جارياً على معنى الدستور[3]. لأن الحكم الدستوري، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، يقتضي أن تكون الأمة هي صاحبة النهي والأمر في شؤونها وأن تكون الهيئة الحاكمة وكيلة عن الأمة في إدارة تلك الشؤون..ولأن الحكم الدستوري، يقتضي اشتراك أبناء الأمة جميعاً في كل حق وفي كل واجب[4].

---

١) مؤلفات رفيق العظم-الجامعة العثمانية-١٢٩-١٣٠.

٢) المصدر السابق نفسه-١٢٥.

٣) المؤتمر العربي الأول-خطبة عبدالغني العريسي-٤٤.

٤) المصدر السابق نفسه-خطبة اسكندر عمون-١٠٠.

المبحث الثاني

الهدف الأول) الولاء القومي مقدم على الولاء الديني:

سبق بيان دور وتأثير نصارى العرب في تأسيس الجمعيات القومية، ولما لهم من تأثير فقد أصبح من أهداف الجمعيات القومية العربية، أن الولاء للقومية العربية عند أعضاء الجمعيات مقدمٌ على ولائه لغير العرب من المسلمين.

والانقلاب العثماني دليل على هذا حيث اتفق أعضاء الجمعيات القومية العربية، في مختلف عقائدهم ومذاهبهم للقضاء على الدولة العثمانية. وقررت مبادئ الجمعيات القومية تقسيم أعضاء الجمعيات القومية إلى أخوة لغة وأخوة دين، كما قال نائب رئيس المؤتمر العربي الأول وهو نصراني في كلمته خلال انعقاد المؤتمر العربي: أنتم يا مسلمي سوريا إخواننا في اللغة والجنسية والوطنية، وإخوان الترك في المذهب[1].

وأما عن بعض أقوال أعضاء الجمعيات القومية العربية، للدعوة في تحقيق هدف الولاء للقومية العربية مقدم على ولاء الدين، يقول عبدالرحمن الشهبندر: نحن معاشر المسلمين -الذين يؤمنون بأن الله واحد أحد- مصدر الخير وفيه تجتمع الكمالات، فنتفق تمام الاتفاق مع إخواننا النصارى فيما يعتقدونه بالله تعالى. فعبث وعبث حقير أن يحاول أحد أن يضع فروقاً بيننا لاختلافات ثانوية لا شأن لها في الله، ولا شأن لها في الآخرة، ولا شأن لها في الوطنية[2].

لقد أصبح من معتقد الجمعيات القومية العربية أنها لا تفرض على أصحابها عقيدة دينية معلومة كما يقول مصطفى الشهابي: بل تتسع لكل عربي مهما يكن

---

١) المؤتمر العربي الأول-١٤٢.

٢) عبدالرحمن الشهبندر-حياته وجهاده-حسن الحكيم-١٥٣.

دينه أو يكن مذهبه الديني ، وهي على هذا تجل العقيدة الدينية القويمة والتحلي بالأخلاق الدينية الفاضلة (1).

وليس هناك أي تباين بين النصارى والمسلمين في المصالح العامة، سواء أكان في مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع أم في مجال الحقوق والواجبات، أم في مجال الاقتصاد والاجتماع، أم في مفهوم وأهداف الفكرة العربية، وما يعود على الفريقين من منافع وعزّ وسؤدد من تحققها. وليس للدين والتمايز الديني أي دخل في كل ذلك، لأنه ممارسة وجدانية .

وفي تقرير هذا الهدف استدل بعض أعضاء الجمعيات القومية، بالوقائع التاريخية، حيث ذكروا أن النعرة الجنسية فضيلة آلية في النفس ..ولما قدم أبوعبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى الشام، وجدوا حارساً على أبوابها من الغسانيين وهم عرب نصارى يتقدمهم ملكهم المسيحي جَبَلةُ بنُ الأَيْهَم. إلا أنّ هؤلاء بدلاً من قتال المسلمين والوقوف في وجوههم عطفوا عليهم عطفة الأخ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السياسية اللتين كانتا تقضيان عليهم بهما موالاة الروم وخطبوا ودّ وولاء الناطقين بلسانهم بني أبيهم العرب، مهدوا لهم السبل وفتحوا الطرق ومكنوهم كل التمكين من فتح البلاد العربية، وما أبداه نصارى غسان من العصبية العربية في هذا الشأن الخطير لأَعظمُ شاهدٍ على أن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين. وهي فضيلة الشعوب الحية، فضيلة الشعوب التي لا تريد أن تموت(2).

لقد اعتُبر المبدأ القومي عند الجمعيات القومية العربية عقيدةً تُوَحِّد جميع العقائد المختلفة، فأعضاء الجمعيات القومية العربية، يختلفون عقائدياً، ولكنهم

---

1) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها-مصطفى الشهابي- ٣٤٧.

2) المؤتمر العربي الأول-خطبة ندرة مطران-٥٨.

يتفقون على المبدأ والعقيدة القومية، كما قال مصطفى الشهابي -أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية-: الإسلام دين سمح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والنصرانية دين يأمر بالتعاطف والمحبة، فلا هذا يأمر بالتعصب والبغضاء ولا ذاك.

ويقول الشهابي: للمسلم أن يعبد الله جل وعلا في مسجده وللمسيحي أن يعبده في كنيسته، وفي وسع كليهما أن يؤمنا بالقومية العربية، وأن يعملا عمل يد واحدة في خير العروبة[1]. والسبب في ذلك كما قرره أعضاء الجمعيات: أن اختلاف المذاهب الدينية ليس من شأنه أن يكون ذا أثر في الصفة القومية في الحقيقة[2].

وقد قسم أعضاء الجمعيات القومية العربية الناسَ إلى قسمين، هما: قِسمٌ يؤمن بالله، وآخرُ ملحِدٌ لا يؤمن بالله، هذا القسم قوي وذاك القسم قوي أيضاً لقد أصبح الإلحاد مُنَظّماً تنظيماً سياسياً اجتماعياً تعضده دول مُعَظّمة.

ثم صوروا الصراع بين المؤمنين بالله وبين الملاحدة، بقولهم: وإننا نحن راكبون في سفينة واحدة وقد ركب معنا اليهود والبوذيون.. وجميع الذين يؤمنون أن دائرة الكون إنما تدار بإرادة الله، وإننا في سفينة واحدة، والآخرون يركبون في سفينة أخرى ونحن نتناطح في هذا البحر الخضم ونتضارب يرمي بعضنا بالقنابل، فإذا غرقت سفينتنا أتظنون أن النصارى يغرقون ونحن نسلم؟ كلا ثم كلا؟.. خير لنا أن نغرق ونحن متحدون من أن نعيش ونحن مشتتون[3].

وقد كان لشعراء الجمعيات القومية العربية دورٌ في تحقيق هدف تقديم الولاء القومي على الولاء في الدين، فقد أصبحت القصائد التي تتناول هذا الهدف تعد من مظاهر وآثار النهضة العربية والوعي القومي، وكان يرسلها الشعراء والكتاب

١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها - مصطفى الشهابي - ٣٥

٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢٦. وانظر: ما هي القومية-ساطع الحصري-٢٠٨.

٣) عبدالرحمن الشهبندر-حياته وجهاده-حسن الحكيم-١٥٥.

والأدباء من مسلمين ومسيحيين إلى بني قومهم بالدعوة إلى الوئام ونبذ الخلاف والتعصب الطائفي اللذين كانا يثيران الفرقة والأحقاد بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة ويؤديان إلى البلبلة والفتن، ويعودان بالبلاء العظيم عليهم وعلى البلاد معاً[1] كما يقول أعضاء الجمعيات القومية.

ومن تلك القصائد:

وإني ليوهنني تقسُّمُ أمتي　　بأديانها والشر بين المذاهب

متى ينتهي كهّاننا وشيوخنا　　فنخلص من حيّاتهم والعقارب

شقينا لنعماهم وراحتهم فهم　　يسوقوننا كالعيس نحو المعاطب

فما الدين إلا نسخة بعد نسخةٍ　　يزخرفها للناس أهواءُ كاذب[2].

ومما قيل أيضاً:

سلامٌ على كفر يوحِّدُ بيننا　　وأهلاً وسهلاً بعده بجهنّم

وقالوا أيضاً:

قالوا وفي الدينِ بَون دونَ وحدتنا　　إلى متى باسم هذا الدينِ نقتسمُ

لئن أصرُّوا على أهواءِ أنفسهم　　لا الدّينُ يبقى ولا الدنيا ولا الشيمُ[3]

فهذه القصائد وغيرها كثير، تبين منهج الجمعيات القومية العربية، في التعامل مع العقائد المختلفة، لتحقيق هدف الولاء للقومية العربية المقدم على الولاء الديني.

١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٣٤٥.

٢) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث-أنيس المقدسي-٨١.

٣) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية-الياس الخازن-٨١.

ومن آثار هذا الهدف عند الجمعيات القومية العربية أن جعل النصارى يندمجون في الحركات الوطنية والنضالية التي قامت في مصر وفلسطين وسورية ...حتى ليصح أن يقال: إن جمهور النصارى في مصر وسورية وفلسطين والعراق، قد أخذ يندمج في المجموع العربي العام اندماجاً صادقاً عاطفة ومصلحة ووطنية وقومية[1].

وكان التطبيق الفعلي لما ترغب في تحقيقه الجمعيات القومية العربية تحقق لها في إدارة الحكومة العربية الأولى في دمشق[2]، حيث أن الأقلية لم يكن لها أثر في ذلك الزمن، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية.

وكان لكل عربي في الحكومة العربية الأولى الحق بأن يتولى عملاً في الحكومة على حسب ما عنده من معرفة ومن خبرة بذلك العمل .. ولم يكن للأديان ولا للطائفيات اعتبار في تولى مناصب الحكومة ، فقد كان في المناصب الكبرى السني والشيعي والعلوي والدرزي والماروني والأرثوذكسي والكاثوليكي والبروتستانتي ، وجميعهم يخدمون في حكومة عربية ويعملون لقضية العروبة[3].

إن تحقيق هدف تقديم الولاء القومي على الولاء في الدين، قد صرح به محمد عزة دروزة -أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية- حيث ذكر أن هذا المبدأ من المآخذ التي أُخذت على الجمعيات القومية العربية، فقد قال: يؤخذ على القوميين العرب المحدثين في حركتهم أن فريقاً منهم غالى في الانتماء القومي العربي، ونسي في غمرة هذا الغلو ما كان للإسلام من الأثر الرئيسي والجوهري في المجد العربي الحديث، فلو لم يكن الإسلام، ولو لم يكن القرآن لما كان العرب أمة واحدة من الخليج إلى المحيط..[4].

---

١) مختارات قومية-محمد عزة دروزة- ٦٤١-٦٤٣.

٢) انظر: الحكومة العربية الأولى في دمشق-خيرية قاسمية.

٣) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها -مصطفى الشهابي-١٢٢.

٤) محمد عزة دروزة نشأته وحياته ومؤلفاته-حسين حمادة-٩٥-دار قتيبة- دمشق-الطبعة الثانية-١٩٨٣

الهدف الثاني) تقرير مبدأ الولاء للقومية العربية:

انطلقت الجمعيات القومية العربية لتحقيق هذا الهدف، من مبدأ توحيد الكلمة، وأصلت أن الدين ليس الأصل الذي تجتمع عليه الجمعيات القومية.

إن أصل مبدأ توحيد الكلمة وجمع الصف من أساسيات الدين الإسلامي، كما قال تعالى {**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم وأصبحتم بنعمته إخوانا**}[1] كما نهى عن التنازع والشقاق في قوله تعالى {**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين**}[2]. وغيرها من آيات الكتاب الحكيم، التي تدل على هذا المعنى .

ولكن هدف الجمعيات القومية العربية، هو أن الولاء يكون للقومية العربية وليس للدين، والاجتماع والموالاة والنصرة للقومية العربية، وقد وردت عبارات تنص على هذا الهدف من أعضاء الجمعيات القومية من مسلمين وغيرهم.

وبدراسة أقوال أعضاء الجمعيات القومية، يتبين أنها اتخذت مبدأ القومية العربية، محوراً أساسياً ترتكز عليه في تقرير أهدافها وبرامجها، ولهذا اعتبرت الجمعيات القومية العربية أن الجنسية العربية ديانة للعرب جديدة، وأن الجنسيات آلهة العصور الآتية، وأكدوا على السعي منذ الآن لخلق إله للأمة هو الجنسية العربية، إله يضحي كل من عباده حياته في سبيل نصرته[3].

لم تعتبر الجمعيات القومية العربية الدينَ هو أصل وحدة الأمم والشعوب، وإنما أصل الأمة هي وحدة اللغة، وقد قال أعضاء الجمعيات القومية العربية: إن أس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو: وحدة اللغة ووحدة التاريخ.

١) سورة آل عمران-رقم الآية (١٠٣).

٢) سورة الأنفال-رقم الآية (٤٦).

٣) جريدة المفيد رقيم ١٤١٩ بتاريخ ١٩١٣/١١/٤م (نقلا من كتاب العرب والترك-توفيق برو- ٤٨٠)

وعللوا في اختيارهم هذا بأن الوحدة في هذين الميدانين، هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة... وبكل ذلك، تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى[١]..

وأما عن الرابطة الدينية فقد عجزت -كما يقول أعضاء الجمعيات القومية- دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية.. وإن الرابطة الدينية لا توجد إلا حيث توجد حكومة إسلامية والعاطفة الإسلامية لم تقدر مرة من المرات أن تحمل أميراً مسلماً على التنازل عن حقوقه لأمير آخر من المتدينين بدينه حتى لو كان هذا خليفة[٢]. وإذا حدث أن الدين يجمع المنتسبين إليه، فإن هذا الجمع يكون في العواطف دون الفعل، فقد يتألم مسلم الغرب لمسلم الشرق إذا أصيب بمصيبة كبرى، فلا يتعدى تألمه هذا دائرة الشعور[٣].

وقالوا : إننا لا نبني نظريتنا في القضية العربية على أساس وحدة الدم والجنس والدين فقط. وإنما نبنيها أيضاً على الأساس القومي .. وهو وحدة الوطن واللغة والمصلحة.. وهذا الأساس أوسع شمولاً وأرحب صدراً من نظرية الدم والجنس والدين. لأنه يعتبر به عربياً قومياً كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها .. مهما اختلفت الأصول والأديان والمذاهب[٤]. إذاً الأساس في وحدة الأمة هو اللغة، فلا الدين ، ولا الدولة، ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية[٥].

وبتبني هدف الولاء القومي أصبح مقر الجمعيات القومية العربية مكاناً يجتمع فيه أهل العقائد المختلفة، كما وُصِف المنتدى الأدبي بأنه: كان طابع العروبة المميز

---

١) ما هي القومية-ساطع الحصري-٢١٠.

٢) المؤتمر العربي الأول-خطبة عبدالحميد الزهراوي-٢٠

٣) مؤلفات رفيق العظم-رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة-٤٩.

٤) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٨-٣٩(بتصرف).

٥) ما هي القومية-ساطع الحصري-٢١٠.

له، فاجتمع في رحابه المسلم السني والشيعي والدرزي والمسيحي على اختلاف الطوائف إخواناً متحابين هدفهم مجد العروبة وبعثها[1].

وفي المؤتمر العربي الأول، صرح رئيس المؤتمر -عبدالحميد الزهراوي- في إجابة سؤال عن خطة المؤتمر نحو العرب غير العثمانيين؟ فقال: يهمني أن أصرح لك قبل كل شيء بأن هذا المؤتمر ليس له صفة دينية، وكل أعماله تنحصر في الدائرة المحدودة له من البحث في شؤوننا الاجتماعية والسياسية. ولذلك ترى عدد أعضائه المسلمين والمسيحيين متساوياً ..)[2].

وبين نائب رئيس المؤتمر العربي الأول، بأن الجمعيات القومية العربية في عقدها لهذا المؤتمر، واختيار فرنسا مكاناً لانعقاده، لتؤكد على تحقيق الرغبة بأن الأمة العربية: أمة تطلب في الحياة حرية وعزاً، وتسعى وراء محو اختلافات جنسية ومذهبية كانت سبباً في شقائنا وشقاء تركيا معاً[3].

وليس هذا فقط في المؤتمر العربي الأول، وإنما أكد أعضاء الجمعيات القومية العربية بأن الذين قامت النهضة على أكتافهم أو على جماجمهم، سواء في سورية أم العراق أم فلسطين أم لبنان، لم يكن فيهم من يفكر في اتخاذ الفكرة الإسلامية أساساً للوحدة والاستقلال. بل إنهم جميعاً كانوا يعملون على تعزيز الروح القومية البحتة وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح[4].

ولتحقيق هذا الهدف أكدت الجمعيات القومية العربية، على نبذ ما سمته التعصب الديني، واعتبرت التعصب الديني ليس سوى تطور في المصلحة

---

١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٥٥.

٢) المؤتمر العربي الأول-١٨.

٣) المصدر السابق نفسه-١٤٣.

٤) مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٤٦.

الشخصية. وأما عن التعصب القومي، فقد اعتبرته الجمعيات القومية شعور عفوياً فطرياً مثل الشعور العائلي الذي يأخذه بعين الاعتبار كل سياسي.. [١].

الهدف الثالث) نشر الأفكار الغربية النصرانية:

كان للاتصال بالعالم الغربي النصراني أثر عظيم على أعضاء الجمعيات القومية العربية، وأن العصر الذي أنشأت فيه الجمعيات العربية خاصة، يعتبر عصر بروزِ معالَم الدعوةِ للقوميات المختلفة[٢]، وعصر متغيرات في واقع العالم الغربي من تأثيرات الثورة الفرنسية، كما قال عنها أعضاء الجمعيات القومية العربية: ثورة ارتقى بها الإنسان، واصْطَلَحَ نوعَ الأحكام على ما هو عليه الآن، ليس في فرنسا وحدها، بل في أوربا كلها، بل في العالم قاطبة[٣].

لقد انعكست التيارات الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية، وتيارات الخداع الوطني على الجمعيات القومية العربية، ممثلة في بعض الصحف العربية التي تتكلم بلسان فرنسا يغذيها قنصلها العام في بيروت.. ويروجها لفيف من الكتبة والصحفيين، وقد وجَدَت لها أنصاراً أقوياء في أوساط حزب اللامركزية بمصر منهم إسكندر عمون، نائب رئيس هذا الحزب، وكانت جريدة الأهرام في القاهرة تتكلم بلسانها[٤].

وقد كان أصل معتقد القومية العربية، قد جاء من الغرب إلى الشرق فيما جاء من أفكار وتيارات. ..والتي تستهدف إنشاء كيان قومي موحد تنسكب فيه

---

١) يقظة الأمة العربية – ١٦٧-١٦٨.

٢) انظر: ١-حاضر العالم الإسلامي-لوثروب ستودارد-٤/٧١-١٥٦.

٢-واقعنا المعاصر-محمد قطب-٣٤١.

٣) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والإجتماعي-رئيف خوري-١٢٢.

٤) تاريخ الصحافة السورية-شمس الدين الرفاعي-١/٢٤٨-دار المعارف-مصر.

الكتل التي تَمُتُّ إلى أصل واحد أو تقطن بلاداً واحدة وتتكلم بلغة واحدة وتشترك في المصالح والأهداف قد انبثقت في أوربا في القرون الأخيرة[1].

ومن خلال الوسائل المختلفة من وسائل نقل الفكر النصراني لبعض البلاد العربية، كالبعثات العلمية، والإرساليات التنصيرية، ومدارس التنصير.. الخ أثرت في كثير من أعضاء الجمعيات القومية، وقامت بعض الجمعيات بنشر هذه الأفكار.

ويُحدّث فخري البارودي-أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية- عن دور أعضاء الجمعيات القومية في نشر الفكر الغربي: بأنه بدأ يتكون في دمشق جمهور من الشباب العربي، ومن خريجي المدارس العالية .. وكانوا يعقدون اجتماعات خاصة، ويخوضون في أحاديث جديدة غير مألوفة عند الدمشقيين آنذاك.. كان هؤلاء الشباب الناهضون يتحدثون عن أوربا وتقدمها وعلومها، وعن نهضات الشعوب، والشكوى من ظلم الحكومة.. وسرد حكايات طويلة عريضة عن أغراض الأحرار ومن بينهم: شكري العسلي، عبدالوهاب الانكليزي، ...الخ من أعضاء الجمعيات القومية العربية[2].

ويذكر عبدالرحمن الشهبندر -أحد أعضاء الجمعيات القومية- عن أنواع العلوم والمعارف، التي يسعى مع غيره من أعضاء الجمعيات العربية في نشرها: (أنها نتيجة كتب قرأناها ككتاب (روح الشرائع) لمونتسكو، وكتاب (أصول الشرائع) لينتام، وكتاب (سر تقدم الإنكليز) وغيرها. كم هي الكتب التي تغذينا بها[3].

كما سلك أعضاء الجمعيات القومية العربية، مسلك الترغيب للأخذ من آداب المجتمعات النصرانية، كفنون الشعر والأغاني والتاريخ والسياسة وغير ذلك.

---

١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٩.

٢) مذكرات البارودي-فخري البارودي-١/٥٧.

٣) عبدالرحمن الشهبندر(حياته وجهاده)-حسن الحكيم-١٤٧.

وقرر أعضاء الجمعيات: أنه لا يكمل علم الأدب للمتبحر فيه إلا بعد أن ينظر في أدب الأمم المتمدنة ولو نظرة عامة، يطلع بها على مجمل تاريخ أدبهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم، فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الإدراك وبلاغة المعاني، ويعرف أساليبهم[1] وأعتبر أعضاء الجمعيات القومية، العرب قبل تفتحهم على الغرب، في بلبلة من أمرهم وتفرقة وجهل خيم عليهم، في ظل السلطنة العثمانية التي استغلت النعرة الدينية لتثبيت سلطانها على حساب المعرفة والقيم الوطنية[2].

وتم تصديق الجمعيات القومية العربية خلال المؤتمر العربي الأول على مبدأ اقتداء الشرق بالغرب، وأنه حان للشرق أن يمشي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه (الغرب)، الغرب اليوم قدوة الشرق[3].

ومن أمثلة تطبيع واقع المسلمين بالمعتقدات النصرانية أن عبدالغني العريسي صرح أمام مؤسسي وأعضاء الجمعيات القومية العربية أن الأمم النصرانية أُسوة لنا في الصبر على الابتلاء والمحن ومطالبة الحقوق، وذلك بعد أن وقع الخلاف بين العرب وجمعية الاتحاد والترقي، وإن التعذيب والاضطهاد الذي يقع على أعضاء الجمعيات القومية، كان لنا أسوة فيه كثيرٌ من الأحرار الذين ماتوا كِرَاماً من أجل الدفاع عن الحرية، وتأييد المذاهب السياسية.

وذكر عبدالغني العريسي أنّ أسوته وقدوته في الصبر رموزُ الكفر، فقال: ها هو كميلُ دمُولين، قد قتلته الحكومة الاستبدادية، لأنه كان عاملاً في تحرير الأمة من الاستعباد والظلم.. وهاهو برناف يقول إذ قتلته الحكومة (إليكم يا قومي جزاء ما صنعته لدعائم الحرية)[4].

---

١) محمد روحي الخالدي-ناصر الدين الأسد-٧٦ -معهد البحوث والدراسات العربية- ١٩٧٠.

٢) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية-وليم الخازن-٤١.

٣) المؤتمر العربي الأول المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية في باريس - ٣١.

٤) مختارات المفيد عبدالغني العريسي-٨٠-دار الطليعة-بيروت-لبنان-الطبعة الأولى-١٩٨١.

وبعد ضرب الأمثلة بما سموهم (أعلام الحرية) بين أعضاء الجمعيات القومية العربية، بأن المدنية الأوربية العصرية هي التي انتشلتنا من سباتنا العميق. وإذا كانت ميولنا الماضية –العقائد الدينية في ظل الدولة العثمانية– هي التي خدرت أعصابنا وكانت سبب خمولنا فإن لنا في ميولنا الجديدة دافعاً إلى الترقي واستئناف الكرة ..[١].

وعلى نهج إبراز أعلام الكفر سارت مجلة (المقتطف) التي هي من أبرز المجلات ذات المنهج القومي العلماني، وصاحبا (المقتطف) يعقوب صروف وفارس نمر هما من أوائل خريجي الكلية السورية الإنجيلية وهي (الجامعة الأمريكية في بيروت) وقد عمل الاثنان، بعد تخرجهما، مدرسين في الكلية نفسها، وقد رأيا أثناء الدراسة والتدريس أن مجاراة الأمم الغربية في العلوم والمعارف مستحيلة إذا كانت الجماعة التي يعيشان بينها ستكتفي بترجمة الكتب. فلا بد من مجلة تقتطف ثمار المعارف والمباحث، شهراً بعد شهر، وتذيعها في الأقطار العربية[٢].

ولنشر المعتقدات النصرانية والعلمانية، قام بعض أعضاء الجمعيات القومية، بترجمة كتب النصارى وبخاصة الكتب التي تتعلق بالجوانب السياسية والاجتماعية، فقد قام أعضاء جمعية بيروت السرية، بترجمة كتاب (التحفة الأدبية) للفرنسي هنري غيزو، والكتاب من الغلاف إلى الغلاف يدعو إلى نظام سياسي متقدم خصوصاً على الصعيد الديمقراطي.. كما نشروا ما يرونه نهضوياً ومؤثراً[٣].

وكان من نتاج نشر الفكر الغربي النصراني على العامة، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن علمتهم حال الأمم وسياسة السياسيين وقوانين

---

١) المؤتمر العربي الأول–خطبة عبدالحميد الزهرواي–٢١.

٢) لبنانيات تاريخ وصور–نقولا زيادة–٧١. وانظر: تاريخ الآداب العربية–الأب لويس شيخو–١٣٣.

٣) صحافة الكواكبي–جان دايه–٣٢.

المشرعين واستعمار المستعمرين ... والاقتباس من المدنية الحديثة **وعلمتهم أن لا قيلم لأمرهم إلا بالقومية العربية، وأن نغمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه**[1].

ومما ينبغي بيانه عند الحديث عن هدف نشر الأفكار الغربية النصرانية، أن أبـوز من سعى في تحقيق هذا الهدف هم الأعضاء النصارى العرب المنتسـبين للجمعيـات القومية العربية، وقد سبق بيان دور نصارى العرب في تأسيس الجمعيات القومية[2].

ومن أمثلة هؤلاء النصارى: شبلي شميل الذي قال عنه محمد كرد علي: صـورة رائعة لعالم مؤمن بعلمه، متفان في بثه والعمل به، كان فرداً في طبقته قـل أن نشـأ للعرب في العهد الأخير رجل مثله في رجاحة العقل .. ولو قدر للشرق القريـب أن يكثر فيه أمثال شميل بعلمه ودأبه وإخلاصه لغيروا وجه حضارته، وقضوا على خرافاته وضلالاته، ولصانوا الأديان عما يحط من مقامها[3].

وكتب رشيد رضا ترجمة موجزة عن شميل قال فيها: كان فذاً نادراً المثـل في مجموعة علومه، وأعماله وأفكاره وأخلاقه والذي يحملنا على ترجمته أنه كان مـن طلاب الإصلاح المدني والتجديد الاجتماعي المخلصين-وقليل ماهم-.

وقد أقام أعضاء الجمعيات القومية حفل تأبين للدكتور شميل، وممن حضـره رشيد رضاء وألقى خطبة قال فيها: كان الدكتور شميل متحلياً بعدة من الأخـلاق الحميدة التي لا يرتقي العمران البشري إلا بكثرة المتحلين بها في الأمم كـالصدق واستقلال الرأي والشجاعة والثبات والسخاء والوفاء والنجدة والمروءة والرأفة[4].

---

١) خطط الشام-محمد كرد علي-٨٢/٤.

٢) انظر: الفصل الثاني من الرسالة- ص:(٢٣٢)

٣) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٤٧.

٤) مجلة المنار-المجلد١٩-الجزء ١٠-سـنة ١٣٣٥هـ (١٩١٧)-ص:٦٢٥-٦٣٢.وانظـر: حـوادث وخواطر(مذكرات الدكتور شبلي شميل)-٢٦١-دار الحمراء-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٩١.

وبعد هذا الثناء والمدح، قال عنه محمد كرد علي: إن شميل يعزى إليه نشر مذهب النشوء والارتقاء[1] في الشرق العربي.. ولم يرض أرباب الأديان عن خطة شميل في نقله مذهب داروين، وجاراهم في إنكارهم عليه جماعة المقلدين أدعياء العلم، أما هو فقد ثبت وما حاد عن اتزانه، وما توقف عن نشر دعوته بالحكمة وطرق الإقناع[2].

كما قال عنه رشيد رضا: كان أول من نشر مذهب داروين باللغة العربية وانتصر له وناضل دونه، ولم يكتف الرجل بذلك بل كان يصرح قولاً وكتابة بالتعطيل والإلحاد.

وعن الموقف الذي أتخذه رشيد رضا من عقيدة شميل، أنه قال: المسلمون لا يرون مروقه من عقيدته التي نشأ عليها مبعداً له عنهم لأنها ليست عقيدتهم، فهو في نظرهم طبيب عالم اجتماعي غير مسلم، ولكنه أقرب من غيره من المخالفين لهم إلى التساهل والإنصاف لحريته واستقلال فكره[3].

وبين أروقة الجامعة الأمريكية في بيروت، ناصر أعضاء الجمعيات القومية من دعا إلى نظرية النشوء والارتقاء من أعضاء هيئة التدريس، وعن موقف

---

١) وهي النظرية التي قال بها: الباحث الإنجليزي تشارلز داروين سنة ١٨٥٩ (١٢٧٥هـ)، ونشرها بكتابه أصل الأنواع، فقد افترض داروين أن أصل الكائنات العضوية ذات الملايين من الخلايا كائن حقير ذو خلية واحدة، وحسب قانون الانتقاء الطبيعي وبقاء النسب نمت الأنواع التي استطاعت التكيف مع البيئة الطبيعية ومصارعة الكوارث المفاجئة وتدرجت في سلم الرقي، وبتعبير داروين فقد وهبت بعض الكائنات عوامل البقاء ومؤهلات حفظ النوع بإضافة أعضاء أو صفات جديدة، وقد أدى ذلك إلى تحسن نوعي مستمر نتج عنه أنواع جديدة راقية كالقردة ونوع أرقى وهو الإنسان.انظر عن نظرية النشوء والارتقاء: (أصل الأنواع–ترجمة إسماعيل مظهر).

٢) المعاصرون–محمد كرد علي–٢٤٦.

٣) مجلة المنار–المجلد١٩–الجزء ١٠–سنة ١٣٣٥هـ ص:٦٢٥–٦٣٢.وانظر: حوادث وخواطر(مذكرات الدكتور شبلي شميل)–٢٦١.

الطلبة، قال أحد الطلبة: إن الحركة التي قام بها طلاب الكلية مما يحق تدوينه لأنه بدء نهضة جديدة بين تلامذة المدارس في الشرق لم يسبق لها مثيل[1] وقالوا عن النظرية: إن العقل والدين الصحيح يمشيان جنباً إلى جنب[2].

الهدف الرابع) تطبيق الحكم الديموقراطي في البلاد العربية[3]:

من منطلق تحقيق هدف الجمعيات القومية العربية، وهو استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، وتأثر أعضاء الجمعيات القومية العربية، بالأفكار والمعتقدات الغربية، في كثير من المجالات وأهمها المجال السياسي، كان من ضمن أهداف الجمعيات القومية العربية، أن يكون حكم البلاد العربية حكماً ديمقراطياً.

ولقد عرّف أعضاء الجمعيات القومية العربية السياسةَ بأنها: ممارسة النظر في الحوادث من كل جهاتها ليكون التصرف على حسبها. وقد جرت عادة رجال الحكومات أن يدعوا انحصار هذه الممارسة فيهم وحدهم. وكان الناس يسلمون لهم بهذه الدعوى، وإذا عابهم عائب بالاستسلام المطلق للحاكم يقولون: نحن لا نفهم السياسة... وبقولهم هذا يوقعون صك الاعتراف بأن ليس لهم أن يناقشوا الحاكم في شيء ما.

هذا عن حال البلاد العربية في ظل الدولة العثمانية، وأما عن حال الغرب فقد قال عنها أعضاء الجمعيات القومية العربية: قد تخلص الغرب من هذا العيب

---

١) لبنانيات تاريخ وصور-نقولا زيادة-١٤٩.وانظر عن تفصيل الحادثة: رواد النهضة الأدبية-كمال اليازجي.

٢) عبدالرحمن الشهبندر-حياته وجهاده-حسن الحكيم-١٥١.

٣) تعني الديمقراطية: حكم الشعب بالشعب. وهذه الكلمة جمع كلمتين:Demos ومعناها: الشعب. وkratos ومعناها: السلطة. أي: سلطة الشعب.

انظر: ١-الديمقراطية-دوروثي بيكلس-١١-دار النهار-بيروت-١٩٧٢.

٢-مذاهب فكرية معاصرة-محمد قطب-١٧٨.

الذي كان البشر المتحضرون كلُّهم مشتركين فيه... ويظهر أنه قد حان للشرق أن يمشي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه[1].

وتحقيق هدف الحكم الديموقراطي قد مر لدى أعضاء الجمعيات القومية العربية بمراحل قال عنها أعضاء الجمعيات القومية: كانت أُولى مظاهر الفكرة القومية عند العرب المسلمين أنها، كانت فكرة ممتزجة باعتقاد ديني، ومرتبطة بغايات دينية، وقالوا:إن الإسلام أول شريعة اعترضت على الاستبداد وقاومته أشد المقاومة، وساوت بين أفراد الأمة ومهدت السبيل للحكومة الديموقراطية ووضعت حق الحاكمية في الأمة[2].

إلا أن الفكرة كما قال ساطع الحصري: لم تقف عند هذا الحد، بطبيعة الحال، لأن بعض -المنورين- أخذوا يفكرون في القومية العربية تفكيراً مستقلاً عن الاعتبارات الدينية[3] حتى وصلوا إلى فكرة طريقة حكم البلاد العربية مع الدولة العثمانية، الذي يقول به فريق من رجالات الحركة العربية أن يكون على طريقة اتحاد المجر مع النمسة[4].

وكان من قرارات المؤتمر العربي الأول، المتعلق في هذا الهدف: أن الحكم الدستوري يقتضي أن تكون الأمة هي صاحبة النهي والأمر في شؤونها وأن تكون

---

١) المؤتمر العربي الأول-٣١. وانظر: عبدالرحمن الشهبندر-حياته وجهاده-حسن الحكيم-١١٠.

٢) مجلة الهلال-الجزء الثاني-السنة ١٧-١/١١/١٩٠٨ (٧/١٠/١٣٢٦هـ)-ص: ٦٩.

٣) محاضرات في نشو الفكرة القومية-ساطع الحصري-١٢٢.

٤) مختارات قومية-محمد عزة دروزة-٥٠٧. وهي ما تسمى بـ(النظام الكونفدرالي، وتعريفه أنه نظام بمقتضاه يتكون اتحاد من دول مختلفة تكون كل منها مستقلة داخلياً وخارجياً وتحتفظ كل منها بالشخصية الدولية ولكن يحكمها هيئة واحدة، وتوجد علاقات دستورية بين أجزائها. انظر: النظم السياسية والقانون الدستوري-فؤاد العطار-١٧٩-دار النهضة العربية-القاهرة-الطبعة الثانية-١٩٦٦. وكتاب الوجيز في النظم السياسية والقانون الدستوري-محمود حافظ-٤٦-دار النهضة العربية-القاهرة-الطبعة الثانية-١٩٧٦.

الهيئة الحاكمة وكيلة عن الأمة في إدارة تلك الشؤون.. ويقتضي اشتراك أبناء الأمة جميعاً في كل حق وفي كل واجب[1].

وقد نقل أعضاء المؤتمر العربي الأول شعور العرب المهاجرين ورغبتهم بالحكم الديموقراطي، فقد قال أعضاء المؤتمر: لقد أدرك المهاجرون فوائد الحكومات الشعبية الدستورية وحفظ حقوق الأفراد، أدركوا معاني المدنية في أوربا وأميركا.. فتمنوا لوطنهم العزيز الوصول إلى ما وصل إليه السوى بعد إراقة الدماء وهدم أبنية الظلم ودك معاقل الجهل ويتمنون أن يقوم إخوانهم العرب العثمانيون بثورة أدبية تنهزم فيها جيوش الجهل وفيالق الظلمة ويخرج الأحرار المتنورون من معتركها وقد كتب لهم النصر[2].

وبعد موافقة أعضاء الجمعيات القومية العربية، على هذا المنهج الديمقراطي في الحكم، قسم أعضاء الجمعيات القومية القوى المؤثرة في تسيير الدولة العثمانية، وذكروا نصيب البلاد العربية من كل قوة، فمما قالوا عن القوة التشريعية: إن كل قانون لا يوضع بمشاركة أبناء العرب يكون غير مستوف الشروط من حيث الحق والعدل.. ونأبى أن يكون حظنا في تدبير أنفسنا موكولاً إلى رأي غيرنا.

وقالوا عن القوة الإجرائية (التنفيذية): إن حق الجماعات يتطلب من الأمة أن تؤلف الحكومة، وأن لا تتألف الحكومة إلا من الأمة، أما تأليف الوزارات في مملكتنا فقائم على غير هذا الحق .. والوزارة في علم الحقوق العامة لا تكون وطنية إلا إذا مثلت كل أبناء الوطن، ولا تكون شرعية إلا إذا جمعت فيها إرادة المجتمع كله[3].

---

١) المؤتمر العربي الأول-١٠٠.

٢) المؤتمر العربي الأول-٦٨

٣) المصدر السابق نفسه-٤٥-٤٩.

ورغبة في إضفاء الصبغة الشرعية على هذا الهدف، قال عبدالغني العريسي -أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية- وذلك أثناء الاحتفال بذكرى مولد الرسول ﷺ، الذي يقيمه المنتدى الأدبي: في مثل هذا اليوم يولد النبي العربي القرشي مقيم الأسس الديمقراطية.. حرية ومساواة وإخاء، مبادئ ثلاثة قام بها نبينا العظيم لخير هذه الأمة، كل ذلك على مبدأ الديمقراطية[1].

وحينما أعلن الدستور في الدولة العثمانية، رأى أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن هذا العهد هو عهد إقامة حكم ديمقراطي صحيح في البلاد، تسوده الحرية والمساواة في ظل العدل والنظام[2].

وقد أكد نائب الحزب اللامركزي، في أثناء جلسات المؤتمر العربي، بأن الجمعيات القومية العربية: تريد حكومة عثمانية لا تركية ولا عربية حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق ولا يحرم فريق من حق من الحقوق لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين عربياً كان أو تركياً.. مسلماً أو مسيحياً إسرائيلياً أو درزياً.. هذه هي قاعدتنا السياسية الجامعة[3].

---

١) مختارات المفيد-العدد ٩١٩ بتاريخ ٢٩/شباط/١٩١٢. ص:٧٢.

٢) مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٤٧.

٣) المؤتمر العربي الأول-١٠٤.

الباب الأول

الفصل الرابع

أبرز رجالات الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر

المبحث الأول

شخصيات المرحلة الأولى

١. بطــرس الناسك

٢. ناصيف اليـــازجي

٣. طاهــر الجزائري

المبحث الثاني

شخصيات المرحلة الثانية

١. رفيــق العظم

٢. ساطع الحصري

٣. ميشيــل عفلق

الفصل الرابع

أبرز رجالات الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر

من خلال دراسة تأسيس الجمعيات القومية ، يجد الباحث بعض الشخصيات التي كان لها أثر واضح في التكوين الفكري، والتنظير المنهجي، لتلك الجمعيات.

وليكتمل التعريف بالجمعيات القومية لزم التعريف بأبرز الرجال الذين كان لهم دور فعال في تأسيسها، وذلك بإيراد تراجم لهم وسيلاحظ في تلك التراجم أنها كانت من مصادر أعضاء الجمعيات القومية أنفسهم أو المعاصرين لهم. وقد اخترت الشخصيات[1] التالية:

١) بطرس البستاني.

٢) ناصيف اليازجي .

٣) طاهر الجزائري .

٤) رفيق العظم .

٥) ساطع الحصري .

٦) ميشيل عفلق. وستكون دراسة هذه الشخصيات من خلال:-

١- تعريف موجز بالشخصية الذاتية .

٢- اتجاهها العقدي.

٣- أهدافها وآراؤها القومية .

٤- آثارها العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية .

---

١) رغبة في بيان مدى تأثير المُترجَم لهم على أعضاء الجمعيات؛ فقد نقلت نصوص أعضاء الجمعيات كما هي مع ما تحمله من إطراء وتبجيل لصاحب الترجمة.

لقد شهد القرن التاسع عشر رواداً من الأدباء والمفكرين الأوائل، كانوا خليطاً من النصارى والمسلمين في سورية الطبيعية، حملوا لواء الفكر القومي العربي.

وبالنظر إلى تاريخ تطور فكرة تأسيس الجمعيات القومية العربية، يلاحظ أنه ينقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: بداية الالتقاء الثقافي بين الدول الاستعمارية النصرانية والدولة العثمانية، وذلك من خلال الحملات التنصيرية في الدولة العثمانية، وأبرز شخصيات هذه المرحلة ستتناولهم الدراسة في المبحث الأول.

المرحلة الثانية: تبدأ من إسقاط السلطان عبدالحميد وتولي جمعية الاتحاد والترقي مقاليد السلطة، وفي هذه المرحلة التاريخية أنشئت الجمعيات القومية العربية، وأبرز شخصيات هذه المرحلة ستتناولهم الدراسة في المبحث الثاني.

المبحث الأول

شخصيات المرحلة الأولى

أولاً) بطرس الناسك:-

أ- تعريف موجز بالشخصية الذاتية :

هو : بطرس بن بولس بن عبدالله البستاني، ولد سنة ١٢٣٤هـ (١٨١٩م) في قرية الدبية من قرى لبنان، والدبية عدد سكانها خمسمائة نفس من طائفة الموارنة وقليل من البروتستانت فهو من نصارى العرب.

كان بطرس البستاني، كما يصفه أعضاء الجمعيات القومية، قد نبغ في سوريا والعلم لا يزال طفلاً في مهده فأخذ في التعليم والتهذيب علماً وعملاً[1].

---

١) مجلة الهلال-المجلد٤-الجزء ١٠-السنة الرابعة-٣٠رجب ١٣١٣هـ ص:٣٦٢ -٣٦٣

وقالوا عنه: لو شاء الكاتب أن يصف ما امتاز به البستاني الكبير وصفاً يصافح به الحقيقة، ويلبسه من خصائصه الأدبية ثوباً نسجته يد الإصابة... لا يسع الكاتب إلا أن يُلحقه بأولئك الذين ينعتونهم بقادة الأفكار ومحركي النهضات العلمية.. على أنه مع هذا كان من جبابرة الناهضين[1].

وقد ذكر القوميون أن للبستاني مراتب الأولية في بعض المجالات العلمية، فهو: أول من أسس مدرسة وطنية عالية، وأول من ألف قاموساً عربياً عصرياً مطولاً، وأول من أنشأ مجلة راقية، وأول من ابتدأ بمشروع دائرة معارف باللغة العربية..[2] وأول من أنشأ مجلة علمية وجريدة سياسية ومدرسة وطنية. وأول من أقدم على المشروعات الأدبية بعزم ثابت فألف الكتب وسهل طبعها ونشرها[3].

فهو ركن النهضة الأدبية الثابت، ومحور الحركة الوطنية في عصره، وهو من صرفَ حياته كلها في سبيل العلم والوطن، وتركَ الآثار العديدة من أدبية واجتماعية، وأحدثَ التأثير البليغ في أبناء قومه خاصة، وفي الأدب العربي عامة[4].

وعن تلقيه للعلم فقد أخذ بطرس البستاني -كما يقول مترجمو حياته- مبادئ القراءة والكتابة من القسيسين الذين كانوا كما يقول المترجمون: يعلمون صبيان رعاياهم ببساطة معارفهم وقوة مثلهم، مبادئ العربية والسريانية، مع خدمة القُدّاس، وأصول الفضائل المسيحية، في تلك المدرسة.

---

١) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم-حسن السندوبي-٢٠٦-المطبعة الجمالية-مصر-الطبعة الأولى-١٣٣٢هـ (١٩١٤م) .

٢) الروائع-المعلم بطرس البستاني-فؤاد افرام البستاني-المقدمة.

٣) مجلة الهلال-المجلد٤-الجزء العاشر من السنة الرابعة-٣٠رجب ١٣١٣هـ ص:٣٦٥.

٤) الروائع-المعلم بطرس البستاني-فؤاد افرام البستاني-المقدمه.

ومن أولئك القسيسين خوري ميخائيل البستاني، الذي كان يهذب صغار الضيعة، فلاحظ ذكاءً نادراً من بطرس البستاني، فأخبر به رئيس أساقفة صور وصيدا، فاهتم الرئيس بالأمر واستقدمه وبعد أن تحقق من ذكائه أرسله إلى عين ورقة(١)، فالتحق بكلية الدير في قرية عين ورقة وهو ابن عشر سنوات، وتعلم فيها العبرية واللاتينية والإيطالية فضلاً عن العلوم اللاهوتية(٢).

ومدرسة دار عين ورقة(٣)، التي تلقى فيها بطرس البستاني العلوم كانت ديراً لأحد نصارى العرب، ثم حولت إلى مدرسة عامة للطائفة النصرانية. ويقول عنها نصارى العرب: كان لها تأثير كبير على أبناء النصارى، حيث نبغ من هذه المدرسة كثيرٌ من الرؤساء والعلماء، حتى كان في القرن التاسع عشر أكثر بطاركة الطائفة ومطارنتها وكهنتها المشتهرين من تلامذة هذه المدرسة .. ومن هذه المدرسة خاصة بُثّت علوم اللغتين العربية والسريانية وغيرها من العلوم والفنون بين نصارى سورية(٤).

لقد قضى بطرس البستاني في هذه المدرسة عشر سنوات، أتقن فيها اللغة والمنطق والتاريخ والحساب... ومبادئ الفلسفة واللاهوت والقانون، وخرج من المدرسة وهو في العشرين من عمره(٥). وعين مدرساً فيها إلى سنة ١٨٤٠م (١٢٥٥هـ)(٦).

---

١) الروائع-المعلم بطرس البستاني-فؤاد افرام البستاني-المقدمة-المطبعة الكاثوليكية-بيروت-١٩٢٩

٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٢٢. وانظر: الإعلام الزركلي-٢/٥٨.

٣) انظر:بطاركة الموارنة وأساقفتهم في القرن التاسع عشر-بطرس فهد-١٩٩٠.

٤) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل-يوسف الدبس-٣٣٩- دار لحد خاطر-الطبعة الثالثة-١٩٨٢.

٥) تاريخ آداب اللغة العربية-جرجي زيدان-٢٦٩-دار الهلال.

٦) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل-يوسف الدبس-٣٨٢.

التقى بطرس البستاني -خلال غزو الحملات التنصيرية للبلاد السورية- بدعاة المذهب الإنجيلي من الأمريكان، الذين أقاموا ببيروت للتعليم ونشر مذهبهم، فتعرف ببعضهم وجعل يختلف إليهم يعلمهم اللغة العربية ويُعرِّب لهم بعض الكتب ككتاب: (الباب المفتوح في أعمال الروح) ومؤلفه سميث، وقد طبع الكتاب في بيروت سنة ١٨٤٣[١] ولما تمكنت علائق المودة بينه وبينهم ووافقهم على مذهبهم[٢].

أنشأ الدكتور فان ديك -الذي قال عنه القوميون العرب قد جاء إلى بلاد الشام مبشراً وطبيباً[٣]- في سنة ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ) مدرسة بعبية بقرار صدر من هيئة المبشرين الأمريكان[٤]، وساعده البستاني في إنشائها، وتأليف الكتب الدراسية، وعُيِّن البستاني أستاذاً في مدرسة عبية سنة ١٨٦٠م (١٢٧٦هـ)[٥].

أقام بطرس البستاني سنتين في مرحلة التدريس والتعليم، ثم عين من قبل الحملة التنصيرية ترجماناً في قنصلية أمريكا، وعكف على التأليف والترجمة.. وأعان الدكتور سميث الأميركي على ترجمة الأسفار المقدسة إلى العربية[٦].

إن سبب اهتمام المنصرين بقرية عبية، وإقامة مدرسة تنصيرية فيها، كونها بعيدة عن مراقبة الدولة العثمانية، ويوجد بها طوائف مختلفة ... وقد استطاعت

---

١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق-الجزء ٣-المجلد ٤٥-ربيع الآخر سنة ١٣٩٠هـ-ص:٥٩٥-.

٢) مجلة الهلال-المجلد٤-الجزء العاشر من السنة الرابعة-٣٠رجب ١٣١٣هـ ص:٣٦٢ -٣٦٣

٣) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٢.

٤)مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق-الجزء ٣-المجلد ٤٥-ربيع الآخر سنة ١٣٩٠هـ-ص:٦١١.

٥) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٢٢. وانظر: الإعلام الزركلي-٥٨/٢.

٦) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل-يوسف الدبس-٣٥١.

المدرسة أن تساعد على تحقيق غاية المنصرين حتى تأسست الجامعة الأمريكية في بيروت[1]، وفي هذا الجو التنصيري نشأ بطرس البستاني.

ولم تقتصر علاقة بطرس البستاني مع المنصرين الأمريكان بأعمال الترجمة والتدريس، أو الالتقاء بالمعتقد النصراني[2] فحسب، وإنما تأصلت أسباب الصداقة بين البستاني وبين الدكتور فان ديك، وظاهر كل منهما صاحبه على مشاريعه العلمية والأدبية، من تأسيس المدارس وإنشاء الكتب والصحائف وسواها، ولم يشغله ذلك عن وضع الكتب لتلاميذ المدارس وتعريب ما يرى فيه النفع للمتأدبين. ثم صُبت نفسه إلى التوسع في تأليف الكتب ونشر الآداب والمعارف فانكب على التصنيف ونشر الصحف يتلو بعضها بعضاً[3].

وإضافة إلى جهده العلمي فقد كان البستاني، مقصوداً بحاجات الناس مستشاراً في المهمات الدينية والأدبية والسياسية، مسؤولاً الإسعافِ ذوي المصالح لا يردُّ طالباً إلا مسروراً[4].

وتكاد تجمع مصادر ترجمة بطرس البستاني أن وفاته كانت في عام ١٨٨٣م (١٣٠٠هـ) وبموت الفجاءة بسبب هبوط في القلب، بينما كان يعمل في دائرة المعارف وعثروا عليه ملقى على أرض غرفته[5].

وقال فان ديك في رثائه لبطرس: معلمي ورفيقي، فكم من الليالي أحييناها معاً في الدروس والمطالعة والتأليف وحلاوة المعاشرة الصادرة عن اتحاد المقاصد والأغراض[6].

---

١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية-عمر فورخ و مصطفى الخالدي- ٩٤.

٢) انظر: يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٢.

٣) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم-حسن السندوبي-٢٠٥-٢٢٢.

٤) دائرة المعارف -بطرس البستاني-٥٩٢.

٥) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٦

٦) دائرة المعارف -بطرس البستاني-٥٩٣. وأوردت مبحثاً خصته بالحديث عنه، وذكر تفاصيل وفاته.

وقد خصصت بعض مجلات الجمعيات القومية العربية ترجمةً لحياته ومآثره[١]فمُلئت أعمدتُها رثاءً، وسُوِّدَت صفحاتها حزناً[٢]. ومما ورد في افتتاحية مجلة المقتطف: إن مصابه أُنْزل من الوطنيين منزلة مُصَابٍ عامٍّ وخطب تامّ[٣].

كما أقامت بعض صحف ومجلات الجمعيات القومية رثاءً لوفاته، فقد طرحت (مجلة الهلال) سؤالاً وجهته إلى القراء : اذكر أسماء الأشخاص السبعة من الكتاب والأدباء والشعراء الذين هم في نظر القارئ أصحاب الفضل الأكبر على النهضة الحديثة في الآداب والعلوم بأوسع معانيها-أي من ابتداء القرن الماضي إلى هذا اليوم- أحياءً كانوا أم أمواتاً ومهما تكن مواطنهم أو مذاهبهم؟

وكانت نتيجة هذا السؤال أن استحق البستاني ترتيبه الأول من الإجابات الواردة من مصر والسودان وسوريا، وترتيبه الثاني من مجموع الأصوات[٤].

وأقام أعضاء الجمعيات القومية العربية حفلة تكريمية بمناسبة إحدى ذكرياته[٥] لبّى الدعوةَ الجمُّ الغفيرُ من حملة الأقلام في العالم العربي، فأقيمت الحفلة مساء الجمعة ٢٦كانون الأول سنة ١٩١٩م ، في نادي المدرسة الكلية الأمريكية، واشترك فيها ٦٥ خطيباً بين عالم وكاتب وشاعر ومهندس وصحافي ومحامي وطبيب.. وهكذا فقد اجتمع علماء وأدباء القرن العشرين يكرمون ويعظمون نابغة القرن التاسع عشر..[٦] كما قال أعضاء الجمعيات القومية العربية.

---

١) انظر: ١-مجلة المقتطف-الجزء الأول-من السنة الثامنة-آب سنة ١٨٨٣.ص:٥

٢-مجلة الهلال-المجلد٤-الجزء العاشر من السنة الرابعة-٣٠رجب ١٣١٣هـ ص:٣٦٢ -٣٦٣

٢) الروائع-المعلم بطرس البستاني-فؤاد افرام البستاني-المقدمه.

٣) مجلة المقتطف-الجزء الأول-من السنة الثامنة-آب سنة ١٨٨٣.ص:٧

٤) انظر:مجلة الهلال-الجزء السادس-السنة ٢٩-٢١جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ الموافق١مارس ١٩٢١.

٥) تراجم مشاهير القرن التاسع عشر-جرجي زيدان-٣١/٢

٦) الروائع-المعلم بطرس البستاني-فؤاد افرام البستاني-المقدمه. وانظر: تاريخ الآداب العربية-الأب لويس شيخو-٢٥٢.

ب- أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية:

يعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية بطرسَ البستاني من أوائل الشخصيات العربية، التي جاءت بفكرة تأسيس جمعياتٍ لأهداف محددة في المجتمعات العربية وفي عصر كانت الأمية من أبرز معالمها. وقد تعددت أشغال البستاني في الجمعيات المختلفة من دينية وخيرية وعلمية أدبية، وفي تعريب الرسائل الدينية والتبشيرية، وإلقاء الخطب وتأليف الكتب.

وإذا ألقينا نظرة على حياته الاجتماعية وأعماله المختلفة، رأيناه رئيساً أو عضواً عاملاً في أكثر الجمعيات والمؤسسات التي عرفت في بلادنا على عهده... فكان عضواً في عمدة الجمعية السورية الأولى ... وكان عضواً فخرياً في المجمع العربي الشرقي، آخذاً بمراسلة الكثيرين من علماء الشرق والغرب في الشؤون العلمية[1].

وقد بيّن البستاني في دائرة المعارف، تاريخ تأسيس الجمعيات، فقال: (قد وجدت الجمعيات في القدم وفي القرون المتوسطة وصار لها أهمية بنشرها المعارف المدرسية).

وعن الأهداف الخاصة لتأسيس الجمعيات في البلاد الأوربية والغربية، قال: (يوجد في الممالك المتحدة جمعيات لجميع فروع العلوم والآداب والمعارف الصناعية تقريباً.. فمن تلك الجمعيات: الجمعية الجيولوجية، والجمعية الجغرافية الملكية، وهما أكبر المحركات لاكتشافات هذا العصر المهمة، وكذلك الجمعيات المشتغلة في الآثار القديمة.. وهي ذات نشاط عظيم وقد بذلت الهمة في السفر والتفتيش).

(وتوجد جمعيات علمية أُخر في بلدان أخرى من الشرق وفي كندا واستراليا وفي كل قسم تقريباً من الإمبراطورية البريطانية وجميع الجمعيات المهمة من عادتها نشر أعمالها.. وفي هذا القرن يوجد جمعيات مختلفة للعلوم السياسية والمعشرية (الاجتماعية) وتلك البلاد مملؤة جمعيات لكل فرع من فروع المعارف).

---

١) الروائع-المعلم بطرس البستاني-فؤاد افرام البستاني-المقدمه.

(وأما آسيا وإفريقية فقد أنشئ فيهما في القرن الحالي جمعيات لمقاصد مختلفة ولكن ما بقي منها حياً لا يقاس بشيء من الجمعيات المار ذكرها)[1].

فيقرر بطرس البستاني مبدأ تأسيس الجمعيات، وكونها محددة لأهداف معينة، وذكر منها أهداف علمية، وسياسية، واجتماعية ... الخ من الأهداف. ومن الآثار العملية والعلمية في تأسيس الجمعيات القومية العربية، ما يلي:

أولاً) اطلاع بطرس البستاني على تطور تاريخ تأسيس الجمعيات، واعتبار أن الجمعيات وسيلة مهمة في نشر المعارف والعلوم، فقد قدم اقتراحاً إلى البعثة الأمريكية التنصيرية، بتأليف جمعية تهدف إلى بذل الجهد لمسايرة انتشار التعليم في المدارس وظهور العناية الحديثة بالعلوم.

وحقق المشروع المقترح فأنشئت سنة ١٨٤٧م (١٢٦٣هـ) في بيروت باسم (جمعية الآداب والعلوم) وكان من أعضائها: اليازجي والبستاني. وكذلك إيلي سميث وكورنيليوس فان دياك، وعدة أعضاء من الأمريكان، وانتسب إليها رجل إنجليزي كان يقيم في بلاد الشام هو الكولونيل تشرشل. ولم يشترك فيها عضو مسلم فأكثرهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت[2].

وقد يُسجّل في تاريخ البستاني بأنه من أوائل من أسس الجمعيات في البلاد العربية، فيذكر أحد مؤرخي نصارى العرب بأن سورية لم تخل من جمعيات علمية، وقال عن هذه الجمعيات: بأنها نفعت الآداب بأفكارها الراقية ومساعيها بترقية المعارف ومنشوراتها الحسنة.

وكانت أولها جمعية أدبية سعى بعقدها بعض مشاهير لبنان في بيروت سنة ١٨٤٧فلم تَطُل مدتها، ثم الجمعية الشرقية التي أنشئت سنة ١٨٥٠ (١٢٦٦هـ)

---

١) دائرة المعارف-بطرس البستاني-٦/٥٢٤-٥٢٥-جمعية

٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٦-١١٧(بتصرف). وانظر: الفصل الأول من الرسالة. ص:(٣٩)

في دير الآباء اليسوعيين في بيروت[1]. ثم خلفتها سنة ١٨٥٧(١٢٧٣هـ) الجمعية السورية وضمت عدداً من الذوات[2].

وكان كل أعضاء الجمعية السورية من العرب فلم تضم أحداً من الأجانب على الإطلاق، كما أنها كانت تضم أعضاء من العرب المسلمين إلى جانب المسيحيين، مما يدل على تطور الوعي القومي، والارتفاع فوق الخلافات الطائفية[3] كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، ثم اتسعت دائرة أعمالها ونالت من الدولة العلية الرخصة بنشر أبحاثها فنشرت أولاً من حين إلى آخر دون وقت محدد[4].

ثانياً) لقد أسس بطرس البستاني (المدرسة الوطنية)، التي تهدف كما يقول أعضاء الجمعيات القومية إلى أن يتلقى فيها التلاميذ على اختلاف عقائدهم تعليماً أساسه التسامح الديني والمثل الوطنية.. وجذبت إليها التلاميذ من جميع أنحاء بلاد الشام، كان بينهم من قدّم بعد ذلك أعمالاً جليلة لبلاده[5]، وقد أنعمت عليه الحضرة السلطانية بوسام الشرف مكافأة لخدمته[6].

إن تأسيس المدرسة الوطنية على قاعدة الحرية الدينية، ومبدأ الجامعة الوطنية، مماثل لأهداف الجمعيات القومية العربية، والتي تنص مبادئ الجمعيات على الرابطة القومية، وأنها أولى من الرابطة الدينية، كما سبق توضيح ذلك.

---

١) انظر: مجلة المشرق ١٢/١٩٠٩/٣٢-٣٨. والإعلام-الزركلي-٥/٢٤٦.

٢) تاريخ الآداب العربية-الأب لويس شيخو-٧٥-منشورات دار المشرق-بيروت الطبعة الثالثة-١٩٩١

٣) حركة اليقظة العربية-محمود صالح منسي-٦٦.

٤) تاريخ الآداب العربية-الأب لويس شيخو-٧٥.

٥) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٥.

٦) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل-يوسف الدبس-٣٥١.

ومن أهم ما ينبغي التنبيه إليه أن هدف (المدرسة الوطنية) كان غريباً على المجتمعات العربية في ذلك الوقت، فإن الأتراك وغالبية العرب الساحقة كانوا يشعرون أنهم أعضاء في أمة إسلامية عظيمة يربط بينهم دين واحد، وولاء لحاكم مسلم هو السلطان العثماني[١].

يصدق على بطرس البستاني ما ذكره القوميون، بأنه كان متمرداً، ولكن لا على أشخاص بالذات، بل على فكرة دان بها أشخاص من الغرب، فتابعهم عليها آخرون من الشرق، هي فكرة الطائفية والتعصب لها وللدين أيضاً[٢].

لقد كانت أهداف المدرسة الوطنية، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية، أن تؤلف القلوب بين متغايري الأديان متبايني المذاهب، وتذيع المبادئ الوطنية على صدق في جانب الدولة، وإخلاص في جانب الوطن، فانسل إليها الطلبة من كل نادٍ وصوب؛ من مصر والأستانة واليونانية والعراق من عرب وأعاجم، وقد بلغ عدد طلبتها مبلغاً كبيراً وأرضعتهم من لبان الآداب شيئاً كثيراً بما جعل لمنشئها وصاحبها يداً بيضاء في تقدم الأدبيات وإذاعة المبادئ الوطنية[٣]، وقد جارت في تعاليمها بقية مدارس المدينة[٤].

وولي شؤون التعليم أساتذة من العرب والإفرنج لتعليم اللغات بجملتها والعلوم والفنون بضروبها، ومما جرت عليه عادة البستاني في المدرسة أنه كان يخطب في الطلبة مرتين في الأسبوع، يوم مذكرة علامات حال الطالب، وخطبة يوم الأحد فكان يضمنها الحض على التقوى والصلاح وتقويم المسالك وحب الوطن وغير ذلك[٥].

---

١) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٢٦.

٢) دور العروبة في تراثنا اللبناني-زكي النقاش-١٠٠-دار لبنان -بيروت-لبنان-الطبعة الثالثة-١٤٠٠.

٣) دائرة المعارف -بطرس البستاني-٥٩٠-دار المعرفة-بيروت-لبنان- (دائرة)

٤) تاريخ الآداب العربية-الأب لويس شيخو-٧٦.

٥) دائرة المعارف -بطرس البستاني-٥٩٠-دار المعرفة-بيروت-لبنان- (دائرة)

كان تأسيس المدرسة الوطنية قد جاء بعد أن وقعت حروب عدة في البلاد العربية، قال عنها القوميون: ذات صبغة طائفية. ومن أبرزها الحرب الأهلية التي وقعت في لبنان بين النصارى والدروز، سنة ١٨٦٠[1]، وقد سعى البستاني كما يقول نصارى العرب إلى تخفيف حدة مشاعر الحقد الديني.. ووقف معظم جهده على الدعوة إلى التوفيق بين العقائد المختلفة، وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة...[2].

فأنشأ البستاني بعد ثلاث سنوات من هذه الحروب المدرسة الوطنية، غايتها أن يتلقى فيها التلاميذ على اختلاف عقائدهم، تعليماً أساسه التسامح الديني والمثل الوطنية.. وتَزَوّد التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومي[3]. فجذبت إليها التلاميذ من جميع أنحاء بلاد الشام، كان بينهم من قدم بعد ذلك أعمالاً جليلة لبلاده[4].

وقد وصفته دائرة المعارف، بأن من خلاله الحميده وخصاله المشكورة، ترفعه عن التعصب وإباؤه الانقياد إلى هوى النفس، إذ لم يكن متعصباً إلا للوطن، ولا منقاداً إلا للمبادئ الوطنية.. مجتهداً مجداً في ترقية مصلحة البلاد بالأدبيات ..[5].

وأما عن الجانب التاريخي للمدرسة الوطنية، فيقول عنها مؤرخو النصارى: هي من جملة المدارس التي أنشأها الموارنة لأن منشئها ماروني أصلاً وهو المعلم بطرس البستاني، وقد افتتحها سنة ١٨٦٣(١٢٧٩هـ)، وجعلها تحت إدارة ابنه سليم الذي كان يعلم بها العلوم والصف الأول الإنكليزية، وتخرج بها كثيرون من

---

١) انظر عن هذه الحوادث، كتاب: مذبحة الجبل (حسر اللثام عن نكبات الشام)-شاهين مكاريوس-بيروت-الطبعة الثانية-١٩٨٣.

٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٥.

٣) حركة اليقظة العربية-محمودصالح منسي-٦٥.

٤) يقظة العرب-انطونيوس-١١٥.وانظر : التبشير والاستعمار في البلاد العربية-عمر فروخ-١٣٧.

٥) دائرة المعارف -بطرس البستاني-٥٩٢.

الموارنة أيضاً و لم تكن تتعرض لتلامذتها في أمر دينهم بل كانت ترسلهم لقضاء فروضهم الدينية في كنائس طوائفهم، ودامت خمس عشرة سنة، وقد أقفلت سنة ١٨٧٥(١٢٩١هـ)[1].

وقد تخرج من المدرسة الوطنية كثيرون من الطلبة بعد أن تزود التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومي. وارتقى كثيرون منهم إلى وظائف معتبرة ومراتب سامية[2].

ويقول أحد نصارى العرب المنتسبين للجمعيات القومية العربية: كنت سنة ١٨٦٥(١٢٨١هـ) تلميذاً بالمدرسة الوطنية التي أسسها في بيروت المعلم بطرس البستاني وهو أحد أصحاب النهضة العربية المجد المجتهد .. توفي سنة ١٨٨٣وكنت يومئذ في بيروت وحضرت مشهده، حيث كان رئيسي ومعلمي[3].

إن المدرسة الوطنية تعتبر من أبرز آثار بطرس البستاني القومية، ولذا اعتبره القوميون بأنه أول من رفع راية التعليم (العلماني) والقائم على الوطنية، والحرية الدينية. وقالوا عنه: كفاه بذلك حقاً، أن يكون بين الفئة الممتازة، ممن خدمتهم العروبة، فعرفوا لها فضلها، وأعادوا لها بعض ذلك بعرفان جميلها[4].

ثالثاً) ومن مآثره القومية، الخطب التي كان يلقيها في الجمعيات، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية. له خطب عدة كان يلقيها في الجمعيات

---

١) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل-يوسف الدبس-٣٨٢. انظر: الإعلام-الزركلي-٢١٩/٨.

٢) دائرة المعارف -بطرس البستاني-٥٩٦. وانظر: الجامع المفصل-يوسف الدبس-٣٥١. وانظر: حركة اليقظة العربية-محمود صالح منسي-٦٥.

٣) مجمع المسرات-شاكر الخوري-٨٢-مطبعة الاجتهاد-بيروت-١٩٠٨. وقد رثاه المؤلف بقصيدة طويلة-٤٢١.

٤) دور العروبة في تراثنا اللبناني-زكي النقاش-١٠١. وانظر: بشير بين السلطان والعزيز (١٨٠٤-١٨٤١)-أسعد رستم-٢٣٢-منشورات الجامعة اللبنانية-بيروت-الطبعة الثانية-١٩٦٦.

والأندية، التي حث الأمريكان على إنشائها، كما كان يكتب لهذه الجمعية الأدبية النشرات[1] وكان في عصره كما يقول جرجي زيدان: زعيم الحركة الأدبية في سوريا، من حيث المدارس والجمعيات والجرائد والمجلات، واللغة والعلم، والأدب[2].

لقد كانت خطبه وكلماته تهدف لما قرره، من تحقيق المبدأ العلماني، والحرية الدينية، والبعد عن التعصب الديني، والمطالبة بنشر المعارف والعلوم في الأمة، ولهذا فأبلغ المآثر التي ذكرها بطرس البستاني -عند حديثه عن الخليفة العباسي هارون الرشيد-، بأن له شهرة عظيمة في الرغبة والهمة والنشاط في إحياء العلوم والآداب ونشرها في مملكته المتسعة ...وكان يعتبر العلم أينما وجد، والعلماء مهما كان مذهبهم، فلم يكن يزدري بمعرفة من يخالفه في أمر المذهب، فإن رئيس مدارسه وأول مدير للعلوم في المدارس العالية في مملكته كان رجلاً نصرانياً نسطورياً دمشقياً اسمه يوحنا بن ماسويه[3].

وللدور البارز الذي قام به بطرس البستاني بحركة الترجمة مع الحملة التنصيرية، تحدث البستاني عن مناقب المأمون ودوره في ترجمة كتب اليونان، فمما قال بطرس البستاني عن المأمون:(..كان منذ نعومة أظفاره مولعاً بالمطالعة والدرس وقد اتخذ في حياة والده صحابة له من مشاهير علماء اليونان والعجم والكلدان، ولما تبوأ تحت السلطنة لم تلهه مهماتها وعظمتها عن الاعتناء بالعلوم والقيام بحقها وحق أربابها، فكانت الشعراء والفلاسفة والمهندسون تتوارد إليه إلى بغداد من كل بلاد وملة.

---

١) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٥.

٢) تاريخ آداب اللغة العربية-جرجي زيدان-دار الهلال-٢٦٩.

٣) انظر عن أثر تمكين النصارى في أعمال المسلمين خلال الدولة العباسية:أحكام أهل الذمة-ابن القيم-١/٢١٤-٢٣٦. دولة بن العباس-شاكر مصطفى-٢/١٠١.

وقد أمَر سفراءه في أرمينية وسوريا ومصر أن يجمعوا ما يمكن وجوده فيها من الكتب الأكثر اعتباراً، ويبعثوا بها إليه، فكانت ذخائر آداب الأقاليم التي تغلّب عليها تُجمع بكل اعتناء وتوضع أمام عرشه كأعظم جزية وأفخر التحف والهدايا عنده.. من آداب اليونانيين والعبرانيين والعجم، وقد داخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه منها ما حضرهم فا ستجاد لها مَهَرَةَ التراجمةِ وكلّفهم إِحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها)[1].

رابعاً) ومن آثار بطرس البستاني القومية إنشاء بعض الصحف العربية، وقد سبق بيان دور الصحافة في تأسيس الجمعيات القومية العربية[2]. لقد اعتبرت صحف الجمعيات القومية العربية، عمل وتأسيس البستاني للصحف -ذات المنهج القومي-، قد جاء ملبياً لما ترغبه النفوس.

وكما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية تاقت الناس إلى منشورات سياسية واقتضت مصلحة الأمة إذاعةَ المبادئ الوطنية الصحيحة .. وإنشاءَ الجنة والجنان والجنينة -وهي منشورات سياسية- وإحداثَ المدرسة الوطنية لإذاعة المبادئ الوطنية من طرف التعليم والتثقيف[3].

قال القوميون العرب: لقد سعى البستاني إلى تخفيف حدة مشاعر الحقد الديني، بإصدار صحيفة أسبوعية صغيرة في بيروت باسم (نفير سورية) وكانت أول صحيفة سياسية أتيح لها الصدور في تلك البلاد، وقد وقفت معظم جهدها

---

١) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم-حسن السندوبي-٢١٠. انظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عن حركة الترجمة في بيان تلبيس الجهمية-٣٢٣/١-مؤسسة قرطبة.

٢) انظر: الفصل الثالث من الرسالة. ص: (٢٢٤)

٣) مجلة المقتطف-الجزء الأول-من السنة الثامنة-آب سنة ١٨٨٣.ص:٦

على الدعوة إلى التوفيق بين العقائد المختلفة، وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة[١]، وصحيفة نفير سورية تعتبر أول نشرة عربية ظهرت في سوريا إذ أنشئت سنة ١٨٦٠(١٢٧٦هـ)[٢] وتتكون صحيفة نفير سورية، من صفحتين.. وتظهر على شكل رسائل وطنية، تتضمن نصائح مفيدة، لِشَدِّ عُرى الألفة بين السكان. ولما أخلد الناس إلى السكينة أو قف نشرها[٣].

وصحيفة الجنان التي أنشأها البستاني سنة (١٨٧٠م-١٢٨٦هـ) وهي: مجلة علمية أدبية سياسية عَهِدَ بإدارتها إلى ولده سليم، وكانت تصدر كل أسبوعين، وكانت الغايةُ منها محاربةَ التعصب والدعوة إلى التفاهم والاتحاد لخير الوطن، وكان شعارها (حب الوطن من الإيمان) وكان يحرص على أن يبرز هذا الشعار على الصفحة الأولى مع العنوان في كل عدد، ويعتبر البستاني بأنه أول من خط على صفحات القلوب ورسم على صحف الجنان (حب الوطن من الإيمان)[٤] وكان يشارك في الكتابة فيها عدد من الكتاب من البلاد العربية المجاورة ومن بلاد الشام نفسها[٥].

وللدور المؤثر التي تؤديه صحيفة (الجنان) نالت اهتمامَ والي سورية مدحت باشا، حتى أنه كان يزور إدارتها في مجيئه لبيروت، ويبث أفكاره الإصلاحية بواسطتها[٦] وكانت تُعنى عناية خاصة بعرض الآراء التي كان

١) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٤.
٢) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم-حسن السندوبي-٢٠٨.
٣) لبنانيات-نقولا زيادة-٦٩.
٤) دائرة المعارف -بطرس البستاني-٥٩٤.
٥) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٥.
٦) لبنانيات-نقولا زيادة- ٧١.

يدعو إليها مؤسسها، وأنها كانت حافزاً قوياً وجّه الأفكار إلى التسامح الديني والنظرة الواسعة إلى الأمور[1].

أمَّا صحيفة الجنة: فهي صحيفة سياسية أنشأها بعد الجنان ببضعة أشهر، وبالتحديد صدرت في حزيران ١٨٧٠ مرة في الأسبوع، ثم مرتين في الأسبوع[2].

وصحيفة الجنينة: جريدة أنشأها بعد الجنة بزمن قليل، صدرت سنة ١٨٧١ وكانت تصدر أربع مرات في الأسبوع، وَوَلِي زمامها سليمان أفندي البستاني[3].

وقد قيل عن دور البستاني في إنشاء الصحف: إنه أظهر من البراعة والاجتهاد ما جعله موضع إعجاب الحملة التنصيرية، ونشر الصحف يتلو بعضها بعضا بهمة لا تعرف الملل، وما يزال يكد في خدمة البلاد بنشر الآداب بين طبقات أهلها[4].

ومن الأمثلة على المقالات الصحفية التي نُشرت في مجلة الجنان: (علامَ نخلط الدين بالدنيا ونحط شأن السماويات بمزجها في الأرضيات، فنجعل لاعتقاداتنا دَخَلاً في أعمالنا، فتؤثر اختلافاتنا الدينية في أعمالنا العالمية، فينشأ عنها ذلك الشقاقُ الذي طالما كرر الأمم وأتى بالحروب والويلات.

إن زماننا قد تغير فمن الحكمة أن نتبعه وقد تبدلت الأحوال، فالإصابة في مجاراة ذلك التبديل، فما كنا نراه في الأمس لا نراه اليوم لأن نسبتنا إلى دولتنا العلية، ونسبتها إلينا وصلاتُنا الغربية وصلاتُ الغرب عندنا قد أخذت غير المجرى

---

١) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٥.

٢) مقدمة كتاب: سليم البستاني- ميشال حجا-٢٠.

٣) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم-حسن السندوبي-٢٠٨.وانظر: مقدمة كتاب: سليم البستاني- ميشال حجا-٢٠.

٤) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم-حسن السندوبي-٢٠٥-٢٢٢-المطبعة الجمالية-مصر-الطبعة الأولى-١٣٣٢هـ (١٩١٤م) .

المعهود وأصبحنا جميعاً رعية واحدة لراعٍ واحد عنده من الحلم ما يوافق لين عريكتنا ومن التأني ما يناسب ارتباكاتنا الناتجة عن التعلق ببعض الماضي، وتعلم بعض الأمور الجارية والتأهب لقبول ما سوف يجري.

ولذلك لا بد من أن نكون في معابدنا إسلاماً وأرمن ودروزاً وموارنة وغير ذلك. وفي ميادين الأعمال عثمانيون لنا راية واحدة، استبداد الحال لنا إنما يكون بالاجتماع حولها بالغيرة والحمية والصداقة..[(١)].

وهذه الدعوة التي ذكرتها مجلة الجنان، هي من ضمن الدعوات التي تنادي بها الجمعيات القومية العربية، خلال إقرارها المعتقد القومي.

وجاءَ عن موقف المجلة من ارتباط الدين بالسياسة:(كثيراً ما مُزِج الدين بالسياسة، ونتج من ذلك أضرار لا تحصى.. لأنهما ضدان، لأن أساس الدين هو الاختيار بحسب الاقتناع، وهو يتعلق بكل إنسان على حدهَ، وأما أساس السياسية الرضوخ لما يستحسنه أكثر جمهور ارتبط أفراده بعضهم ببعض برباطات الصوالح المدنية، وهذا الرضوخ هو إلزامي بخلاف الرضوخ للدين فإنه اختياري .. ولا يوجد دين يمنع أهله من موافقة روح العصر في الأمور المدنية، لأن الدين لا يتعرض للأمور المعاشية [(٢)] .

أيدت المجلةُ الثورةَ الفرنسية، إذ رأت فيها إعادةَ حقٍّ سُلِبَ منهم، جاء فيها: (إن الذي حمل الفرنساويين على إثارة الثورة هو ما كانوا يعتقدونه من التعدي الواقع على حقوقهم...فهاجت الأمة وماجت وطلبت ما كان يحق

١) مجلة الجنان-الجز ٦-سنة ١٨٧٤-ص:١٨١-نقلاً من كتاب: الأعمال المجهولة-سليم البستاني-١٢٢.
٢) سلسلة الأعمال المجهولة-سليم البستاني-١٥٠.

لها أن تطلبه من الحقوق، ولو لم تتجاوز حدود الاعتدال في ثورتها لتقررت في صدور التواريخ بدون ذكر الحوادث التي تسود بياض بعض اجتهاداتها).

وأكدت مجلة الجنان على أن الثورة الفرنسية، هي بداية عصر الحقوق وفي أوربا خاصة، وليس المقصود حقوق كل أمة بالنسبة إلى غيرها، ولكن حقوق كل أمة بالنسبة إلى دولتها..وجمع الجنسيات بعضها لبعض، وأن تساعد كل أمة على أن تسوس نفسها..وحاصل الكلام: (إنّ الثورة الفرنساوية جمعت أمم أوربا على طلب حقوقها والمحافظة عليها، ومنذ ذلك الزمان أخذت الدول العاقلة في الميل عن سبل سياستها الأولى، وفي إعطاء رعاياها حقوقها)[1].

خامساً) لقد أخرج البستاني دائرة تسمى (دائرة المعارف) كتب نموذجاً عنها ورفعه إلى ملك مصر الخديوي إسماعيل[2] والتمس من لدنه الإعانة فصدرت إرادته بإمداده بما يكفل ظهور هذا الكتاب إلى حيز الوجود.. وأمدته بمكتبة عظيمة حوت أجل الكتب وأنفعها للاستعانة بها على تحرير الدائرة[3].

وقد قال أعضاء الجمعيات القومية العربية، عن دائرة المعارف: إنها قاموس شامل لسائر العلوم على اختلاف مواضيعها وأزمانها وكان قد شرع فيه عام ١٨٧٥ يعاونه ولدهُ سليم وبعض الكتاب من المتأدبين وطائفة من خريجي مدرسته الوطنية في بيروت وسماه (دائرة المعارف).

---

١) الأعمال المجهولة -سليم البستاني-١٧٤

٢) إسماعيل بن إبراهيم بم محمد علي الكبير، ولد في القاهرة سنة ١٢٤٥هـ ولي مصر سنة ١٢٧٩هـ وهو أول من أطلق عليه لقب الخديوية من رجال أسرته، عزل سنة ١٢٩٦هـ وقضى بقية أيامه في أوربة والآستانة. وتوفي في الآستانة سنة ١٣١٢هـ ودفن بالقاهرة .انظر:(الإعلام-الزركلي-٣٠٨/١).

٣) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم-حسن السندوبي-٢٠٨.

وهو كتاب فريد لم ينسج على منواله في اللغة العربية، أصدر منه ستة مجلدات وتوفي وهو في بداية المجلد السابع، فأتم السابع والثامن ابنُه سليم وتوفي قبل الشروع في التاسع فأصدر أبناؤه الباقون الجزء التاسع بمعاضدة ابن عمهم سليمان أفندي البستاني. ثم حالت موانع أدت إلى إيقاف العمل في بيروت ومضت على ذلك بضع سنوات إلى أن قدم القاهرة سليمانُ وأخذ في إتمام الدائرة .. فصدر الجزء العاشر والحادي عشر سنة ١٩٠٠(١٣١٧هـ) عند كلمة عثمانية ثم توقف العمل[١].

كما أن للبستاني كتاباً سماه محيط المحيط: وهو قاموس عربي جليل .. أضاف إليه طائفة من الألفاظ العامية والكلمات الأعجمية الدائرة على الألسنة ورفعه إلى السلطان عبدالعزيز[٢] فأثابه عليه الوسامَ المجيديَّ الثالثَ وجائزةً من المال، وشاع هذا الكتاب شيوعاً عظيماً حتى أصبح الآن نادر الوجود[٣].

---

١) تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر-جرجي زيدان-٢/٣٩-دار مكتبة الحياة-بيروت-لبنان. وانظر الروائع-المقدمه

٢) السلطان عبدالعزيز: ولد في شعبان سنة ١٢٤٥هـ (١٨٣٠م)، تول السلطة سنة ١٢٧٧هـ (١٨٦١م) ويعتبر من أوائل السلاطين الذين أدخلوا العلمانية في الدولة العثمانية، كما اتسم عهده بالفتن والإسراف والبذخ مما أدى إلى خلعه بفتوى من شيخ الإسلام حسن خير الله أفندي، ليموت بعد ذلك منتحراً سنة ١٢٩٣هـ(انظر:(تاريخ الدولة لعلية العثمانية-محمد فريد-٥٣٠-٥٨٠).

٣) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم-حسن السندوبي-٢٠٨.

ثانياً) ناصيف اليازجي:

أ- تعريف موجز بالشخصية الذاتية :

هو: ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط، الشهير باليازجي. ولد سنة ١٢١٤ (١٨٠٠)، وأصله من حمص بسورية، مولده في (كفر شيما) من قرى ساحل بيروت بلبنان[1].

هاجر جدُّه من حمص مع جماعة من ذويه سنة ١٦٩٠(١١٠١هـ) .. فتوطن أناس منهم في ساحل لبنان في الجهة المعروفة بالغرب، ولا تزال بقية أسرتهم في حمص[2] ونواحيها. وهم عشيرة كبيرة من ذوي الوجاهة واليسار، وأكثرهم من طائفة الروم الأرثوذكس، أما فرع ناصيف فإنه ينتمي إلى الروم الكاثوليك[3].

يعتبر ناصيف اليازجي الشخصية الثانية، من الشخصيات التي أثرت في تأسيس الجمعيات، والدعوة للفكر القومي. فقد قيل عنه عميد بيت اليازجي، وركن من أركان النهضة العلمية في سوريا. وهو أشهر من أن نعرف به، لما كان له من القدح المعلى في اللغة والشعر والأدب[4].

وتأتي أهمية ناصيف اليازجي من كونه ملازماً لبطرس البستاني في الجانب التاريخي، ولهذا نجد بعض القوميين الذين أرخوا للفكر القومي في تلك المرحلة، كتبوا عن الشخصيتين معاً، مع أن ناصيف أسن من بطرس [5].

---

١) الإعلام-الزركلي-٧/٣٥٠

٢) تراجم مشاهير الشرق-جرجي زيدان-٢/١٦.

٣) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-١/٨٢-بيروت-المطبعة الأدبية-١٩١٣.

٤) تاريخ آداب اللغة العربية-جرجي زيدان-٤/٢٣٤ .

٥) انظر: يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٠٩.

وهو نصراني المعتقد ألّف قصيدة مطبوعة ضمن قصائد في ديوانه بعنوان (القول الصحيح في لاهوت المسيح) وتبيّن عقيدته، قال فيها:

نحن النصارى آل عيسى المنتمي ... حسب التأنس للبتولة مريم

وَهُوَ الإلهُ ابنُ الإله وروحُه ... فثلاثةٌ في واحدٍ لم تُقسَمِ

للأبِ لاهوتُ أبهِ وكذا ابنُهُ ... وكذا هما والروحُ تحتَ تَفنُّمِ

عن آدم قد قالَ صارَ كواحدٍ ... منَّا بلفظ الجمعِ من ذاكَ الفمِ

خَلَقَ البسيطةَ واحداً في جوهرٍ ... أَحدٍ لخِدمةِ آدَمَ المُستَخدَمِ

لكنْ عصاهُ بزَلَّةٍ لا تنمحي ... إلا بإرسال ابنه المُتجسِّمِ

فأتى وخلَّصهُ وخلَّصَ نسلَهُ ... ذاكَ المخلِّصُ من عَذابِ جهنَّمِ

وعن معتقده في مسألة صلب المسيح وحمله لخطاياهم، قال:

هذا مسيحُ اللهِ فادينا الذي ... صَلَبَتهُ طائفةُ اليهودِ كمُجرِمِ

بطبيعةٍ بَشَرِيّةٍ قد أُلّمَتْ ... وطبيعةُ اللهوتِ لم تتألّمِ

حَمَلَ الجِرَاحَ بنفسهِ مُتعمِّداً ... حتى تكونَ لجُرْحِنا كالمرهمِ

قد كانَ منهُ طَوعاً وَهْوَ قد ... وافَى لهُ يفَدِي بِهِ الدَّمَ بالدَّم[1].

..الخ ما قال عن معتقده النصراني في الإنجيل وصدقه، وعدد طوائف النصارى. وبيان فضائل النصرانية.

---

١) ديوان الشيخ ناصيف اليازجي (النبذة الثالثة وهي المعروفة (بثالث القمرين)-٧٧-٨١-المطبعة الأدبية-بيروت-سنة ١٩٠٣.

تلقى ناصيف اليازجي بواكير علمه عن طريق القساوسة في الأديرة، حيث كانت وسائل التعليم إذ ذاك محصورة في جماعة الأكليروس، فتلقى القراءة البسيطة على يدي القس متّي من قرية بيت شباب.. ولما لم تكن الكتب ميسورة في ذلك العهد لقلة المطبوع منها، إذ لم يكن في البلاد السورية ولا المصرية إلا مطابع نادرة وقلما كانت تشتغل بطبع الكتب العلمية. كان جلُّ اطلاع اليازجي كتب يستعيرها من بعض الأديرة والمكاتب القديمة، فمنها ما يقرؤه مرة فيحفظ زبدته ومنها ما ينسخه بخطه(1).

ويعتبر ناصيف اليازجي ممن درس مستقلاً بذاته(2). وساعده في تحصيل العلم والده عبدالله الذي كان طبيباً على نهج ابن سينا، فَعَهِد بتأديب ناصيف إلى أحد القسس فتلقى عليه مبادئ القراءة والكتابة. ..فنال حظاً وافراً من فنون الآداب(3).

ولمكانته اللغوية راسله كبار العلماء من مستشرقين ووطنيين في البلاد العربية ومدحوه بقصائد رائعة ومقالات شائقة عارفين مترلته العلمية(4).

وقد اقتصر في تلقيه للعلوم على تعلم اللغة العربية وآدابها، فمما يذكره القوميون عنه أنْ أصبحت اللغة العربية هي غرامه الوحيد في حياته الفكرية.. وكانت هي اللغة الوحيدة التي يعرفها، ومات دون أن يتعلم غيرها(5) ولعلُوِّ مكانته في اللغة أصبح أحد أركان النهضة اللغوية في بلاد الشام(6).

---

1) تراجم مشاهير الشرق-جرجي زيدان-٢/١٦.

2) بشير بين السلطان والعزيز (١٨٠٤-١٨٤١)-أسعد رستم-٢٣٤.

3) أعيان البيان-حسن السندوبي-٦٠.

4) المشايخ اليازجيين عيسى اسكندر معلوف-١١-المطبعة المخلصية-لبنان-الطبعة الثانية-١٩٤٥.

وانظر: أعيان البيان-حسن السندوبي-٦٠.

5) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١١.

6) تراجم مشاهير الشرق-جرجي زيدان-٢/١٦.

كانت بدايات بروز ناصيف اليازجي -كما يقول عنه مؤرخو نصارى العرب- وهو في السادسة عشرة من عمره بما كان ينظمه من قصائد.. وصل خبره إلى بطريارك الروم الملكيين الكاثوليك، فدعاه ليكتب له في دير (القرقفة) الواقع على هضبة من هضبات كفر شيما[1]، وكان ذلك سنة ١٨١٦(١٢٣١هـ). فلبث ناصيف بهذه الوظيفة مدة سنتين حتى نقل البطريارك إقامته إلى الزوق[2].

وقد يعتبر من المؤثرات الفكرية على حياة ناصيف اليازجي مكوثُه في ديوان الأمير بشير الشهابي[3]، حيث بلغت شهرة ناصيف الأمير بشير حاكمَ لبنان فتخذه من كتاب ديوانه بتدين من ١٨٢٨(١٢٤٣هـ) إلى ١٨٤٠م (١٢٥٥هـ).

فلما زار الشاعر الفرنسي دي لامرتين -الذي يعتبر من مشاهير الشعراء الفرنسيين، وزعيم الحركة الرومنطيقية- الأمير بشير في (بتدين) جالسَ الشيخ ناصيف وكتب عنه في رحلته[4] في كتابه رحلة الشرق[5].

ويصف اليازجي دولة بشير الشهابي، بأن لها آثار حسنة في البلاد.. فهم الذين مهّدوا البلاد وذللوا صعابها وكسروا عادية المردة والعصاة من أهلها، وقطعوا العداوات والفتن التي مرت عليها دول شتى وهي منتشرة بين الناس[6].

---

١) ناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-١١.

٢) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-٨٦/١.

٣) بشير بن قاسم بن عمر الشهابي، أكبر الأمراء الشهابيين النصارى، وكان لهم شأن في لبنان ولد سنة ١١٧٣هـ، واتصل بأحمد الجزار وتولى إمارة لبنان، وناصر إبراهيم باشا ضد الدولة العثمانية، نفي إلى مالطه، وطلب العودة إلى الأستانة ومات فيها سنة ١٢٦٦هـ. انظر:(الإعلام-الزركلي-٥٧/٢).

٤) المشايخ اليازجيين- عيسى معلوف-١٠. وانظر:دائرة المعارف الماسونية-حنا ابى راشد-٦٠٠/١.

٥) الرحالة الفرنسيون في موطن الرز-أميرة حبر-١٣-مؤسسة خليفة-البوشرية-الطبعة الأولى-١٩٩٣.

٦) مجلة الهلال-الجزء الأول من السنة الثالثة عشرة-٢١رحب سنة ١٣٢٢-ص:٥٢١. مقال بعنوان (جبل لبنان). وانظر عن نسبة هذا المقال لليازجي: الآداب العربية في القرن التاسع عشر - لويس شيخو اليسوعي -٣١/٢.المشايخ اليازجيين-عيسى اسكندر معلوف-١٧.

أمضى ناصيف اليازجي في الديوان الأميري اثني عشر عاماً في خدمة بشير الشهابي، وفي عام (١٢٥٦هـ ـ ١٨٤٠م) نُزِعَت حكومةُ لبنان من يد الأمير ونُفيَ إلى مالطة ردحاً من الزمن، ثم جاءه أمر سلطاني يسمح له بالإقامة في أي مكان في المملكة عدا سورية [١].

وسبب نزع السلطة من يد الأمير يشير، أنّ الأمير بشير اتفق مع إبراهيم باشا[٢]، قائد جيوش والده محمد علي باشا بالانفصال عن الدولة العثمانية، وذلك سنة ١٢٤٧هـ (١٨٣١م) [٣].

ولما في حركة إبراهيم باشا من تأييد لمطلب الجمعيات القومية، وهو الانفصال عن الدولة العثمانية، فقد علق أعضاء الجمعيات على هذه الحركة آمالاً، وهكذا تتكرر حركة مصر الهادفة إلى سلخ مصر والشام عن الدولة العثمانية وإقامة دولة مستقلة متحدة جديدة[٤]. واعتبر أعضاء الجمعيات إبراهيم باشا باذلاً أقصى الجهد في نشر أفكاره عن نهوض العرب نهضة قومية، وكان يحاول أن يقنع سكان البلاد بأن فجر عهد جديد أشرق عليهم بتولي محمد علي الحكم، واستطاع في زمن لم يتجاوز عاماً، أن يقيم نظاماً جديداً يعتمد على المساواة في الحقوق الدينية والمدنية..[٥].

كما وقد اهتم بشير الشهابي بالحملة الفرنسية التي جاءت إلى مصر وأرسل أحد مستشاريه ليشاهد عن كثب، مجرى الأحوال، وليرسل تقريراً عن تلك الحملة وما رافقها[٦].

---

١) أعيان البيان-حسن السندوبي-٦٠. وانظر: العرب والعروبة-محمد عزة دروزة-٢/٢١٦.

٢) إبراهيم باشا-بيير كربتيس-ترجمة :محمد بدران-لجنة التأليف والترجمة-١٩٣٧.

٣) العرب والعروبة-محمد عزة دروزة-٢/٢٠٩

٤) المصدر السابق-٢/٢٠٩.

٥) يقظة العرب-جورج انطونيوس-٩١.

٦) لبنانيات-نقولا زيادة-١٠٦.

لقد كانت هذه الأحداث والأفكار، في حكم الأمير بشير الشهابي، واليازجي من رجال الدولة، ومن المقربين في ديوانه.

ولكن بعد فشل حملة إبراهيم باشا، والقضاء على حكم الشهابي والقبض عليه، اتجه ناصيف اليازجي إلى بيروت وأقام بها مع ذويه، وعكف على المطالعة والتدريس، وتأليف الكتب للناشئين ونظم الأشعار، ومراسلة الأدباء في الأقطار، فذاع صيته، وعلت مكانته، فكان نجعة أهل الأدب وشرعة أولى الفضل[١].

وقد أصيب ناصيف اليازجي في عام ١٨٦٩(١٢٨٥هـ)، بمرض عضال فانفلج فالجا نصفيا عطل نصفه الأيسر، ثم أصابته سكتة دماغية فتوفي فجأة بتاريخ ٨ شباط ١٨٧١م (١٢٨٧هـ) في منزله الكائن في زقاق البلاط بالقرب من (المدرسة الوطنية).. فجرى لمشهده احتفال عظيم جدا اشترك فيه العلماء والكبراء والتجار وتلامذة المدارس وجم غفير من الناس من النصارى والمسلمين واليهود..[٢].

ونشرت بعض الصحف أقوالا في رثائه، فمما قالوا: (إن الشيخ ناصيف اليازجي أشهر شعراء العرب في هذا العصر، قد توفي في بيروت عن إحدى وسبعين سنة... وقد مدحت تآليفه في المدرسة العربية في بلاد جرمانيا، وترجم منها شيء إلى اللغة الجرمانية، وبالحقيقة فإن الآداب العربية قد تكبدت بفقدانه خسارة عظيمة لا تعوض، وقد ترك مؤلفات عديدة في كافة الفنون العربية تخلد له ذكرا مؤبدا، وقد تأسف عليه جميع أهل الأدب من أبناء وطن وأجانب[٣] .

---

١) أعيان البيان-حسن السندوبي-٦٠.

٢) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-٨٨/١.

٣) المشايخ اليازجيين عيسى اسكندر معلوف-٤٢. وانظر: مجلة النجاح البيروتية-وقد نشرت ترجمة الرثاء في المجلد ٢- الجزء ٣٧-تاريخ ٢٢ أيار سنة ١٨٧١ الصفحة ٥٨٦ .

وقد رثاه ابنه إبراهيم اليازجي قائلا:

فخر النصارى صاحب الغرر التي		ضربت على ذكرى البديع وأحمدا

هذا عماد العلم مال به القضـــا		فأمـــال ركنا للعـــلوم مشيدا[1].

ب- أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية:

يتجلى الدور الذي أداه اليازجي في قضية تأسيس الجمعيات القومية عبر مـــا كتبه في مؤلفاته وما قاله فيه غيره في الأمور التالية:-

١. اعتبار مكانته العلمية: بلغ من كل علم من علوم العربيـــة لبابــه ودرس أشهر مصنفاته، وله في جميعها تآليف مشهورة، هي اليوم عمدة التدريس في أكثر المدارس المسيحية، وله ثلاثة دواوين شعرية تعد من عيون الشعر وكثير منها، محفوظ على الألسنة ولا سيما الأبيات الحكمية منها وهي في شـــعره أكثر من أن تحصى، وله المقامات المشهورة باسم مجمع البحرين[2].

وقد اعتبر أعضاء الجمعيات القومية اليازجي شاعر القرن التاسع عشر وهـــو مطلع النهضة الحديثة وعلما من أعلام البيان، وسيدا من سادة العلـــم وأركـــان النهضة العلمية في لبنان [3].

وأقبل أكابر الشعراء من جميع الأنحاء العربية على مراسلته ومدحوه بمـــا دل على وفور فضله وعلو كعبه في الشعر والأدب[4] .

١) رسائل اليازجي-إبراهيم اليازجي-١٠٢-مطبعة اليوسفية-مصر-١٩٢٠.

٢) تراجم مشاهير الشرق-جرجي زيدان-١٦/٢.

٣) ناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-٣٠و٣٦.

٤) تراجم مشاهير الشرق-جرجي زيدان- ٢٠/٢

ولهذه المكانة العلمية التي وُصف بها اليازجي سعى إليه السعاة، وتخرج على يديه الشباب، ولا سيما طلبته الذين أخذوا عنه العلم في مختلف المعاهد والمدارس التي علم فيها، فخلّف بذلك أجيالاً من المتعلمين المثقفين كانوا نواة النهضة التي آتت أكلها في الأجيال التي تلت جيله... وأصبحت كتبه منهل الورّاد يغترفون منها زلال الأدب ومعين العلوم، فما من أديب ولا متأدب في عصره وبعد عصره إلا واستقى من ذلك النبع الفياض[1].

وقد طُبع ما دار بينه وبين أكابر الشعراء من العراق ومصر وغيرهما في ديوان مخصوص عنوانه (فاكهة الندماء في مراسلات الأدباء)[2]، وعندما اطلع عليه أحد تلامذته، قال: قد عُنيت باستقصائها فوجدت شيئاً كثيراً من تلك الرسائل -نثرية وشعرية- قد أُغفِلَت في الطبع فجمعتها عندي[3].

٢. التعليم والتدريس: قال عنه أعضاء الجمعيات القومية، بعد عودته من خدمة الشهابي: مكث في بيروت وتفرغ للمطالعة والتأليف والتعليم ومراسلة معاصريه من الشعراء. وتخرج عليه طبقة من الأدباء، نبغ كثيرون منهم في العلم أو التجارة أو السياسة أو غيرها، وكان حجة في اللغة والأدب وكثير من أشعاره جرى مَجْرى الأمثال لشيوع مؤلفاته بين أيدي الطلاب ولا سيما في سوريا[4].

ومن تلك المدارس التي أقام بها منقطعاً للمطالعة والتأليف والتدريس، (المدرسة البطريكية) للروم الكاثوليك سنة ١٨٦٤(١٢٨٠هـ) ثم (المدرسة

---

١) ناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-١٨.

٢) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-٨٦/١.

٣) الشيخ ناصيف اليازجي -عيسى سابا-٢٢. والمحقق هو : سليم دياب الطرابلسي. وهو تلميذ ناصيف اليازجي، وكان طبيباً وكان ممن عالج ناصيف اليازجي-انظر: تاريخ مشايخ اليازجيين -٤٦.

٤) تاريخ آداب اللغة-جرجي زيدان-٢٣٤/٤.

الوطنية) للبستاني، وكذلك (المدرسة الكلية) للأمريكان[1]. وهي التي تُسمّى الجامعة الأمريكية، فدرس فيها اللغة العربية وآدابها، وكان في جملة طلابه الدكتوران يعقوب صروف وفارس نمر -وهما من أعضاء الجمعيات القومية العربية-وغيرهما[2].

وقد اتفق اليازجي مع البستاني في العمل مع المدارس التنصيرية الأمريكية، فأخذ اليازجي في بيروت يحترف التعليم في مدارس الأمريكان، ويصحح الكتب في مطبعتهم.. وانقطع إلى المطالعة والتعليم، فكان بيته مباءة العلماء، ومرجع الفتاوى الأدبية، وعكاظ المحاضرات العلمية والمطارحات اللغوية[3]. كما قام اليازجي بتعليم اللغة العربية للمنصرين الأمريكان ومنهم الدكتور فانديك[4].

ويعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن تدريسَ اليازجي وغيره من العرب في مدارس الحملات التنصيرية، فيه خروجٌ للعلم والأدب في بلاد الشام من نطاق البيئات الدينية إلى صفوف الشعب، وأصبح يشمل المرأة مربية الجيل الجديد، كما يشمل الرجل[5].

٣. تأليف الكتب : يعتبر أعضاء الجمعيات القومية أن اليازجي هو أول نصراني راجت كتبه اللغوية في المدارس العربية.. وهو بشهادة أبناء جيله، (كان من نوادر الدهر وأفراد رجال العصر الذين باهت بهم الأيام ونُشرت مآثرهم بأسنة الأقلام)[6].

---

١) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-٨٦/١. وانظر: المشايخ اليازجيين- عيسى معلوف-١١.

٢) ناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-١٢.

٣) المصدر السابق- ١١.

٤) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-١٤٥/١.

٥) الحلقة المفقودة في تاريخ العرب-محمد جميل بيهم-٢١٣/١.

٦) ناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-٣٠و٣٦.

وكانت الغاية من الكتب التي ألفها في النحو والمنطق والبلاغة والعروض أن تدرس في المدارس، ولا سيما مدارس البعثة التبشيرية الأمريكية، وكانت تهدف إلى ما تهدف إليه الحركات والجمعيات التنصيرية، فلم يكل اليازجي قط عن دعوته إلى إحياء الأدب القديم، حتى نجح في إقناع عدد كبير من طلاب العلم بأن ذلك هو السبيل الوحيدة للنجاة.. وكانت دعوته تثير انتباه الناس على اختلاف عقائدهم (النصارى والمسلمين)، وكان يهيب فيهم .. أن يذكروا تراثهم المشترك وأن يشيدوا على أسسه مستقبلا إخوانا متآلفين[1].

ويرى مؤرخو نصارى العرب أن تأليف اليازجي للكتب اللغوية أراد منه كعالم مسيحي أن يضع لأبناء أمته مؤلفات على طراز المؤلفات الإسلامية التي وضعها علماؤهم، فشرع في وضع أرجوزتين في الصرف والنحو ونسج على غرار المقامات البديعية والحريرية، وزاد عليها كثيرا من التفننات في الشعر والنثر، وشرحها بقلمه فتضاعفت فائدتها لما أظهره في الشرح من أخبار العرب وأمثالها وعاداتها وأخلاقها، وقد ألف اليازجي في جميع فنون اللغة العربية ما عدا الفقه، ووضع أطول المؤلفات وأخصرها في أكثر القواعد اللسانية[2].

ومن تلك الكتب التي ألفها اليازجي:-

أ) كتاب لمحة الطرف في أصول الصرف: أرجوزة في سبع عشرة صفحة، مشروحة بقلمه، ألفها سنة ١٨٥٤(١٢٧٠هـ) مقتصرا فيها على ما تهم معرفته من هذا العلم. طبعت في المطبعة المخلصية للروم الكاثوليك ببيروت سنة ١٨٧٠.

ب) كتاب طوق الحمامة: وهو مختصر نثري يقع في عشرين صفحة صغيرة طبع في المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٥.

---

١) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١١.

٢) المشايخ اليازجيين عيسى اسكندر معلوف-١٢-١٣.

ج) كتاب نار القرى في شرح جوف الفرا: أرجوزة مستفيضة في الأبحاث النحوية، ضم إليها ما تفرق في كتب أئمة النحو، خدم بها المتأدبين الآخذين بعلم العربية خدمة تذكر فتشكر.. طبع في بيروت سنة ١٨٦٣[١].

د) كتاب مجمع البحرين: وهو من أشهر تآليفه وأعظمها..وهي ستون مقامة ضمنها من بلاغة الإنشاء والفوائد اللغوية والعلمية وتواريخ العرب وأمثالهم ما دل على غزارة محفوظة وقوة عارضته في النظم والنثر[٢]، كما تحتوي على هزل القول وجده، أودعها فنونا من الآداب، وصنوفا من بديع الإنشاء، وسائر الأمثال..وهي مشهورة متداولة بين أيدي المتأدبين، وطبعت مرارا[٣].

هـ) كتاب مختارات اللغة: يذكر من ترجم لليازجي أن له كتابا في خزانة دير الشرفة في لبنان للسريان الكاثوليك بهذا العنوان، وصف في برنامج المكتبة المطبوع في الصفحة ٤٤٨ بما نصه: مؤلف هذا الكتاب أشهر من أن يوصف وكتابه هذا يدل على تضلعه من العربية وهو من التصانيف المستحقة باعتبار اللغويين[٤].

و) ديوان شعر: في ثلاث نبذ لطيفة الحجم، دعاها: النبذة الأولى، ونفحة الريحان، وثالث القمرين، فيه جيد الشعر ما لا تكاد تجد بعضه في أكثر شعر من عاصره[٥] كما قال عنه المترجمون.

ز) كتب مدرسية: يرى أعضاء الجمعيات القومية العربية أن اليازجي هو أول من راجت كتبه اللغوية في المدارس العربية[٦]، وهذه الكتب تختلف فنونها

١) ناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-٢٠.

٢) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-٨٤/١.

٣) أعيان البيان-حسن السندوبي-٦٢.وانظر: الشيخ ناصيف اليازجي-عيسى سابا-١٢.

٤) المشايخ اليازجيين عيسى اسكندر معلوف-١١.

٥) أعيان البيان-حسن السندوبي-٦٢.

٦) تاريخ آداب اللغة العربية-جرجي زيدان-٢٣٤/٤ .

ما بين منظوم ومنثور في النحو والصرف والبيان والعروض وجلها مطبوع متداول[1]. ومنها: (كتاب مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد)، و (كتاب فصل الخطاب في اللغة والإعراب).

وقد قيل عن أثر هذه الكتب المدرسية: إن اليازجي بعث بها نهضة أدبية عندما اختصر القواعد العربية بكتب تدريسية، لم يتكلف في عبارتها[2]، ولذا أصبحت هذه الكتب عمدة التدريس في أكثر المدارس السورية وبعض المدارس المصرية[3].

هذه بعض الكتب العلمية التي كتبها اليازجي، وذكرها المترجمون في سيرته وهي تعد من أعظم الخدمات العلمية التي قدمها للحملات التنصيرية.

٤. تأسيس الجمعيات: لقد سبقت الإشارة إلى دور اليازجي مع الحملة التنصيرية، ومشاركته لهم في التدريس، وأما عن دوره في تأسيس الجمعيات القومية، فيعتبر اليازجي العضو العامل القوي الذي أيد الدكتور إيلي سميث في إنشاء الجمعية السورية سنة ١٨٤٧م، ويُرجع بعض الكتاب فكرة تأسيس الجمعية السورية إلى اليازجي[4].

وبعد أن تولى اليازجي تعليم المنصرين للغة العربية أصبح خطيباً، ويلقي القصائد الأدبية في الجمعية السورية، التي تعتبر جمعية علمية أدبية عقدت ثلاثاً وخمسين جلسة قانونية، وأكثر من عشرين جلسة عمومية.

---

١) أعيان البيان-حسن السندوبي-٦٢.

٢) الشيخ ناصيف اليازجي-عيسى سابا-٢٤. وانظر عن كتبه:

١-تاريخ آداب اللغة-جرجي زيدان-٤/٢٣٤

٢-تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-١/٨٤.

٣) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-١/٨٤.

٤) انظر: ١-تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-١/٨٥. ويقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٦.وناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-١٢.

ومن خطب اليازجي في هذه الجمعية خطابه (في علوم العرب ضمنه بحثاً مفصلاً في أدوار ترقي اللغة العربية وآدابها، كما ألقى في الجمعية مقامته (العقيقة) التي طبعت في مجمع البحرين[1].

ومن خطبه: (كان الملوك ومن يليهم يعرفون كثيراً من العلوم ويتمكنون منها. ولذلك كانوا يُعْنون بشأن العلم والعلماء، ويعرفون حقهم. وكانوا يقيمون مدارس في علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعاً، ويغمرون المشايخ والطلبة بالعطايا) [2].

ومن صور تقديم المساعدات الأدبية للمنصرين، والمساهمة في نشر المعتقدات النصرانية، مساعدة اليازجي للمنصرين في ترجمة (الكتاب المقدس): ونظمَ لهم المزامير وبعض الأغاني الدينية..وصحح مطبوعات المطبعة المخلصية الخاصة بهم، في بيروت[3].

---

١) المشايخ اليازجيين عيسى اسكندر معلوف-٤٢.

٢) أعيان البيان-حسن السندوبي-٦٦.

٣) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-١/٨٥.

ثالثا: طاهر الجزائري:

أ- تعريف موجز بالشخصية الذاتية:

هو طاهر بن صالح[1] بن أحمد بن موهوب الجزائري، ولد بدمشق سنة ١٢٦٨هـ، ودعاه والده بـ(الطاهر)[2]، وكان قد هاجر والده من الجزائر إلى دمشق في سنة ١٢٦٣هـ، وكان من بيت علم وشرف، وتولى بدمشق قضاء المالكية[3].وصار الشيخ صالح مفتي المالكية للجزائريين في دمشق، واشتهر بمعارفه وأخلاقه، وتوفي سنة (١٢٨٥هـ -١٨٦٨م) عن ستين سنة وترك أولادا اشتهر منهم المترجم له، وابن شقيقه سليم الجزائري، الذي له في تهذيبه اليد الطولى[4].

وقد بذل والده المرحوم عنايته بتعليمه في بعض المكاتب البسيطة ومكتب الرشدية، الذي نال فيه شهادته ودرس عليه بعض العلوم وعلى الشيخ عبدالغني الميداني[5]..فنبغ في العربية وآدابها[6]وتلقى العلوم الطبيعية والرياضية من علمائها كنوابغ خريجي المدرسة الحربية [7].

---

١) انظر ترجمته في الإعلام-الزركلي-٣/١٨٩.

٢) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٩-دار الفكر-سورية-دمشق-١٤٠٤هـ.

٣) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٦٨. وانظر: تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-١٣٩.

٤) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-بتاريخ١١/٦/ ١٣٢٨-المقال عيسى اسكندر المعلوف-ص:٤٥١.

٥) عبدالغني بن طالب بن حماده الغنيمي الشهير بالميداني نسبة إلى محلة الميدان بدمشق، ولد بدمشق سنة ١٢٢٢هـ وأخذ عن فضلائها كإمام المحدثين عبدالرحمن الكزبري والفقيه الشهير محمد أمين عابدين والشيخ حسن البيطار، وكان جل انتفاعه منه أشتهر بالفقه الحنفي، وتفوق به وصنف مصنفات حسنة ورسائل كثيرة وتوفي سنة ١٢٩٨هـ.انظر:(الإعلام-الزركلي-٤/٣٣).

٦) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-بتاريخ١١/٦/ ١٣٢٨-المقال عيسى اسكندر المعلوف-ص:٤٥١.

٧) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٧٣.

ويتحدث تلامذة الشيخ طاهر عن المراحل التعليمية الأولى من حياته بأنه التحق بالمدرسة الجمقمقية الاستعدادية• فتخرج منها، بعد أن تطبع بطباع علمائها ومن أبرزها الرجوع بالشريعة إلى أصولها، والأخذ من آدابها، ومحاربة الخرافات التي استمرأتها طبقات المتأخرين، و إنقاذ الدين من المبتدعين والوضاعين[١].

وقد نزعت نفسه إلى جمع الكتب منذ كانت سنه سبع سنوات[٢]، ومنذ أن كان في المدرسة الابتدائية أخذ يبتاع (يشتري) الدشوت والرسائل المخطوطة من دريهمات كان يرضخ بها له والده لخرجه... وكان كلما أحرز الشيخ شيئا من الأوراق والأسفار طالعه بإمعان وخبأه وحرص عليه، واجتمعت له بطول الزمن خزانة مهمة من الأسفار بلغت بضعة آلاف مجلد فيها كثير من النوادر المخطوطة[٣]، واستمرت معه الرغبة في جمع المخطوطات والكتب النادرة إلى آخر حياته [٤].

مات والده وهو لما يبلغ الثامنة عشرة من عمره، فاعتمد على نفسه في المطالعة والتنقيب والمراجعة والتحقيق، وتفقد المكاتب والوقوف على نفائسها فتمكنت فيه ملكة التأليف وجمع الكتب النادرة والمخطوطات النفيسة، فوفق إلى إحراز كثير منها في دمشق، وفي أسفاره، فصار مرجعا في فن وصف المخطوطات، ومعرفة مظانها والمفيد منها[٥].

• مدرسة قديمة تقع قرب الباب الشمالي للمسجد الأموي بدمشق وفي الشرق من ضريح صلاح الدين الأيوبين جدد بناءها سيف الدين جمقمق الذي تولى نيابة دمشق سنة ٨٢٢ هـ فنسبت إليه. انظر: أشهر الأمثال-طاهر الجزائري-(مقدمة الكتاب-مازن المبارك)-٩-دار الفكر المعاصر-بيروت-لبنان-الطبعة الأولى-١٤١٥هـ.

١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٩.

٢) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-بتاريخ١١/٦/ ١٣٢٨-المقال: لعيسى اسكندر المعلوف-ص:-٤٥١.

٣) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١(بتصرف).

٤) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-بتاريخ١١/٦/ ١٣٢٨.

٥) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-بتاريخ١١/٦/ ١٣٢٨-المقال عيسى اسكندر المعلوف-ص:٤٥٢.

ولما وصِفَ به الشيخ طاهر من اتساع الصدر لجميع علوم المدنية الحديثة[1]، فقد درس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية، أخذها عن علماء من الترك وغيرهم.. و لم يبلغ الثلاثين من عمره حتى أتقن العربية والفارسية والتركية.. وتعلم الفرنسية والسريانية والعبرانية.. [2]وحذق اللهجة الليبية وهي لهجة قبائل الجزائر المغربية[3].

وقرأ جميع ما طالت يده إليه من الكتب العربية التي طبعت في الشرق والغرب، أما المخطوطات التي طالعها ولخصها فتعد بالمئات[4]. ومما ساعده على التحصيل العلمي، قوة حافظته التي لا تكاد تَنْسى ما تَمُرّ بِه مهما طال العهد[5].

ولشدة شغف الشيخ بتحصيل العلم فقد كتب عنه طلابه بأنه لم يتزوج، بحجة ألا يشغل ذهنه بزَوْجٍ وأولاد، وليكون أبداً مطلق العنان يسيح في الأرض متى أراد[6]، مع علمه أن لا رهبانية في الإسلام، وكذلك إرضاءً لوالدته[7]ولعلمه أن للزوجة حقوقاً شرعية يجب أداؤها واستغرق أوقاته في العلم والسياحة[8].

و لم يكن الشيخ قد تجاوز الثانية والعشرين من سني حياته يوم تولى أولى وظائفه في الدولة، حين عُيّن معلماً في المدرسة الظاهرية الابتدائية بدمشق سنة ١٢٩٤هـ[9].

---

١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٢.

٢) المصدر السابق-١(بتصرف).

٣) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-بتاريخ١١/٦/ ١٣٢٨-ص:٤٥١.

٤) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٥.

٥) مجلة المجمع العلمي العربي-المجلد ١- الجزء ١٠-بتاريخ٢١/٤/١٣٣٩-ص:١٩ مقال :محمد كرد علي.

٦) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٨.

٧) مجلة المقتطف-الجزء الرابع- المجلد٢٦ بتاريخ ١٢/٧/١٣٣٨ الموافق ١٩٢٠-ص:٣٠٣.

٨) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-١٣٧.

٩) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-٩٤.

ويبين منهج الشيخ طاهر في دعوة الناس، ما ذكره طلابه عنه، بأنه لم يحد عن الخطة التي اختطها لنفسه منذ نعومة أظفاره، ودعا الناس إلى انتهاجها حتى آخر أيامه، وخطته الإخلاص والعمل على النهوض بالأمة عن طريق العلم وبث الملكات الصحيحة في أهل الإسلام، وثورته ثورة فكرية لا مادية، ويقول إن هذه الطريق يطول أمرها، ولكن يؤمن فيها العثار، والسلامة محققة ثابتة، وكان يبذل جهده لتعم دعوته أهل الحضر والبادية، والأغنياء والفقراء[1].

وتنفيذاً لهذا المنهج فقد عقد الشيخ صلات مستديمة مع علماء عصره.. ومنهم صديقه العالم المجري غولد صهير اليهودي[2]، الذي ترجم إلى الألمانية كتاب (توجيه النظر إلى علم الأثر) لأستاذه طاهر الجزائري، وقد أرسل غولد صهير إلى طاهر الجزائري هذه الرسالة: سلام على صاحب الشرف الباذخ، والفضل الشامخ، من هو المرجع للأماثل والأفاضل، الحاوي لأقصى معارج الفضائل والفواصل، العالم العلامة الشيخ طاهر .. أرجو أن لا ينمحي من قلبكم خيالُ صاحبكم المجري الذي كان يستجير بشامكم في سنة ١٢٩٠هـ مقتبساً من أنوار علمائها، .. وصاحبكم يوماً فيوماً مستأنساً بمجاورتكم ومذاكرتكم، وكنا إذ ذاك في عنفوان شبابنا متبحرين في العلوم الشريفة، مستغرقين في بحور الآداب الظريفة.. حرر في ٥ ذي الحجة سنة ١٣١٧هـ(٥/٤/١٩٠٠م)[3].

ويبرر طلاب الشيخ طاهر علاقةَ الشيخ بالمستشرقين بأنها باعثة على تخفيف حملاتهم على الإسلام ولو قليلاً، وهذا مما كان يهتم له، ثم يهمه من أمر

١)كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٤.

٢) إجناس كولد صهر ويلفظ بالألمانية جو لدتسيهر، مستشرق يهودي مجري، ولد بألمانيا سنة ١٢٦٦هـ رحل إلى سورية سنة ١٢٨٩هـ وتنقل في البلاد الإسلامية ولازمه مجموعة من القوميين، فتن طائفة كبيرة من المسلمين بأفكاره نحو السنة النبوية والفقه الإسلامي. توفي سنة ١٣٤٠هـ بألمانيا. انظر: (المعاصرون-محمد كرد علي-١٣٢).

٣) مجلة الأزهر-مجلد ٢٥-محرم ١٣٧٣-الجزء الثاني: ص:١٧٣-١٧٤.

المستعربين من المستشرقين توفرهم على خدمة آدابنا، بنشر كتبنا النفيسة، وكان يعاونهم فيما هم بسبيله إذا استرشدوه، ويفتيهم راضيا مختارا إذا استفتوه، فيما يتعذر وقوفهم عليه[1].

وقد صنف الشيخ طاهر كتابا في العقيدة، على طريقة السؤال والجواب، ويمكن أن تستخلص من الكتاب عقيدته، فمما قال: مذهب السلف أرجح لأنه أسلم وأحكم، وأما مذهب الخلف فإنما يسوغ الأخذ به عند الضرورة..[2].

وبين معتقده من صفات الله سبحانه وتعالى، بقوله عن صفة الاستواء: المراد بالاستواء : استواء يليق بجلال الرحمن جل وعلا، فالاستواء معلوم والكيف مجهول، واستواؤه على العرش ليس كاستواء الإنسان على السفينة أو ظهر الدابة أو السرير مثلا، فمن تصور مثل ذلك فهو ممن غلب عليه الوهم لأنه شبه الخالق بالمخلوقات مع أنه قد ثبت في العقل والنقل أنه ليس كمثله شيء، فكما أن ذاته لا تشابه ذات شيء من المخلوقات كذلك لا ينسب إليه سبحانه ما يشابه شيئا مما ينسب إليها[3].

وبنفس المعتقد فسر العين واليد .. الخ من الصفات ثم قال: ينسب هذا المعنى إلى جمهور السلف، وأما الخلف فأكثرهم يفسرون الاستواء بالاستيلاء، واليد بالنعمة أو القدرة، والأعين بالحفظ والرعاية، وذلك لتوهم كثير منهم أنها إن لم تؤول وتصرف عن ظاهرها أوهمت التشبيه[4].

---

١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٨.

٢) الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية-الجزائري-٢٧-دار ابن حزم-بيروت-الطبعة الأولى-١٤٠٧هـ.

٣) المصدر السابق-٢٣.

٤) الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية-الجزائري-٢٥.

ثم بين معتقده في الكتب السماوية، ومما قال عن الإنجيل: إن الإنجيل المتداول الآن له أربع نسخ ألفها أربعة؛ بعضهم لم ير المسيح عليه السلام أصلا، وهم متى ومرقص ولوقا ويوحنا؛ وإنجيل كل واحد من هؤلاء مناقض للآخر في كثير من المطالب..

وقال عن القرآن: أشرف كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى على أشرف أنبيائه محمد، وهو آخر الكتب الإلهية نزولا، وهو ناسخ لجميع الكتب قبله وحكمه باق إلى يوم القيامة[1].

وعن ختم الرسالة بنبينا محمد قال: إن حكم إرسال الأنبياء لدعوة الخلق إلى عبادة الحق، وإرشادهم إلى طريق السداد في أمور المعاش والمعاد، وإعلامهم بالأمور الغائبة عن أبصارهم، والأحوال التي لا يصلون إليها بأفكارهم، وتقرير الأدلة القاطعة، وإزالة الشبه الباطلة، وقد تكفلت شريعته الغراء ببيان جميع هذه الأشياء على وجه لا يتصور أبلغ منه في الكمال، بحيث توافق جميع الأمم في جميع الأزمنة والأمكنة والأحوال، فلا حاجة للخلق إلى نبي بعده، لأن الكمال قد بلغ حده[2].

وبهذا الإيضاح يتبين أن معتقد الجزائري فيما ذكره، موافق لعقيدة أهل السنة والجماعة، وإنما الأخذ بمنهج الخلف فهو مرفوض عند السلف، ولا يسوغ الأخذ به لا عند الضرورة ولا غيرها؛ إذ أن طريقة السلف في بيان العقيدة هي طريقة الأنبياء والمرسلين، ولا يجوز العدول عنها إلى غيرها، فقد قال تعالى **{أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين}**[3].

١) المصدر السابق-٣٦.

٢) المصدر السابق-٥٢.

٣) سورة الأنعام -آية (٩٠).

وقد قال ابن تيمية: (كيف يجوز على الله تعالى، ثم على رسوله ﷺ، ثم على خير الأمة: أنهم يتكلمون دائماً بما هو؛ إما نص، وإما ظاهر في خلاف الحق، ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا يبوحون به قط، ولا يدلون عليه لا نصاً ولا ظاهراً، حتى يجيء أنباط الفرس والروم، وفروخ اليهود والنصارى والفلاسفة يبينون للأمة العقيدة الصحيحة، التي يجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدها)[1].

ب- أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية:

بدأت مساعي الشيخ طاهر الجزائري، في نشر المعارف والعلوم، بعد أن عُيِّن مدحت باشا والياً على ولاية سورية في سنة ١٨٧٩(١٢٩٦هـ)[2]، فأسس الجمعية الخيرية[3]، التي كان الاعتماد عليها في تأسيس المدارس، فلم تَسِرْ خطة الجمعية الخيرية بنشر العلم على الأساليب الحكومية، وإنما تجمع المال من الموسرين وتنفقها في مشاريعها.

---

١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية-٥/١٦.

٢) انظر:الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-١٠٣.

٣) جمعية المقاصد الخيرية: تأسست سنة ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٩٨، وهي جمعية إصلاحية أسست في دمشق، أيام ولاية مدحت باشا، وقد عقد عزم (بهاء بك) مكتوبي -أمين سر-ولاية سورية، بمفاوضة الشيخ طاهر، على السعي لدى مدحت باشا، لإنشاء جمعية باسم (الجمعية الخيرية) ينضم إلى أعضائها معظم الوجهاء والعلماء المشهورين بحبهم للمشاريع المفيدة. فسعت هذه الجمعية سعياً صادقاً في تأسيس المدارس للذكور والإناث وفي مقدمة الساعين الجزائري الذي تفانى في خدمة وطنه. وكان هدفها أدبياً احتماعياً في الظاهر، وسياسياً في الباطن لإعادة العمل بالدستور المعطل، وجعل الحكم شورياً، وكان اعتماد أنشطة الجمعية على ما يجمع من الموسرين في بلاد الشام.وكان رجالها على اتصال بجمعية تركية الفتاة، وقد اندمجت الجمعية الخيرية في المعارف. ويقول أعضاء الجمعيات: الجمعية الخيرية كانت مؤلفة في الظاهر من علماء دمشق وأعيانها. ومن أبرز المؤسسين:طاهر الجزائري، ورفيق العظم، وسليم البخاري، وجمال القاسمي، ومحمد كرد علي.. وغيرهم. انظر عن جمعية المقاصد الخيرية: عصر الانبعاث-محمد أسعد طلس-٥٣. والعرب والترك-توفيق برو-٣٥. والشيخ طاهر الجزائري -عدنان الخطيب-١٠٥. ومجلة الهلال-مجلد٢٨-الجزء ٥-١١/٦/١٣٢٨-ص:٤٥٢. ومجلة المقتطف-المجلد٢٦-الجزء ٤-١٢/٧/١٣٣٨-ص:٢٩٨.

وقد قال الشيخ طاهر، عن منهج الجمعية: جرت منذ أسبوعين مذاكرة سرية في طريقة ترجمة إحدى دوائر المعارف الفرنسية، فإن الناس في احتياج لذلك... وقد كان بعض الحاضرين يريد أن يجعل زمام الأمر في يد الحكومة، فطلبنا أن يكتم ذلك عنها، فإنه لا يؤمل أن تقدر عليه، فإن هذا الأمر يحتاج إلى الحكمة أكثر من احتياجه إلى الحكومة[1].

ومن خلال دراسة سيرة الشيخ طاهر الجزائري العلمية والعملية يلاحظ الباحث أن دور الشيخ طاهر الجزائري في تأسيس الجمعيات القومية العربية ينقسم إلى قسمين، القسم الأول: دوره في نشر العلوم والمعارف العامة، والقسم الثاني: دوره في تأسيس الجمعيات القومية، ونشر الفكر القومي.

القسم الأول:

أولا) تولى التعليم لأول أمره في المدرسة الظاهرية الابتدائية، ولما أسست الجمعية الخيرية من علماء دمشق وأعيانها سنة ١٢٩٤هـ دخل في عداد أعضائها وكان من أكبر العاملين فيها، ثم استحالت هذه الجمعية (ديوان معارف) فعين مفتشا عاما على المدارس الابتدائية التي أنشئت على عهد مدحت باشا والي سورية سنة ١٢٩٥هـ[2]، وتولى الشيخ طاهر هذه الوظيفة منذ سنة ١٣١٦هـ فأقام على هذا التفتيش أربع سنوات سعى فيها سعيا مشكورا في ترقيتها[3].

ثانيا) أنشأ بمعاونة بضعة أصدقاء له (دار الكتب الظاهرية) بدمشق وجمع فيها سنة ١٢٩٦هـ ما تفرق من المخطوطات العظيمة في عشر مدارس تحت قبة الملك

---

١) (طاهر الجزائري) رائد النهضة العلمية-عدنان الخطيب-١٦١. وانظر: كنوز الأجداد-كرد علي-٣٩.

٢) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١١ (بتصرف) وانظر:١-مجلة المجمع العلمي العربي-المجلد ١- الجزء ١٠-١٣٣٩/٣/٢١-ص:١٧. ٢-مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-١٣٢٨/١١-ص:٤٥٢.

٣) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-١٣٢٨/٦/١١هـ:المقال عيسى اسكندر المعلوف-ص:٤٥٢.

الظاهر بيبرس.. وأنشأ مثلها (المكتبة الخالدية)[1] في القدس نسبة للشيخ راغب الخالدي، وغيرهَا من مكاتب سورية وفلسطين، وعمل برامج لها وطبعها لتعميم فائدتها وتحويلها إلى مكاتب عامة[2].

ثالثاً) إنه مؤسس لكل المدارس الأميرية في سورية ولبنان وفلسطين زمن ولاية مدحت باشا، وولاية حمدي باشا الذي جاء بعده. وقد تمكن بدهائه أن يجعل العربية لغة التعليم إلى أن غُلب على أمره وكُفّت يدهُ وجُعل التعليم فيها بالتركية[3].

رابعاً) يقول أعضاء الجمعيات القومية: إن الشيخ طاهر الجزائري عمل بنبوغ وعبقرية على تأسيس المدارس تحت غطاء الجمعية الخيرية، ومعاونة مدحت باشا، ثم وضعِ البرامج، وتأليفِ الكتب اللازمة، وحمل الآباءِ على تعليمَ أولادهم، فقد فتح أبواب تسع مدارس للذكور جمعت في حلقاتها نحو ثمانمائة طالب، ومدرستين للإناث جمعتا نحو مائة طالبة، وكان منهجُ تعليمهم جميعاً حديثَ الأسلوب، غزيرَ الفائدة، وأسس مطبعةً لطبع الكتب المدرسية باسم الجمعية[4].

خامساً) تأليف الكتب الدراسية، قال تلاميذه: (بذل جهد المستطاع في إصلاح الكتاتيب الابتدائية والمدارس.. وصنف كثيراً من الرسائل الناجعة للمبتدئين، المختلفةِ باختلاف طبقاتهم على أسلوب مُبْتكر لم يكن معهوداً في ذلك الوقت[5] ومنها:

١.الجواهر الكلامية في العقيدة الإسلامية على طريقة السؤال والجواب.

٢.التقريب إلى أصول التعريب.

---

١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١١ (بتصرف)

٢) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-١٣٢٨/٦/١١هـ-ص:٤٥٢.

٣) الشيخ طاهر رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-٤٢.

٤) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-١٣٢٨/٦/١١هـ-ص:٤٥٢. وانظر:كنوز الأجداد-كرد علي-١١.

٥) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-١٥-الحكومة العربية السورية-١٣٣٩(١٩٢٠).

٣.توجيه النظر إلى علم الأثر.

٤.منية الأذكياء في قصص الأنبياء، عربه عن التركية.

٥.الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام، وهو في الحكمة الطبيعية.

٦.مدخل الطلاب إلى فن الحساب.

٧.إرشاد الألباء إلى طريق تعليم ألف باء: كتاب ضمنه الشيخ مباحث لغوية عن حروف الهجاء، وترتيبها ورسمها[١].

القسم الثاني:

سبق بيان دور الشيخ طاهر الجزائري في المجالات العلمية، وأما عن دوره في تأسيس الجمعيات القومية، فقد يلاحظ أن أعضاء الجمعيات القومية تمكنوا من احتواء الشيخ طاهر الجزائري، والالتفاف حوله، وذلك للأسباب التالية:

١-العلاقة الوثيقة بين الشيخ طاهر وبين مدحت باشا، الذي يعتبره أعضاء الجمعيات القومية المصلح، وأبا الأحرار، ولهذا لم تظهر مكانة الشيخ طاهر عند أعضاء الجمعيات القومية، إلا بعد وجود هذه العلاقة[٢].

يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية: عندما كان مدحت باشا واليا على الشام، برز في دمشق رجل نابغة في علمه وتفكيره، ونشاطه وإخلاصه، وهو الشيخ طاهر الجزائري[٣].

---

١) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-١٣٢٨/٦/١١هـ-ص:٤٥٢.وانظر: هداية العارفين-البغدادي-٤٣٢/١. ومعجم المطبوعات-٦٨٩/١ والإعلام-الزركلي-٢٢٢.

٢) انظر: الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-١٠٣. والمعاصرون-محمد كرد علي-٢٦٩.

٣) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٥٠.

٢-اطلاع الشيخ طاهر -كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية- على العلوم العصرية، مع تضلعه بالعلوم الشرعية، ووقوفه على أحوال الأمم السائرة القديمة والحديثة، واطلاعه على كل ما يُترجم عن مدينة الغرب وسياسته واجتماعياته، واحتكاكه بعلمائه المستشرقين، وتبادله الاستفادة بينه وبينهم، حيث كان يقتبس منهم ما ينفع المسلمين، ويقبسهم ما يثبت سماحة الإسلام ومدنيته ومجد المسلمين وتمدنهم.

كما أن كثيراً من علماء المشرقيات-المستشرقين- في الغرب كانوا يستفتونه فيما يتعلق بعلوم الشرق، وكان بينه وبينهم صداقة يراسلهم ويراسلونه على اختلاف قومياتهم، وكلهم من المعجبين به المغتبطين بصداقته ومراسلته، وقد زار بعضهم في بعض رحلاته، وزاره كثير منهم أثناء رحلاتهم إلى الشرق[١].

ومن أبرز دعوات الشيخ طاهر -كما يقول طلابه- الأخذ بالنافع من التمدن الحديث مادياً كان أو أدبياً، ونبذ الضار منه، ويدعو إلى التجدد واقتطاف ما يصلح وما أينعَ ثمرهُ من كل جديد، ويدعو إلى الارتقاء الفكري بدراسة العلوم الاجتماعية والمدنية والسياسية، ويدعو إلى تعلم لغات الأمم الحية ليتسنى فهم معنى الحياة لا للزهو والتفرنج والاندماج الأجنبي وتقليده على العمياء، ويدعو إلى الوطنية والإنسانية على شرط أن لا يُتَّجر بهما خشية انقلاب القضية إلى أَثَرةٍ وأنانية[٢].

وقد أرسل الشيخ طاهر رسالة إلى أحد تلاميذه، قال فيها: وصلني كتابكم الكريم، منبئاً بعودكم من بلاد أوربا، فسررت بذلك سروراً شديداً، كنت أتمنى

١) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٤٦-٥٠. وذكر منهم:كولير المجري الأخصائي في الملل والنحل، وهرتن الألماني أستاذ ألسنة الشرق بجامعة (بن) في المانيا، ومرغليوس وبروان الإنكليزيين، وكايرمونكلو الفرنسي من كبار علماء الآثار.

٢) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٦٥. وانظر:كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٢٨.

لكم هذه الرحلة من قديم، لما أتيقنه من الفائدة التامة العامة في ذلك، فإن الاقتباس من الأمم المترقية دليل على النباهة[1].

إن اطلاع الشيخ طاهر على العلوم العصرية، والأبحاث الغربية، كان من أبرز أسباب التفاف أعضاء الجمعيات القومية العربية حوله، قال أحدهم: ويشهد الله أنّ من أعظم العوامل تأثيراً في مروق بعض خريجي المدارس العصرية وتملصهم من الدين هو جمود أمثال هؤلاء المعلمين السطحيين.. ولو قيض الله لناشئة المسلمين أساتذة مثل الشيخ طاهر، لما خسروا، دينهم وعرّضوا بكيانهم القومي إلى خطر الانقراض والاندماج بهوية غيرهم من الشعوب[2].

ويأتي هذا السبب في عصر أصبحت فيه البلاد الإسلامية مأوى للمعتقدات النصرانية، والحملات الإستشراقية، والصراع المحتدم بين الدول الصناعية والانفجار العلمي، وانبهار أكثر المتعلمين في ذلك العصر بالعلم الحديث، ويقابل ذلك وجود خواء فكري يعيشه العالم الإسلامي، وجمود في أكثر مجالات الحياة، وإغلاق باب الاجتهاد مع وجود دواعيه[3].

ولهذا أكد أعضاء الجمعيات القومية العربية أن أبرز مناقب الشيخ طاهر نبذُ التعصب؛ وسعيه في حل قيود التقليد الأعمى وحربه للتعصب الذميم[4] ونقدُه للجمود، حتى قال معاصروه: كان كثير الحديث عن علماء دمشق وأعيانها، وكثير الإسهاب فيما كان عليه معاصروه[5].

---

١) كنوز الأجداد-كرد علي-٣٤. وانظر:(طاهر الجزائري) رائد النهضة العلمية-عدنان الخطيب-١٦١.

٢) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٤٦-٥٠. وانظر:

* القومية العربية-مصطفى الشهابي-٥٠.

٣) انظر: واقعنا المعاصر-محمد قطب-١٥٨و٣٠١.

٤) مجلة المجمع العلمي العربي-المجلد ١- الجزء١٠-١٣٣٩/٤/٢١هـ ص:١٧.

٥) مجلة المنار-مجلد٢٢-الجزء-٨-١٣٣٩/١٢/٢٩ الموافق ١٩٢١-ص:٦٣٨.

٣-الطعن في سياسة الأتراك للبلاد العربية، ومطالبته بالإصلاح، فقد وصفه طلابه ومعاصروه بأنه كان يعرف السياسةَ وما ينبغي لها وحالةَ الغرب واجتماعه، والشرق وأممه وأمراضه معرفة اختصاصي[١]، وقد صرف دقائق عمره لإنهاض الأمة باتباع طريق العلم والتهذيب[٢].

ومن أمثلة طعن الشيخ طاهر بسياسة الأتراك اعتباره الأتراكَ مستعمرين للبلاد العربية، فقد قال: (إن استيلاء الترك على أرض العرب أضرّ بها وأزال مدنيتها وغيّر أخلاقها)[٣]. وتأكيداً على نقمة الشيخ طاهر على الحكم التركي، فقد قال طلابه: هجر دمشق إلى القاهرة سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧) فراراً من ظلم العهد الحميدي وظلامه[٤].

ودام لجوء الشيخ طاهر في القاهرة فترة ما بين سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧) إلى سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠)، وظل فيها طول هذه المدة.. ولما نشر القانون الأساسي في المملكة العثمانية (١٩٠٨) رأى الشيخ بنظره الثاقب أن عهد الحرية الحقيقية بعيد، وكان لا يغتر بقوانين الترك ولا بثرثرة السياسيين، فانزوى في مصر[٥].

---

١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٢.

٢) مجلة المجمع العلمي العربي-المجلد ١- الجزء١٠-١٣٣٩/٤/٢١هـ ص:١٧.

٣) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٢٨.

٤) مجلة المجمع العلمي العربي-المجلد الأول- الجزء١٠-١٣٣٩/٤/٢١ الموافق ١٩٢١. ص:١٨. يذكر بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية سبب انتقال الشيخ طاهر إلى مصر، بأنه لقي من الحكومة الحميدية ما كان يلقاه كل حر من الإرهاق، وقد ضبطت الحكومة منزله وختمت حجرته في مدرسة عبدالله باشا العظم، وهي ملأى بالكتب والأوراق القديمة، فاستاء من هذه المعاملة وأزمع السفر إلى القطر المصري تفادياً لمثل هذه المصادمات .. فسافر سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٥) ناقلاً معه معظم مكتبته الثمينة، قاصداً القطر المصري فرحب به علماؤها واكرموا مثواه، ووجد من رجال النهضة المصرية قلوباً أجمعت على حبه وأعجبت بمواهبه وأخلاقه.انظر: مجلة المقتطف-الجزء الرابع- المجلد٢٦ بتاريخ ١٣٣٨/٧/١٢ الموافق ١٩٢٠-ص:٣٠٤. ومجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-١١/٦/ ١٣٢٨-الموافق ١٩٢٠-ص:٤٥٢

٥) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٨.

ولما أعلنت الثورة العربية في الحجاز، أبدى الشيخ طاهر ابتهاجه بها، وتمنى لها النجاح في تحقيق الأماني العربية، وعندما بلغه خبر دخول الجيش العربي دمشق وإعلان الحكم العربي فيها سنة ١٩١٨(١٣٣٦هـ) استراحت نفسه وبدا عليه السرور(١).

٤-انفتاح الشيخ طاهر على جميع معتقدي المذاهب والملل، فمن عادة الشيخ كما يقول أعضاء الجمعيات القومية من تلامذته على سبيل الإعجاب والتقدير: إن الشيخ يصحب الفرق المختلفة، مهما كان لون طريقتهم ونحلتهم، حتى الملاحدة وأرباب الطرق، ولقد كانت له صداقة أكيدة بالمطران يوسف داود السرياني(٢)-رئيس أساقفة دمشق للسريان-، يتسامران، ويتحدثان، ويتناقشان، ويثني الثناء المستطاب على صديقه المطران، وقد طالت به صحبته وعشرته.

وهكذا كان له اتصال بالأرمن واليهود، واليسوعيين الكاثوليك، والأمريكان البروتستانت، وكان يغضي عن كثير من النقد على رجال الدين من غير المسلمين، ويقول: هم أقرب الناس إلينا، يعتقدون بالله واليوم الآخر وخلود النفس، وكانت جميع الطوائف تستلطفه وتحب عشرته، على ما بينها وبينه من التخالف.. ويطلعونه من سرائرهم على ما لا يبوحون به لأقرب الناس إليهم، وكان يقول عن هذا المنهج: الحمد لله لقد سالمنا كل الفرق(٣).

٥-تأييد الشيخ طاهر الجزائري الحكومةَ البريطانية في الحرب ضد الدولة العثمانية، فقد أرسل رسالة إلى صديقته المستشرقة (المس بل) أمينة سر حاكم

---

١) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-٨٦.

٢) يوسف داود بن بهنام الملقب (بأقليميس) ولد عام ١٢٤٥هـ في الموصل، ومات في دمشق عام ١٣٠٧هـ سرياني الأصل مستعرب، انتخب مطراناً للكاثوليك السريان.انظر(الإعلام-الزركلي-٨/٢٣٠).

٣)كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٩. وقال تلميذه محمد كرد علي: وما أدري إن كان المطران أثر في الشيخ، أو الشيخ أثر في المطران.

العراق جاء فيها: لما كنت أعتقد أن أحسن من يخلص العرب له الود هو دولة بريطانيا العظمى، لما خبرته من الأحوال، ومقتضيات الأمزجة ونحو ذلك، والمودة لما كانت واجبة أن تكون من الطرفين ، اقتضى الأمر أن يقع التفاهم بينهما ليستمر هذا الأمر ، فرأيت أنه ينبغي لإنكلترا العظمى أن تعتني بأمور:

١-أن تؤسس في كل بلدة كبيرة ديوانا شبيها بالرسمي، لتأخذ الأخبار المتعلقة بما يحبه العرب، لتساعد عليه بقدر الإمكان، والذين يعينون ينبغي أن يكونوا من أعظم الناس معرفة بأمزجة العرب، ممن تلقوا ذلك مثل حضرتك الكريمة.

٢-أن تعتني بأمر اللغة العربية، ويظهر منها السعي في نشرها على غرار ما يظهر منها ذلك في حق اللغة الإنكليزية.

٣-الاعتناء الزائد في المساعدة على نشر العلوم، على وجه يساعد عليه الحال والزمان.

٤-مراعاة عوائدهم وعدم الحط من كرامتهم،لاختلاف العادات، فقد بلغني وقوع تسلط من بعض المأمورين في البصرة والعراق وغيرهما، وهذا مضر جدا لا يشعر بمضرته إلا بعد أن يشتد الحال، ويعسر زوال ما في النفس، نعم إن هذا الأمر دقيق يصعب القيام به كما ينبغي، إلا أن الاعتناء به كثيرا ممكن، والعربي أهم شيء عنده عدم الهوان.

وإني أرى أن هذه الأمور إذا تمت هكذا ، تكون النتيجة حسنة جدا ويشتد التلاؤم بين الفريقين، فإن العرب أقرب الناس إلى شكر النعمة، فإن وجد من لا يشكر، فإن في ظهور النعمة ما يقمعه عن إبراز ما ينويه من مغالطة الناس.

وقد ختم الشيخ طاهر الرسالة بقوله: **المخلص** للأمة العربية والدولة البريطانية العظمى- طاهر الجزائري [1].

---

١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٤٥-٤٨. وانظر: (طاهر الجزائري) -عدنان الخطيب-١٦٧-١٧٠. وانظر صورة الرسالة في كنوز الأجداد.

وبيّن الشيخ طاهر المحظور من إبداء العطف والموالاة للحكومة البريطانية، فقال: (الناس الذين على فكري -من جهة توافق مصلحة الأمة العربية مع مصلحة الدولة البريطانية العظمى- كثيرون إلا أنهم لا يقدرون على إظهار فكرهم إلا بعد أن يروا باعثاً على إظهاره، لئلا ينسب إليهم أنهم خائنون للأمة، فإن هذه الجملة روّعت الناس كثيراً؛ وهي جملة اتخذها الشرقي لإرهاب غيره، سواء كان هو مخلصاً في نفسه أم غير مخلص.. وإني أوصيكم ببعض البلاد • التي لا أسميها، فإن فيها كثيراً من الرجال المهمين، الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرونها، ولكنهم غُلبوا على أمرهم، لأنهم لم يُعرفوا في وقت الرخاء، حتى يُنتفع بهم وبرأيهم في وقت الشدة، والبحث يجلو كل شيء، فينبغي الانتباه لذلك في الحال والمستقبل، وقد آن الأوان لمعرفتهم، وهذا لا يكون إلا تدريجاً، فليبادر إلى ذلك)[1].

٦-دعوة الشيخ طاهر لتأسيس الصحف والمجلات ذات الصفة السياسية والأدبية، فكم من جريدة أو مجلة أو كتاب أو رسالة نشرت في مصر والشام بإرشاده[2] ويقول أعضاء الجمعيات القومية:كان ينشط الأكفاء على إنشاء الصحف السياسية والاجتماعية، والمجلات العلمية والأدبية، فكم من مجلة أو جريدة أنشِئَتْ في القطر السوري أو المصري بتنشيطه ومؤازرته، ويدعو المستبصرين إلى التبصر بالصحف النافعة والمجلات المفيدة ويبتهج بها. وكان له شغف بالاطلاع عليها وتتبعها خصوصاً التي تكثر من الترجمة عن الغرب واقتطاف ثمرات علومه اليانعة... ويرى أن مطالعة مقالة علمية في مجلة أو جريدة أكثر فائدة من كثير من الدروس الحافلة بالمئات[3].

• قال محمد كرد علي : يقصد بالبلاد: الغالب أنه يقصد الديار الشامية.

١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٤٥-٤٨. وانظر: (طاهر الجزائري) -عدنان الخطيب-١٦٧-١٧٠.

٢)كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٤.

٣) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٦٢

والأسباب سالفة الذكر كانت من أبرز دواعي التفاف أعضاء الجمعيات القومية العربية حول الشيخ طاهر الجزائري في المدة التي قضاها بالشـام، في السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر، والسنوات الخمس الأولى من القرن العشرين[١]، حيث ألتف أعضاء الجمعيات القومية العربية حـول الشيخ حلقات متعددة منفصلة مترابطة، تجتمع إحداها بالشيخ بعـد صـلاة الجمعة من كل أسبوع، وتجتمع الثانية به في يوم آخر من أيام الأسبوع، بينما تجتمع الثالثة في مواعيد يحددها لهم.

وكانت للشيخ مع كثير من هؤلاء الشباب ومع غيرهم من شباب دمشـق المتعلم سهرات ليلية متواصلة، يتنقل فيها معهم بين مختلف أحياء المدينـة، وهـو يتخير المنازل التي يكثر زائروها من النبهاء والمثقفين حتى إذا مـا تجمعـوا أخـذ يستعرض أمامهم كل ما يقدّر أنه يهمهم الاستماع إليه عن الحركـات العلميـة والفكرية والسياسية في خلال الأسبوع الذي اجتمعوا في نهايته[٢]، وكان أعضـاء الجمعيات القومية يصغون في انتباه وتواضع إلى ما كان يدور فيها من أحـاديث ومحاورات في اللغة العربية وقواعدها وآدابها وفي الجهل الضارب أطنابه بـالبلاد العربية، وفي الوسائل التي يجب التوسل بها لرفع مستوى التفكير والتعليم جميعاً[٣].

ويضيف أعضاء الجمعيات القومية العربية بأن الحلقات كانت تدعـو إلى تعليم العلوم العصرية ومُدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمي وآداب اللغـة العربية، والتمسك بمحاسن الأخلاق الدينية[٤].

---

١) القومية العربية-الشهابي-٥١.

٢) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية -عدنان الخطيب-٢٤.وانظر:مذكرات محب الدين الخطيب.

٣) القومية العربية-الشهابي-٥٢-٥٣.

٤) المصدر السابق-٥١.

وللعوامل المؤثرة المختلفة في نشر المعتقد القومي في البلاد العربية، فقد ظهرت آثاره على أعضاء حلقة الشيخ طاهر الجزائري، مما نتج عنه ظهور نزعة قومية عربية فيهم، وتأسيس حلقة سياسية سرية سميت بحلقة دمشق الصغيرة،انتقل كثير من أعضائها إلى استنبول[1]، فراحوا يفكرون ويتناقشون في الخفاء فيما كان للعرب من أوضاع سيئة في دولة تتنكر للغتهم ولقوميتهم.

كان الهدف الظاهر لهؤلاء الشبان في حلقتهم مدارسة تاريخ العرب وقواعد اللغة العربية وآدابها، أما هدفهم الخفي فقد كان بعث العروبة من رقادها بتلقين شباب العرب الوسائل المؤدية إلى هذا البعث[2].

ويصف أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية بعض ما يدار في الحلقة السرية، من موضوعات، فيقول:كان الشبان الناهضون يتحدثون عن أوربا وتقدمها وعلومها، وعن نهضات الشعوب، والشكوى من ظلم الحكومة، واستبداد السلطان عبدالحميد، وسرد حكايات طويلة عن إغراق الأحرار في بحر مرمرة، وتعذيب الألوف من الشبان المطالبين بالإصلاح...كانت هذه الأحاديث تذكر في مجالس الشبان وكان يحضر هذه المجالس شيخ الأحرار الشيخ طاهر، وله أكبر فضل في تنوير الأبصار والبصائر، ودفع العرب في طريق التقدم[3].

وبعد بيان التفاف أعضاء الجمعيات القومية العربية حول الشيخ طاهر الجزائري، أنقل بعض النصوص التي ذكرها أولئك الأعضاء، والتي تؤكد مدى تأثير الشيخ طاهر فيهم، يقول أحدهم: كان له تأثير عظيم في تلاميذه وإليه يرجع الفضل في ظهور كثير من أدبائنا الأفاضل فهو الذي ربى فيهم روح الإقدام

---

١) الحكومة العربية الأولى في دمشق-خيرية قاسمية-١٥.

٢) القومية العربية-الشهابي-٥٢-٥٣.

٣) مذكرات البارودي-فخري البارودي:٥٨/١.

والشجاعة الأدبية.. وكان من أقواله وتوجيهاته: إن العواطف الوطنية والدينية بطريق الشعريات لها شأن عظيم في استماله الرأي العام(١).

وقرر تلاميذه بأن عددا ممن اشتغلوا بالآداب أو تعلموا التعليم الثانوي أو العالي في الديار الشامية إن لم يكونوا استفادوا منه مباشرة فبالواسطة، وتلاميذه ومريدوه من المسلمين يعدون بالعشرات وأكثرهم اليوم يشغلون مقامات سامية في دور العلم والحكم وفي التجارة والزراعة(٢) ولهذا يسوغ أن نعتبر أن أغلب المتعلمين والمتأدبين من الباحثين والكتاب في القطر السوري عالة عليه وإن لم يتلقوا منه مباشرة(٣).

ويقول فخري البارودي في مذكراته: إذا كان من فضل لأحد علي في توجهي من الناحية الوطنية فهو أولا الشيخ طاهر الجزائري المغربي أستاذنا وإلى تلامذته الأحرار(٤).

ويقول أحدهم أيضا: من هذا الغريب الصابر الدائب الحكيم، الشيخ طاهر الجزائري عرفت عروبتي وإسلامي(٥).

وقد اعتبر أعضاء الجمعيات القومية الشيخ طاهرا من أركان النهضة العربية الحديثة الذين عملوا لرقيها عمل من طب لمن حب(٦). كما عدوا الشيخ في عظماء أركان النهضة العلمية، والحركة الفكرية في البلاد السورية خصوصا

---

١) مجلة المقتطف-الجزء الثاني- المجلد٢٦ سنة بتاريخ ١٣٣٨/٥/١١ الموافق ١٩٢٠ -ص:١٦٤.

٢) كنوز الأجداد-محمد كرد علي- ١٤.

٣) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٧٣.

٤) مذكرات البارودي-فخري البارودي-٧٩/١.

٥) الشيخ طاهر رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-٨٧.

٦) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٢٩.

دمشق[١] ونشأ على يديه جيل من أفذاذ الرجال الذين تعتز بهم الشام كما يفخر العرب والمسلمون بجهادهم وسيرتهم[٢].

علاقة الشيخ طاهر بجمعية تركيا الفتاة:

سبق الحديث عن اتفاق أعضاء جمعية تركيا الفتاة مع جميع القوميات على نقد سياسة السلطان عبدالحميد، وسعيهم للمطالبة بالحكم الدستوري، ولهذا كان الشيخ طاهر مؤثراً على أعضاء جمعية تركيا الفتاة من عرب وترك، حيث كان الشيخ يختلط بهؤلاء وأولئك ويتتلمذُ جميعهم عليه، وهو لا يشعر أحداً منهم بأنه يتحزب لجمعية من الجمعيات أو ينتمي إليها[٣].

وقد ذكر بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية أن حكومة السلطان عبدالحميد قد ألغت وظيفة التفتيش -والتي كان يشغلها الشيخ طاهر- بالمدارس تخوفاً من شدته في بث أفكاره بين الأساتيذ والتلاميذ، فزاد نشاط الشيخ[٤] ثم اتهمته بالاشتراك في إذاعة نشرات كانت (جمعية تركيا الفتاة) تذيعها للطعن باستبداد السلطان عبدالحميد، فنزح الشيخ إلى مصر[٥].

وبعد أن أُسقط السلطان عبدالحميد، وانفردت جمعية تركيا الفتاة بسياسة الدولة العثمانية، كان للشيخ طاهر الجزائري موقف يماثل موقف أعضاء الجمعيات القومية العربية من أعضاء جمعية تركيا الفتاة.

---

١) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٧٠.

٢) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب- ٢٦.

٣) المصدر السابق-٤٤.

٤) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٦.

٥) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٥٠.

وهو مواجهه حركة التتريك التي قاموا بها قال الشيخ: وقد نصحت كثيراً من المحدثين من الأحرار(يقصد جمعية تركيا الفتاة) بأن يعدلوا مشربهم، وحذرتهم عواقب الأمر، غَلبوا أو غُلبوا، فأبوا إلا الإصرار على فكرهم، وما قلت لهم رأيي إلا بعد أن ألحوا عليّ بيانه[1]. وبعد الإعلان عن تطبيق الدستور، قال محمد كرد علي عن رأي شيخه وموقفه:كان لا يغتر بقوانين الترك ولا بثرثرة السياسيين[2].

وكان الشيخ طاهر يرشد أعضاء الجمعيات القومية العربية في خلال هذا الواقع، كما يقول طلابه: بأنه لا يرى أن يُجابه صاحب القوة تفادياً من بطشه بل يحتال عليه لئلا تنسحق القوة القليلة غير المنظمة أمام القوة الكبيرة المنظمة، وأنّ الأولى بالأمة الضعيفة التي تحاول تحريرها من قيود رقها أن تعد أسباب النهوض من علم وأخلاق ثم تنفض يدها من يد ظالمها.. فهو صاحب ثورة فكرية لا صاحب ثورة دموية[3]. وكان يقول: "إن سورية تخرج عن حكم العثمانيين في القريب العاجل"[4].

وأثناء فترة انتقال الشيخ طاهر إلى مصر كان يحضر اجتماعات الجمعيات القومية العربية، فمن ذلك ما يذكره طلابه عنه: بأنه في سنة ١٣٣١هـ الموافق (١٩١٣م) كان حزب اللامركزية قد دعا الناس إلى اجتماع كبير في فندق الكونتننتال في القاهرة، وقد ذهبنا مع الشيخ طاهر الجزائري لحضور ذلك الاجتماع[5].

١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٣٤.
٢) المصدر السابق-١٨.
٣) مجلة المقتطف-الجزء الرابع- المجلد٢٦ بتاريخ ١٣٣٨/٧/١٢ الموافق ١٩٢٠-ص:٣٠٢.
٤) المصدر السابق-ص:٣٠٠.
٥) مجلة الزهراء-المجلد ٣-الجزء ٧- ١٣٤٥/٧/١هـ -ص:٤٦٤-٤٦٥. مقال: محب الدين الخطيب.

وقد يكون اجتماع حزب اللامركزية المذكور تمهيداً لانعقاد المؤتمر العربي الأول، الذي عُقد في باريس سنة ١٣٣١هـ الموافق ١٩١٣، ومن مقاصده إعلان التمرد العربي على حكم جمعية تركيا الفتاة[١].

قتل مجموعة من العرب على أثر تصاعد الخلاف بين أعضاء الجمعيات العربية وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي كان منهم سليم بك الجزائري، وهو ابن شقيق الشيخ، الذي له في تهذيبه اليد الطولى[٢].

ولشدة نقمة الشيخ طاهر على أعضاء جمعية الاتحاد والترقي لم يقبل الشيخ طاهر العزاء في ابن أخيه، إلا بعد دخول الجيش العربي والفرنسي بلاد الشام وإعلان الحكم العربي فيها سنة ١٩١٨ فاستراحت نفسه وبدا عليه السرور[٣].

لقد توفي الشيخ طاهر بعد أن استحكم منه مرض الربو، فقد قفل راجعاً إلى مسقط رأسه قبيل وفاته بأشهر قليلة، فعينته الحكومة العربية مديراً عاماً لدار الكتب العربية -التي أسست بسعيه منذ أربعين سنة وقت صباه[٤]- وعضواً في المجمع العلمي العربي. ومات في ربيع الثاني سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠) ودفن في دمشق[٥].

وقال طلابه: عَظُم نعيُهُ في أندية العلم والأدب، واضطرب تلامذته ومريدوه وأحبابه وعارفو فضائله بخطبه الجلل، يبكون ويرثون الذي كان الحركةَ الدائمة في بث المدنية والعلم الصحيح[٦] وبعد أربعين يوماً من وفاته أقيم حفل لذكر مآثره؛ على عادتهم في بدع الجنائز.

---

١) انظر: المؤتمر العربي الأول-محب الدين الخطيب-٤.

٢) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-١٣٢٨/٦/١١:المقال عيسى اسكندر المعلوف-ص:٤٥١.

٣) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-٨٦.

٤) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-١٤٠.

٥) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٨. وانظر: تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-١٤٠ ومجلة المقتطف-الجزء الرابع- المجلد ٢٦-بتاريخ ١٣٣٨/٧/١٢ الموافق ١٩٢٠-ص:٢٩٧.

٦) مجلة المجمع العلمي العربي-المجلد١- الجزء١٠-١٣٣٩/٤/٢١هـ ص:١٧.مقال : محمد كرد علي.

المبحث الثاني

شخصيات المرحلة الثانية

تم التعريف في المبحث الأول، بأبرز الشخصيات المؤثرة في تأسيس الجمعيات القومية، وذلك في فترة الالتقاء الثقافي بين الدول الاستعمارية النصرانية والدولة العثمانية. وذلك عن طريق الحملات التنصيرية في أيام الدولة العثمانية.

وفي هذا المبحث سأتناول الشخصيات المؤثرة في تأسيس الجمعيات خلال المرحلة الثانية، التي تبدأ تقريباً من إسقاط السلطان عبدالحميد وتولي جمعية الاتحاد والترقي مقاليد السلطة، وهذه المرحلة التاريخية تعتبر بداية تأسيس الجمعيات القومية العربية.

أولاً) رفيق العظم:

أ- تعريف موجز بالشخصية الذاتية :

هو رفيق بن محمود بن خليل العظم[1]، ولد في دمشق حوالي سنة ١٢٨٠هـ[2] الموافق (١٨٦٧م) وعاش رفيق العظم في كنف والده في أحد قصور آل العظم بدمشق[3].

وكانت نشأة رفيق العظم في وقت نشاط النهضة العلمية التي شهدتها بلاد الشام على يد الشيخ طاهر الجزائري، ولذا اتصل رفيق العظم بطاهر الجزائري

---

١) الإعلام–الزركلي–٣/٣٠. وقال الزركلي: ولد سنة ١٢٨٤هـ.

٢) وقال رشيد رضا في ترجمته: ولد سنة ١٢٨٢هـ. انظر: مجموعة آثار رفيق العظم–المقدمة.

٣) مجلة الزهراء–المجلد الثاني–الجزء الأول–بتاريخ ١٣٤٤/١/١٥هـ– ص:٢٢٥–٢٢٦(بتصرف يسير).

وسليم البخاري فأخذ عنهما -كما يقول أعضاء الجمعيات- ما استنار به عقله وأهّله للنزول في مضمار الجهاد لبث الأفكار الصحيحة وإنكار الظلم[١].

ويذكر أقرانه: أن رفيق العظم نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء الوجهاء والأعيان المترفين في ذلك العهد ليعدون من أجل خدمة الحكومة. فلم يعن والده بتعليمه في مدارس العلم العربية، التي كانت من تأسيس الجمعية الخيرية؛ درس العظم التعليم الابتدائي في كتاب أهلي، ثم أخذ شيئاً من مبادئ اللغة العربية عن شيوخ عصره، وكان كل ما حصله بعد ذلك بمطالعاته الشخصية[٢].

ويذكر السبب في عدم انتظام العظم في تعليم المدارس العربية لأنها خاصة برجال الدين، وأما عدم انضمامه لمدارس الحكومة العثمانية الإعدادية والعالية ربما يكون لعدم شعوره بالحاجة إلى تخرجه فيها، أو عدم رغبته بجعله من عمالها وموظفيها، الذين لا تكنهم دار، ولا يقر لهم بين أهلهم قرار، أو فمحض الإهمال.

فعلى هذا يكون رفيق العظم غير متعلم تعليماً منظماً. وإنما أخذ بعض المبادئ عن بعض شيوخ عصره، وكان يعاشر العلماء والأدباء والمتصوفة، ويطالع الكتب ودواوين الشعر لأجل التسلية[٣].

ويصفه معاصروه في بدء نشأته مولعاً بقراءة السير والفتوح، وانتقل منها إلى قراءة الأمهات من كتب التاريخ[٤]وكان مولعاً بكتب الأدب أيضاً[٥].

---

١) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٢٤.

٢) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-المقدمة.

٣) المصدر السابق نفسه- (بتصرف)

٤) مجلة الزهراء-المجلد الثاني-الجزء الأول-بتاريخ ١٣٤٤/١/١٥هـ- ص:٢٢٥-٢٢٦(بتصرف يسير).

٥) الإعلام-الزركلي-٣/٣٠.

ومع حرص رفيق العظم على العلم ومجالسة العلماء والأخذ منهم، اتصف بأنه ذكي الفؤاد، ميالاً بفطرته إلى العلم والجد ومعالي الأمور، عزوفاً عن سفا سفها وصغائرها. صرفته الفطرة الذكية عن إنفاق أوقات صباه في اللهو واللعب مع أمثاله من أبناء الموسرين، بل جذبته إلى معاشرة أهل العلم والأدب والأفكار في الأمور العامة[1].

هذا رفيق العظم في بلاد الشام، وأما حياته ونشأته في مصر التي هاجر إليها سنة ١٨٩٤م (١٣١١هـ)[2] -كما يقول أعضاء الجمعيات القومية- بعد أن اشتدت مطاردة عبدالحميد للسياسيين العثمانيين طلاب الدستور.

يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية: جاء رفيق العظم إلى مصر مقتنعاً بثلاثة مبادئ إصلاحية:

أ) الرجوع إلى ينابيع الشريعة الإسلامية الصافية.

ب) الأخذ من الحضارة العصرية بأسباب القوة.

ج) أن يكون الحكم في الدول الإسلامية قائماً على أساس النيابة[3].

ظهر نشاط رفيق العظم السياسي والاجتماعي في مصر حينما اتصل ببعض أعضاء الجمعيات القومية الساكنين الديار المصرية، وانضم إلى مدرسة محمد عبده وأخذ يختلف إلى مجالس الأستاذ[4] ويحضر دروسه التي كان يتناول فيها الكلام على المسائل الفلسفية[5].

---

١) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-المقدمة (بتصرف).

٢) المصدر السابق نفسه-(بتصرف) ويقول غيره: كانت هجرته في سنة ١٣١٥هـ. أو في سنة ١٣١٠هـ.

٣) مجلة الزهراء-المجلد الثاني-الجزء الأول-بتاريخ ١٣٤٤/١/١٥هـ- ص:٢٢٧.

٤) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-المقدمة. (بتصرف)

٥) الإسلام والتجديد في مصر-تشارلز آدمس-٢٠٥-مطبعة الاعتماد-مصر-١٣٥٣هـ (١٩٣٥).

ومن دلائل نشاطه في مصر واتخاذها دار هجرة ومقامه قول رشيد رضا -أحد مؤسسي الجمعيات القومية العربية- عنه: (بعد استقرار رفيق العظم في مصر، طفق ينشر المقالات السياسية والاجتماعية في أشهر جرائدها اليومية: (الأهرام فالمقطم فالمؤيد فاللواء)، وفي أشهر مجلاتها (كالمقتطف والهلال والمنار والموسوعات)..وقد تم التآلف والتعارف بيننا وبين رفيق، ثم التعاون على الإصلاح السياسي والاجتماعي، فالاشتراك في الأحزاب والجمعيات السرية والجهرية[1].

ومن أنشطة رفيق العظم في مصر أيام تولي الأشراف على إدارة (المدرسة العثمانية)[2] تأليفه كتاب (الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية) لها وهو عبارة عن دروس إصلاحية في الدين والتربية والأخلاق والسياسة، وقد بلغت سبعة وعشرين درسا، وكل درس يفتتحه بعنوانين، الأول: من عنده، والثاني: من القرآن الكريم[3].

وقال في مقدمة الكتاب: لابد من تربية الأفكار الآن على مبادئ الشريعة، بوضع كتب جديدة تبين مزايا الدين الإسلامي للناشئة الإسلامية، من جهة ما يقوم أود النفوس الناشئ عن خلط الاعتقاد الصحيح بالبدع التي أضعفت النفوس من جهة، وأزاغت ضمائر بعض الناشئة عن حقيقة الإسلام من جهة أخرى، لترشد تلك الكتب النشء الإسلامي إلى الدين من طريق العلم والعقل، وإلى العمل من طريق الدين...وقسمت هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام: في الاجتماع؛ مبادئه وروابطه ومقوماته، ليكون أشبه بمرقاة، يرى فيها كيفية تدرج الإنسان في مراقي الحضارة والعمران، بما وهبه الله من قوة العقل والإرادة، وأرشده إليه من طريق السعادة، وجعلت تحت كل قسم منها دروسا، مستمدا فيها مادة البيان من آي القرآن[4].

---

١) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-المقدمة.

٢) أسسها ابن عم رفيق العظم، صلاح الدين بك العظم. انظر:مجلة الزهراء-المجلد٢-الجزء ١-ص:٢٢٨

٣) الدروس الحكمية-رفيق العظم-٥-جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية-١٤٠٩هـ.

٤) المصدر السابق نفسه-٧-٨.

تزوج رفيق العظم و لم يرزق ولداً[1]، يقول أحد معاصريه: (كان رفيق شديد الولوع بدخان التبغ والقهوة، على شدة تأثيرهما في مرضه الصدري، حتى ضعف جسمه وصار يتعب من الكتابة والمطالعة فاعتزل الناس ولزم داره حتى وافاه أجله في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٣هـ الموافق ١٩٢٥/٤/٢، وتوفي بالقاهرة[2].

ب- أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس جمعيات القومية العربية:

سبقت الإشارة إلى أن رفيق العظم قد تلقى عن طاهر الجزائري ما استنار به عقله وأهّله للنزول إلى مضمار الجهاد لبث الأفكار الصحيحة وإنكار الظلم، و كان سنُّ رفيق العظم عند تأسيس الحركة الإصلاحية التي قام بها طاهر الجزائري الخامسة عشرة من عمره[3].

كما وافقت مبادئ الدعوة التي قام بها طاهر الجزائري، هوىً في نفس رفيق العظم الذي وصفه معاصروه بأنه كان ميالاً بطبعه إلى السياسة والأمور العامة[4].

ومن خلال الاطلاع على نشأة الجمعيات القومية العربية يلاحظ أن رفيق العظم كان له دورٌ بارزٌ في تأسيس الجمعيات القومية، سواء أكان الدور في التنظير والتأسيس أم المشورة وإبداء الرأي، وقد قال أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية: (وما تألفت في القاهرة جمعية أو قام فيها عمل ذو بال يتفق مع مبادئه الإصلاحية، إلا كان في مقدمة العاملين لإنجاحه)[5].

---

١) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-المقدمة.

٢) المصدر السابق-المقدمة. وانظر: المعاصرون-محمد كرد علي-٢٢٦.

٣) مجلة الزهراء-المجلد الثاني-الجزء الأول-بتاريخ ١٣٤٤/١/١٥هـ- ص:٢٢٥-٢٢٦(بتصرف يسير).

٤) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-المقدمة.

٥) مجلة الزهراء-المجلد الثاني-الجزء الأول-ص:٢٣٤.

أول تنظيم حزبي قام به رفيق العظم هو الانضمام إلى جمعية تركيا الفتاة وكان كغيره من أعضاء الجمعيات القومية العربية الذين ناصروا جمعية تركيا الفتاة، ثم افترقوا عنها. صحب رفيق العظم بعض أحرار الترك النازلين في بلده فأفاد منهم روحاً جديدةً وتلقح فكره بآراء حرة، ومن أيسرها مقاومة الاستبداد والمستبدين والتنبيه على فساد الإدارة العثمانية(١).

أكثر رفيق العظم من نقد سياسة الدولة العثمانية، إما تصريحاً أو تلميحاً، ومثال ذلك، عند حديثه عن عدل عمر ﷺ في تصريف أموال الدولة الإسلامية، وعن موقفه ﷺ، عندما رفض الزيادة الفاحشة لمخصصات الخليفة خشية أن يكون فيها شيء من التبذير في الأموال.

قال رفيق العظم: (وحبذا لو نظر الخلفاء بَعْدُ هذا النظر، وراعوا في بيت المال أوامر الشريعة وسنة السلف من الصحابة، فإن فيها كل الحكمة ، ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود المعقولة في دول الإسلام مبلغاً يدهش عقول الباحثين، وما نظن أن أكثر البلاء الذي حل بهذه الأمة والضعف الذي انتابها في العصور القديمة والحديثة إلا ناشئاً عن إسراف أُمرائها وسلاطينها وتبديدهم للأموال في طريق الشهوات..

وأشقى الأمم من هذا القبيل؛ الأمم التي لا حد لسلطة رؤسائها يُعْرف، ولا غاية لسلطانها تُوصف، وإنما هم أرباب اليد المطلقة في أموال الرعية، يأخذون ما شاءوا ويمنعون من شاءوا.. وليس عليهم من الأمة رقيب عتيد، ولا من الوجدان زاجر عنيد)(٢).

---

١) المعاصرون–محمد كرد علي–٢٢٤–٢٢٥.

٢) أشهر مشاهير الإسلام–رفيق العظم–٢/٤٢٩–٤٣٠–دار الرائد العربي–بيروت–لبنان–الطبعة السادسة= ١٤٠٣هـ.

وبعد إسقاط السلطان عبدالحميد وإعلان الدستور، قال رفيق العظم: كانت الأمة العثمانية قبل إعلان الدستور العثماني في مستوى واحد من حيث الظلم الذي كان ينالها من الحكومة المطلقة، لا فرق بين مسلميها ومسيحيها وتركيها وعربيها. ومن شأن الحكومات المطلقة تساوي رعيتها في الظلم والتظلم[1].

ويعتبر تأسيس الجمعيات القومية العربية هو التنظيم الآخر لرفيق العظم، وهذا العمل التنظيمي كان في مصر، وكانت تعتبر مهجر الأحرار آنذاك[2].

أوّل الجمعيات التي شارك في تأسيسها رفيق العظم (جمعية الشورى العثمانية) ومؤسسها رجال من سائر الشعوب العثمانية الكبرى، وكان رفيق العظم أمين صندوقها. وأصدرت جمعية الشورى جريدة باسمها (الشورى العثمانية) وتولى رفيق العظم تحرير القسم العربي فيها[3].

يقول محب الدين الخطيب -أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية-: (لما مررت بالقاهرة إلى اليمن سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) أطلعني رفيق العظم على نظام (جمعية الشورى العثمانية) التي كانت تأسست في القاهرة منذ عهد قريب، وأخبرني بما لها من الفروع في البلاد العثمانية وغيرها، واتفقت معه على إنشاء فرع لها في اليمن، وقد وفق الله لذلك بأقرب مدة، فتألف الفرع الرابع عشر للجمعية هناك)[4].

ومن أبرز الجمعيات التي أسسها رفيق العظم حزب اللا مركزية الإدارية العثماني[5]، وتولى رئاسة الجمعية، وقال في بيانه الذي وضعه عند التأسيس: (مما

---

١) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-(الجامعة العثمانية)-١١٨.

٢) انظر: الفصل الثاني من الباب الأول من هذه الرسالة. ص: (٢٢٨)

٣) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-المقدمة.(بتصرف يسير).وانظر عن جمعية الشورى العثمانية:

١-مجلة المنار-المجلد الثاني عشر-الجزء الحادي عشر-ص:٨٢٤.

٤) مجلة الزهراء-المجلد الثاني-الجزء الأول-ص:٢٣٠.

٥) انظر: الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة. ص: (٧١)

ثبت بالتجارب لهذا العهد أن أفضل أشكال الحكومات هو الدستوري، وأفضل أشكال الدستوري هو اللا مركزية، خصوصاً في الممالك التي تعددت فيها الفرق والمذاهب واللغات)[1].

ومما يلاحظ على الجمعيتين السابقتين أن رفيق العظم كان يسعى -كما يقول أعضاء الجمعيات القومية- إلى إبقاء الدولة العثمانية، إذ أن العرب يحتاجون إلى زمن طويل لترقية أنفسهم، وجمع كلمتهم، واستغنائهم عن الدولة إن زالت أو بقيت، وأنّ الخروج على الدولة ضار وخطره على العرب أشد من خطره على الترك[2].

وهذا المبدأ الذي دعى إليه رفيق العظم، لم يكن مُجمعاً عليه من قبل أعضاء الجمعيات القومية العربية[3]. وسبق البيان إلى أن من أهداف الجمعيات القومية العربية: الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال البلاد العربية[4].

كان لرفيق العظم بعض الأفكار والتوجيهات التي ساعدت على تأسيس الجمعيات القومية العربية، وتضمنتها مواقفه وآثارهُ العلمية، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً) نقد سياسة السلطان عبدالحميد الثاني: يعتبر كتاب (أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة) من الكتب التي أثنى عليها أعضاء الجمعيات القومية العربية[5]، وحينما يذكر مواقف لبعض الخلفاء الراشدين مع الرعية، يقارن هذه المواقف مع الخلافة القائمة في عصره، فمثال ذلك: عند تعليقه

١) مجلة الزهراء-المجلد الثاني-الجزء الأول-ص:٢٣١.

٢) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-المقدمة.

٣) المصدر السابق نفسه.

٤) انظر: الفصل الثالث من الباب الأول من هذه الرسالة. ص: (٢٣٩)

٥) انظر:١-مجلة المنار-المجلد ٧-الجزء ١٤ عشر- بتاريخ ١٣٢٢/٧/١٦هـ الموافق (١٩٠٤)ص:٥٤٠.

٢-مجلة الهلال-المجلد ١٢-الجزء ١٥-بتاريخ ١٣٢٢/٢/١٥هـ الموافق (١٩٠٤) ص:٤٧٧-٤٧٨.

٣-مجلة المقتطف-المجلد الثلاثون-الجزء التاسع-بتاريخ ١٣٢٣/٧/٢هـ الموافق (١٩٠٥)ص:٧٣٤.

على قول أبي بكر الصديق ﷺ (قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني)[١] .

قال رفيق العظم في معرض التلميح ناقداً السلطان عبدالحميد:(.. أين هذا ممن اتخذوا بعدُ اسم الخلافة سلاحاً يضربون به وجوه المسلمين، ويمزقون أحشاء الإسلام، ولم يرضوا لأنفسهم من سمات الخلافة التي ابتدعوها الترفع عن مخاطبة الناس والتحجب وراء الستور والاعتلاء على منصات العظمة والكبرياء ..وحكموا الناس بالظلم والاستبداد، وساقوهم بعصا الاستعباد، ففرقوا عنهم القلوب وشتتوا كلمة المسلمين..فخمدت من جراء ذلك جذوة العقول، وفترت القوى، وانحطت الأخلاق وفقد العلم، وبارت الصنائع[٢].

ومما صرّح به رفيق العظم ناقداً السلطان عبدالحميد قوله: (إن السلطان عبدالحميد المخلوع كان دائم الوجل، محاطاً بالدسائس من قومه الأتراك الذين يعلم مقدار توجسهم الخيفة على سيادة تمتعوا بها نحو سبعة قرون، وكاد بسوء إدارته وحرصه على الحكم المطلق يمزقها تمزيقاً[٣].

ثانياً) رابطة اللغة ورابطة الدين: يقرر رفيق العظم ما قرره أعضاء الجمعيات القومية العربية بأن رابطة اللغة أقوى تأثيراً في تكاتف المجتمع من رابطة الدين، فقد قال رفيق العظم:للاجتماع نظامات وروابط، وهي العصبيات، وتكاد تكون طبيعية بين البشر، وأهمها الروابط العامة التي تجمع قوماً أو أقواماً كثيرين على كلمة واحدة، وهي رابطة العشيرة أو الجنس أو الوطن أو الدين.

١) انظر نص خطبة الصديق: مصنف عبدالرزاق-١١/٣٣٦. والسيرة النبوية-ابن هشام-٤/٣٤٠-٣٤٢.

٢) أشهر مشاهير الإسلام- رفيق العظم-١/٩١.

٣) مجموعة آثار رفيق العظم-(الجامعة العثمانية)-١٢٠.

ثم بين رفيق العظم أولوية هذه الروابط بقوله: إنّ رابطة الجنس والوطن فإنها طبيعية الوجود، لا سبيل إلى انحلالها إلا بانحلال القوم المنتسبين إليها، ويلي هاتين في المنزلة العصبيةُ الدينية، ويقول: تليهما هذه العصبية لأنها نادرة الظهور بين الأمم، ولا يلجأ إليها إلا حين الضرورة القصوى، وقلّ ما جمع الدين كلمةَ أهله بأجمعهم إلا في الشاذ النادر، اللهم في العواطف دون الفعل..إن أقل هذه الروابط تأثيراً في المجتمعات رابطة الدين[1].

ثالثاً) الثناء على الثورة الفرنسية: من منطلق طلب الإصلاح والترقي في الدولة العثمانية، تحدث عن تاريخ الدول النصرانية من جانب السلطة السياسية، وقال: إن الأمم المسيحية لما كانت مسوقة في أوربا بيدي الكهنة والملوك مأخوذة الإرادة بقوة هاتين الفئتين لم يكن لها من الأمر إلا أن تُدعى إلى عمل فتجيب، وتساق إلى حرب فتسير. وبيّن رفيق العظم أن هذه الحال قد تغيرت حينما قيدت هذه الأمم قيود تلك السلطة وتمتعت بالحرية، وشاركت الحكام بالرأي أصبح الحكام بيد الشعب لا الشعب بيد الحكام، وصار الساسة وأرباب الحل والعقد محاسبين على كل عمل يأتونه[2].

هذا التغيير الذي حدث في الدول النصرانية رافق ظهور النهضة الحديثة في أوربا وعزاه رفيق العظم إلى من سماه بالمصلح الديني (لوثر)، وقال عنه: (لقد اشتهرت مقالته بعدم مشروعية الرهبنة والاعتراف (صك الغفران) وسيادة البابا الدينية، فكانت مقالته هذه أول خطوة خطاها الأوربيون للتملص من أغلال السلطة الدينية.. وسرت مقالته في أوربا سريان النار في الهشيم تلقتها العقول بمزيد من القبول وأعقب هذا الإصلاح الديني الإصلاح السياسي والمدني)[3].

---

١) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية)-٤٩.

٢) المصدر السابق نفسه-٥٧.

٣) المصدر السابق نفسه-(رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)- ٥٩.

ويؤكد العظمُ وهو في المؤسسين للجمعيات القومية العربية على أن الأسباب التي دعت الأمم الأوربية إلى المطالبة بالحرية، وهدم أركان الحكومات المطلقة عقب الثورة الفرنساوية، وسرت مبادؤها يومئذ في نفوس الشعوب، تقليداً للفرنساويين وإقتداء بهم، هي الأسباب نفسها التي تدعو المسلمين الآن إلى طلب الحرية، سواء كانوا محكومين بحكومات مسلمة أو مسيحية[١].

ومن تأييد الثورة الفرنسية أن أصبحت شعارات الثورة المتضمنة للحرية والعدالة والإخاء دارجة في كلامات رفيق العظم[٢]، وقد بين أن الشعار الماسوني قد أقام الرسول ﷺ دعوته، فقد قال رفيق العظم: محمد ﷺ أعظم البشر بلا مراء ومؤسس الشريعة الإسلامية على دعائم الحرية والعدالة والإخاء[٣].

وبعد إسقاط السلطان عبدالحميد وإعلان تطبيق الدستور ذكر رفيق العظم مدى سلطة الأمة، وبين أنها تربط أواصر الأخوة الوطنية، وتبث روح العزة في النفوس لتساق إلى مستوى التكافل العام القائم على أساس الحرية والإخاء والمساواة[٤].

رابعاً) الدعوة للحكم الديموقراطي: لقد كانت المبادئ الماسونية، والدعوات العلمانية، التي ظهرت في عصر تأسيس الجمعيات القومية من أقوى المؤثرات على المنهج الدعوي عند رفيق العظم.

ومن أدلة تأثره حديثهُ عن الديموقراطية ونظام الحكم، حيث رأى أحقية البلاد الإسلامية بالحكم الديموقراطي، وأن تقدم المسلمين منوط بتحقيق الحياة الديموقراطية وتأسيس المجالس النيابية، قال: إن نهضة المسلمين العلمية

---

١) المصدر السابق- ٨٥.

٢) انظر: أشهر مشاهير الإسلام- رفيق العظم-١/٥٣.

٣) المصدر السابق نفسه-١/٢.

٤) مجموعة آثار رفيق العظم-(الجامعة العثمانية)-١١٩.

وحركتهم الفكرية، وتشربهم روح الديموقراطية، ما يقرب أوان التوفيق بين مصالح الشرق والغرب، ويدعو الدول إلى مصافاة الأمم الإسلامية[1].

ومن المسوغات التي ذكرها رفيق العظم لتطبيق الحكم الديموقراطي في الدولة العثمانية، بأنه ما من أمة سارت فيها روح الديموقراطية الصحيحة إلا كانت أجزاؤها أشد تماسكاً، ورابطتها العامة أشد إحكاماً[2].

وحينما ذكر العظم خُطبة أبي بكر الصديق ﷺ عند توليه للخلافة، قال: (عيَّن أبوبكر ﷺ حدّ السلطة العليا فيها بتلك الخطبة الأنيقة، حكومة ديموقراطية قلّ أن يجد طلاب الحرية والعدل في كل عصر أحسن لسياسة الأمم منها.. وفي الجانب الآخر وبعد أن تغيرت سياسة الخلفاء من الحكم الديموقراطي إلى الحكم المطلق، وأصبحت الخلافة ملكاً عضوضاً وسلطة جائرة.. تدنى نظام دولة الإسلام، ومن أبرز أسباب هذا التدني، انحلال عرى الحكومة الديموقراطية، فدخل الوهن على الحاكم والمحكوم، وشقي الظالم والمظلوم)[3].

ولما كان مفهوم الديموقراطية تسليم سيادة الحكم للشعب وأنه يكون رقيباً على أعمال الحكام بواسطة المجالس النيابية[4]، قرر العظم أن الحياة السياسية لا تكون إلا بالحكومات النيابية، فهي التي ترفع شأن الأمم، وتحوط حياة الأقوام السياسية بسور من القوة[5].

عرف العظم الحكم الدستوري الذي يطالب به بأنه: عبارة عن نزع السلطة من الأفراد، ووضعها بين يدي الجماعات، وأية جامعة تجمع بين

---

١) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلاميةوأوربة)-٨١.

٢) المصدر السابق نفسه-(الجامعة العثمانية)-١١٩.

٣) أشهر مشاهير الإسلام- رفيق العظم-١/١٢٠-١٢٢.(بتصرف)

٤) مذاهب فكرية معاصرة-محمد قطب-١٧٨.

٥) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)-٧٩-٨١.

عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات أقوى من حكم الأمة نفسها لنفسها.

ومن هذا التصور للحكم أكد رفيق العظم على استبعاد الاعتقاد (الدين) من الحياة السياسية، فبعد أن استعرض أسباب ضعف الأمة ذكر منها: اصطباغ الدولة الإسلامية منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل لأولياء أمر الأمة بعد الخلفاء الراشدين للأخذ على أيدي الرعية وأفواهها باسم الدين(١).

أثنى رفيق العظم على واقع تطبيق الحكم النصراني بقوله: إن الحياة السياسية في أوربا قد صارت أو كادت تصير بمعزل عن الاعتقاد. فالغربي إذا حكم في الشرق مسيحياً مثلا لا ينظر إلى ما بينهما من المشاركة في الاعتقاد، بل ينظر إلى المصلحة..

ولتعميم هذا المعتقد طالب العظمُ الدولَ الكافرة مساعدةَ البلاد الإسلامية لتطبيق هذا المعتقد، يقول: وليتكاتفوا مع المسلمين على المضي في سبيل العلم والترقي والديموقراطية الصحيحة التي يسير إليها الشرق كما سار إليها الغرب، وليحققوا -الدول الكافرة- بذلك آمال الشرق في بنيه(٢).

ويرى رفيق العظم -كما هو منهج الجمعيات القومية العربية-، بأنه إذا كانت الحياة السياسية للأمة حياةً دينية، كان لها آثار سلبيه على الأمة منها:

١.أن لا سبيل معها -الحياة الدينية- لنوابغ الأمة وعقلائها للتنقل بها في مدارج الرقي الطبيعي، الذي تقتضيه حالة كل عصر سواء كان في حياة الأمم السياسية أو حياتها الاجتماعية(٣).

---

١) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة-رفيق العظم-٤/٦٧٦.

٢) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)-٨٣.

٣) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة-رفيق العظم-٤/٦٧٦.

٢.ومنها: أنه يؤدي إلى جمود الأفكار على مبدأ الخضوع المطلق للأمير باعتبار أن الأمير رئيس ديني تجب له الطاعة مع التغاضي عما يجب عليه في مقابلها من العدل[١].

٣.ومنها: تحول الأحزاب السياسية التي تقوم في الدول لخير الأمة ومصلحة الشعب إلى فرق دينية كانت في الإسلام آفة الدين، ومفرق شمل المسلمين[٢].

٤.ومنها: ظهور أثره على أعمال المسلمين وأخلاقهم وعقائدهم وعوائدهم، بحيث صاروا لا يقبلون أي جديد باسم الدين، ويرفضون كل أمر نافع إذا لم يعرف عن أسلافهم الميتين[٣].

وهذه المبررات التي ذكرها رفيق العظم ودعى إليها على أساس أنها الظلم في الأمة وسبباً في تشتيتها فالحكم لا يكون للأمة ولا للأفراد، إنما الحاكمية لله تعالى {**إن الحكم إلا لله**}[٤]. وقال تعالى {**إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين**}[٥] وسوف أتناول إن شاء الله المخالفات العقائدية عند الجمعيات في الباب الثاني.

خامساً) تعظيم العلم المادي: انطلاقاً من مبادئ الإصلاح والترقي التي دعا إليها أعضاء الجمعيات القومية العربية، والرغبة في تقدم العلوم والصناعات، ومسايرة الدول الأوربية، من هذه المنطلقات اهتم رفيق العظم بالعلم المادي والرغبة في تحصيله، وهو بهذا المنهج يمثل مدرسة شيخه محمد عبده، تلك المدرسة

---

١) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة-رفيق العظم-٦٧٨/٤.

٢) المصدر السابق-٦٧٦/٤.في مجلة المنار المجلد السابع -الجزء الرابع عشر-سنة١٣٢٢/٧/١٦هـ-رد على آراء رفيق العظم، في مسألة إقامة الخلافة على أساس الدين. وانظر: الحاكمية في تفسير أضواء البيان-جمع:عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس-دار طيبة-الطبعة الأولى-١٤١٢هـ).

٣) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة-رفيق العظم-٦٧٩/٤.

٤) سورة يوسف - آية (٤٠).

٥) سورة الأنعام-آية (٥٧).

التي حاولت التوفيق بين الدين والعلم وبينت للناس أن الدين الإسلامي الحق لا يحارب العلم ولا ينافي العقل وأنه دين العقل والحرية والفكر، وذهبت تبيّن للناس ذلك المنهج وتقيم الدين الإسلامي على العقل-الذي لا يقر أرباب الثقافة الغربية غيره حكماً- وبيّنتْ أن ليس في الإسلام ما لا يقره العقل[1].

وقد وجه رفيق العظم نصيحته بلزوم تعلم الحياة الأدبية، والإقبال على طلب العلم وتأسيس المدارس، وخاطب أولياء أمور الطلبة بأن يبعثوا أولادهم إلى دور العلم في أوربا، ليستفيدوا خير ما في المدنيّة الغربيّة وهو العلم، وأن يهدمُوا كل حاجز يقوم في سبيل نشر العلم في بلادهم مهما كان[2].

ومن أجل نقل العلوم دعا رفيق إلى أن تقوم فئة -كما وصفهم-:قد استنارت بنور العلم والمدنية، ببيان فوائد العلوم الحديثة للأقوام الآخرين الذين عزلتهم حكومات الاستبداد عن عالم الحركة والعلم.. فأصبحوا يستنكرون كل ما أتاهم عن طريق الغرب.

ولتحقيق تحصيل العلوم المادية بيّن العظم أن الأمة الإسلامية يجب أن تصافح الدول الأوربية مصافحة الصديق للصديق، وقال :إننا محتاجون إليها في تلقي دروس المدنية عنها، وفي أخذ العلوم النافعة منها.. ومن العدل والإنصاف يجب الاعتراف بفضل المدنية الأوربية التي نهضت بالإنسانية إلى منزلة سامية لم تبلغها من قبل، وأن الاحتكاك بالأوربيين قد نفع الشرق نفعاً محسوساً..فنحن مدينون لهم بالرقي العقلي والصناعي.

ويؤكد رفيق العظم على أن العلم المادي هو رسول السلام في هذا العصر، والمشرق على القلوب، وأنه ما دامت السيادة مؤكدة في المستقبل للعلم فلنتلقها من الآن بصدر رحيب[3].

---

١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير-فهد الرومي-٧٠.

٢) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)-٧٩.

٣) المصدر السابق نفسه-٨١-٨٢. (بتصرف يسير)

سادساً) تأليف الكتب: صنّف رفيق العظم في إطار تأسيس الجمعيات القومية العربية بعض الكتب، ومن أهمها:

١) كتاب أشهر مشاهير الإسلام: وهو كتاب يتضمن سيرة الخلفاء الراشدين ﷺ دون علي بن أبي طالب ﷺ، كما ترجم لبعض الرجال المعاصرين للخلفاء، وفي الكتاب يتعرض لمسائل كثيرة تعتبر تأصيلاً لبعض أفكار الجمعيات القومية. ووصفه أعضاؤها بأنه أعظم آثاره العلمية وطار به صيته في الأقطار[١].

٢) كتاب الدروس الحكمية، للناشئة الإسلامية: وقد قرر محمد عبده تدريس هذا الكتاب في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، ويحتوي الكتاب على دروس للطلاب، مما قال فيه: مبدأ التآلف والاتحاد من أهم المبادئ التي تأسست على دعامتها سعادة البشر الدنيوية وحياتهم القومية[٢].

٣) كتاب تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام: تناول رفيق العظم في هذا الكتاب واقع الأمة وما أصابها من ضعف بسبب ضعف العلم وتخاذل بعض العلماء في نشره[٣].

٥) لرفيق العظم عدد من الخطب جمع بعضها في كتاب (مجموعة رفيق العظم)، ومن تلك الخطب: خطبة ألقاها على أعضاء نادي دار العلوم سنة ١٣٢٧هـ بعنوان (أسباب سقوط الدولة الأموية) ومما جاء فيها:..إن الخلافة صارت إلى أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ﷺ، و لم يقم بين العرب من أجلها أدنى نزاع باسم الدين بل كان العقل هو المحكم والمصلحة رائد جمهور العقلاء من الأمة، بقطع النظر

---

١) مجموعة آثار رفيق العظم-المقدمة.

٢) الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية-رفيق العظم-١٥.

٣) تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام-رفيق العظم-٦٧-مطبعة الموسوعات-مصر-١٣١٨هـ (١٩٠٠).

عما إذا كان علي حقيقاً بالخلافة فإنه حقيق بها بلا شك، وإنما كانت هناك ظروف وأحوال إذا وصلنا خبر بعضها فإنا نجهل بعضها الآخر بتاتاً، وقد راعى جمهور الصحابة تلك الظروف والأحوال مماشاة لسنة الطبيعة والعقل فقدموا عليه الثلاثة الكرام، ولو كان للدين حكم في استخلاف علي رضي الله عنه لما عدلوا عنه إلى العقل..

وبعد أن قرر رفيق العظم هذا المبدأ تساءل: إذاً فمن أين دخلت السياسة في الدين فجعلت الخلافة حقاً شرعياً من حقوق آل البيت؟ ومتى ظهر التراع عليها باسم الدين؟ وظهرت مقالة الإمامية التي تلتها بدع كانت آفة المجتمع الإسلامي؟. الجواب على هذا يعرفه كل مطلع على التاريخ، دخلت السياسة في الدين، وظهرت مقالة الإمامية لما دخل الأعاجم في الإسلام[1].

١) مجموعة آثار رفيق العظم-(مجموعة خطب رفيق العظم)-١٥.

ثانياً) ساطع الحصري:

من خلال تتبع الكتب القومية، وتقديم الفكر القومي للأمـــة، يلاحـــظ أن ساطع الحصري قد شغل جانباً كبيراً في هذا الأمر وقد كتبت عن الحصري وفكره القومي، وفلسفته التربوية، وآرائه الاجتماعية، كتب كثيرة وأطروحات قدمت إلى الجامعات الأوربية والأمريكية[١].

ويعود سبب ذلك إلى أن ساطع الحصري قد سلك في نشر فكـــره طريـــق التعليم والتربية، سواء التدريس أو التأليف وقد قال عنه أعضاء الجمعيات القوميـــة العربية: صنف أكثر من (٥٠) كتاباً، وقد عين معلماً أثنـــاء حكـــم الســـلطان عبدالحميد، وعين وزيراً للمعارف في الحكومة العربية الأولى في دمشق[٢].

واعتبر القوميون ساطع الحصري أول من أدرك -من المشـــتغلين بالقوميـــة العربية- قيمة الثقافة في البناء القومي، وأنه يعتبرها المقوم الأول مـــن مقومـــات القومية، والأساس الأول في تحقيق الوحدة العربية الكبرى [٣].

أ- تعريف موجز بالشخصية الذاتية :

يكنى بأبي خلدون: وهو ساطع بن محمد بن هلال بـــن الســـيد مصطفـــى الحصري[٤].

---

١) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٧٠.

٢) انظر: ١-الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسمية-٢٣٤.

٢-الإعلام-الزركلي-٧٠.

٣-مذكراتي في العراق-ساطع الحصري-٢/٧.

٣) مجلة الرسالة-العدد (١٠٣٧)-بتاريخ ١٣٨٣/٧/١٢هـ(١٩٦٣)-السنة الحادي والعشرون-ص:٦.

٤) ساطع الحصري-مجموعة من الكتاب -١٢-(سلسلة نوابغ العرب) -دار العودة-بيروت-١٩٨٥.

وانظر: الإعلام-الزركلي-٣/٧٠.

وعن أصله يذكر بعض الكتاب نقلاً عنه أنه من حلب، قال عن نفسه: ولدت في صنعاء من والدين عربيين حلبيين في تاريخ يصادف ٥ من آب (أغسطس) عام ١٨٨٠(١٢٩٧هـ)[١].

قال عنه أعضاء الجمعيات القومية العربية: تترّك ثم تعرّب، وقد أصبحت اللغة التركية هي لغته الدارجة، وأصدر مجلة التربية باللغة التركية، قيل عنها: أول ما صدر من نوعها بتلك اللغة. ووضع ١٢كتاباً بالتركية[٢].

وكان سبب ضعف ساطع الحصري باللغة العربية أن والده كان يكثر التنقل بين الولايات العثمانية لأنه كان يشغل منصب رئاسة محكمة الاستئناف. وكانت كثرة تنقلات والده وهو في المرحلة الأولى من حياته السبب في عدم التحاقه بمدرسة ابتدائية معينة. ولهذا تلقى تعليمه في البيت باللغة التركية المحكية..كما أنه درس الفرنسية على أخويه الكبيرين، وقد كان لهذا التعليم غير التقليدي بالنسبة لذلك العصر أثر كبير في احتفاظ ساطع الحصري، طول عمره، بموقف مبني أساساً على العلمانية[٣].

وقال أحد معاصريه: بحكم نشأة الحصري -في عاصمة الدولة العثمانية، ودراسته باللغة التركية- لم يكن يعرف اللغة العربية أو يلم بها حتى مغادرته تركية، وقد حدثني أنه كان في الأربعين من عمره حين بدأ بتعلمها[٤].

وقد قال ساطع عن نفسه: قدر لي أن أتنقل خلال السنوات الاثني عشرة الأولى من حياتي بين المدن التالية: من استنبول إلى أضنه، ومن أضنه إلى أنقرة،

---

١) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٩-(سلسلة أعلام العرب)-الهيئة المصرية للكتاب-١٩٨٨.

٢) الإعلام-الزركلي-٧٠.

٣) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٧.

٤) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٨.

ومن أنقرة إلى استنبول، ثم من استنبول إلى طرابلس الغرب، ومن طرابلس الغرب إلى استنبول، ومن استنبول إلى صنعاء اليمن...ولقد تركت هذه الرحلات التي تمت خلال طفولتي في نفسي أثراً من الانطباعات العميقة، والذكريات المتنوعة[1].

ومع تلك الظروف التي مرّ بها الحصري في حياته الأولى، إلا أنه تلقى تعليمه في المدرسة الملكية باستنبول مدة سبع سنوات، أربع منها بالتعليم المتوسط والثلاث الأخيرة بالقسم العالي، وبقي طوال هذه المدة بالقسطنطينية لم يغادرها.

وجد ساطع في نفسه ميلاً إلى دراسة العلوم الطبيعية وأخذ يقرأ الكتب المؤلفة باللغة الفرنسية في هذه العلوم، ووضع لنفسه أمنية عاش على أمل أن تتحقق وهي أن يصبح عالماً فيها، ومضى ساطع في دراسته بالقسم العالي من المدرسة الملكية الشاهانية يدرس العلوم الإدارية والسياسية[2].

توضح التربيةُ الأولى التي تلقاها ساطع الحصري في المدرسة الملكية، كثيراً من المؤثرات الفكرية التي سيطرت على فكره، فالمدرسة الملكية هي من الجانب الإداري كلية رفيعة المستوى تأسست عام ١٨٥٩م (١٢٧٥هـ)، ثم خضعت للتحديث عام ١٨٧٧م (١٢٩٣هـ)، يتخرج فيها الموظفون الإداريون[3].

وأما الجانب التعليمي والمنهجي للمدرسة فهو معهد علماني، وتدرس فيها موادٌ تجمع بين العلوم القانونية والسياسية والإدارية[4] وقد تحول هذا

---

١) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-١٤.

٢) المصدر السابق-١٥.

٣) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٥٩-مطبعة اشبيلية الحديثة-بغداد-الطبعة الأولى-١٩٨٣. وانظر: مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٨.

٤) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٥٩.

المعهد تحت حكم السلطان عبدالحميد الثاني إلى مركز اختمار ثقافي، حتى أن قادة (تركيا الفتاة) فتحوا أعينهم على تعاليم الحرية والوطنية، على يد أساتذة هذا المعهد[١].

مكث ساطع الحصري هذه المدة في القسطنطينية، وفي خلالها تربى وتلقى في حداثته وشبابه التربية المعهودة لدى جيل تركيا الفتاة، تلك التربية التي كانت تستند إلى الأفكار الوضعية الفرنسية والقومية الأوربية[٢].

أمضى الحصري سني الدراسة وتخرج من المدرسة الملكية عام ١٩٠٠م (١٣١٧هـ)، وأختار وظيفة التدريس لأنها المدخل الأول لبث أفكاره ومبادئه.

ويقول عنه أحد معاصريه: (ليس من الممكن نشر المعرفة بصورة نافعة ومؤثرة بدون معرفة جيدة لمبادئ التربية وعلم النفس، فاهتم بدراستها حتى أصبح من خبرائها المعدودين في الدولة العثمانية)[٣].

وقد عين الحصري مدرسا للعلوم الطبيعية في المدارس الثانوية، وكان تعيينه في ولاية (بانيا)• وبقي ساطع مدرسا في ولاية بانيا لمدة خمس سنوات، ولسهولة اتصال هذه الولاية بالمدن الأوربية، فقد تمكن أن يحصل على كثير من الكتب الفرنسية التي نشرت في باريس، وأن يشترك في عدة مجلات علمية.. ونظرا لتخرجه من المدرسة الملكية عهد إليه المسؤلون عن التعليم في بانيا القيام بتدريس المعلومات القانونية التي كانت تدرس للتلاميذ، وعلم الاقتصاد والتاريخ.

انتقل ساطع الحصري من وظيفة التعليم إلى العمل الإداري، وذلك -كما يقول القوميون-: بسبب من تدخل السلطان عبدالحميد في سياسة التعليم، ورغب

---

١) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٨.

٢) نقد الفكر القومي-إلياس مرقص-١٢.

٣) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦١.

● تقع في أقصى الغرب من البلاد العثمانية الأوربية.

أن يعمل في مقدونيا أو كما كانت تسمى بالولايات الثلاث إشارة إلى (سالونيك Salonika، وموناستير Monastir، وكوسوفو Kosov) فصدر تعيينه من وزارة الداخلية، بمنصب (قائمقام) [١].

وقد اختار ساطع الحصري، (مقدونيا) لأنها بعيدة عن سلطة السلطان عبدالحميد، وفيها حركات ثورية ضد السلطان عبدالحميد. وكان الجيش الذي تولى إرغام السلطان عبدالحميد على إعلان الدستور عام ١٩٠٨، ثم إسقاطه عام ١٩٠٩ قد جاء من (مقدونيا)[٢].

بعد إعلان الدستور العثماني اعتزل الحصري الحياة السياسية، ورغب الاشتغال بالتأليف والتعليم، فقدم استقالته من وظيفته وعاد إلى عاصمة الدولة[٣].

وخلال الحرب العالمية الأولى انتقل ساطع الحصري إلى البلاد العربية وأقام فيها، وبدأ فترة مهمة من حياته تناول ما يتعلق بتأسيس الجمعيات القومية العربية. فكان يقول عن نفسه: (أنا عربي، وعندما انفصل العرب عن الإمبراطورية العثمانية، لم يكن أمامي خيار سوى الانضمام إليهم)[٤].

وتوفي الحصري فجأة، ودفن في العراق[٥] في ٢٤/من ديسمبر سنة ١٩٦٨م الموافق (٤/١٠/١٣٨٨هـ)[٦].

---

١) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-١٦-١٨(بتصرف).

٢) انظر: مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٣١.

٣) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٢٢.

٤) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٨٠. نقلا من كتاب:
William L, Cleveland , The making of an Arab Nationalist-١٩٧١ ,٤٥.

٥) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٤.

٦) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج- ٩٢.

ب- أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية:

يمكن من خلال الإطلاع على الجهود العلمية القومية لساطع الحصري تقسيمها لمرحلتين:

المرحلة الأولى: خلال الحكم العثماني، وما ظهر فيه من أحداث كإسقاط السلطان عبدالحميد، وتزعم جمعية تركية الفتاة للسلطة وانضمام بعض أعضاء الجمعيات القومية لها. ثم وقوع الخلاف بين العرب والترك.

المرحلة الثانية: خلال إقامة الحكومة العربية في بلاد الشام، وتفرد بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية بحكم بعض البلاد العربية. ثم تفرق أعضاء الجمعيات القومية العربية في البلاد العربية. تنتهي هذه المرحلة بوفاته.

وقد تكون المرحلة الأخيرة هي أكثر إيضاحاً للفكر القومي عند ساطع الحصري، إذ أن تأسيس الجمعيات القومية ينتهي بنهاية حكم الدولة العثمانية للبلاد العربية، إلا أن ما قدمه ساطع خلال تلك الفترة الأخيرة يعتبر منهجاً مؤصلاً لدى جمعيات القومية العربية.

ويمكن حصر جهوده وآثاره خلال المرحلتين جميعاً بما يلي:

أولاً) انتسابه إلى جمعية تركية الفتاة: كانت الفترة التي قضاها في مقدونيا هي العتبة التاريخية -حقاً- التي دخل منها ساطع الحصري ساحة المعترك السياسي الذي اشتد عوده مع تراكم تناقضات ومعارك اقتسام الدول الاستعمارية لبلدان العالم المتخلف والمستعمر[1].

---

١) مجلة قضايا عربية-العدد(٣/٤)-السنة الثانية-١٩٧٥-ص:١٢٠.

يقول الحصري في مذكراته عن أثر هذه الفترة في حياته: (أكسبتني بعض الخبرة في كيفية تدبير الأمور دون إفساح المجال إلى اعتراض هيئة المراقبة وتدخلها مع التغلب على الدسائس والمناورات التي كان يقوم بها البعض من المراقبين ولذلك استعرضت في ذهني كل تلك الوقائع والتجارب وقررت لنفسي الخطة التي يجب اتباعها في هذا الشأن: بحث الأمور والمشاريع بحثاً دقيقاً وشاملاً قبل إيصالها إلى مكتب المستشار والتسلح بسلاح قوي من العلم والمنطق في مناقشتها معه، العمل على الدوام بهدوء تام دون إثارة وضجيج من إخفاء الغرض الأصلي من ذلك العمل في بعض الأحيان إن المرتبة العليا من السياسة، أي سياسة التربية الوطنية القويمة تدخل ويجب أن تدخل في صميم أعمال المدارس وأغراضها)[1].

في أثناء قيام ساطع الحصري بوظيفة قائمقام في ولاية (مقدونيا) بدأت حركة الاتحاد والترقي في الاتصال بالعناصر المناوئة للسلطان عبدالحميد، وكان ممن اتصلت بهم ساطع الحصري، وبرغم أن مهمته كانت تقضي أن يبلغ المسئولين عن هذه العناصر الوطنية بحكم عمله في الجهاز الإداري للدولة العثمانية، إلا أن ساطعاً أيد هذه الحركة الثورية وباركها وعمل بكل جهده لتأييدها[2]، وبخاصة أنه قد اعتنق مبادئها في الكلية الملكية.

لقد كان ولاء الحصري كما تقول المجلات القومية: (لم يكن متجهاً بحال نحو السلطان وشرطتها..بل كانت حماسته كلها حتى ذلك الوقت قد تركزت في محاولة إصلاح المناهج التربوية والتعليمية المتخلفة والفاسدة...كانت عواطفه كلها مع الحركات الثورية المطالبة باستقلال مقدونيا ضد السلطان عبدالحميد، ولقد تحول التعاطف إلى مشاركة إيجابية نشطة في حركة التنظيمات الثورية، وخاصة

---

١) مذكراتي في العراق–ساطع الحصري–١/٣٧–٣٨.

٢) ساطع الحصري–محمد عبدالرحمن برج–٢١.

عندما نجح الضباط الثوريون الأتراك في حمل السلطان عبدالحميد إلى إعادة المشروطية أي الدستور[1].

وحينما تم إسقاط السلطان عبدالحميد وأعلن الدستور العثماني أخذ ساطع يلقي الخطب الحماسية الملتهبة، ونشرت كلماته في جريدة الثورة التي صارت باسم (نير حقيقت) أي (شمس الحقيقة)[2]. ونشرت كلماته الملتهبة حول الإصلاح والديموقراطية في جريدة الثورة .. كانت تلك الفترة من حياة ساطع وبخاصة من ١٩٠٥-١٩٠٨ في ولايات مقدونيا العثمانية، منعطفاً عظيم الأثر في حياة الحصري الفكرية والاجتماعية[3].

ثانياً) نشاطه التعليمي والتربوي، خلال حكم جمعية الاتحاد والترقي:

إن من أبرز معالم وآثار الحصري على الجمعيات القومية العربية أن تولى مهمة التعليم، ووضع الأسس والمناهج المبنية على أسس قومية علمانية، وقد أعترف ساطع بعلمانيته؛ ففي أحد احتفالات تكريمه قُدمّ للتكريم فقيل عنه: [مرحباً بالمناضل الكبير في خدمة العروبة والإسلام) فرد عليه بهذه العبارة، (عرب نعم.. إسلام لا..أنا لاييك..أنا لاييك) وكلمة (لاييك) تعني أن صاحبها علماني أو لا ديني][4].

وكانت بدايات نشر هذا الهدف منذ تخرجه من المدرسة الملكية، وتبنيه فكر جمعية الاتحاد الترقي، وأصبح من أكثر المربين والمثقفين نفوذاً في الإمبراطورية

---

١) مجلة قضايا عربية-العدد(٣/٤)-السنة الثانية-١٩٧٥-ص:١٢٠.

٢) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٢٢.

٣) مجلة قضايا عربية-العدد(٣/٤)-السنة الثانية-١٩٧٥-ص:١٢٠.

٤) شخصيات اختلف فيها الرأي-أنور الجندي-٧٤-دار الأنصار-مصر.

العثمانية، في الفترة التي تميزت بإعادة الحياة الدستورية، وقد قيل عنه: أحد الأعلام المعدودين في التربية، وقد كان عميد هذا الفن في تركية قبل الثورة العربية(١).

وقد عهد لساطع الحصري تولي إدارة مدرسة المعلمين في القسطنطينية، وأنشأ قسماً فيها لتخريج المدرسين للمدرسة ذاتها(٢).

لقد أعاد ساطع تأسيس هذه المدرسة على أسس جديدة تماماً كما يقول تلاميذه، دون أن يتقيد بمناهجها القديمة، أو بهيئتها التعليمية. وأدخل في مناهجها لأول مرة علم النفس، وفن التربية والتدريس.. وأنشأ مجلة سماها مجلة التدريسات الابتدائية التي كانت أول مجلة تربوية تصدر باللغة التركية، وكانت تتألف من قسم نظري وآخر عملي، وكان ساطع يجمع فيها الكثير من نماذج الدروس(٣).

كان ساطع من دعاة الاقتداء بالفكر الأوربي، والسير على النظم العلمانية، وقد قال عنه طلابه: ظل بعيداً كل البعد عن أن يتأثر في عمله بدين من الأديان، أو بمذهب من المذاهب، وإنما كان يصدر في عمله عن عقيدة قومية، وأسلوب علمي(٤).

ولتطبيع التعليم بهذه المعتقدات العلمانية، قام الحصري برحلات استطلاعية إلى بلاد أوربا سنة ١٩١٠(١٣٢٧هـ)، حيث زار عدداً من المدن الأوربية، وقام خلال زيارته بدراسة أحوال التعليم فيها، ولا سيما دور المعلمين، والدراسة في المراحل الابتدائية وما تطبقه هذه الدول من نظم تعليمية جديرة بأن تُحتذى..وكان ساطع يتصل خلال رحلاته هذه بمشاهير رجال التربية والتعليم،

---

١) مجلة الرسالة-العدد-١٢٣-بتاريخ ١٣٥٤/٨/١٤-(١٩٣٥)-السنة الثالثة-ص:١٨٣٦.

٢) مجلة قضايا عربية-العدد(٣/٤)-السنة الثانية-١٩٧٥-ص:١٢١.

٣) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٢٣.

٤) المصدر السابق-٤٩.

وعندما تأسس معهد (جان جاك روسو) في جنيف تعرف ساطع إلى أهم مؤسسيه، وأخذ يحث وزارة المعارف العثمانية على أن تُوفد البعض من طلابها في بعثات تعليمية للدراسة في هذا المعهد، نظراً لما يطبقه هذا المعهد من نظم جديدة في التعليم، كما دعاه مؤسس المعهد أن يكون من أعضاء الهيئة الراعية له(١).

وبعد النزاع بين العرب والأتراك، ورغبة الترك في تحقيق المطالب العربية بعد المؤتمر العربي الأول عُرض على ساطع الحصري أن يكون مستشاراً عربياً لوزارة المعارف(٢). وألف الحصري كتباً باللغة التركية في المجال التعليمي، منها: فن التربية بجزئين، وآخر في الإثنوغرافيا (علم الأقوام أو الأجناس البشرية) وكتب في الكيمياء وعلم الحيوان وعلم النبات، ومبادئ العلوم الطبيعية(٣).

ومما ينبغي ذكره عن نشاط ساطع الحصري خلال فترة حكم جمعية الاتحاد والترقي للدولة العثمانية، كانت تربط ساطع الحصري صداقة شخصية بعبدالكريم الخليل أمين المؤتمر العربي في باريس، وكان يقبل دعوة الخليل لالقاء خطاب في المنتدى الأدبي، وانضم إلى جمعية الفتاة(٤).

ثالثاً) آثار الحصري التعليمية في البلاد العربية: حينما أصبح للجمعيات القومية العربية كيان سياسي متمثل في الدولة العربية الأولى انتقل الحصري من القسطنطينية إلى سورية، وقد قال: (أنا عربي، وعندما انفصل العرب عن الإمبراطورية العثمانية، لم يكن أمامي خيار سوى الانضمام إليهم)(٥). فذهب إلى

---

١) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٢٤.

٢) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٩.

٣) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٧.

٤) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٩. وانظر: حول الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١/٨٦.

٥) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٨٠.

سورية للمساهمة في بناء الدولة العربية الجديدة، التي قيل عنها: خضعت الحكومة لتوجيه الهيئات الوطنية السياسية[1] وكانت تربطه علاقة فكرية مع فيصل بن الحسين، ولهذا نراه في سوريا مسئولا عن التعليم كما نراه في العراق.

لقد كان نصيب الحصري في التقسيم الوزاري أن أصبح وزيرا للمعارف في تلك الدولة الفتية[2] وقد تولى هذا المنصب الهام في توجيه الأمة مع وصف القوميين له بأنه أشد المفكرين العرب تعصبا لعلمانية القومية العربية[3].

ويستمر ساطع الحصري في نشر مذهبه العلماني في التربية والتعليم، فيقول أعضاء الجمعيات القومية العربية عن دوره في تأسيس التعليم في المرحلة الجديدة من تاريخ البلاد السورية: لقد استدعته الحكومة السورية الحديثة الاستقلال عام ١٩٤٤(١٣٦٣هـ) ليعمل كمستشار في الشؤون التربوية، وكانت تقاريره الستة عشر التي وضعها حول هذا الموضوع هي أساس تعريب التعليم في سورية.

ومع أن البرلمان السوري وصف قانون المعارف الجديد (المعتمد إلى حد بعيد على تقارير الحصري واقتراحاته) بمثابة [إعلان الاستقلال الثقافي] فإن النزعة العلمانية التي تميزت بها اقتراحات الحصري قد دفعت بعض العناصر الطلابية

---

١) الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسمية-١٦٨.

٢) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦١.

٣) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٦. المقال بعنوان: (ساطع الحصري، المفكر والداعية والنموذج) قالت المجلة عن هذا المقال: أهتم بشكل أساسي على دراسة صدرت عام ١٩٧١ عن جامعة برنستون الأمريكية بعنوان:

The making of an Arab Nationalist, Othomanism and Arabism in The Life and Thought of Sati` Al-Husri by William L, Cleveland - Princeton University press.

ويبدو أن هذا الكتاب هو اشمل وأدق دراسة صدرت حتى الآن، بأية لغة، عن حياة ساطع الحصري وفكره، فقد اعتمد مؤلفها على المؤلفات الأساسية للحصري، بالتركية والعربية، ثم على عشرات المراجع(أكثر من مائة وثلاثين) مؤلفا بالعربية والتركية والإنجليزية والفرنسية، عن الحصري وعصره.

والعالمة بمكر قانون الحصري؛ وإفساده لعقيدة المسلمين، فقاموا منكرين عليه عن طريق مظاهرة تهتف في شوارع دمشق (**لا إله إلا الله، الحصري عدو الله**).. إلا أن الحكومة السورية صمدت أمام الضغوط، واحتفظت بقوانين الإصلاح التعليمي -بحسب تعبيرهم- التي صممت بناء على اقتراحات الحصري[١] العلمانية.

وكان مما جاء في المادة الأولى لقانون المعارف وما يتعلق بواجب الوزارة: مهمة وزارة المعارف تربية الجيل الجديد تربية صالحة من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية، ليصبح كل فرد من أفراده قوي البدن حسن الخلق صحيح الفكر محباً لوطنه، **معتزاً بقوميته**[٢].

ويقول أحد طلاب الحصري والمتأثرين به خلال هذه الفترة: لقد تأثر الشباب بكتابات ساطع الحصري بالدرجة الأولى. تلك الكتابات التي ركزت الاهتمام على وجود العوامل والمقومات الكافية لوجود أمة عربية واحدة، وكان أولئك الشباب يحاورون ويردون على الأفكار التي أنكرت مثل تلك المقومات، وطرحت بدائل أخرى لعلاقات شعوب المنطقة العربية[٣].

وأما آثاره في الجانب التعليمي في العراق فقد قيل عنه: أنه ولا شك ركن أساسي قوي من أركان النهضة العلمية في العراق[٤].

---

١) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٨٢. وانظر عن هذه التقارير: تقرير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لاصلاحها-الحصري-دمشق-دار الهلال-١٩٤٤.

٢) تقرير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لاصلاحها-الحصري. وانظر: ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٧٣.

٣) سياسي يتذكر-جمال الشاعر-٣٤.

٤) مجلة الرسالة-العدد-١٢٣-بتاريخ ١٣٥٤/٨/١٤-(١٩٣٥)-السنة الثالثة-ص:١٨٣٦.

وبناء على اتفاق بين الحصري والملك فيصل ارتحل الحصري إلى مصر وبدأ يعد نفسه للأعمال التعليمية ، فكتب إلى وزير المعارف المصري في ذلك الحين خطابا يلتمس له التصريح بزيارة بعض المدارس المصرية، وجاءته الموافقة وقام بزيارات مختلفة، حتى جاءته الدعوة من فيصل بن الحسين للعمل في العراق ١٩٢١(١٣٣٩هـ)[١].

لقد تولى الحصري إدارة المعارف هناك، فوضع أساس التعليم للحكومة الجديدة على أساس الوحدة القومية وأحدث الطرق الفنية والنظريات التربوية الحديثة، والاعتبارات القومية، ومتطلبات المرحلة الجديدة[٢].

يقول عنه طلابه في العراق:(كان الحصري قد ألب من حوله كثيرا من العداوات لعدة أسباب أهمها تطرفه وتشدده في صيغ مناهج التعليم العراقية بصيغة القومية العربية والعصرية من منطلقات ثقافته العلمانية)[٣].

ولهذا التأثير في الأمة، وإقرار المبادئ العلمانية في تعليم وتربية الجيل على يد ساطع الحصري نجد أعضاء الجمعيات القومية العربية يقولون عنه: لقد مضى على ساطع بك في إدارة المعارف ست سنوات..قام في خلالها بأجل الخدمات و لم يدخر جهدا في تنظيم المناهج وترقية المدارس وإيجاد روح علمية في البلاد هي أظهر أثر يذكر في نهضتها الحاضرة. وفي الحق إذا لم يكن لساطع غير مجلته التربية والتعليم هي الوحيدة من نوعها لكفاه فخرا في خدمة الناشئة الجديدة وتهيئتها لمستقبل أحسن[٤].

---

١) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٤٤.

٢) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٢.

٣) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٦.

٤) مذكراتي في العراق-ساطع الحصري-١٩/٢-دار الطليعة-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٦٨.

وقالوا: أهم ما يسجله التاريخ لساطع أنه وضع للقومية العربية أسسا علمية ووجه الأنظار وأشاع الروح فيها وقوى الإيمان بها..حين يعمل في مجال التربية والتعليم يسعى لبعث العامل القومي وتقويته ويضع المناهج الدراسية التي يراها كفيلة بتحقيق ذلك، وحين يضع تقارير الإصلاح لخطط التعليم يضع نصب عينيه الخطط الكفيلة بتقوية الشعور القومي وتغذيته(١).

فقد كانت خدماته بناءة، متعددة الجوانب، بعيدة الآثار، .. ويكفيه أنه كان رائد الفكرة القومية العربية وفيلسوفها، الذي كان له أكبر الأثر في تكوين وعي قومي في المشرق العربي، وقد كانت الدعوة للقومية العربية محور عمله وحياته مدة نصف قرن تقريبا(٢).

رابعا) بعض أفكاره القومية: بعد إسقاط السلطان عبدالحميد ظهرت في الأمة ثلاث اتجاهات مختلفة، وهي:-

١. الاتجاه الطوراني التركي، ويتزعمه جمعية الاتحاد والترقي.

٢. الاتجاه العثماني، ويقصد به العلماني التغريبي، ويتزعمه الجمعيات العربية.

٣. الاتجاه الإسلامي، والرابطة الإسلامية(٣).

لقد كان ساطع الحصري ينهج النهج والاتجاه العثماني، ولهذا كانت أفكاره التي نشرها في كتبه وظهرت بعد تفرق أعضاء الجمعيات القومية العربية في البلاد العربية تلتقي مع الأهداف العامة للجمعيات القومية.

---

١) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-١٤٢.

٢) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٦.

٣) انظر: مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص٧٨.

ولاتفاق مبادئ الحصري مع مبادئ الجمعيات فقد أثنى القوميون على أفكاره فقالوا: كانت آراؤه وأحاديثه في القومية والتربية والاجتماع قائمة على فهم عميق للتاريخ، وإيمان حقيقي بالمكان الذي يجب أن تحتله الأمة العربية تحت الشمس، إلى جانب ثقافته الغزيرة[1].

ويمكن إيجاز أفكار ساطع الحصري بالأمور التالية:

١- الرابطة القومية والرابطة الإسلامية: ابتدع الحصري في الأمة الإسلامية ولاء جاهلياً وهو الولاء القومي، فعند حديثه عن العوامل التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، ذكر منها: الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ، والاشتراك في اللغة والتاريخ، والتشابه في العواطف والعوائد، والتماثل في ذكريات الماضي ونزعات الحال وآمال المستقبل..كلها من جملة هذه الروابط المعنوية التي تولّد التقارب والتعاطف وتكّون الأمم والأوطان.

وبيّن الحصري أقوى هذه النزعات، فقال: (إذا لا حظنا أنواع الروابط التي تكّون الجماعات السياسية على وجه أخص نجد أن أولها وأفعلها هي نزعة القومية المتولدة من وحدة اللغة والتاريخ.. لأن الوحدة في هذين الميدانيين، هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة..وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة متميزة عن الأمم الأخرى، ولكن لا وحدة الدين، ولا وحدة الدولة، ولا وحدة الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية)[2].

---

١) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٧.

٢) أبحاث مختارة في القومية العربية-ساطع الحصري-٢٠٥.

ويؤكد الحصري على أهمية اللغة بأن الأمة لا تقوم إلا بلغتها، فيقول : (إن حياة الأمة تقوم بلغتها، بوجه عام، أما الموت بالنسبة إلى الأمة فليس -في حقيقة الأمر- إلا في الحرمان من اللغة الخاصة بها..إن الأمة تبقى حية، ما بقيت محافظة على لغتها، إنها تبقى مستعدة للحرية والاستقلال، ما دامت متمسكة بلغتها. أما إذا فقدت هذه اللغة، فتكون قد فقدت الحياة..إن اللغة تكون روح الأمة وحياتها وتمثل أهم عناصر القومية وأثمن مقوماتها[1].

ومن هذا المنطلق الجاهلي، ينتقد الحصري بعض أدباء ومفكري عصره بأنهم لم يصلوا إلى مرحلة (رابطة القومية) بعد أن انتقلوا من (الرابطة الإسلامية العامة)[2].

وبنفس المبدأ تناقل أعضاء الجمعيات القومية العربية فكرة ساطع الحصري، قالوا: (عوامل التجانس في الأمة هي أن يكون لها (بقعة أرضية منضمة) و(وحدة في النسب والتقاليد العامة)، أما الوحدة الدينية فليس لها عنده أهمية في التجانس القومي[3] .

والولاء للغة: أوسع شمولا وأرحب صدرا من نظرية الدم والجنس والدين، لأنه يعتبر به عربيا قوميا كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها .. مهما اختلفت الأصول والأديان والمذاهب[4].

---

١) مذكراتي في العراق-ساطع الحصري-٢/٤٨٠. مقطع من خطاب ألقاه على فريق الكشافة العربي بغداد-سنة ١٩٣٧.

٢) مذكراتي في العراق-ساطع الحصري-٢/٤٧٨.

٣) الأستاذ(قصة حياة ميشيل عفلق)-زهير المارديني-٦٩-الريس -لندن.

وانظر كتاب:(القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي)- الشهبندر- وهو عبارة عن مجموعة مقالات كان قد نشرها في الصحف المصرية.

٤) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٨-٣٩(بتصرف).

٢– الثورة الفرنسية وتصدير القومية العربية: اعتبر الحصري الثورة الفرنسية هي مبدأ تاريخ القوميات، فقال: (طرأ على أوضاع أوربا السياسية من التطورات والانقلابات ما لم يسجل التاريخ مثيلاً له، في أي عهد من العهود الغابرة.. والعامل الأساسي الذي أنتج هذه التحولات السياسية الخطيرة بهذه السرعة الخارقة كان نشوء الفكرة القومية وتغلغلها في نفوس الشعوب، تغلغلاً جعلها من القوى المؤثرة والمبادئ الفعالة في تكوين الدول وتوجيه السياسة الدولية[1].

لقد أبعدت الثورة الفرنسية الدين عن واقع الحياة، وبالمنهج نفسه تعامل ساطع الحصري مع الدين الإسلامي، فهو يرى أن فكرة القومية العربية صادفت في طريق سيرها وانتشارها عراقيل كثيرة، وعقبات خطيرة قد تغلبت على الكثير منها منذ بداية القرن الحالي: فإنها اخترقت أولاً السد المنيع الذي تكون من امتزاج فكرة الجامعة العثمانية بمعنوية الخلافة العثمانية الإسلامية. وهي –فكرة القومية العربية– على وشك الانتهاء من التغلب على العقبات التي تعترض طريقها باسم الرابطة الشرقية من ناحية والرابطة الإسلامية من ناحية أخرى[2].

وكما اقتحمت الثورة الفرنسية الدين النصراني، فإن ساطع الحصري يقرر بأن روح القومية الحقة على وشك أن تقتحم كل العراقيل وستنتصر في آخر الأمر انتصاراً حاسماً، ولهذا فإن نظرية وحدة الدين مستبعدة في الفكر الأوربي ولم تلعب دوراً يذكر في نشوء النظريات القومية في أوربا، وذلك لأن الأوربيين كانوا قد انتهوا من حل قضية (علاقة السياسة بالدين) .. ولكن الذي حدث في العالم الإسلامي، اختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً، فإن الخلط بين الدين وبين السياسة، قد استمر في البلاد الإسلامية بوجه عام، والبلاد العربية بوجه خاص[3].

---

١) أبحاث مختارة في القومية العربية–ساطع الحصري–٥١.

٢) اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية–ساطع الحصري–٢٢٩.

٣) أبحاث مختارة–ساطع الحصري–٢٠٤.

لقد كان أصل أهداف الثورة الفرنسية كما يقول الحصري، (الفكرة القومية وتغلغلها في نفوس الشعوب) فالولاء للرابطة القومية العربية، ولهذا اعتبر الحصري القومية دينا وعقيدة، فقال: (إن الكفاح القومي والجهاد في سبيل النهضة القومية..يحتاج إلى إيمان راسخ في النفوس...يتطلب بذل المجهود لبث الإيمان القومي في النفوس ولتقوية هذا الإيمان وتغذيته بكل الوسائل[1].

وبعد إقرار العقيدة القومية التي من أجلها يوالي وعليها يعادي، يقرر الحصري: إن رابطة الدين في الأمة وبحسب وقائع التاريخ إنما كانت روابط عاطفية، ولهذا فإن الوحدة السياسية التي وجدت في صدر الإسلام لم تقو على تقلبات الأيام مدة طويلة، والخلافة العباسية نفسها لم تستطع أن تجمع كل المسلمين تحت رايتها السياسية[2].

وبهذا المبدأ يلتقي الحصري بالفكرة التي قالها رفيق العظم: (وقل ما جمع الدين كلمة أهله بأجمعهم إلا في الشاذ النادر، اللهم في العواطف دون الفعل..إن أقل هذه الروابط تأثيرا في المجتمعات رابطة الدين)[3]. فاعتبار رابطة الدين (رابطة عاطفيه) مبدأ يقرره ممن لهم تأثير في تأسيس الجمعيات القومية العربية.

٣-اعتبار الخلافة الإسلامية من عوائق نهضة القومية: ذكر الحصري بعض العوائق التي وقفت في طريق نهضة القومية العربية، ومن هذه العوائق السلطة المعنوية التي كانت تتمتع بها السلطنة العثمانية باعتبارها (دولة الخلافة الإسلامية).

---

١) المصدر السابق-٨٨.

٢) المصدر السابق-١١٢.

٣) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية)-٤٩. وانظر ص ( ) من الرسالة.

وبيّن الحصري الأثر المعنوي في الأمة كما -يعتقده- فيقول: (هـذه السلطة المعنوية القوية كانت تخدر فينا روح القومية العربية وتجعلنا لا نشعر بأننا أمة مغلوبة على أمرها، مستسلمة لسلطان أجنبي عنها، نسينا أن لنا قومية خاصة متميزة عن الأتراك العثمانيين وعن سائر المسلمين).

إن مبدأ: (أن للعرب قومية تخصهم تختلف عن الآخرين) كان من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية، فيقول الحصري: (بدأت جماعة مستنيرة من الناطقين بالضاد تنتبه إلى ذلك-القومية الخاصة- وتطالب بحقوق العرب وتتكلم عن حقوق اللغة العربية، وقامت جماعات كبيرة تعارضهم معارضة شديدة، زاعمة بأن هذه المطالبات تسئ إلى الرابطة (الإسلامية) العثمانية وتنافي الأخوة الإسلامية)[١]، وفي الباب الرابع -إن شاء الله- سأبين موقف العلماء المعاصرين من مبادئ الجمعيات القومية.

لقد عرض الحصري أفكاره في أكثر من (٥٠) كتاباً، وكلها مطبوعة[٢]. وقدم من خلالها أبرز معالم مبادئ الجمعيات القومية العربية، من بداية تأسيسها وحتى تفرق أعضائها.

ولما تحتويه هذه الكتب من أفكار ومبادئ تعتبر امتداداً لأفكار الجمعيات القومية العربية، قال الحصري: إن الأبحاث المذكورة سارت في الاتجاه الذي كان اتجه إليه أعاظم رجال الدين الإسلامي منذ قرن، فذكر منهم:عبدالرحمن الكواكبي، عبدالحميد الزهراوي..[٣].

---

١) أبحاث مختارة-ساطع الحصري-١٧-مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت-لبنان-١٩٨٥.

٢) الإعلام-الزركلي-٣/٧٠.

٣) أبحاث مختارة-ساطع الحصري-٢٩٤. انظر: المؤتمر العربي الأول-خطبة عبدالحميد الزهراوي-٢٠

ولهذا اعتبره القوميون قائداً من قادة الفكرة العربي[1] وأكثر الناس إخلاصاً للقضية العربية وتفانياً في خدمتها، وأقوى الناس حجة في الدفاع عن القومية العربية وجدلاً في سبيلها، يجادل في ذلك من تعرض لها بسوء ويحاجّ بذلك السياسيين، والأدباء [2].

ويضيف القوميون إلى مآثر الحصري على الفكر القومي إنشاء معهدٍ للدراسات القومية، فقد قالوا عن دور الحصري: فحينما انتقل الحصري إلى مصر مستشاراً للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية[3] رأى ساطع أن الضرورة تقتضي إنشاء معهد للدراسات العربية يخدم هذا الغرض، ويحقق هذه الغاية، وخرجت فكرة ساطع إلى حيز الوجود، فتقرر إنشاء المعهد وافتتح للدراسة في العام (١٩٥٣-١٩٥٤م/١٣٧٢-١٣٧٣هـ) وعين ساطع مديراً له وأستاذاً للقومية العربية فيه.

وفي حفل الافتتاح ألقى الحصري كلمة قال فيها:(باسم الله وباسم العروبة أفتتح العام الدراسي الأول لهذا المعهد: معهد الدراسات العربية العالية، الذي أنشئ بناء على قرار مجلس جامعة الدول العربية). وحدد النظامُ الأساسيُّ الذي أقره مجلس جامعة الدول العربية أغراض المعهد في مادته الأولى بالعبارات التالية:

١. إعداد شباب عربي مثقف ثقافة عربية عالية.

٢. نشر الثقافة العربية عن طريق التدريس والتأليف والنشر والمحاضرات العامة.

٣. إقامة فكرة القومية العربية على أسس علمية صحيحة.

٤. تكييف أسس الثقافة العربية بحيث تنتفع من تقدم المدنية الحديثة. وكان ساطع يقول لطلبته: إنه لا يكتفي من هذا المعهد بهذه الأغراض فحسب[4].

---

١) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٧٠.

٢) مجلة الرسالة-العدد (١٠٣٧)-بتاريخ ١٣٨٣/٧/١٢هـ(١٩٦٣)-السنة الحادي والعشرون-ص:٧.

٣) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٣.

٤) أبحاث مختارة-ساطع الحصري-٢١. وانظر: "ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٨٦". و"خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٣". و"ثقافتنا في جامعة الدول العربية -ساطع الحصري".

ثالثاً) ميشيل عفلق:

اختلفت الأحوال والظروف التي نشأ فيها ميشيل عفلق عن ظروف وأحوال الشخصيات الأخرى المؤثرة في تأسيس الجمعيات القومية العربية سابقة الذكر.

فقد نشأ عفلق بعد أن ظهرت مؤامرة الدول النصرانية على البلاد الإسلامية، وانهارت الدولة العثمانية والتي تعتبر حامية المسلمين، وتحولت إلى دولة علمانية[١]، وانهار حلم زعماء الثورة العربية بإقامة دولة عربية[٢]، وهو حلم مبني على وعود الدول الكافرة، وقد قال الله تعالى {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}[٣].

وبالمقابل فقد ظهرت في المشرق العربي عدة دول خضعت لنظام الانتداب: دخل العراق وفلسطين وشرقي الأردن في منطقة نفوذ بريطانيا، ودخلت سوريا ولبنان في منقطة نفوذ فرنسا[٤].

وظهرت في المجتمع العربي مقاومة المستعمر بمناهج مختلفة، فتعددت الحزبية، وظهر حب البروز والرئاسة عند بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية متمثلاً بالانقلابات والصراعات الدموية فيما بينهم[٥].

---

١) انظر: العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا-عبدالكريم مشهداني-٢٣٥-٣٠٥.

٢) انظر: ميسلون نهاية عهد-صبحي العمري-١٦٥-دار الريس للكتب والنشر-لندن-قبرص-الطبعة الأولى-١٩٩١. وانظر: معركة ميسلون-إحسان الهندي-مطابع وزارة الثقافة والسياحة -١٩٦٧.

٣) سورة البقرة- رقم الآية (١٢٠).

٤) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-١١.

٥) انظر: ١-مقدمة كتاب الأستاذ-زهير المارديني-٦٣-٧٨-الريس -لندن.

٢-عفلق والبعث-جوزيف الياس-١٠-دار النضال-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٩١.

وسوف أترجم لمؤسس حزب البعث العربي، متناولاً جانباً معيناً من حياته، وهو أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس جمعيات القومية العربية، مع تعريف موجز بالشخصية الذاتية. وعفلق هو مؤسس حزب البعث العربي، والذي يعد من أهم الأحزاب القومية المؤثرة في حياة المسلمين.

أولاً: تعريف موجز بالشخصية الذاتية:

من خلال تتبعي لكتب بعض أعضاء ومؤسسي حزب البعث -من أجل استخراج معلومات تتناول شخصية ميشيل عفلق- لم أعثر على كتاب يتناول سيرته[1] بالنقد والتحليل، وقد صُرّح بندرة الكتب التي تناولت عفلق بالدراسة[2]. ولهذا قال أحد تلاميذ عفلق بعد وفاته: إننا نعد العدة لدراسة منهجية شاملة تتناول كل مناحي تفكيره[3].

نشأ ميشيل عفلق إبان مرحلة الصراع التي عاشتها البلاد العربية بينها وبين المستعمر، فهو ولد في زقاق الموصلي في حي الميدان بدمشق عام ١٩٠٩م، أي بعد إعلان دستور السلطان عبدالحميد بسنتين[4]، وكان هذا التاريخ بداية تأسيس جمعيات القومية العربية والأحزاب ذات المقاصد المعينة.

ساعدته مهنة والده (يوسف عفلق) على العيش في المعترك الفكري، حيث تُعَدّ مهنة والده في المهن الرفيعة، فقد كان تاجر حبوب يشتري محصول الفلاحين

---

١) إن كتاب: الأستاذ-زهير مارديني. يعتبر قراءة في فكر ومنهج عفلق في تأسيس حزب البعث. وانظر: عفلق والبعث-جوزيف الياس.

٢) انظر: عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٨٠. (حاشية رقم ٣).

٣) عفلق والبعث-جوزيف الياس-١٦-دار النضال-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٩١.

٤) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-٣٦-المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٩٣.

من الحبوب (القمح بصورة خاصة)[1]. فأسرة عفلق من الأسر الغنية في ذلك الوقت، ولهذا فقد انتسب عفلق إلى المدارس المنهجية الطائفية، حيث تلقى تعليمه في مدرسة (الأسية) الثانوية في القصّاع للروم الأرثوذكس [2].

وينتمي ميشيل عفلق عقائدياً إلى المذهب الأرثوذكسي[3]، وهو بهذا يضاف إلى أعضاء جمعيات القومية العربية، الذين كان لهم دور بارز في تأسيس جمعيات القومية العربية.

وقد سكنت هذه العائلة النصرانية في حي الميدان وهو حي للمسلمين. ويعتبر هذا الحي مركز الحركة الوطنية في دمشق[4].

وفي الجانب الأُسري من حياة عفلق أظهر والدا عفلق اهتماماً كبيراً بالشؤون السياسية، وأُثِرَ عن والده اشتراكهُ في نشاط وطني واعتقاله لمعارضته الانتداب الفرنسي على سوريا، وهكذا شب عفلق في عائلة كانت تُعنى بالقضايا الوطنية وتتداول بالشؤون السياسية[5]. وأُمّه من فرع آل زيدان في دمشق ومنهم جورجي زيدان [6] الذي يعد من أبرز الشخصيات النصرانية التي خدمت الجمعيات.

تبدأ ترجمة عفلق الدراسية من المرحلة الثانوية حيث أنهى دراسته الثانوية وحصل وهو في سن التاسعة عشرة على منحة لنيل إجازة في التاريخ من

---

١) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-٣٧.

٢) المصدر السابق-٣٧.

٣) المصدر السابق-٣٧.

٤) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٧٤

٥) المصدر السابق-٣٧٤. وانظر: ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-.٣٩.

٦) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-٣٧.

السربون[١]، وقد قال عفلق عن نفسه:كنت تلميذاً في دمشق دون الثامنة عشرة، أهيأ لفحص البكالوريا[٢].

لقد سبق الحديث عن أثر البعثات العلمية في نشأة الجمعيات القومية العربية، وبخاصة ابتعاث الطلاب من سورية إلى فرنسا والتي كانت مُسْتِعَمْرَةً بلاد الشام، نجح عفلق في أول بعثة توفدها الحكومة إلى باريس للدراسة للحصول على إجازة لتدريس مادة التاريخ[٣] وكان ذلك في عام (١٩٢٨م –١٣٤٦هـ) وبعد دراسة الفترة اللازمة في السوربون بباريس عاد عفلق يحمل شهادة (الليسانس) في التاريخ[٤].

ومكث عفلق قليلاً في بلاده عام (١٩٣٣م–١٣٥١هـ)، ثم قفل راجعاً وفي نيته متابعة دراسة التاريخ للحصول على الدكتوراه وكان قد قطع شوطاً فيها بحصوله على دبلوم في تاريخ الفن اليوناني، الذي كان معجباً به وجعل طريقه إلى فرنسا من اليونان للتعرف على آثارها، إلا أن وفاة والده أعادته نهائياً والتحق بوظيفة التدريس حيث انخرط في العمل الأدبي وفي الحياة السياسية معاً[٥].

كانت بعثة عفلق العلمية من المؤثرات الأساسية على تكوينه الفكري، وتنظيمه الحركي، كما سأبينه في الفقرة التالية، وبعد عودة عفلق من البعثة وحصوله على إجازة في التاريخ[٦]، شغل منصب التعليم في تلك المادة، فعين سنة ١٩٣٢م في مدرسة (التجهيز) بدمشق (جودت الهاشمي الآن) وهي إحدى

١) حزب البعث العربي الاشتراكي–مصطفى دندشلي–٢٩.

٢) ميشيل عفلق الكتابات الأولى–ذوقان قرقوط–٦٩.

٣) المصدر السابق–٣٧.

٤) المصدر السابق–٣٩.

٥) المصدر السابق–٤٠.

٦) المصدر السابق–٤٠.

المدارس العليا في وطنه[1] وقد كانت الحكومة تختار من المحافظات عدداً من الطلاب النابهين وتوفدهم إلى المدرسة، معفيين من أقساط التعليم الباهظة ليتعلموا، وتيهئ لمعظمهم الأكل والنوم وتلزمهم بقيود المدارس الليلية الفرنسية.. لا يخرجون إلا أيام العطل[2].

وكان معظم الطلاب المعجبين بعفلق ينتسبون إلى القسم الداخلي في مدرسة التجهيز، وكان بعضهم من أبناء العائلات الكبيرة والأعيان ومن مختلف المناطق السورية .. وكان هؤلاء يفدون إلى دمشق بقصد التحصيل الدراسي، وعند التخرج كان يدخل هؤلاء سلك التعليم كمدرسين، والمحظوظون منهم كانوا يتجهون إلى المهن الحرة. وهكذا كانوا يحملون راية البعث، وينشرون أفكاره في مناطقهم المختلفة[3].

ومما لاحظته خلال البحث عن حياة أعضاء جمعيات القومية العربية، أن الكثير منهم، قد تولى منصب التعليم حتى وصل بعضهم إلى منصب الوزارة وهم بهذا استغلوا هذا العمل من أجل غرس المبادئ القومية في نفوس الطلاب، قال عفلق: ولا يجهل أحد من تلاميذنا وأصدقائنا أننا كنا نسعى دائماً في تدريسنا وكتاباتنا أن نلقح فكر النشئ العربي بأفكار الفيلسوف الألماني (نيتشه)عدو الاشتراكية)[4].

---

١) عرب معاصرون-مجيد خدوري- ٣٧٧. وقد قال المؤلف: لقد عرفت عفلق معرفة حميمة.(٣٩٤).

٢) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-٣٩.

٣) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣٦.

٤) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٢٧.

ويقول أحد طلابه :(إن طلاب عفلق، بل مريديه كانوا يرددون أفكار عفلق، وكان يتلوها بعضنا على بعض ونتغنى بها سكارى على اختلاف أدياننا وطوائفنا حيث لا فرق بيننا، ولا يضعفنا أننا قلة وأننا وحدنا .. لقد كان تفاؤل (أستاذنا) عفلق يغمرنا لقد أطلقنا عليه (محمد ميشيل)[1].

واستمر عفلق في منصب التدريس حتى كشفت بعض أفكاره ومبادئه[2] وفصل من الوظيفة سنة (١٣٦١هـ -١٩٤٢م)، وكتب رسالة يبين فيها مآخذه على طريقة التعليم وسبب إقالته، فمما جاء فيها على لسانه ولسان رفيق دربه صلاح البيطار: (..ننتظر تعليماً صحيحاً نزيهاً يحدث الانقلاب الفكري والأخلاقي العميق، وينشئ لنا الجيل العربي المنشود..نعرف أستاذين أو ثلاثة استطاعوا أن يجعلوا من مدرستهم مركز إشعاع الفكرة العربية والبعث العربي، والعالم العربي يتطلع إلى كلماتهم، وشباب العرب يقدسونهم تقديساً. أما رئيس التعليم الثانوي فقد استطاع أن يجعل من أكبر مدرسة وطنية (تجهيز دمشق) عربية ملتقى الأشتات والأجناس من المعلمين، لا يخطر الواجب القومي للكثيرين على بال..)[3].

واستمر عفلق وهو خارج ميدان التعليم يجمع الطلاب من حوله، حتى تألفت حكومة هاشم الأتاسي في شهر آب ١٩٤٩ بعد القضاء على حكومة حسني الزعيم.. وكان أن دخل ميشيل عفلق وزيراً للتربية. ويذكر القوميون عن هاشم الأتاسي بأنه كان عطوفاً على حزب البعث، وكانوا هم يبادلونه الود

---

١) ميشيل عفلق (الكتابات الأولى)-ذوقان قرقوط-٢٣٢و٢٣٤.

٢) انظر: دولة البعث وإسلام عفلق-مطيع النونو-٦٨-٧٠ عن الحادثة التي كان فيها كشف أفكار ومبادئ عفلق، مما جعل من مسؤول التعليم في سورية يقرر إقالته عن وظيفة التعليم.

٣) ميشيل عفلق (الكتابات الأولى)-ذوقان قرقوط-١٨٢-١٨٥(بتصرف).

والاحترام. ومن البديهي أنه هو الذي أصر على إشراك البعث في وزارته رغم معارضة عناصر أخرى لهذا الاشتراك[1].

وقد يكون هذا المنصب الوزاري من أوائل الأعمال السياسية التي قام بها عفلق، وقد رافقت بدايات إعلان تأسيس حزب البعث العربي.

ولما نشأ الخلاف بين مؤسسي أعضاء حزب البعث وفقد عفلق السيطرة عليها سافر إلى البرازيل عام (١٩٦٤م -١٣٨٣هـ) ولم يرجع إلا بعد أن تولى حزب البعث مقاليد الحكم في العراق في سنة (١٩٦٨م-١٣٨٧هـ)[2]، وذلك بناء على طلب من الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، وانهمك عفلق منذ عودته في النشاط السياسي وحاول اجتذاب تأييد القوى الشعبية لتأييد حكومة البعث في العراق[3].

في عام ١٩٨٩م صدر بيان رسمي عن قيادة الحكم في العراق يعلن وفاة ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث العربي.. ودفن في العراق[4].

يحدث رفقاء عفلق وطلابه، عن بعض صفاته الشخصية، مع اعتبار أن عفلق هو المؤسس والمنظر لحزب البعث، بل قد قيل عنه: (هل يمكن أن يكون هناك

---

١) حزب البعث العربي-جلال السيد-٧٥.

٢) انظر عن وصول حزب البعث إلى سلطة الحكم العراقي:

١. دولة البعث وإسلام عفلق-مطيع النونو-٣٠٣-٣٠٦.
٢. حزب البعث تاريخه وعقائده-سعيد الغامدي-٢٤.
٣. العراقي الاشتراكي-مجيد خدوري-٢٩٥-٣٢٤.

٣) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٨٨-٣٩١(بتصرف).

٤) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-٢٢٩.

حزب بعث عربي بدون ميشيل عفلق؟ أنا لا أتصور أن ذلك ممكن. إذن فإن وجود ميشيل عفلق في الحزب هو أمر لا بد منه ولا يمكن الاستغناء عنه)[١].

والصفات التي ذكرت عنه، تعتبر صفات نقص في شخصية الرجل القيادي والذي لا يمكن الاستغناء عنه في الحزب، ومن هذه الصفات:

أ) الخوف من مخاطبة الجمهور: لم يكن عفلق الخطيب المفوه الذي يستطيع بفصاحته وتدفقه أن يؤثر في الجمهور ويلهب مشاعره.. كان عفلق بطبيعته إنساناً انعزالياً منطوياً على نفسه، إذا تحدث فإنما إلى فئات قليلة، وإذا مارس السلطة والنفوذ فمن وراء ستار[٢]. وقد قال الشيخ علي الطنطاوي وهو أحد زملاء عفلق في الدراسة: لم يكن بارزاً فيه سمةٌ محددةٌ، سوى الاعتداد بالعروبة والمفاخرة بخصال العرب، وسوى تلك السمة فلم يكن متميزاً بين الطلاب لا بتفوق كتابي ولا بحضور خطابي ولا بعمق فكري[٣].

ب) ضعف التفكير وتحديد الأولويات: لأول وهلة مما يلفت الانتباه عنده هو ذلك البطء المحير البطء في طريقته بالتفكير وبالحياة، وهو كمفكر ومنظر لحركة البعث، لم يظهر أبداً كرجل عمل وممارسة. لأن ما ينقصه بالتحديد هو تلك الدينامية النضالية اللازمة خصوصاً لقائد سياسي مثله[٤].

ج) عدم القدرة على إدارة الاجتماعات والمناقشات العامة: نظراته يلقيها بخجل، وحساسيته تبلغ حد الإفراط. ويلاحظ أنه كان يتجنب قدر الإمكان

١) حزب البعث العربي-جلال السيد-٦٦.

٢) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٨٥.

٣) مجلة المعرفة-العدد العشرون-ذو القعدة لعام ١٤١٧هـ-ص:١٦١.

٤) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣٠.

الاجتماعات والمناقشات العامة، في داخل الحزب وضمن سلطاته العليا كاجتماعات القيادة القومية التي كان يتولى فيها دائماً منصب الأمين العام، كان يتضايق لأقل الأسباب، خصوصاً عندما يوضع خطه أو فكره السياسي موضع التساؤل، وكان يقاطع اجتماعات الحزب، وفي بعض الأحيان كان يلوذ بالسفر إلى الخارج[1].

د) ضعف القراءة والإطلاع: لم يعرف عن عفلق بأنه كان مواظباً أو مكثراً في قراءته. وقد قيل عنه: فكر عفلق السياسي لم يَغْنَ أبداً بالقراءات المتواصلة والمعمقة. كما أنه هو نفسه يصرح بأنه: (فقد الصلة مع تيارات الفكر الغربي مع مطلع الحرب العالمية الثانية)[2].

هـ) الكتمان والتردد في اتخاذ القرار: يلوذ بالكتمان إلى درجة يصعب فيها حتى على أقرب المقربين إليه أن يدركوا حقيقة نواياه. وفي الفترات الصعبة، والأزمات السياسية، نادراً ما يأخذ موقفاً اللهم إلا إذا دفع إلى ذلك أو أجبر عليه. وكذلك فإنه -فيما خلا كلمة الافتتاح الترحيبية- نادراً ما يتحدث في المؤتمرات القومية للحزب. وأحب شيء إلى نفسه أن يقف موقفاً وسطاً وأن يَعُدّ النقاط للمتخاصمين[3].

ز) الإهمال في العمل الإداري للحزب: لم تظهر على حزب البعث في شخص عفلق كفاءة الحكم وقابليات الإدارة... وعندما استلم حزب البعث الحكم بعد عام ١٩٦٣م كان على نمط ما كان عليه عفلق في وزارته، فقد كان عفلق متردداً

---

١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣٠.

٢) المصدر السابق-٣١.

٣) المصدر السابق-٣٠.

سادراً وكان مهملاً لشؤون وزارته، لذلك كان (الديوان) هو الذي يتصرف على هواه والتوقيع توقيع الوزير. وكم من مرة اكتشفنا مثل هذه الحوادث التي وقع عليها الوزير و لم يكن يدري عنها شيئاً[1].

ويرى بعض أعضاء حزب البعث أن لاتصاف عفلق بالصفات سابقة الذكر، ولأسباب أخرى غيرها، حصل بروز قضيتين في حزب البعث العربي:

أولاً) أن غالبية معارضي عفلق وألد خصومه كانوا في فترة من الفترات من أنصاره وأتباعه المقربين إليه، وأن انتقاداتهم العنيفة ضده اليوم، هي على قدر (عباداتهم الشخصية له بالأمس)[2].

ثانياً) كما أبرزت صفاته السابقة أنه لم يخلق للمراكز التنفيذية.. وأن دوره في المجال السياسي لا يتعدى إعداد الأهداف وتزويد قادة الحزب بالنصح والتوجيه دون تحمل المسؤليات المباشرة[3].

ب) أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس جمعيات القومية العربية:-

إن الهدف الرئيس في الحديث عن شخصية ميشيل عفلق، هو بيان أهدافه ومآثره في تأسيس جمعيات القومية العربية، ومن الناحية التاريخية فإن عفلق يعتبر من آخر مؤسسي جمعيات القومية العربية.

وحزب البعث، يسير على المنهج الذي سلكته الجمعيات وفق متطلبات العصر الذي نشأ فيه. وعن هذا يقول أحد منظري حزب البعث العربي

١) حزب البعث العربي-حلال السيد-٧٧.

٢) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣١.

٣) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٨٠.

الاشتراكي[1]: إن حزب البعث ولد استجابة حية لضرورات سياق التاريخ العربي، ولحتميات عوامل التاريخ الفاعلة في المجتمع العربي.

وعن منهج مقاومة حزب البعث للمستعمر، ومدى اتفاقها أو اختلافها مع عقيدة المجتمعات الإسلامية، يقول: (لقد حاولت الأقطار العربية.. أن ترد على التحدي الاستعماري الطارئ -وهي محتفظة أول أمرها بمجتمعها التقليدي العتيق الراكد الذي استراحت إليه قروناً من الزمن- ولما فشلت في ذلك انتقلت إلى مرحلة جديدة تحاول أن تؤكد ذاتها فيها بالعكوف على تراث السلف وإحيائه وتطهيره، علها تجد في هذا العكوف طريق خلاصها، ولما تبينت أن الاستعمار الغربي ليس مجرد عدوان، وإنما هو هجمةُ حضارةٍ جديدة، وقيم جديدة، وعلم جديد، لا قبل للتراث وحده بأن يقف أمامها، انطلقت بزعامة بعض مثقفيها وزعمائها التقليديين ووجهائها تريد أن تأخذ من الغرب كل ما يعطيه لتحاربه به، فولدت بذلك الحركات الوطنية التي أطلقت شعار الاستقلال)[2]. وأكد بأنه يجب على الأمة أن تنطلق وتنبعث برسالة مستمدة من حقيقة وجودها كأمة عربية، ومن تاريخها الذي جُبل مع طبيعتها، ومن موقعها الجغرافي كأمة وسط بين الشرق والغرب[3].

إن حزب البعث سلك الأسس والمبادئ التي اتخذتها جمعيات القومية العربية أثناء انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، فعقيدة حزب البعث العربي: (أمة عربية واحدة، آمن بوحدة الأمة، ووحدة اللغة والتاريخ والأرض وكانت الأساس الذي بنيت عليه وحدة الأمة العربية[4].

١) انظر:حزب البعث تاريخه وعقائده-سعيد بن ناصر الغامدي-دار الوطن-الطبعة الأول-١٤١١هـ.

٢) الأعمال الفكرية والسياسية-منيف الرزاز-١٣/٢و١٥-مؤسسة منيف الرزاز للدراسات القومية-الطبعة الأولى-١٩٨٦.

٣) الأعمال الفكرية والسياسية-منيف الرزاز-٣٥/١.

٤) المصدر السابق نفسه-١٥٩/٣.

ولتأكيد اتفاق حزب البعث مع منهج جمعيات القومية العربية دافع الحزب عن تنظيم ومخطط ساطع الحصري العلماني الذي قدمه إلى التعليم السوري. ورفضه المجتمع، فقد قال أحد مؤسسي حزب البعث منتقداً جريدة الحزب،التي سايرت ثورة الطلاب ورجال التعليم في سورية[1]، وفي دمشق خاصة ضد الأستاذ ساطع الحصري: (كان المفروض أن الجريدة ستنبري للدفاع عنه وتتولى هي مخاصمة التيار، **لأن قيادة الحزب كانت متفقة مع آراء ساطع الحصري في القضايا القومية. والقيادة عممت على الحزبين في بلاغ لها خاص وجوب مطالعة كتب الأستاذ الحصري)**[2].

أفاد أعضاء حزب البعث بأن ابتعاث عفلق -الأمين العام للحزب لربع قرن- إلى فرنسا لفترة ما بين (١٩٢٩م-١٩٣٣) كان له الأثر البارز في فكره، مما طبع الحزب بطابعه وأثر فيه تأثيراً عميقاً، ليس على الصعيد الأيديولوجي فحسب -الأمر الذي لا يمكن نكرانه- بل أيضاً على صعيد التنظيم الحزبي والعمل السياسي واتخاذ المواقف[3].

ويمكن حصر أبرز العوامل المؤثرة في التكوين الفكري لعفلق أثناء بعثته إلى فرنسا، وبيان دورها في تأسيس جمعيات القومية العربية. كالتالي:

١) انضمامه للجمعيات والحركات القومية الطلابية: سبق الحديث عن دور الثورة الفرنسية خاصةً، والبلاد النصرانية عامة، في تأسيس جمعيات القومية العربية، كما نشأت من قبل في فرنسا جمعيات قومية، وقد ذكر

---

١) انظر: مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٨٠.

٢) حزب البعث العربي-جلال السيد-٥٢.

٣) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-١٩.

طلاب عفلق بأنه أثناء ابتعاثه إلى باريس انضم إلى تلك الجمعيات، التي يقودها الطلاب في المهجر. قال أحد طلابه: (في باريس أثناء دراسته بالسوربون، لم يكن ميشيل منكباً على دراسته، منعزلاً كما قد يظن لخجله وانطوائيته، إذ لم يعتبر الدراسة أبداً منفصلة عن العمل، ولا الفكر منفصلاً عن قضية بلاده.. وبدافع انفعاله بأحداث بلاده حاول أن يقابل وهو في باريس، -ولكن على غير موعد-، الملك فيصل، فلم تتسنى له مقابلته.

لم يكن عفلق بعيداً عن الحركات الطلابية العربية وجمعياتهم، فقد شارك في نشاط الأحزاب القومية[1]، واندمج فيها وعاش آمالها: لأنه يقرر أن النظريات الغربية تكون لها فائدة عظمى للقضية العربية، وقضية شعوبها، إذا تناولتها عقول مرتبطة بالقضية القومية، وتصبح خطراً كبيراً إذا تسلمها أشخاص فاقدو الصلة الحية بالأرض والشعب..).. ومن هنا كان ميله وتعاطفه للعمل في صفوف اليسار والأحزاب والحركات اليسارية في فرنسا وفي أوربا، ..لذلك كان الحزب الشيوعي الفرنسي مناط رجائه واجتذبه للعمل في صفوفه، وتَسَقّط ما يصدر عن كُتّابه، منذ بداية، معاداته للاستعمار[2]. ومن الجمعيات القومية في المهجر، التي انضم إليها عفلق: الجمعية العربية السّورية، وجمعية الثقافة العربية[3]، وكلتاهما تأسس في باريس.

٢) تأثر عفلق بأفكار ومبادئ جمعيات الغرب وفي هذا المنحى يقرر ابن خلدون في مقدمته:(أن المغلوب مولعٌ أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده)[4].

---

١) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٧٨.

٢) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-.٣٩.

٣) مقدمة كتاب في سبيل البعث-٧-عفلق.

٤) المقدمة -ابن خلدون-١/١٩٥.

كما أرجع ابن خلدون سبب الاقتداء إلى اعتقاد كمال الغـــالب في نظـــر المغلوب، وهذا السبب متحقق في أكثر أعضاء جمعيات القومية العربيـــة، مثـــل: ميشيل عفلق الذي قال: (..إذا اشتقت أن أسمع صدى نفســـي فـــالغريب أني لا أنشده في قصة عربية، بل في قصة روسية أو فرنسية. هكـــذا تصـــور لي كتـــب (دوستويفسكي) و(جيد)[1] نفسي بصدق وأمانة أكثر من الأدباء الذين أعيـــش وإياهم في بلد واحد وأشعر معهم بنفس الشعور)[٢].

ومن هذا المبدأ تأثر عفلق بطريقة وتنظير الغرب في تأسيس جمعيـــات ذات أهداف محددة، قال معبراً عن أهدافه: (إننا عدنا إلى الوطنَ نحمل فكرة الاشتراكية كتعبير عن الغايتين اللتين وقفنا أنفسنا على تحقيقهما: مكافحة الاستعمار الأجنبي، ومكافحة الرجعية الداخلية بكل أشكالها). وقد (تأثر بالانضبـــاط والتمســـك الشيوعي اللذين علماه عن كثب الأساليب العملية التي يتبعها حزب سياســـي رائع التنظيم) كما قيل عنه[٣].

ولا يعني عفلق بعبارته (مكافحة الرجعية) إلا المعتقد الذي ينادي بـالعودة إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. وقال أيضاً: (وقد فهمنا عن طريق تلـــك الفكـــرة أن

---

١) اندريه جيد:(١٨٦٩ – ١٩٥١): كاتب فرنسي. يعتبر من ألمع الوجوه في الأدب الأوروبي الحديـــث. وضع نحوا من ستين أثرا في الرواية، والمسرحية، والنقد، واليوميات، والسيرة الذاتية. منح جائزة نوبـــل في الآداب لعام ١٩٤٧. من آثاره: <الباب الضيق> étroite La Porte (عام ١٩٠٩), و<الســـيمفونيَة الريفية> La Symphonie Pastorale (عام ١٩١٩). ومن كتبه المنقولة إلى اللغة العربية: كتاب أوديـــب ثيسيوس-ترجمة طه حسين-دار العلم للملين-الطبعة الخامسة-١٩٨٥. وكتاب مدرسة الزوجات-تعريب صـــبري فهمي-دار الكتاب المصري-الطبعة الأولى-١٩٤٧. ومزيفو النقود-ترجمة هيج شعبان-عويدات-بيروت-لبنـــان-١٩٨٤. قوت الأرض والقوت الجديد-ترجمة شكيب الجـــابري-عويـــدات-بـــيروت-لبنـــان-الطبعـــة الأولى-١٩٦٥.انظر: (الموسوعة العربية-البعلبكي).

٢) الإستاد (قصة حياة ميشيل عفلق)-زهير المارديني-٩٢-الريس -لندن.

٣) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٧٦.

النضال ضد المستعمر لن يكون صادقاً، شاملاً، مجدياً إلا إذا كان نضالاً شعبياً. ..وفهمنا أيضاً أن هذا النضال مرتبط أوثق الارتباط بحالة الأمة الفكرية والأخلاقية وأنه لا بد لنجوع النضال ضد المستعمر من تهيئة انقلاب فكري يغير المفاهيم القديمة العقيمة ويهز النفوس إلى الأعماق.. ويخلق لها نظرة أخلاقية جديدة جدية)[1] وكل هذه التقريرات هي محاربة لدين الله ولعباده الصالحين.

تبنى عفلق المنهج الشيوعي في التنظيم الحركي، فقد أكد أحد رفقاء عفلق: (بأنه -وهو في باريس -قد تأثر بالموجة الشيوعية، وعمل مع الشيوعيين، ولكن هذا العمل كان نتيجة تصميم وتدبر، ولم يكن نتيجة عقيدة وإيمان، وقد كان الحزب الشيوعي الفرنسي جذاباً)[2].

إن تاريخ عفلق الفكري يبدأ من تلقيه الأفكار الشيوعية في بلاد أوربا، قال طلابه: (إن تاريخ عفلق الحقيقي، هو تاريخه الفكري، لقد التقى فيه على الانسجام والوفاق لأخصب تيارات الفكر الإنساني من (ماركس) إلى (نيتشه) ومن (جيد) إلى (دستويفسكي واهرنبورغ) مع أعمق الوعي للتراث العربي)[3].

واعتبر عفلق هذه الأفكار والمعتقدات ديناً لحياته، قال: (إذا سئلت عن تعريف الاشتراكية فلن أنشده في كتب (ماركس) و(لينين) وإنما أجيب أنها دين الحياة، وظفر الحياة على الموت)[4].

---

١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٢٧.

٢) حزب البعث العربي-جلال السيد-٣٨.

٣) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)-زهير المارديني-٨٨.

٤) المصدر السابق-٨٩.

٣) نقل المبادئ والأفكار الملحدة إلى الأمة المسلمة: يمثل عفلق أحد عوامل الإفساد في المجتمع الإسلامي، والقضاء على عقيدة أهله، ولهذا يقول عفلق: (إن القومية العربية هي الدين الجديد الذي أفرزته الأمة العربية في الوقت الحاضر.. وإذا كان الدين قديما يقول كلمته في أوضاع الأمة جميعا.. فإن القومية العربية اليوم هي: نظرية متكاملة لحياة ونظام للمجتمع، لها رأيها الصريح في الاقتصاد والنظام والأخلاق والإنسانية والدين)(١).

وأثناء وصول قيادات حزب البعث للسلطة في العراق، قال أحد طلاب عفلق وأحد مؤسسي حزب البعث في العراق:(في طريقي إلى مرسلات الإذاعة كنت استمع إلى بيان الحزب الأول وهو يتلى، ولفت انتباهي عبارات وأفكار تضمنها البيان غريبة عن لغة الحزب السياسية وجديدة علينا، كـ(عدو الله وعدوكم) و (الترفع عن الضغائن والأحقاد). وبرغم أن مسألة الإيمان بالله كانت محسومة في الحزب، و لم يطلها أي نقاش أو تساؤل، فإن خطاب الحزب السياسي كان ذا لثغة علمانية ورنين قومي)(٢).

لقد تأثر عفلق بالمعتقدات الإلحادية ونقلها إلى المجتمع الإسلامي، ويمكن حصر دور عفلق في نقل الأفكار الإلحادية، بما يلي:-

أ) نقل وترجمة الأفكار إلى المجتمعات الإسلامية: إن عفلق بمعتقده النصراني ألمح إلى تأثره بمعتقدات كتاب ملاحدة أوربا، فمن ذلك تأثره بكتابات (جيد) ، يقول: (قذفت بي الصدفة إلى باريس، فاصطدم المستنقع الذي كنت أحمله معي- حياتي القديمة- بإقيانوس خضم الحياة، أسلمت نفسي لأمواجه، عندما ذقت

---

١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٨٤.

٢) أوكار الهزيمة -هاني الفكيكي-٢٦٧.

حلاوة لمسها وخفة دعابها. هناك على الشاطئ وقدماي ما تزالان في تردد.. لمحت ساحرا جديدا قوي الجسم طلق المحيا..صوت سحري جديد استهواني لأنه متصل بأعماق كياني وكيان كل شاب .. أو عجب أن يلقى صوت (جيد) ذلك الصدى في قلوب الشباب وهو أول كاتب خاطبهم.. وأتاهم بدين جديد، دين الحماس، بعد أن انقضى كل القرن التاسع عشر بين نواح الرومانتيزم وبرودة الكتابات العلمية والروايات الواقعية)[1].

ويعتبر طلاب عفلق تأثر (أستاذهم) بأصحاب تلك الأفكار من المناقب المحمودة له، قال أحدهم: (عندما كان يدرس في باريس كان (أندريه جيد) في أوج تألقه، وراح يزيد من إشعاعه ميله إلى كفة اليسار. ولكن (أدب أندريه جيد) نفسه يحمل نكهة جديدة ونفحة من التجديد والصدق لم يشهد الأدب الفرنسي مثيلا لها.. فضلا عن أن (جيد) نفسه كان محور استقطاب الجيل)[2] كما تأثر عفلق تأثرا عميقا بالكتاب الفرنسيين أثناء إقامته في باريس، .. لقد أمكننا أن نقرأ على غلاف أعداد كثيرة من (الطليعة) الأسبوعية مقاطع طويلة مأخوذة من مختلف أعمال (رولان) و(جيد) و(نيتشه) مترجمة إلى العربية بقلم عفلق على الأرجح[3].

ب) الكتابات الأدبية: إن من منهج جمعيات القومية العربية -في إبراز مسمى ومقصد الجمعية- الاهتمام بالجوانب الأدبية[4]، واتخذ عفلق ذلك المنهج، يقول

---

١) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-٦٩.

٢) المصدر السابق-٤٣.

٣) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٢٠.

٤) انظر:عبرة وذكرى (الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده)-سليمان البستاني-٥٥.

طلابه: (بعد عودته من فرنسا وانخراطه في معمعان الكتابة كانت صحف دمشق تقدمه كـ(أديب وشاعر يقدم رسالة إلى العربية لنيتشه وجيد)[١].

كانت جريدة الأيام من المجلات القومية التي نشر فيها عفلق أفكاره والتي تعد من كبرى الصحف الدمشقية التي كانت تقود النضال، والتي كانت تصدرها (الكتلة الوطنية)، وكان يرأس تحريرها المناضل العربي[٢].

تحدث عفلق عن أثر الآداب والقصص الفرنسية في نفسه، فيقول: (قلما أقرأ القصص العربية لأني لا أجد فيها ما يتجاوب مع نفسي ويروي ظمأ فكري..فإذا ما قرأت قصة لتيمور مثلا أجد فيها أشخاصا ظرفاء نادرين، يضحكونني تارة ويستثيرون دهشتي تارة أخرى، ولكنهم لا يستفزون حماستي ولا يدخلون إلى قلبي لأني لا أجد فيها الإنسان، أما إذا اشتقت أن أسمع صدى نفسي فالغريب أني لا أنشده في قصة عربية، بل في قصة روسية أو فرنسية، هكذا تصور لي كتب (دوستويفسكي) و(جيد) نفسي بصدق وأمانة أكثر من الأدباء الذين أعيش وأياهم في بلد واحد وأشعر معهم بنفس الشعور)

ثم يطالب عفلق أدباء عصره باتخاذ منهج القصص الأوربية، فيقول:(ولا أعتقد أن القصة العربية تنجح إلا إذا بطلت تلك الفكرة السائدة بأنها نوع خاص من الأدب، وأصبحت شاملة لكل حياة الإنسان، تدخل في السياسة والاجتماع والفلسفة معا فلا تعود تقرأ للذة والطرفة، بل لاستشفاف الحياة الإنسانية العميقة[٣].

---

١) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-٤٣.

٢) الإستاد (قصة حياة ميشيل عفلق)-زهير المارديني-١١٥.

٣) المصدر السابق نفسه-٩٢.

كان لترجمة عفلق لقصص وأدبيات الغرب -وبخاصة في فرنسا- أثر على تلاميذه، فقد تعرف في فرنسا، على كتابها وفلاسفتها، وكان هو وراء تأثر تلاميذه في سوريا وإقبالهم على ترجمة مؤلفاتهم حتى قبل أن يوفدوا في بعثات للدراسة في فرنسا(١).

ج) ترجمة حياة أدباء الغرب والثناء على سيرهم: لقد وصفت المجلات القومية عفلق في بدايات كتاباته الأدبية بأنه: أديب وشاعر يقدم رسالة إلى العربية لنيتشه وجيد(٢).

إن في نشر عفلق لتراجم وسير حياة أدباء فرنسا، -وسورية خاضعة للاحتلال الفرنسي- تبريرا للاحتلال واستمراريته، وهذا أمر مناقض للشعارات التي تعلنها جمعيات القومية العربية، أليس من أهداف مناهجها وبرامجها مكافحة الاستعمار؟!!.

وعند استعراض عفلق لحياة الأديب الفرنسي (مارسل بروست) قال: (الأديب كالنبي، لابد أن يضطهد من أجل رسالته، لولا فرق بينهما يميز الأديب على النبي؛ وهو أن هذا يحمل في جديده بذور الموت، إذ أنه يجيء بجديد يفرضه على المستقبل، ويحرم عليه التجديد، في حين أن جوهر الأدب حرية لانهاية لها(٣).

ومن أمثلة ثناء عفلق في إطار ونشر كتب مفكري فرنسا قوله عن مارسيل بروست وكتاباته: (أول صلتي وتعلقي به لأني قرأت فيها حقيقة نفسي المرة، وحقيقة كل نفس بين جوانحها وحشا هداما، يجمع بين رقة الشاعر وقسوة الجلاد)(٤).

---

١) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقروط-٤٤.

٢) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-١٠١.

٣) ميشيل عفلق (الكتابات الأولى)-ذوقان قرقوط-٧٦.

٤) المصدر السابق-٨٠.

وقال أيضا: (قد لقي بروست في فرنسا من المقاومة أشكالا وألوانا، فلا أحسب حظه أن يكون أوفر في البلاد العربية، بل إني أتوقع له فيها مقاومة أشد. لأن الأصنام التي نصبت أمامه ومنعت عنه معبد الأدب حينا، هي نفس الأصنام التي تقف في بلادنا حائلا دون كل تجديد:عادات الفكر، وطرق الإنشاء)[1].

ومن إشادة عفلق ببعض أدباء روسيا، قوله: (منذ أشهر احتفلت بلاد السوفيات ومعها كل أوربا بذكرى مرور خمسة وعشرين عاما على وفاة تولستوي. وإنها لفرصة سانحة كيما نتوقف هنيهة عند هذا الفنان الكبير وحياته المفجعة)[2] .

٤) طلاب المدارس نواة حزب البعث: بدأ عفلق في استغلال الطلاب لنشر الفكر السياسي وهو في باريس حيث شارك في نشاط الطلاب السياسي، و التقى طلابا عربا من بلدان أخرى شاركهم اتحادا للطلاب العرب، ينادي باستقلال الوطن العربي ووحدته[3].

ولما عاد عفلق إلى سورية وتم تعيينه في مجال التعليم استغل هذا الميدان الشريف في نشر أفكاره، حيث يقول: (ولا يجهل أحد من تلاميذنا وأصدقائنا أننا كنا نسعى دائما في تدريسنا وكتاباتنا أن نلقح فكر النشئ العربي بأفكار الفيلسوف الألماني (نيتشه) عدو الاشتراكية)[4].

ويؤكد أحد أعضاء حزب البعث على أن الذي كان يعنى مؤسسي الحزب في الأصل أكثر من أي شئ آخر هو (الدعوة للفكرة العربية) لهذا السبب أخذوا على عاتقهم مهمة ايجاد حركة روحية قادرة على استقطاب النفوس الصافية والخيرة[5].

---

١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٧٦.

٢) المصدر السابق-٩٠.

٣) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٧٥.

٤) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٢٧.

٥) المصدر السابق نفسه-٥٧. وانظر: في سبيل البعث-ميشيل عفلق-٨٨-٨٩.

لذلك بدأ عفلق في تكوين نواة الحزب من الطلاب وأطلق عليه رئيس جمهورية الاستقلال (شكري القوتلي) لقب:(معلم الأولاد الصغار)[1] قال أحد المؤسسين: (أول نشأة الحزب كانوا من الطلاب. وكان وجود عفلق والبيطار في التدريس هو السبب في ذلك. وقد استهويا طلابهما وجذباهم إلى الحزب. كما أن الطلاب يعدو بعضهم بعضاً وتستجر فئة منهم الأخرى)[2].

ومما ساعد عفلق على نشر أفكاره ومعتقداته البعثيه بين الطلاب؛ هو واقع الأمة في محاربة المستعمر بأي منهج، وقد كان النفوذ والسلطة في بلاد الشام للمعتقد القومي، ولهذا لم يستطع عفلق التأثير إلا في الشبان المسلمين الذين طغى ولاؤهم للوطن على ولائهم للدين، أما الكهول، الذين لا يزال المقام الأول عندهم للدين، فإن تأثرهم بهذه الآراء لم يكن سهلا[3].

وقد وجه عفلق نداءً إلى إخوانه النصارى داعياً إياهم إلى الانخراط في حركة القومية العربية، وإلى اعتبار الإسلام قافلة قومية مرتبطة ببيئتهم الطبيعية وتاريخهم[4].

وبما أن الطلبة جزءٌ من كان يهمهم استقلال بلادهم، فانغمسوا في السياسة إلى حد بعيد، وبعد الحرب العالمية الثانية خاصة..ووجد عفلق في رفقة الطلبة ما يوافق هواه، لما لمسه فيهم من اندفاع لم يستنكفوا معه الجلوس عند قدميه والاستماع بشغف إلى شرح مفصل وواضح لأفكاره وآرائه الشخصية عن أوضاع بلدهم...لا يفتأ التلاميذ أن يحملوا كلمات معلمهم لينشروها بين عدد أكبر من السلمعين، ثم أخيراً بين الجماهير.

---

١) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)-زهير المارديني-٨٥.

٢) حزب البعث العربي-جلال السيد-٢٩.

٣) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٨٥.

٤) نضال البعث-ميشيل عفلق-١/٣٣-٣٥ .

أدى الطلاب والشبان -الذين يشكلون نواة أنصاره- دور الطليعة في حركته السياسية، والواقع أن قوته السياسية اعتمدت على هؤلاء متخذة منهم وسائل لنشر آرائه السياسية.. وغدا هؤلاء الطلاب المؤيدين المرتقبين لحزب البعث القادم[1].

ولعظيم تأثير عفلق على الشباب، قال أحدهم: (قرأنا له في سن مبكرة، فأعجبنا به أيما إعجاب، وتأثرنا بأفكاره وآرائه.. ورأينا فيه قدوة الشباب القومي المتحرر وضمير الشعب العربي)[2].

لقد كان عفلق في نظر مريديه يومئذ أستاذهم اليومي، بل كان أكثر من أستاذ، وكانوا له أكثر من تلاميذ، كانوا الظل الذي يتبع خطاه يتعلمون من أقواله ويرافقون حديثه القصير والمنقطع، وصمته الطويل، وكانوا يعتقدون أنه إن لم يكن في نفوسهم إلا بعض الخير فهو من صنعه)[3].

وبعد أن بلغ تأثيره على الطلاب نحو ما ذكر أسس منهم نواة حزب البعث، وبدأ في الإعلان عن قيام الحزب قال أحد المؤسسين: (في خلال عام ١٩٤٢م - ١٣٦٠هـ) قال عفلق: ما دمنا متفقين إلى هذا الحد، وما دمنا قررنا أن الأحزاب السياسية في هذا البلاد لا تستطيع في تركيبها الراهن أن تقوم بالواجبات القومية والوطنية، وما دمنا مؤمنين بضرورة إيجاد تكتل من نوع جديد يحمل على عاتقه عبء القضية القومية على طراز أفضل مما نرى، فما قولك بتأسيس حزب جديد نكون نحن نواته والمشرفين على تنظيمه. فأجبته بالإيجاب بلا تردد ولا إعمال نظر لأن الفكرة كانت مختمرة عندي من قبل وكنت أبحث عن العناصر الشريكة في

---

١) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٨٤-٣٨٥و٣٧٧.

٢) عفلق والبعث-نصف قرن من النضال-جوزيف الياس-٩.

٣) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)-زهير المارديني-٨٥.

هذا البناء الذي تصورته ضروريا لهذا الوطن.. وبعد اجتماعات أخرى اتفقنا على أن يكون اسم الحزب (البعث العربي)[1].

٥) موقف عفلق من الإسلام ومن حياة الرسول ﷺ: إن عفلق لم يغفل عند تأسيس حزب البعث بعض الأمور التي قد تكون مساعدة له في تقبل الناس لمبادئ الحزب، من أهمها:

أ- المجتمع الإسلامي الذي ما زال بسببه في الناس بقية خير، مع شدة الضغوط عليه بإبعاده عن الدين وإلزامه القومية العربية دينا بديلا.

ب- مآل الحركات والجمعيات سواء أكانت العربية منها أم الغربية التي صادمت الدين فآلت إلى الخسران، كان عفلق على علم بتاريخها، قال: (الفهم السطحي هو أن نستنتج بسرعة بأنه ما دام مظهر الدين في هذا الوقت، وما دام ممثلوا الدين الرسميون هم في صف الواقع الفاسد، وليسوا في صف الثورة على الفساد، فإذا الدين من أساسه فاسد ولا وجوب له ولا خير فيه، ولذلك يجب التخلص من الدين لأنه سلاح بيد الظالمين والمفسدين. هذه هي النظرة السطحية والاستنتاج الخاطئ جدا وهذه هي النظرة التي توقفت عندها الشيوعية، ولذلك فالشيوعية ليست عميقة في كل نواحيها ولو أنها في كثير من نواحيها جد عميقة)[2].

من هذين الأمرين نقل عن مؤسس حزب البعث الحديث موقفه من الإسلام وسيرة الرسول ﷺ، ومن ضمن الأهداف التي حددها المؤسس

---

١) حزب البعث العربي-جلال السيد-١٧.

٢) في سبيل البعث-ميشيل عفلق-١١٩.

اعتباره الحزب ثوريا على كل قديم، ويدعو إلى القضاء على الظلم والظالمين... فيأخذ من الدين الإسلامي ما يناسب دعوة حزبه ومبادئه.

كذلك: أكثر عفلق من البحث والحديث عن سيرة الرسول ﷺ، ليتخذ منها هدفا لقبول المجتمع المسلم مبادئ الحزب.

أكد أحد مؤسسي الحزب على هذا الأمر، وأن الحزب عندما يستخدم بعض العبارات الدينية مثل لفظ (الروح، أو الإيمان، أو القدر، أو المصير).. فمن أجل أن يرفع من مستوى الحماس والاندفاع في سبيل الانبعاث المنشود للأمة العربية[1].

ومن أقوال عفلق بهذا الصدد: (كل عربي يستطيع أن يحيا حياة الرسول ولو بصورة جزئية على الأقل، طالما هو على علاقة وثيقة بالأمة التي أنجبت محمدا، من هنا كان الشعار البعثي الذي هز مشاعر جيل بأكمله خلال فترة طويلة من الزمن :(كان محمد كل العرب فليكن كل العرب اليوم محمدا)[2].

ويقرر أعضاء الحزب من طلاب عفلق هذا المبدأ الذي اتخذه عفلق في تأسيس الحزب بقولهم: (حتى تتجسد أفكار عفلق السياسية في الواقع العملي، كان لا بد لها من مثل أو نموذج تستلهمه، والحقيقة أن الإسلام وحياة النبي قد جذبا نفسه بقوة وعمق؛ ولكن ينبغي توضيح هذه الناحية، فالأمر بالنسبة له لا يعني إطلاقا لا على صعيد الفكر ولا على صعيد الممارسة، أنه يتطلع إلى تأسيس دولة إسلامية أو رؤية العالم العربي من الزاوية الدينية، فالإسلام؛ خصوصا خلال السنوات الأولى لظهوره، هو بالنسبة له، وبالنسبة للكثيرين غيره ممن تناولوا نظرية القومية العربية،

---

١) رسالة الأمة العربية-شبلي العيسمي-١٣-المؤسسة العربية للدراسات -بيروت-الطبعة الثانية-١٩٨٠.

٢) انظر: في سبيل البعث-ميشيل عفلق-١٤٤. وانظر: حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٦٦.

ظاهرة ثقافية وروحية عربية صرفة، وحياة الرسول العربي هي تجربة أخلاقية وإنسانية، هذه الظاهرة العربية، ينبغي لها في عصرنا هذا أن تتجدد ثقافياً وروحياً، وتشع في حركة سياسية جديدة هي حركة البعث)[1].

وجلاء عمق تأثير عفلق في استغلال مبادئ الدين الإسلامي للدعوة إلى حزب البعث، هذا أحد طلابه يقول: (عندما اقرأ كراسه (ذكرى الرسول العربي) أقف مأخوذاً بلغته،وعندما أصل إلى نهايته حيث يقول: (إذا كان محمد كل العرب فليكن كل العرب محمداً) تنتابني قشعريرة وتسري في أوصالي برودة، وكأنني أسمع الوحي من جديد، وكأن ذلك الغار الصغير، غار حراء اتسع ليكون كل هذا الوطن العربي، من المحيط إلى الخليج، وتتراءى في روحي صفات الكمال والعصمة والشموخ والنبوة في كل بعثي)[2].

لقد اعتبر البعثيون الإسلام مفصحاً عن عبقرية الأمة العربية، وأن تعريب الإسلام على هذا النحو، وما أثاره من ردود فعل، يعتبر حدثاً مهماً في تاريخ الحركة العربية[3].

ورغبة في احتواء مجموعة أكبر من أبناء المسلمين، فإن حزب البعث لا يفرض على أعضائه عقيدة دينية معينة، ويؤكد دستوره على (أن حرية الرأي والاعتقاد لا يمكن لأي سلطة أن تنتقصها، وأن الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة واحدة)[4].

---

١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣٢.

٢) أوكار الهزيمة-هاني الفكيكي-٧٩.

٣) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣٩.

٤) رسالة الأمة العربية-شبلي العيسمي-٦٨.

وتحقيقاً لمبدأ التجميع الحزبي ألمح عفلق -عند حديثه عن الصراع بين الدين الإسلامي وأوربا- إلى أن القومية العربية قد حلت محل الإسلام، قال عفلق: (إنّ أوربا اليوم كما كانت في الماضي تخاف على نفسها من الإسلام، ولكنها تعلم الآن قوة الإسلام -التي كانت في الماضي معبرة عن قوة العرب-قد بعثت وظهرت بمظهر جديد هو القومية العربية..لذلك فهي توجه على هذه القوة الجديدة كل أسلحتها، بينما نراها تصادق الشكل العتيق للإسلام وتعاضده، الإسلام الأممي الذي يقتصر على العبادة السطحية والمعاني العامة الباهتة آخذ في التفرنج، ولسوف يجيء يوم يجد فيه القوميون أنفسهم المدافعين الوحيدين عن الإسلام، ويضطرون لأن يبعثوا فيه معنى خاصاً إذا أرادوا أن يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء)[1].

١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٦٤. وانظر: في سبيل البعث-عفلق-٢٦-٤٩.

الباب الثاني

موقف جمعيات القومية العربية من العقيدة الإسلامية

الفصل الأول

موقف الجمعيات من مصادر العقيدة الإسلامية

المبحث الأول

موقف جمعيات القومية العربية من القرآن الكريم

المبحث الثاني

موقف جمعيات القومية العربية من السنة النبوية

المبحث الثالث

موقف جمعيات القومية العربية من الإجماع

الباب الثاني

موقف الجمعيات القومية العربية من العقيدة الإسلامية

تمهيد

أوضحت –في الباب الأول– الجوانب التاريخية والأسس العلمية للجمعيات القومية العربية، وفي هذا الباب سأبين أبرز مواقف جمعيات القومية العربية من العقيدة الإسلامية.

وقبل بيان ومناقشة تلك المواقف أرى لزاماً عليّ التنبيه إلى:

أولاً) إن المواقف التالية قد تصدر عن بعض أعضاء جمعيات القومية العربية، فتُنسب إلى الجمعيات القومية العربية نفسها، فتكون هذه المواقف موقف رسمي للجمعية، ما لم تصدر ما يعارضها.

ثانياً) سبقت الإشارة إلى وجود الأثر النصراني في تأسيس جمعيات القومية العربية، وحينما يردُ موقفٌ مترتبٌ على ذلك الأثر فإن مناقشته تكون لبيان تأثيره في حياة المسلمين، وإلا فليس بعد الكفر ذنب.

الفصل الأول

موقف جمعيات القومية العربية من مصادر العقيدة

لقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ بالدين الحق، وأقام الدين كما أمره ربُّه وتركنا على المحجة البيضاء؛ ليلُها كنهارها ما زاغ عنها إلا هالك، وحذّر أمته أن تسلك سبيل المغضوب عليهم والضالين، ولعل من أهم سبل الغواية وطرق الضلال، ما يلي:

أولاً) الابتداع في الدين زيادةً أو نقصاناً.بدليل حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : [مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ](١).

ثانياً) إحداث مصدر آخر غير شرع الله يؤخذ منه الحلال والحرام وأمر الدين.

وهذا الذي حذر منه الرسول ﷺ كما في حديث الْعِرْبَاضَ ﷺ الذي يَقُولُ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا قَالَ: [قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلا هَالِكٌ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الأَنِفِ حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ](٢).

لقد أصبحت الأمة تنهل من موردين صافيين كتاب الله، وسنة رسوله، وهما مصدرا التشريع الأساسيان لهذا الدين، ولا يجوز لإنسان يدعي الإسلام ويدعي الإيمان أن يستغني أو أن يتخلى عن هذين المصدرين بأي حال من الأحوال، والدلائل على ذلك كثيرة(٣). وقد اتخذت جمعيات القومية العربية، مواقف محددة من مصدري العقيدة الإسلامية، تتمثل بالأمور التالية:

---

١) صحيح البخاري- كتاب الصلح- باب إذا اصطلحوا على صلح جور-رقم الحديث (٢٤٩٩).

٢) سنن ابن ماجة- المقدمة-رقم الحديث (٤٣). وانظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل-١٢٦/٤. وسنن الترمذي-كتاب العلم-بَاب مَا جَاءَ فِي الْأَخْذِ بِالسُّنَّةِ وَاجْتِنَابِ الْبِدَعِ-رقم الحديث(٢٦٠٠) وسنن أبي داود-كتاب السنة- بَاب فِي لُزُومِ السُّنَّةِ-رقم الحديث(٣٩٩١).

٣) انظر: تراجم الإمام البخاري في صحيحه من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

المبحث الأول
موقف جمعيات القومية العربية من القرآن الكريم

لما كانت القومية العربية هدفاً سعى إليه الدساسون وجندوا له الإمكانيات كلها، وصوروه هدفاً نبيلاً فيه الخلاص من استبداد واستعباد الأتراك، وأن أمة العرب هي الجديرة بقيادة نفسها، انخدع بهذا البريق كثير من الناس ومن بينهم –للأسف– عدد من علماء الإسلام، و لم تكن القضية في أساسها إلا تخطيط شيطاني لأعداء الله يريد نسف الخلافة الإسلامية واستبعاد هذا المارد الجبار –الإسلام– عن ساحة قيادة العالم.

وبمقتضى هذه النوايا الباطنية الخبيثة التي تكيد للإسلام، كان لا بد من أن تظهر مواقف الحاقدين بوضع البدائل عن الإسلام ومصادر تشريعه عامة، والقرآن بوصفه الدستور الإلهي خاصةً الذي كان يسيّر الأمة الإسلامية، ويمكن استجلاء مواقف القوميين من القرآن الكريم بما يلي:

الموقف الأول: ابتداع الدساتير الوضعية بدلاً عن القرآن الكريم:

إن استبدال كتاب الله الكريم بدستور وضعي يكون المصدر للتشريعات الدنيوية والمنهج الذي يترسمه الناس في سلوكيات حياتهم، لهو الموقف الصراح بالكفر والعداء السافر للإسلام.

وهذا المصدر ما يسمونه بـ(الدستور) هو في الظاهر من صنع مدحت باشا، الذي أكثر القوميون الثناء عليه والتمجيد به، والذي روجت له الدعاية الكافرة في أنحاء الشرق العربي والغربي على أنه البطل العظيم حامل لواء الإصلاح والحرية في السلطنة العثمانية، وسمته (أبو الدستور) وسخرت له أبواب دعايتها من صحف ومجلات وإذاعات، فوصل مدحت بذلك إلى أعلى الرتب منها: باشوية سوريا والعراق، ومنصب الصدر الأعظم، الذي يعتبر أكبر الرتب في السلطنة

العثمانية ثم بدأ بعد ذلك يدس ويخرب كما تملي عليه يهوديته وكان يغمز دائماً إلى مساوئ الحكم، وحكم السلطان عبد الحميد خاصة، ثم أسس مدحتُ باشا ويهود الدونمةِ[1] الماسونيةَ وجُعِلَ مقرُّها بسلانيك[2].

لقد جاءت المطالبة بأحكام الدستور بعد أن ظهرت في الأمة ثلاث اتجاهات مختلفة، تبنى كلٌّ اتجاه منهجاً محدداً في معتقده وتفكيره وطرحه الفكري، وهي:-

١) الاتجاه الطوراني التركي، ويتزعمه جمعية الاتحاد والترقي.

٢) الاتجاه العثماني العلماني. ويتزعمه جمعيات القومية العربية.

٣) الاتجاه الإسلامي، والرابطة الإسلامية[3].

وحمل الاتجاه التغريبي العلماني الدعوة للحكم الدستوري، وعرفه أعضاء جمعيات القومية العربية، بأنه: (عبارة عن نزع السلطة من الأفراد، ووضعها بين يدي الجماعات، وأية جامعة تجمع بين عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات أقوى من حكم الأمة نفسها لنفسها، وأية رابطة تربط العناصر العثمانية أعظم من هذه الرابطة)[4].

١) الدونمة: كلمة تركية تعني: المرتد أو الزنديق، أو الكاذب فيما يزعم اعتقاده، وهي علم على جماعة من اليهود هاجرت من الأندلس بعد زوال حكم المسلمين فيها واستقرت في ربوع الدولة العثمانية تنعم بالحياة الآمنة المطمئنة، وهم أتباع اليهودي (ساباتاي زفي) المسيح المزيف الذي ظهر في الدولة العثمانية في منتصف القرن السابع عشر وادعى أنه المسيح المنتظر الذي سيأخذ بيد اليهود ويؤسس لهم دولة في فلسطين، تظاهروا بالإسلام منذ عام ١٦٨٣م وأخفوا يهوديتهم واتخذوا لهم أسماء إسلامية، ووصلوا إلى أعلى مناصب الدولة مما سهل عليهم التخريب والتمهيد على للقضاء على الخلافة، ومن أشهر يهود الدونمة: مصطفى كمال ومدحت باشا.انظر:(يهود الدونمة–محمد عمر)

٢) اليهودية والماسونية–عبدالرحمن الدوسري–٧٠–دار السنة– الخبر–١٤١٤هـ–الطبعة الأولى.

وسلانيك: مدينة رومية قديمة جداً، تقع جنوب بلاد مقدونية على بحر الأرخبيل، كانت تسمى (ترما) ثم أطلق عليها اسم (تسالونيك) ثم حرف إلى (سالونيك) أو (سلانيك).انظر(تاريخ الدولة العلية العثمانية–محمد فريد بك–١٣٣)

٣) انظر: مجلة المستقبل العربي–العدد الأول–السنة الخامسة–١٩٧٨–ص٧٨.

٤) مؤلفات رفيق العظم–الجامعة العثمانية–١٢٥

وبرر أولئك الأعضاء الدعوةَ إلى الحكم الدستوري، والمحافظة على أحكام (هذا المصدر)، وهو القانون الأساسي (الدستور): أن من طبيعته ربط أواصر الأخوة العامة بين الأمة، وفيه جمع كلمة المِلَل العثمانية المختلفة بدون تفريق في الجنس والمذهب، وتمكين الرابطة الجامعة بينهم، وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية وإصلاح الشؤون المختلة، والسعي لإعلاء شأن الأمة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها، كتأسيس مدارس وطبع جرائد .. وصيانة حقوق أبناء العرب جميعاً من الغدر والاعتساف، وتبليغ شكاياتهم، ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية[1].

نادت مبادئ جمعيات القومية بالتآلف والتآخي بين المسلمين والنصارى وأكد أعضاؤها على تساوي النصارى بالمسلمين في المصالح العامة، سواء أكان ذلك في مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع، أم في مجال الحقوق والواجبات، أم في مجال الاقتصاد والاجتماع، أم في مفهوم وأهداف الفكرة العربية، وما يعود على الفريقين من منافع وعزٍّ وسؤدد من تحققها. ولا اعتبار للدين لأنه ممارسةٌ وجدانية، والدين الإسلامي المؤثر في حياة المسلمين، يضمن كل الضمان حقوق المواطنين من غير المسلمين وحرياتهم[2].

وتنتهي آمال وأماني أعضاء جمعيات القومية، بإحداث مصدر للتلقي يجعل الأمةَ صاحبةَ النّهي والأمر في شؤونها وأن تكون الهيئة الحاكمة وكيلةً عن الأمة في إدارة تلك الشؤون[3].

ويتحقق الهدف الذي تنشده جمعيات القومية بتحقيق هذه الأماني؛ بإعادة الأمة العربية إلى وضعها الصحي المتطور الذي يرفعها إلى مستوى الأمم الراقية ويعزز قدرتها على العطاء والإشعاع الحضاري[4].

---

١) الثورة العربية الكبرى – أمين سعيد – ٧.

٢) مختارات قومية-محمد عزة دروزة- ٦٤١-٦٤٣.

٣) المؤتمر العربي الأول-خطبة اسكندر عمون-١٠٠.

٤) رسالة الأمة العربية-شبلي العيسمي-٩٩ .

واعتبر أعضاء جمعيات القومية العربية الفرحة الغامرة التي حدثت لهم – عندما أعلن عن تطبيق مبادئ الدستور في حياة الأمة– مماثلة للفرحة في فتح القسطنطينية، قالوا: (إنّ اليوم الذي نودي فيه بالحكومة الدستورية ومحو السلطة الاستبدادية في المملكة العثمانية، كان يوماً سعيداً على هذه الأمة، لم يشهد مثله العثمانيون إلا اليوم الذي افتتح فيه السلطان محمد مدينة القسطنطينية)[1].

إنّ الفرحة بتطبيق مبادئ ونظم الجاهلية عندهم توازي فتح القسطنطينية معقل الوثنية النصرانية هذا الحدث العظيم الذي هو مبعث فخر وعزة للمسلمين، الذي بشر به النبي ﷺ كما جاء في حديث عَبْدَاللَّهِ بْنَ عَمْرٍو: [بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَكْتُبُ، إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا بَلْ مَدِينَةُ هِرَقْلَ أَوَّلًا][2] لعمري إن مقارنتهم هذه بتلك جناية لا تُغتفر، شتان ما بين الثريا والثرى، فالأولى نصر للإسلام وإعزاز للمسلمين؛ بينما الثانية هدم للإسلام وخذلان للمسلمين حين حيل بينهم وبين التحاكم إلى شريعة ربهم عز وجل.

لقد عُلم أنّ فتح القسطنطينية من المبشرات النبوية، وقد أثنى النبي ﷺ على من يتولى فتحها، روى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بِشْرٍ الْخَثْعَمِيُّ[3] عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ [لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ] قَالَ: فَدَعَانِي مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ[4] فَسَأَلَنِي فَحَدَّثْتُهُ فَغَزَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ)[5] فلا

---

١) مؤلفات رفيق العظم (الجامعة العثمانية)–رفيق العظم–١٢٣.

٢) سنن الدارمي–المقدمة– الحديث برقم (٤٨٦).

٣) هو: عبدالله بن بشر الخثعمي، أبو عمير الكوفي الكاتب، والد عمير بن عبدالله. من الطبقة الرابعة عند ابن حجر. انظر: (تهذيب الكمال في أسماء الرجال–المزي–١٤/٣٣٩ برقم(٣١٨٣).

٤) مسلمة بن عبدالملك بن مروان بن الحكم الأموي أبو سعيد، أخو سلميان ويزيد ابنا عبدالملك، له آثار كثيرة في الحروب ونكاية في الروم، وحاصر القسطنطينية، وقد ولي العراق كما ولي الموسم في أيام الوليد، مات سنة عشرين ومائة في المحرم.انظر:(تهذيب الكمال في أسماء الرجال–المزي–٢٧/٥٦٢ برقم ٥٩٥٦).

٥) مسند الإمام أحمد–٤/٣٣٥. وأخرجه الحاكم وقال عنه: حديث صحيح و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي. انظر:المستدرك على الصحيحين–الحاكم–٤/٤٢٢–دار المعرفة–بيروت–لبنان.

سبيل لموازنة فرحةِ نصرِ الإسلام والمسلمين بفتح القسطنطينية، ودعوة النبي ﷺ للجيش الفاتح، بتطبيق القوانين والنظم الجاهلية.

كما أن تحديدَ أعضاء جمعيات القومية العربية لمصدر منه يوردون وعنه يصدرون، فيه مخالفة صريحة لنصوص الكتاب المترل، قال تعالى {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}(1). وعند النظر في آيات الكتاب التي أفردت الله سبحانه وتعالى بالحاكمية، نجد تلازم الحاكمية بالتوحيد ظاهراً في عديد من الآيات، منها:

أ. قوله تعالى {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمْ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}(2).

ب. وقوله تعالى {إِنْ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}(3).

ج. وقوله تعالى{وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}(4).

الدلائل كلها تشير إلى أن جمعيات القومية العربية قد بوّأت الدستور الوضعي من حياتها مكانة لا تليق إلا بالقرآن الذي ارتضاه الله لعباده وأبى إلا أن تكون له الحاكمية وإليه المرجع، قال تعالى {أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}.

إن من أساسيات عقيدة التوحيد أن يستيقنَ الناس بأنّ الله محاسبُهم على أساس شريعته هو، لا شريعة العباد. وأنهم إن لم ينظموا حياتهم، ويقيموا معاملاتهم–كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم– وفق شريعته الغراء في الدنيا،

---

1) سورة النساء–رقم الآية(٦٥).

2) سورة الأنعام– رقم الآية (٦٢).

3) سورة يوسف–رقم الآية (٤٠).

4) سورة القصص–رقم الآية (٧٠).

فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله. وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله-سبحانه- إلهاً في الأرض، ولكنهم اتخذوا من دونه أرباباً متفرقة. ومحاسبون..باتباعهم شريعته في جانب العبادات والشعائر، واتباعهم شريعة غيره في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وفي المعاملات والارتباطات[1].

صرح رئيس مؤتمر التجمع العربي في باريس -لاستصدار قرار يتحدّد مدى ارتباط البلاد العربية بالدولة العثمانية- في مقابلة صحفية أجريت معه باستبعاد الدين من فقرات المؤتمر، قائلاً: (يهمني أن أصرح لك قبل كل شيء بأن هذا المؤتمر ليس له صفة دينية ، وكل أعماله تنحصر في الدائرة المحدودة له من البحث في شؤوننا الاجتماعية والسياسية، ولذلك ترى عدد أعضائه المسلمين والمسيحيين متساوياً ..)[2].

نجد أعضاء جمعيات القومية العربية في مقابل إقصاء الدين في المؤتمر العربي الأول يتحاكمون إلى الدستور ويطالبون به، وبالسير على آثار الأمم النصرانية في سياسية الأمة، فكان مما قيل عن موضوع [تربيتنا السياسية]: (قد حان للشرق أن يمشي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه الغرب اليوم -مقتدى الشرق-.: بمناسبة أن تربيتنا السياسية التي سأتكلم عنها الآن قد سبقنا الغربيون فيها، أولئك عرفوا كيف توضع أسس حقوق البشر، وكيف تنال وكيف تسترخص النفوس في سبيلها..)[3].

---

١) في ظلال القرآن الكريم-سيد قطب-٢/١١٢٣.

٢) المؤتمر العربي الأول- ١٨.

٣) المؤتمر العربي الأول-خطبة عبدالحميد الزهراوي-٣١.

استعرضت جمعيات القومية العربية، في المؤتمر العربي كثيراً من الأمور المتعلقة بحياة المسلمين في الجوانب العقائدية والاجتماعية والسياسية، وقدمت الجمعيات الأحكام والقوانين فيها، كل هذا بعيداً عن تحكم الدين وشريعة رب العالمين.

وقد عزا أعضاء جمعيات القومية العربية سبب تخلف البلاد، وتنافر القلوب، وظهور المحن، إلى تعطيل مبادئ الدستور، كما جاء في خطبة [الإصلاح على قاعدة اللامركزية][1].

أخبرنا ربنا جل جلاله عن شقاء الأمم، نتيجة إقصاء الوحي الرباني، واستعباد البشر للبشر بقوله {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[2]. وبقوله {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}[3] كما قال تعالى {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ}[4].

روى سعد بن أبي وقاص ﷺ، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني أمية، فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً، ثم قال:(سألت ربي ثلاثاً: سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق؛ فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة؛ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم؛ فمنعنيها)[5].

إن إحداث هذه التشريعات الجاهلية، والتي تسمى (أنظمة) في الأمة، صار سبباً لشقاء البشرية بظهور الأحزاب والشيع، ولقد عرفت البشرية في فترات

---

١) المصدر السابق-خطبة اسكندر عمون-٩٩.

٢) سورة الأعراف-رقم الآية (٩٦).

٣) سورة الكهف-رقم الآية (٥٩).

٤) سورة الأنعام-رقم الآية (٦٥).

٥) صحيح مسلم-كتاب الفتن-بَاب هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ-رقم الحديث (٥١٤٤).

كثيرة من تاريخها ذلكَ اللونَ من العذاب –والدولة العثمانية تعتبر من ضمن تاريخ البشرية– كلما انحرفت عن منهج الله، وتُرِكَتْ لأهواء البشر ونزواهم وشهواهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم.. يعبثون بالحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور. وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعاً وشرائع وقوانين وقيماً وموازين من عند أنفسهم، يتعبد بها الناس بعضهم بعضاً، ويريد بعضُهم أن يَخضعَ لأنظمته وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعضُ الآخر، والبعض الآخر يأبى ويُعارض، وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض، وتتصارع رغباهم وشهواهم وأطماعهم وتصوراهم، فيذوق بعضهم بأس بعض، ويحقد بعضهم على بعض، وينكر بعضهم بعضاً، لأنهم لا يفيئون جميعاً إلى ميزان واحد، يضعه لهم المعبود الذي يعنو له كل العبيد، حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكباراً عن الخضوع له، ولا يحس في نفسه صَغَاراً حين يخضع له[1].

والواجب الرجوع إليه جل جلاله كما أمر في قوله: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}[2] أي: فردوه إلى أصول التصور الإسلامي الذي قد جاءكم من عند الله، وإلى أصول الشريعة الإلهية التي جاءكم بها رسول الله..لا إلى أي أصل آخر، ولا إلى أي تصور آخر، ولا إلى أي ميزان آخر.. فرد أي شأن من شئون الحياة الإنسانية إلى غير الله والرسول هو إقامة إله آخر، له حق الحاكمية، وله حق تعبيد الناس لما يشرعه لهم في أمور الحياة المتجددة بغير إذن الله[3].

وقد تحدث علماء السلف في فترة زمنية من تاريخ الأمة –إبّان حكم التتار– بعد إسقاطهم للدولة العباسية، عندما أحدثوا لهم مصدراً شرعياً آخر

---

١) في ظلال القرآن–سيد قطب–٢/١١٢٥.

٢) سورة النساء–رقم الآية (٥٩).

٣) مقومات التصور الإسلامي–سيد قطب–٣٣–دار الشرق–القاهرة–الطبعة الأولى–١٤٠٦هـ.

يتحكمون إليه، قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: **{أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون}**: يُنكر تعالى على من خَرَجَ عن حكم الله المُحْكَم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعَدَلَ إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسيات الملكية المأخوذة عن ملكهم (جنكيز خان) ، الذي وضع لهم الياساق: وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية، والنصرانية، والملة الإسلامية، وفيه كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير[1].

والياساقُ عند التتار دستورٌ لهم، يستخرجون منه الحلال والحرام، كما دستور (مدحت باشا) بالضبط عند أعضاء الجمعيات القومية، وقد سُئل ابنُ تيمية، عن حكم الشرع في الاحتكام إلى بعض الأنظمة والشرائع المحدثة في زمانه؟

فقال: يجب على المسلمين أن يُحكّموا اللهَ ورسولَهُ في كل ما شجر بينهم، ومن حكم بحكم (البندق) وشرع البندق، أو غيره مما يخالف شرع الله ورسوله، وحكَم الله ورسوله، وهو يعلم ذلك: فهو من جنس التتار الذين يقدمون حكم (الياساق) على حكم الله ورسوله[2].

وقد حكى الشيخ أحمد شاكر -أحد علماء القرن الرابع عشر الهجري -حال الأمة في عصره بتطبيق الدستور، وبين الواقع بقوله: (اليوم هو هْجرٌ لأحكام الله عامة

---

١) تفسير القرآن العظيم–ابن كثير–١٢٣/٣. والياساق: كلمة تركية يعبر بها عن وضع قانون المعاملة. انظر: الخطط–المقريزي.

٢) مجموع الفتاوى–٤٠٨/٣٥.

بلا استثناء، وإيثار أحكامٍ غير حكمه في كتابه وسنة نبيه، وتعطيلٌ لكل ما في شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا، ولعِللٍ وأسباب انْقَضَت، فسقطت الأحكام كُلها بانقضائها)[١].

وهذه الشُّبه كانت من نتائج تخطيط مُدبّر ومُحكم على الأمة المسلمة، ومن أبرز وسائله الغزو الفكري، ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصناً منيعاً لهم من تأثير الغزو الفكري في عقائدهم ودينهم[٢].

والدستور الذي أَمّل الناسُ فيه الخير، والذي لم يصيبوا من ورائه ألا الشر. ما أصدق شوقي حين يقول فيه:

لا تجعلوه هَوىً وُخلْقاً بينكم ... وَمجَرَّد دنيا للنفوس ومَتْجَراً
اليومَ صَرَّحَت الأمورُ فأظهرت ... ما كان من خُدَع السياسة مضمَراً
قد كان وَجْهُ الرأي أن نَبقْى يداً ... ونَرَى وراءَ جنودها إنكلترا
فإذا أتتنا بالصفوف كثيرةً ... جئنا بصفٍّ واحدٍ لن يُكسرا
غَضبَتْ فغضَّ الطرفُ كلُّ مكابرٍ ... يلقاك بالخدِّ اللطيم مُصَعَّرا[٣].

ولقد احتجت جمعيات القومية بحجة روجتها في الأمة من أجل أن يتقبل المجتمع مبادئ وقوانين الدستور، هي: أن أحكام الدستور تجمع بين عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات[٤].

---

١) عمدة التفسير–ابن كثير–تعليق محمود شاكر–١٥٧/٤.

٢) أضواء البيان–الشنقيطي–٥٨٣/٧.

٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر–محمد محمد حسين–٤٢٣/٢.

انظر: ديوان شوقي: ٤٦١/١ من قصيدته في الأزهر–دار نهضة مصر–القاهرة.

٤) مؤلفات رفيق العظم–الجامعة العثمانية–١٢٥.

ومن حججهم أيضا أن وثاق هذه الشريعة المحكم ظل حسنا موافقا ما دامت أوضاع النبي ذات علاقة مكيفة مع حاجيات الأمة العربية . فلما أصبحت-حاجيات الأمة العربية- تبعا لترقيات الحضارة محتاجة لأن تتغير كان نير التقاليد الموروثة ثقيلا جدا لا يتمكنون من خلعه والتملص من ربقته...وبما أن هذا الكتاب كان شريعة دينية ومدنية وسياسية معا، يجعله منبعه الإلهي ثابتا لا يتغير، وأصبح مستحيلا قلب الأساسيات التي بني عليها[1].

وقد تغافل أعضاء جمعيات القومية، عن كون أحكام الكتاب المنزل بأنها هي الجامعة لقلوب العباد. وحكم الله ورسوله لا يختلف في ذاته باختلاف الأزمان، وتطور الأحوال، وتجدد الحوادث[2].

ويشير الشيخ عبدالرحمن الدوسري -إلى خطر انحراف أعضاء جمعيات القومية العربية بتقليدهم الغرب، وترويجهم لأفكارهم، حينما اتخذوا لهم دستورا يحكم في واقعهم غير القرآن الكريم- بقوله: (إن القرآن الكريم هو الذي صنع من العرب تلك المعجزة بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا، ولو شمخ هؤلاء برؤوسهم من جديد إلى بضاعة السماء، ورفضوا البضاعة الأرضية الملتقطة من المزابل اليهودية فحققوا عبادة الله واستعانتهم به بكل معانيها ومبانيها، لأعادوا مجدهم، وكانوا هم المعسكر الأول الصحيح الذي يعيد بناء ما هدمته اليهودية العالمية، من مقومات الحياة الإنسانية، بدلا من أن يتعاونوا معها على الهدم العام، وعلى تخريب بيوتهم بأيديهم)[3].

إن استحداث الدستور ليكون مصدرا للتلقي لدى جمعيات القومية العربية، فضلا عن موافقته لأنظمة الدول الكافرة[4]، يجعله متفقا مع الفرق التي ظهرت في

---

١) كيف ينهض العرب-١٣٣-عمر فاخوري-دار الآفاق الجديدة-الطبعة الأولى-١٤٠١هـ

٢) تحكيم القوانين-محمد بن إبراهيم آل الشيخ-١٥-دار المسلم-الرياض-الطبعة الأولى-١٤١١هـ.

٣) صفوة الآثار والمفاهيم-عبدالرحمن الدوسري-١/٢٢٦-دار الأرقم-الكويت-١٤٠١هـ.

٤) بعد قيام الجمعية الوطنية الفرنسية بإشعال الثورة -الماسونية- في فرنسا، جرت الانتخابات لاختيار أعضاء المجلس الذي عقد سنة ١٧٨٩ وطالب بمنح فرنسا **دستورا** يقيد سلطة الملك المطلقة . انظر: تاريخ العلاقات الدولية منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى-أحمد الخنساء-١٣-الطبعة الأولى-١٤٠٦هـ.

تاريخ الأمة الإسلامية، وصارت مصادر تشريع فيها، ويوضح الشاطبي هذه القضية بقوله: (إن اتبعوا عقول البشر، واتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك.. وصيروا العقل شارعاً جاء الشرع أولاً، بل إن جاء فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل)(١).

ومن منطلق استحداث الدستور الجاهلي في واقع الأمة، قدمت جمعية (رابطة الوطن العربي) حلاً من أجل أن يقبل المسلمون تشريعات الدستور، وهذا الحل الذي ذكرته الجمعية، قد بني على قاعدة ذكرتها تلك الجمعية وهي: (إنّ سيادة خليفة الإسلام على كافة مسلمي الأرض المجتمعين في دولة واحدة أمراً يبدو مستحيلا دائماً، حتى بالنسبة للخلفاء الأوائل، وأما أن يكون ملكا على بلد لا يضم إلا المسلمين(٢).

ولهذا رأت الجمعية أن يقدم الوطن العربي الخلافة الإسلامية الدينية العامة للشريف المتحدر عن الرسول، والذي هو نفسه ينضم صراحةً إلى الحزب الذي يكرس نفسه لهذا العمل، وسيكون لهذا الخليفة الدينية دولة سياسية مستقلة تماماً ، تشمل ولاية الحجاز الحالية ومنطقة المدينة المنورة حتى العقبة ، ويتمتع الخليفة الديني باحترام الملك ويملك سلطة روحية فعلية على كافة مسلمي الأرض ...

وهكذا تكون سلطته شاملة ويحكم من مقره حكماً روحياً جميع مسلمي العالم الذين يخفون إلى مقامات محمد المقدسة لتأدية (فريضة) الحج(٣).

---

١) الاعتصام-الشاطبي-٢/١٧٦-دار المعرفة-بيروت- لبنان.

٢) يقظة الأمة العربية -نجيب عازوري -٢٢١.

٣) يقظة الأمة العربية -نجيب عازوري -٢٢٠.

إن هذا الحل الذي قدمته جمعية رابطة الوطن العربي، ينطلق من الفكر النصراني الذي يدعو إلى أن البابا يتخذ مقره في روما، مهد المسيحية الأولى في أوربا، والذي يرأس المجمع الديني، ويتوج الملوك رعاية لسلطان الدين[1].

وهذا ما صرح به أحد فلاسفة الغرب عن نظرية الحكم النصراني، والفرق بينها وبين الخلافة الشرعية، بأن هناك فرقا بين سلطة البابا في العقيدة النصرانية، وسلطة الخليفة في الدولة الإسلامية، وذكر هذه المفارقة في سياق حديثه عن المقارنة بين الخلافة والنظام الإمبراطوري، فقال: (نجد في الغرب حاكمين أحدهما: زمني وهو الإمبراطور، والآخر روحي وهو البابا..والخليفة حاكم سياسي، بمعنى إنه حاكم واحد يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية، ويستطيع باعتباره حامي الدين أن يعلن الحرب على الكفار، ويحارب الخارجين على الدين ويؤم الناس في الصلاة، ويلقى خطبة الجمعة، بخلاف البابا فإنه يعتبر قسيسا أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين وهو المرجع الأعلى في الأمور الدينية)[2].

وأما عن طعن جمعية رابطة الوطن بسياسة الخلافة الراشدة لأمور الأمة، فهو ينقض وصية النبي ﷺ الذي أمر بالإقتداء بالخلافة الراشدة من بعده كما في الحديث السابق الذكر وفيه :(فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ...)[3].

قال علماء الإسلام: إن في صيغة هذا الحديث أمره ﷺ بوجوب اتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، و أمره بالسمع[4]والطاعة لولاة الأمور عموما

---

١) الاتجاهات الوطنية في الأدب العاصر-محمد محمد حسين-١/٢٨٣.

٢) منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم-يحي إسماعيل-٢٦٤-دار الوفاء-المنصورة-١٤٠٦هـ .

٣) سبق تخريجه انظر: ص (٤٠٠) هامش رقم ٢.

٤) جامع العلوم والحكم-ابن رجب الحنبلي-٢٤٩. انظر:مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية-٤/٤٠٠.

وهو دليلٌ على أن سنةَ الخلفاء الراشدين متبعةٌ كإتباع السنة بخلاف غيرهم من ولاة الأمور.

ومن لوازم الإيمان بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً طاعته فيما أمر، و لم يرشدنا عليه أفضل الصلاة والسلام إلا ما فيه خير لنا، وقد أخبر نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام أن سيرة الخلفاء الراشدين في سياسة الدين والدنيا تسلك منهاج النبوة، فعَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُمْهَانَ[1] قَالَ حَدَّثَنِي سَفِينَةُ، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : [الْخِلَافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ]. ثُمَّ قَالَ لِي سَفِينَةُ: أَمْسِكْ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ: وَخِلَافَةَ عُمَرَ، وَخِلَافَةَ عُثْمَانَ، ثُمَّ قَالَ لِي: أَمْسِكْ خلافَةَ عَلِيٍّ قَالَ فَوَجَدْنَاهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً[2].

ومن جانب آخر فإن الشواهد التاريخية لسيرة الخلفاء الراشدين، وسياستهم في أمور الدين والدنيا تدحض ما ذكرته (جمعية رابطة الوطن العربي)، -مع الاعتقاد بعدم عصمة واحد منهم- فقد كان عصر الخلفاء الراشدين هو التطبيق العملي للإسلام كاملاً، وهم الذين جاهدوا مع الرسول ﷺ، وقدموا المُهجَ والأرواح في سبيل الله، وعاشوا مع التتريل لحظة بلحظة[3].

وفي خلافتهم رضي الله عنهم، كان السيف مسلولاً على الكفار، مكفوفاً عن أهل الإسلام. وتعتبر مدة خلافتهم تتمة لحكم رسول الله ﷺ، وبهذا تكون الدولة الإسلامية التي قامت في المدينة منذ أن وصل إليها رسول الله ﷺ في بداية الهجرة وإلى مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة أربعين من الهجرة هي الصورة الصحيحة للحكم الإسلامي كمدة متصلة[4].

---

١) سعيد بن جُمْهان الأسلمي، أبو حفص البصري، قال المزي: له صحبه روى عن سفينة مولى رسول الله، مات بالبصرة سنة ست وثلاثين ومائة. انظر: (تهذيب الكمال في أسماء الرجال-المزي-١٠/٣٧٦).

٢) سنن الترمذي- رقم الحديث (٢١٥٢)-كتاب الفتن- باب ما جاء في الخلافة.

٣) الإمامة العظمى-عبدالله بن عمر الدميجي-١٢٧.

٤) التاريخ الإسلامي-محمود شاكر-٣/٥ -المكتب الإسلامي-بيروت-الطبعة الثانية-١٤٠٣هـ.

وقرر علماء السلف أنّ سياسة الخلافة الراشدة لأمور الأمة خير من غيرهم وأفضل، وأن اتباعهم للنبي ﷺ وقيامهم بأمره أكمل، وقيامهم بالإسلام خير من قيام غيرهم، وظهورهم بمشارق الأرض ومغاربها أعظم من ظهور غيرهم، وما فعلوه من الخير أعظم مما فعله غيرهم[1].

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن ترتيبهم في الفضل هو ترتيبهم في الخلافة، وأنهم رضي الله عنهم جميعاً، الذين نصر الله بهم الدينَ، وقهر، وقسر بمكانهم الملحدين، وقوى بمكانهم الإسلام ورفع في أيامهم للحق الأعلام ونور بضيائهم ونورهم وبهائهم الظلام[2].

وإن الطعن في سياسة الخلافة الراشدة، تضمن أيضا تخصيص أحكام الله تعالى بحصرها في مدينتي مكة والمدينة وهذا باطل بدلالة قول الله تعالى عن عالمية هذا الدين {**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون**}[3]. وقال تعالى{**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**}[4]وقال تعالى{**إن هو إلا ذكر للعالمين**}[5].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : {ليكون للعالمين نذيرا} أي: إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذي {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

١) منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية-ابن تيمية-٤/١٦٧-١٦٨(بتصرف). وانظر: تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء-صبحي محمصاني-دار العلم للملايين-بيروت-لبنان-الطبعة الأولى-١٩٨٤.

٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث-الصابوني-٩٠.

٣) سورة سبأ-رقم الآية (٢٨).

٤) سورة الفرقان-رقم الآية (١).

٥) سورة طه-رقم الآية (٧٨).

خلفه، تنزيل من حكيم حميد}[1] -الذي جعله فرقانا عظيما- إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء[2].

الموقف الثاني:- تأويل بعض آيات القرآن الكريم بما يوافق الهوى:

استشهد بعض أعضاء جمعيات القومية العربية بالآيات القرآنية، ولكن المُسْتَشْهَدَ له يخالف في مضمونه دلالة النص القرآني المستشهد به، وهذا من معاني التأويل الباطل، الذي ذمه السلف، حيث قالوا رحمهم الله: (من أنواع التأويل تأويلُ اللفظِ بمعنى لم يدل عليه دليل من السياق ولا قرينة تقتضيه، ومن معانيه أيضاً: تأويل النص إلى ما لم يحتمله سياقه وتركيبه)[3].

ومن أمثلة تأويل أعضاء جمعيات القومية العربية لآيات القرآن، ما يلي:

أولاً) قالوا: كل الأديان قد أنزلت لمصلحة البشر، فمن وقر في نفسه أن يتخذ الدين أداة لمآربه السياسية ويضيم الطوائف فيطعن فيها، ويقذف أهلها، فقد جنى على نفسه وأمته: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}[4]. {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى}[5] {وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ}[6] {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}[7][8].

---

١) سورة فصلت- رقم الآية (٤٢).

٢) تفسير ابن كثير-٦/١٠٠. ومعنى الخضراء (السماء) والغبراء (الأرض).

٣) مختصر الصواعق المرسلة -ابن القيم-١١-١٣-دار الندوة الجديدة-بيروت-لبنان-١٤٠٥هـ.

٤) سورة البقرة-رقم الآية (٦٢).

٥) سورة المائدة-رقم الآية (٨٢).

٦) سورة الأنعام-رقم الآية (١٠٨).

٧) سورة المائدة-رقم الآية (٤٨).

٨) مختارات المفيد-٧٤.

إن الظاهر من الاستشهاد بالآيات السابقة ألا يتعرض أفراد المجتمع الإسلامي لأي عقيدة من العقائد الأخرى أو مذهب من المذاهب المخالفة للإسلام بالطعن أوبيان بطلانها.

فقد قررت جمعيات القومية العربية، أن العربي المسلم حَسْبُهُ أنّ دينَه دينٌ سمح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وحسبه في نظرته إلى مواطنه المسيحي أن يذكر الآية القرآنية الكريمة {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ}[1].

ولهذا يؤكد أعضاء الجمعيات على أن ما احتواه القرآن في حق النصارى، فجُلّه في صدد عقائدهم، وفي بعضه أوصاف محببة وثناء، وليس فيه على كل حال، ما يدل بصراحة على مواقف كيد ودس وتآمر وتربص[2].

وهذا التقرير يؤكد على أن المعتقد الذي تبنته جمعيات القومية العربية، يقوم على أساس الولاء للقومية العربية دون العقيدة الربانية، كما ذكرت تلك الجمعيات في منشورات تنادي بهذا المعتقد، وجاء فيها:(.. ليكن المسلمون والنصارى واليهود منكم يداً واحدة وتتكلمون بلغة واحدة فكونوا أيضاً أمة واحدة ويداً واحدة، ولا تتفرقوا تبعاً لمفاسد وغايات المفسدين الذين يتظاهرون بالإسلام، والإسلام بريء منهم. وقد انطبق عليهم قول الشاعر العربي:

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها		فتاركها منه إلى الله أقرب

فتساعدوا واتحدوا وتعاضدوا ولا تقولوا : أيها المسلمون هذا نصراني وهذا موسوي فكلكم عيال الله ، والدين لله وحده .. فليكن رائد الطرفين التساهل والسعي في إزالة هذه التعصبات الذميمة ..)[3] .

---

١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها-مصطفى الشهابي-٣٤٧.

٢) الدستور القرآني في شئون الحياة-محمد عزة دروزة-١٢٥.

٣) إيضاحات عن المسائل السياسية- جمال باشا ٢٤-٢٨.

والتأويل المذكور صرف دلالات نصوص الآيات القرآنية عن ظاهرها، وأنزلها لمعانٍ فاسدة، والتأويل الصحيح لهذه الآيات وما يحمله تفسيرها من دلائل عقدية صحيحة،ذكره السلف رحمهم الله في كتبهم وفيما تفسيراتهم لهذه الآيات:

تفسير العلماء للآيات المستدل بها:

١) قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.

قال العلماء :(من آمن بالله واليوم الآخر): من صدق وأقر بالبعث بعد الممات يوم القيامة، وعمل صالحاً فأطاع الله، فلهم أجرهم عند ربهم، وقد عُني بالإيمان من كان من أهل الكتاب على إيمانه بعيسى، وبما جاء به، حتى أدرك محمداً ، فآمن به وصدقه[1].

فيكون الثناء على أهل الكتاب باتباعهم أوامر الله، فاليهود يثنى على من تمسك منهم بالتوراة وسنة موسى عليه السلام ، حتى جاء عيسى عليه السلام. فلما جاء عيسى عليه السلام كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى عليه السلام، فلم يدعها و لم يتبع عيسى عليه السلام، كان هالكاً. وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى عليه السلام مؤمناً مقبولا منه حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى عليه السلام والإنجيل كان هالكاً[2].

هذا التأويل الذي ذُكر عن السلَف يؤكد الفهم الصحيح لهذه الآية الكريمة، وكيف أنها مبينةٌ وحدةَ العقيدة لجميع الطوائف على اختلاف أسمائهم، آخذاً باللباب الصحيح، لا بقشور الدعاوى الزائفة، وإن كل ملة من الملل إذا وصل بها إيمانها إلى إسلام الوجه لله، والتصديق بجميع رسله وكتبه، والوفاء بعهده

---

١) تفسير الطبري–١/٣٢٠–دار الفكر–بيروت–لبنان–١٤٠٨هـ.(بتصرف يسير)

٢) تفسير ابن كثير–١/١٤٧.

الفطري، من استعمال كل الجوارح والأحاسيس في طاعة الله ومرضاته، ثم الوفاء بعهده الديني الشرعي من الإيمان بمحمد ﷺ، ونصرته ميتاً باتباع سنته وتحقيق جميع أنواع الفداء في حمل رسالته، والإيقان باليوم الآخر بالاستعداد الصحيح له. فإن ألقابهم حينئذ لا تبعدهم عن الله بل تصبح كالقشور، وإن فضل الله وعفوه ليس محجوراً على جنس من الناس دون جنس[1].

وبهذا التصور الصحيح للآية تبيّن فسادُ تأويل جمعيات القومية العربية، وأن العبرة والميزان الحق: هو اتباع ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلينﷺ، وقد ذكر العلماء أن هذه الآية قد نسخت بقوله تعالى {**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ**}[2] .

إلا أن ابن كثير بين أنه لا تعارض بين الآيتين، فإن هذا الذي قاله -سبحانه وتعالى- إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقةً ولا عملاً، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمدﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة...فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم-أهل الكتاب-تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر[3].

ويؤكد هذا المفهوم قول الرسول ﷺ: (ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ، فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا فَلَهُ أَجْرَانِ؛ وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَلَهُ أَجْرَانِ؛ وَالْعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ)[4].

---

١) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم-عبدالرحمن الدوسري-٢/١٥٢.

٢) سورة آل عمران-رقم الآية (٨٥). ينظر عن أقوال العلماء في نسخ الآية:(نواسخ القرآن-ابن الجوزي-١٢٩والناسخ والمنسوخ-ابن سلامة أبي النصر-٣٤).

٣) تفسير ابن كثير-١/١٤٨.

٤) صحيح البخاري-كتاب الجهاد والسير-باب فضل من أسلم من أهل الكتاب-رقم الحديث (٢٧٨٩).

٢) قوله تعالى **{ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى}**

تبدأ الآية بقوله تعالى **{لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون *وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين}**[١].

لقد اقتطع المستدل -عبدالغني العريسي[٢]- النص القرآني الذي يعتقد أنه يؤيد مذهبه، وبإعمال النظر في جميع آيات الكتاب -الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه- نجد أن الآيات القرآنية، المتعلقة بموضوع الحديث عن النصارى، قد قسمتهم طائفتين:

الطائفة الأولى: من رفض هداية الله، وأعرض عن الوحي المنزل، وناصب المسلمين العداء. وفيهم قال تعالى **{ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة}**[٣].

ادعى هذا الصنف بأنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم، وليسوا كذلك، وأخذ -عليه السلام- عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، ولكنهم خالفوا المواثيق ونقضوا العهود، كما قال {فنسوا حظا مما ذكروا به}[٤].

وأفراد هذه الطائفة من النصارى هم المعنيون بتحريم موالاتهم والنهي عن الاقتداء بهم بقوله تعالى **{يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء**

---

١) سورة المائدة-رقم الآية (٨٢- ٨٣).

٢) مختارات المفيد-٧٤.

٣) سورة المائدة-رقم الآية (١٤).

٤) تفسير ابن كثير -٦٢/٣. (بتصرف يسير).

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (1).

وقوله {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} (2).

الطائفة الثانية: أخبر الله عنهم بقوله {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ *وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (3). وقال الله عنهم أيضاً: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ *وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ *أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} (4).

هذه الطائفة من النصارى سمعوا ما أنزل على الرسول ﷺ فآمنوا وصدقوا، به وقد أخبر الله على لسانهم بقوله: {**يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**} (5).

فتكون هذه الآيات قد نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم. وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين

---

١) سورة المائدة–رقم الآية (٥١).

٢) سورة البقرة– رقم الآية (١٢٠).

٣) سورة المائدة–رقم الآية (٨٢).

٤) سورة القصص– رقم الآية (٥٢–٥٤).

٥) انظر: ١–تفسير الطبري–٣/٧.

٢–زاد المسير في علم التفسير–ابن الجوزي–٢/٤٠٨.

٣–الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح–ابن تيمية–١/٢٦٦.

٤–تفسير ابن كثير–٣/١٥٧.

الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه[1]. وذلك لما كان فيهم من رهبة، وعدم كبر كانوا أقرب إلى الهدى، فقال في حق المسلمين منهم : **{وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين}** قال ابن عباس: مع محمد وأمته، وهم الأمة الشهداء[2].

أما أن تكون دلالة الآيات عدم الطعن في عقيدة النصارى انطلاقا من أن الدين الإسلامي سمح!! فهذا خلاف دلالة نص الآية، وقد قال القاضي أبو يعلى: (وربما ظن جاهل أن هذه الآية مدح النصارى، وليس كذلك، لأنه إنما مدح من آمن منهم، ويدل عليه ما بعد ذلك..)[3].

إن في مجموع ما ذكره العلماء في معنى الآيات التي احتج بها أعضاء جمعيات القومية العربية لموقفهم يتبين خطأ استدلالهم، وأنهم قد اتخذوها للتأثير في مواقف المسلمين تجاه النصارى.

ويمكن الجزم بأنه ليس للآية من معنى صحيح إلا ما ذكر سابقا، وأن مجموع الآيات تنص على حقد وكفر النصارى، وقد حفظ لنا الواقع التاريخي حقائق عنهم، وبينت هذه الحقائق أن النصارى اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ وقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم–فيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمي بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من بني دينهم ذاقوا من ظلمها الوبال–أما التيار العام الذي يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التي لم يخب أوراها قط–إلا في الظاهر– منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك.

---

١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان–عبدالرحمن السعدي–٢/٣٣٤–الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد–المملكة العربية السعودية–الرياض–١٤٠٤هـ.

٢) فتاوى ابن تيمية–٧/٦٢٦.

٣) زاد المسير في علم التفسير–ابن الجوزي–٢/٤٠٩–المكتب الإسلامي–بيروت–الطبعة الثالثة–١٤٠٤هـ.

تجلت أحقادُ الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمن، كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها الصليبية على الإسلام والمسلمين في الأندلس، ثم حملات الاستعمار والتبشير على الممالك الإسلامية في أفريقية أولاً، ثم في العالم كله أخيراً[1].

٣) قوله تعالى **{ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون}**[2].

استنبط أعضاء الجمعيات معنى من هذه الآية يفيد: عدم التعرض إلى المذاهب المخالفة. والاستدلال بالآية المذكورة لا يستقيم لهم، فليس من معاني واستدلالات الآية أن يُقَرّ الباطل، ويُسْكت عن بيان الحق، وتُلبسُ الحقائق على الأمة كما فهموا.

وحالة النظر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ -وهما مصدرا التشريع- نجد نصوصاً ذُكرت؛ فيها ذم العقائد الباطلة كما فيها بيان عقائد الكافرين، قال تعالى **{إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا}**[3].

وأخبر الله تعالى عن محاجّة أنبيائه لأممهم الكافرة، وفيما أخبر عنهم أثناء دعوتهم للتوحيد في وجه الشرك الذي كان عند أممهم، أنهم أنكروا ما كانت عليه أقوامهم من الباطل والضلال، كما في قوله تعالى **{إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ(٧٠)قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١)قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ(٧٢)أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ(٧٣)قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(٧٤)قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(٧٥)أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ(٧٦)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ}**[4].

---

١) في ظلال القرآن-سيد قطب-٢/٩٦٦.

٢) سورة الأنعام-رقم الآية (١٠٨).

٣) سورة الأحزاب-رقم الآية (٦٤).

٤) سورة الشعراء-رقم الآية(٧٠-٧٧).

ففي هذه الآيات، وهي من السور المكية، أخبارٌ من الله تعالى عن محاجّةِ عبده ورسوله وخليله إبراهيمَ ﷺ إمام الحنفاء لقومه. أمر الله رسوله محمد ﷺ أن يتلوه على أمته، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له، والبراء من الشرك وأهله.

ومما أخبر الله عنه قوله {فإنهم عدو لي إلا رب العالمين} أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلتخلص إلي بالمساءة فإني عدو لها، لا أباليها، ولا أفكر فيها[1].

ومن أمثلة منهج الرسل في بيان بطلان الباطل وإحقاق الحق في مسائل الاعتقاد ما جاء في قوله تعالى{**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٩٤)أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي فَلا تُنظِرُونِي**}[2].

ففي هذه الآيات إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تُبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم[3].

وكذلك قد ثبت في سنة الرسول ﷺ بيان فساد مبادئ أصحاب المعتقدات الباطلة، وذمها، جاء في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: [لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُور

---

١) تفسير ابن كثير–١٥٥/٦.

٢) سورة الأعراف–رقم الآية (١٩٤–١٩٥).

٣) تفسير ابن كثير–٥٣٢/٣.

أنبيائهم مسجدا..][1]. وجاء عن ابن عباس أيضا أن النبي ﷺ قال: [لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها][2].

كما أخبر النبي ﷺ أمته عن بني إسرائيل كيف أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، فعن أبي عبيدة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل فيهم يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن فقال: **{لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون}** فقرأ حتى بلغ **{ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون}** قال: وكان نبي الله ﷺ متكئا، فجلس، فقال: لا، حتى تأخذوا على يد الظالم فتأطروه على الحق أطرا)[3].

والنصوص الدالة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله على أن من عقيدة المسلم تبيين الباطل من الحق، والتوحيد من الشرك كثيرة جدا، وهذا يخالف ما دعت إليه جمعيات القومية العربية؛ بألا يتعرض أصحاب العقائد بعضهم لبعض إنما يتعايشون سلما ويوالي بعضهم بعضا عروبة.

إن المعنى الآية الصحيح في قوله تعالى: **{ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون}**[4]. هو كما بينه السلف بأنها من الآيات المقررة لمبدأ سد الذرائع، فقد نهى الله المؤمنين بأن يسبوا الذين يدعو المشركون من دون الله من الآلهة والأنداد، فيسب المشركون الله جهلا منهم بربهم، واعتداء بغير علم[5].

---

١) صحيح البخاري–كتاب الجنائز–باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور–رقم الحديث (١٢٤٤).

٢) المصدر السابق–كتاب أحاديث الأنبياء–باب ما ذكر عن بني إسرائيل–رقم الحديث (٣٢٠١).

٣) سنن الترمذي–كتاب تفسير القرآن–باب ومن سورة المائدة–رقم الحديث (٢٩٧٤).

٤) سورة الأنعام–رقم الآية (١٠٨).

٥) تفسير الطبري–٣٠٩/٧.

ومع أن سب آلهة المشركين فيه مصلحة وحمية لله وإهانة لآلهتهم، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو[1].

وبهذا يكون المقصود التنبيه، بل التصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سببا في فعل ما لا يجوز[2] وليس أن يكون الأصل: هو عدم ذم آلهة المشركين والامتناع عن إعلان بطلان العقائد الفاسدة، بل هذا هو الأصل، ولكن لئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يتطاول المشركون على الذات الإلهية، نهي عن سب آلهتهم.

وقد قال ابن تيمية: **فهؤلاء لما سبت آلهتهم سبوا الله مقابلة، فجعلوهم مماثلين** لله وأعظم في قلوبهم، كما تجد كثيرا من المشركين يحب ما اتخذه من دون الله أندادا أكثر مما يحب الله تعالى[3].

وفي استدلال جمعيات القومية بعد كبير عن معنى الآية الكريمة (**إن الدين عند الله الإسلام**)[4]، عندما أقرت تلك الجمعيات مبدأ: (كل الأديان قد أنزلت لمصلحة البشر) بناء عليه، علما أن المعنى المراد من هذه الآية هو: أن الله لا يقبل من عباده إلا الإسلام، بدليل قوله –عز من قائل-: {**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**}[5].

وكما قال بعض المفسرين: إن آية النهي عن سب آلهة المشركين قد نسخت بتنبيه الخطاب في آية السيف، لأنها تضمنت الأمر بقتلهم، والقتل أشنع من السب[6].

---

١) تفسير ابن كثير–٣/٣٠٧.

٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين–ابن القيم–٣/١٣٧.

٣) منهاج السنة النبوية–٢/٣٩٥.

٤) سورة آل عمران–رقم الآية(١٩).

٥) سورة آل عمران–رقم الآية(٨٥).

٦) زاد المسير في علم التفسير–ابن الجوزي–٣/١٠٣ولا أعرف أحدا من العلماء من ذكر أن هذه الآية منسوخة إلا ابن الجوزي، وقد اختار عدم النسخ، كما في كتابه : نواسخ القرآن–ابن الجوزي–٣٢٩–الجامعة الإسلامية–الطبعة الأولى–١٤٠٤هـ.

٤) قوله تعالى {**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**}[١]: سبق أن أول أعضاء جمعيات القومية العربية بعض آيات القرآن من أجل أن تتفق مع ما تقرره تنظيمات جمعياتهم وهنا يقولون في هذه الآية: لا يوجد هناك أمر مختلف فيه بين العقائد المتنوعة حيث لكل عقيدة شرعة ومنهاجا. ومن هنا نفهم ما قرره أولئك الأعضاء في المنتدى الأدبي، أثناء وضع خطة مثلى -كما يزعمون- تتعلق بإصلاح المدارس الابتدائية، في البلاد العربية عام (١٩١١م-١٣٢٩هـ)، إذ اقترح المنتدى عليهم برنامجا يرمي إلى تطوير البلاد العربية وينهض على دعامتين:

١- توثيق عرى الإخاء بين العرب على اختلاف أديانهم وطوائفهم حتى لا يذكر أحد منهم في السياسة والوطنية غير عروبيته .

٢- توحيد التعليم في البلاد العربية ..)[٢].

إن الدعامة الأولى قامت صياغتها استنادا على الآية السابقة. ولهذا كان في تصريحات الأعضاء (إننا عرب قبل كل شيء ، المسلم عربي والمسيحي عربي ..و ..و ... أجل إننا عرب قبل أن نكون مسلمين ، والمسيحي عربي قبل أن يكون مسيحيا ..و ..و ... وقد تركنا مسألة الديانات والعبادات إلى الجوامع والكنائس[٣]، وأي ضير حينما يتعاطف المسلمون مع المسيحيين لأنهم يروهم يقتربون منهم من أجل السلام والخير العميم للوطن المشترك، الوطن العربي[٤].

ولبيان معنى الآية أقول: إن ما أوحاه الله على رسله عليهم أفضل الصلاة والسلام أجمعين: إما أن يكون أحكاما عقائدية، أو أحكاما تشريعية. فالأحكام العقائدية هي متفقة في التوحيد بدلالة قوله تعالى {**وما أرسلنا من قبلك من رسول**

١) سورة المائدة-رقم الآية (٤٨).

٢) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني - ٢٦٦.

٣) الأهرام-١٠٦٨٢ بتاريخ ١٩١٣/٤/٢٢م . نقلا من كتاب العرب والترك-توفيق برو- ٢٦٥.

٤) يقظة الأمة العربية - نجيب عازوري - ١٧٦.

إلاّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ أَنَا فَاعْبُدُونِي}[١]. وقوله جل جلاله {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[٢]. وثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)[٣].

وقد كان كل نبي يرسله الله إلى أمة تكون الشريعة التي جاء بها هذا النبي ناسخة لمنْ كان قبله أو مقرة لها[٤]، فقد قال تعالى عن عيسى {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي}[٥] لقد كان للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ابتلاءً، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل[٦].

فيكون الفهم الصحيح للآية التي استدل بها أعضاء جمعيات القومية-بعد النظر إلى سياقها، وسابقها مع الآيات- هو أن الله ذكر ما كتب على بني إسرائيل في التوراة، وأمرهم بالعمل بما فيها، ثم ذكر أنه قفا بعيسى بن مريم عليه السلام على آثار الأنبياء قبله، وأنزل عليه الإنجيل، وأمر من بعثه إليه بالعمل بما فيه، ثم ذكر نبينا محمداً ﷺ، وأخبره أنه أنزل إليه الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، وأمره بالعمل بما فيه، والحكم بما أنزل إليه فيه دون ما في سائر الكتب غيره، وأعلمه أنه قد جعل له ولأمته شريعة غير شرائع الأنبياء والأمم قبله، الذين قص عليه

---

١) سورة الأنبياء-رقم الآية (٢٥).

٢) سورة النحل-رقم الآية (٣٦).

٣) صحيح البخاري-كتاب أحاديث الأنبياء-بَاب قَوْلِ اللَّهِ (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ) -رقم الحديث (٣١٨٧). ومعنى علات:الأخوةُ لأبٍ واحدٍ وأمهاتٍ شتّى.ينظر: (غريب الحديث-الخطابي-٢/١٦٠).

٤) انظر: أضواء البيان تفسير القرآن بالقرآن-الشنقيطي-٢/٦٧-عالم الكتب-بيروت.

٥) سورة آل عمران-رقم الآية (٥٠).

٦) تفسير الطبري-٦/٢٦٩.

قصصهم، وإن كان دينه ودينهم في توحيد الله والإقرار بما جاءهم به من عنده، والانتهاء إلى أمره ونهيه واحد[1].

فالشريعة المتبعة والمتعبد الله بها، والمنهج المقتدى به هو ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وهو الوارد في الكتاب والثابت في السنة الصحيحة، حيث نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمدا، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم[2]. وأمره أن يحكم بما أنزل الله، وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله، وأخبره أن ذلك هو حكم الله، ومن ابتغى غيره فقد ابتغى حكم الجاهلية[3].

٥) إن مبدأ تقرير الدعوة إلى الولاء القومي دون النظر إلى الاختلاف في العقائد، قد استمر على أنه من أهم مبادئ جمعيات القومية العربية، حيث أولت آيات القرآن الكريم من قبل حزب البعث العربي الاشتراكي الذي يمثل تلك الجمعيات في مرحلة زمنية من نشأتها.

فقد قرر حزب البعث العربي الاشتراكي مبدأ الولاء القومي وطلب التعايش السلمي بين الأديان المختلفة وعدم اعتزاز وترفع أهل دين على دين، حتى ولو كان على حساب الدين الحق، وبين مؤسسو الحزب خطأ منهجية من يستدل ببعض نصوص القرآن التي يفهم منها تفضيل أمة على أمة، وأكدوا على أن المحاولات الرامية للإفادة من بعض النصوص التاريخية والدينية في إعطاء تقييم خاص متميز للأمة العربية، أو لغيرها، لا تكتسب قيمتها وتأثيرها ما لم تكن مستندة إلى تفسير علمي بعيد عن الانزلاق وراء التميز والتفاخر والاستعلاء.

---

١) المصدر السابق–٦/٢٧٠.

٢) تفسير ابن كثير–٣/١٢١. وانظر:

١. جامع أحكام القرآن–القرطبي–٦/٢١١.

٢. تسير الكريم المنان–عبدالرحمن السعدي–٢/٣٠٠.

٣) منهاج السنة النبوية–٥/١٣٠.

وهذا مثال على ذلك عند تفسير الآية الكريمة {كنتم خير أمة أخرجت للناس تـأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر}.

ولا شك في أن التفسير الظاهري للآية يقود إلى نوع من الخطأ والوهـم.. ومن المعروف أن التصرف على أساس التميز والاستعلاء من أي أمة أو شـعب وبأية ذريعة أو لافتة، يؤدي من حيث النتيجة إلى تخريب العلائق الإنسانية الطبيعية، ويشوه مبادئ الحق والعدل والمساواة بين الشعوب[1].

والذي يفهم من هذا التقرير البعثي، أن الحزب يرفض التمايز بين الأديـان، بحجة أن ذلك يفسد العلائق الإنسانية ويؤدي إلى الظلم بين الشعوب، وأن الخيرية الواردة في الآية المستدل بها؛ والذي يقصد بـ(الأمة) الوارد ذكرها في الآية هي الأمة العربية، أو المسلمون عموما من عرب وغيرهم. وحينما توصف الأمة العربية بصفة الخيرية فإن هذا الوصف يؤدي إلى الاستعلاء والغرور بأفرادها.

وقبل تحديد من المقصود بكلمة (الأمة) في الآية السابقة، سأبين معنى كلمة (الأمة) فإن هذه الكلمة لها معان بحسب ما وردت في سياقه من الآيات، والـذي اتفق عليه أهل اللغة أن معنى الأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما إما: دين واحـد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أم اختيارا[2].

---

١) رسالة الأمة العربية–شبلي العيسمي–٢٦. انظر : ١–مفردات القرآن–الراغب الأصفهاني–٢٣.

٢. دائرة المعارف الإسلامية– ٢/٦٣٠–٦٣٤–دار المعرفة–بيروت.

٢) مفردات القرآن–الراغب الأصفهاني–٢٣. انظر: ١–لسان العرب–ابن منظور–١٢/٢٦–٢٨.

٢–غريب الحديث–لأبي عبيد بن سلام الهروي–٢/١٢٥.

٣–النهاية في غريب الحديث والأثر–ابن الأثير–١/٦٨. وقد قال المستشرقون في دائرة المعارف: (كلمة أمة وجمعها أمم في القرآن مختلفة المعنى بحيث لا يمكن تحديد معناها بالتدقيق على أنه مما لا شك فيه أنه تـدل دائما على فئة أو طائفة من الناس). وقول المستشرقين هذا: مناقض لنصوص القـرآن الكـريم والسـنة الصحيحة. حيث تدل الكلمة على معان معينة ويمكن تحديدها بحسب ما جاء فيها من كـلام الله وكـلام رسولهﷺ.كما بين بطلان ما قاله المستشرقون الشيخ محمود شاكر رحمه الله تعالى. انظر: دائـرة المعـارف الإسلامية– ٢/٦٣٠–٦٣٤.

وبهذا المعنى يظهر أن الأمة تطلق على من اتصف بصفة التفرد، فيكون مجموعة من الناس تفردوا بالمعاصرة أو بالدين أو المكان..الخ. وقد ثبت أيضا بالسنة دليل ذلك؛ فعن معاوية ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله ما يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك][1].

ومن أمثلة التفرد، أن أبا عبيدة ﷺ أمين لهذه الأمة، لقول النبيِّ ﷺ: [لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ][2]. ومن التفرد أيضاً أن فاطمة بنت النبي ﷺ هي سيدة نساء هذه الأمة، ففي حديث عَائِشَةَ :..قَالَ الرسول ﷺ:[يَا فَاطِمَةُ أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ][3].

ومن مجموع هذه المعاني يكون المقصود بالآية السابقة هو من صدق النبي ﷺ وآمن بما جاء به وتبعه فيه[4]. وهذا التحديد للآية يدل عليه سياقُ الآية. وقد قال أبوهريرة رضِي اللَّه عَنْه:**{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}**قَالَ: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ[5].

---

١) صحيح البخاري-كتاب التوحيد-بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}-رقم الحديث(٦٩٠٦).

٢) المصدر السابق-كتاب المغازي-بَاب قِصَّةِ أَهْلِ نَجْرَانَ-رقم الحديث (٤٠٣١).

٣) المصدر السابق-كتاب الاستئذان-باب مَنْ نَاجَى بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ وَمَنْ لَمْ يُخْبِرْ بِسِرِّ صَاحِبِهِ فَإِذَا مَاتَ أَخْبَرَ بِهِ-رقم الحديث (٥٨١٢).

٤) تهذيب الأسماء واللغات-النووي-١١/٢. وانظر: شرح صحيح مسلم-كتاب الإيمان:والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني...)

٥) صحيح البخاري-كتاب التفسير-باب (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)-رقم الحديث (٤١٩١).

وقال مجاهد: {**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**} قال: كنتم خير الناس للناس، على هذا الشرط، أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتؤمنوا بالله[1].

فالأمة بالمعنى الإسلامي هي انتماء ديني عقدي، وليست انتماء عنصريا لجنس من الأجناس أو عرق من الأعراق. ومن ثم فقد قامت الأمة الإسلامية خلال التاريخ من جميع العناصر التي استجابت لرسالة الإسلام، بغض النظر عن انتسابها لجنس من أجناس البشر[2].

وهذا الانتماء العقائدي لهذه الأمة الإسلامية مما ينبغي أن تدركه الأمة، لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض.

ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية إنما ينبغي دائما أن تعطي هذه الأمم مما لديها، وأن يكون لديها دائما ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح... هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها، وواجبها أن تكون في الطليعة دائما، وفي مركز القيادة دائما.

ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلا له.. فهي خير أمة أخرجت للناس. لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف–تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا– وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون{نحن أبناء الله وأحباؤه}.. كلا إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف[3].

---

1) تفسير الطبري–٤/٤٤.

2) الأمة في دلالتها العربية والقرآنية–أحمد حسن فرحات–٤٣–دار عمار–عمان–الطبعة الأولى–١٤٠٣هـ.

3) في ظلال القرآن–سيد قطب–١/٤٤٧ .

وفهم مدلول الآية على هذه المعاني ليس هو (ضرب من الغرور والاعتقاد بالتميز غير المبرر علميا)، الذي يدعيه حزب البعث، والذي قد (يؤدي من حيث النتيجة لتخريب العلائق الإنسانية الطبيعية، ويشوه مبادئ الحق والعدل والمساواة بين الشعوب)[1]. حيث أن آيات القرآن قد حددت مدى علاقة الشعوب بعضها البعض، ونصت على معيار التفاضل فيما بينها فقد قال تعالى {**يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**}[2].

فالحقيقة القائمة المشاهدة هي انقسام الناس إلى شعوب وقبائل ليتم بينها التعارف واللقاء، والحقيقة التي ينبغي أن تكون، والتي من أجلها أرسل الله رسله، وأنزل عليهم كتبه هي التقاء الناس من القبائل والشعوب المختلفة على انتماء ديني خلقي يتفاوتون فيه ويتفاضلون بمقدار قربهم من الدين والتزامهم بقيمه وأخلاقه[3].

٦) **تأويل آيات في أحكام الرق**: في الفقرات السابقة من الرسالة، تبين التأثير النصراني على أفكار ومبادئ أعضاء جمعيات القومية، فكان من نتائجها ما سبق بيانه من تأويل آيات القرآن الكريم. ويظهر من تأويل مؤسسي الجمعيات القومية للآيات التالية المتعلقة بأحكام الرق، تأثير المنطلقات الماسونية بدعوى تكريم الإنسانية، وأنهم سواسية تحت شعار (مساواة).

قال محمد عزة دروزة: عن الرق، (قد هيأ القرآن الوسائل العديدة التي تجعل الرق من أساسه آيلا للزوال في الأزمنة التالية لتزول الآية، وفي هذا توكيد كذلك لكون المعالجة إنما كانت لأمر قائم آيل إلى الزوال ولقد زال أو كاد)[4].

---

١) رسالة الأمة العربية–شبلي العيسمى–٢٦.

٢) سورة الحجرات–رقم الآية (١٣).

٣) الأمة في دلالتها العربية والقرآنية–أحمد حسن فرحات–٤٤.

٤) المرأة في القرآن والسنة–محمد عزة دروزة–١٢٠–المكتبة العصرية–صيدا–بيروت–الطبعة الثالثة–١٤٠٤هـ.

وبعد أن ذكر هذه المقدمات التي فيها جرأة واضحة على أحكام الشريعة، أورد تأويله للآيات التي توافق ما ذهب إليه، فقال: (لقد وضع القرآن أساساً لهذا الإلغاء في آية من سورة محمد هي {فَإِذا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}[1].

فقال عن تأويل هذه الآية: الآية وضعت حلاً لأسرى الحرب الذين يقعون في أيدي المسلمين من أعدائهم الكفار المحاربين، وهو إما فداء أي؛ إطلاق الأسرى مقابل فدية، وإما المن أي إطلاقهم بدون فدية[2].

وأما عن الاسترقاق فقد قرر أعضاء جمعيات القومية بأنه ليس واجباً في الإسلام، ولكنه يباح إذا كان فيه المصلحة التي لا يعارضها مفسدة راجحة[3].

ولقد اتفقت دول العالم على إلغاء الرق[4] ومن جملتها الدول الإسلامية. وعن هذا الاتفاق قال أعضاء جمعيات القومية: ولكل حكومة إسلامية أن تمنعه، بل مَنْعُه مِنْ مقاصد الإسلام العامة[5].

إن أحكام الرق مرتبطة بشريعة الجهاد، وهي باقية ما بقي الجهاد في سبيل الله، وقد قال البخاري في صحيحه: الْجِهَادُ مَاضٍ مَعَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ [الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][6] فلما ارتبط الرق بالجهاد فما هو بغريب أن تقف الدول النصرانية منه الموقف الذي ذكره أعضاء الجمعيات القومية العربية.

---

١) سورة محمد–رقم الآية (٤).

٢) المرأة في القرآن والسنة–محمد عزة دروزة–١٢٠.

٣) حقوق النساء في الإسلام–محمد رشيد رضا–١٥٥–المكتب الإسلامي–بيروت–١٤٠٤هـ.

٤) انظر عن تآمر الدول النصرانية: الإسلام والرق–محمد البهي–١١–دار التراث العربي–مصر–الطبعة الأولى–١٣٩٩هـ. و "القانون الدولي العام–أبي هيف–٨١٨".

٥) حقوق النساء في الإسلام–محمد رشيد رضا–١٥٥. وانظر: المرأة في القرآن والسنة–عزة دروزة–١٢٠.

٦) صحيح البخاري–كتاب الجهاد والسير–بَاب الْجِهَادُ مَاضٍ مَعَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ–رقم الحديث (٢٦٣٧).

وما ذكر من موقف جمعيات القومية العربية من الآية –التي تنص على مشروعية الرق– يتفق مع فكر المستغربين الذين أعجبوا بمبادئ الدول الغربية والشرقية من الدول الكافرة والملحدة، ويعتذرون عن رب العالمين في تشريعه للجهاد[1].

والرق من أحكام الشريعة التي لم تنسخ إنما هي باقية ما بقي سببه، فقولهم: (قد هيأ القرآن الوسائل العديدة التي تجعل الرق من أساسه آيلا للزوال في الأزمنة التالية لنزول الآية) إنما هو قول من اتبع منهجهم أيضا ممن سلك السبيل إلى تمييع أحكام الرق، وقال: (إن للإسلام فلسفة في معالجة الشؤون التي ليست أساسا من أسسه. ففي معالجة هذه الشؤون تقضي فلسفة الإسلام أن تعالج برفق وأناة حتى يصل الإسلام إلى هدفه بدون أن يحدث اضطرابا بين معتنقيه. وذكر من هذه الأمور: شرب الخمر، **والرق** وتعدد الزوجات...)[2].

فإن كل هذه التقديرات لم تبن على أصل شرعي صحيح معتمد على كتاب الله وسنة رسوله، إنما قد يكون معتمداً على الأفعال التي صدرت من الدول النصرانية في هذا الأمر. وإلا فمن ظواهر النصوص الشرعية يتبين بطلان ما قرره أعضاء جمعيات القومية العربية، وقد بين علماء الأمة أن قوله تعالى{ **فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** }[3]: يدل على ما يلي:

---

١) انظر عن هذه القضية:

١. الإسلام والرق–محمد البهي–١١.
٢. الإسلام في قفص الاتهام–شوقي أبو خليل–١٤٢–دار الفكر–دمشق–الطبعة الرابعة–١٤٠٠هـ.
٣. لا رق في القرآن–إبراهيم هاشم الفلالي–دار القلم–القاهرة–.
٤. آثار الحرب في الفقه الإسلامي–وهبه الزحيلي–٤١٦–٤٥٨–دار الفكر–الطبعة الثالثة–١٤٠١هـ.

٢) الإسلام في قفص الاتهام–شوقي أبو خليل–١٤٩.

٣) سورة محمد–رقم الآية (٤).

أولا) الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ وإلى القائمين بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن قتل الأسرى مذكورا في هذه الآية، فإنه قد أذن فيه بآية أخرى، وذلك في قوله {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}. وقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك كله فيمن صار أسيرا في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضا، ويفادي ببعض، ويمن على بعض ..ولم يزل ذلك ثابتا في سيرته تجاه أهل الحرب من لدن أذن الله له بحربهم، إلى أن قبضه إليه ﷺ [1].

ثانيا) من دلالة الآية أن المسلمين لم يختلفوا في جواز الملك بالرق، ومعلوم أن سببه أسر المسلمين الكفار في الجهاد، والله تبارك وتعالى في كتابه يعبر عن الملك بالرق بعبارة هي أبلغ العبارات، في توكيد ثبوت ملك الرقيق، وهو ملك اليمين لأن ما ملكته يمين الإنسان فهو مملوك له تماما وتحت تصرفه، كقوله تعالى {فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم} .. فالمراد بملك اليمين في هذه الآيات كلها الملك بالرق.. فلا ينكر الرق في الإسلام، إلا مكابر أو ملحد أو من لا يؤمن بكتاب الله، ولا بسنة رسوله ﷺ [2].

كما ثبت الرق بسنة رسوله ﷺ فأغلب غزواته يحصل بها إما الفداء أو المن أو القتل أو الرق، ولهذا أورد الإمام البخاري في صحيحه أحاديث تدل على هذه المعاني الأربع جميعها، وقال: (باب من ملك من العرب رقيقا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية)[3].

فمن النصوص النبوية التي تدل على الرق: الحديث الثابت عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعته من رسول الله ﷺ

---

١) تفسير الطبري–٤٢/١٣. وانظر:

١. الجامع لأحكام القرآن–القرطبي–٢٢٨/١٦.

٢. الدر المنثور في تفسير المأثور–السيوطي–٤٥٧/٧.

٢) أضواء البيان–الشنقيطي–٤١٩/٧–٤٢٠.

٣) انظر: فتح الباري–ابن حجر–٢٠٢/٥.

يقولها فيهم [هم أشد أمتي على الدجال، وكانت فيهم سبية عند عائشة، فقال: أعتقيها؛ فإنها من ولد إسماعيل، وجاءت صدقاتهم فقال هذه صدقات قوم أو قومي][(1)].

وقد جاء وفد هوازن مسلمين إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم فقال لهم رسول الله ﷺ:[أحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال...][(2)].

وعَنْ عِمْرَانَ ابْنِ حُصَيْنٍ؛ أَنَّ رَجُلاً أَعْتَقَ سِتَّةَ مَمْلُوكِينَ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ غَيْرَهُمْ، فَدَعَا بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَزَّأَهُمْ أَثْلاَثاً ثُمَّ أَقْرَعَ بَيْنَهُمْ فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ، وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً وَقَالَ لَهُ قَوْلاً شَدِيدًا [(3)].

يدل مجموع هذه النصوص النبوية -التي تناقلها الخلف عن السلف- على وقوع الاسترقاق في المحاربين، وبعد أن ذكر البغوي جملة من النصوص الدالة على مشروعية الرق قال: (فيه دليل على جواز الاستيثاق من الأسير الكافر بالرباط، والغل والقيد إذا خيف انفلاته، و لم يؤمن شره، ومن وقع في الأسر من نساء أهل الحرب وذراريهم، صاروا أرقاء، وكانوا من جملة الغنائم، فأما الرجال العاقلون البالغون منهم إذا وقعوا في الأسر، فالإمام فيهم بالخيار، إن شاء قتلهم من غير أن يمثل بهم، وإن شاء استرقهم، وإن شاء منّ عليهم، وإن شاء فاداهم بالمال، أو بأسرى المسلمين.. وذهب -إلى ما ذكرنا- من التخيير بين القتل، والمن، والفداء، والاسترقاق أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ، وأهل العلم بعدهم[(4)].

وعلى هذا القول سار من جاء بعد البغوي حيث قالوا: وأما ما يجوز من النكاية في العدو فإن النكاية لا تخلو أن تكون في الأموال أو النفوس أو في الرقاب

---

1) صحيح البخاري-كتاب المغازي-بَاب غَزْوَةُ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ-رقم الحديث (٤٠١٨).

2) المصدر نفسه-كتاب الوكالة-بَاب إِذَا وَهَبَ شَيْئًا لِوَكِيلٍ أَوْ شَفِيعِ قَوْمٍ جَازَ-رقم الحديث (٢١٤٢).

3) صحيح مسلم-كتاب الأيمان-بَاب مَنْ أَعْتَقَ شِرْكًا لَهُ فِي عَبْدٍ-رقم الحديث (٣١٥٤).

4) شرح السنة-البغوي-١١/٧٧-٧٩.

أعني الاستعباد والتملك، فأما النكاية التي هي الاستعباد فهي جائزة بطريق الإجماع في جميع أنواع المشركين ..[1].

وقالوا: والواجب الوقوف على ما دلت عليه الأدلة الكثيرة الصحيحة من التخيير في كل مشرك بين القتل والمن والفداء والاسترقاق، فمن ادعى تخصيص نوع منهم أو فرد من أفرادهم فهو مطالب بالدليل[2].

وقال الشوكاني: قد ثبت في جنس أسارى الكفار جواز القتل والمن والفداء والاسترقاق، فمن ادعى أن بعض هذه الأمور تختص ببعض الكفار دون بعض لم يقبل منه ذلك إلا بدليل ناهض يخصص العمومات[3].

هذا في الرد على تأويل أعضاء جمعيات القومية العربية للنص القرآني الدال على مشروعية واستمرارية الرق في الإسلام.

وأما عن قولهم (لقد اتفقت دول العالم على إلغاء الرق ومن جملتها الدول الإسلامية..وما قبلته الدول الإسلامية من إلغاء الرق يعد سائغاً، نافذاً)[4].

ففي هذا النص التجرؤ على خصائص مالك الملك سبحانه وتعالى، فهو وحده المشرع {ألا له الخلق والأمر} فعلى أي وجه أساس سلّم أعضاء جمعيات القومية العربية لدول العالم أن تلغي حكماً شرعياً ثابتاً بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وتناقله المسلمون جيلاً عن جيل، وعملوا بأحاكمه؟.

وبهذا يظهر أن إلغاء الرق عموماً وتحريمه دولياً بضاعة مستوردة من أعداء الله اقتبسها العالم الإسلامي كما اقتبس غيرها من القوانين الوضعية[5]. وتبنى

---

١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد–ابن رشد–١/٤٦٨–المكتبة العصرية–مصر–١٩٧٥.

٢) الروضة الندية شرح الدرر البهية–صديق بن حسن–٢/٣٤٥–٣٤٦–دار الندوة الجديدة–بيروت–لبنان–الطبعة الأولى–١٤٠٤هـ.

٣) نيل الأوطار–الشوكاني–٦/٨–دار المعرفة–بيروت–لبنان.

٤) المرأة في القرآن والسنة–محمد عزة دروزة–١٢٠.

٥) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية–علي العلياني–٣٧٢.

أعضاء جمعيات القومية العربية هذا الإلغاء كما سبق بيانه. وفي هذا العمل تقليد للكافرين، وقد حذر منه الرسول ﷺ جاء في حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، قال: [لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن](1).

١) صحيح البخاري-كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة-باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من كان قبلكم-رقم الحديث (٦٧٧٥).

المبحث الثاني

موقف جمعيات القومية العربية من السنة النبوية

أجمعت الأمة على أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للعقيدة والتشريع بعد القرآن الكريم.

ووضح ذلك الشافعي قائلا: (ولا أعلم من الصحابة ولا من التابعين أحدا أخبر عن رسول الله ﷺ، إلا قبل خبره، وانتهى إليه، وأثبت ذلك سنة، وصنع ذلك الذين بعد التابعين، والذين لقيناهم، كلهم يثبت الأخبار ويجعلها سنة، يحمد من تبعها، ويعاب من خالفها، فمن فارق هذا المذهب كان عندنا مفارق سبيل أصحاب رسول الله ﷺ، وأهل العلم بعدهم إلى اليوم، وكان من الجهالة[1].

ورأى عبدالرحمن بن يزيد محرما عليه ثيابه، فنهاه، فقال: ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي، فقرأ عليه {**وما آتاكم الرسول فخذوه**}[2] [3].

وهذا الفهم الذي فهمه سلف الأمة من الصحابة والتابعين هو ما تدل عليه آيات القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة، فمن الآيات التي تدل على حجية السنة قوله تعالى {**من يطع الرسول فقد أطاع الله**}[4]، فإن في هذا إخبار من الله إلى خلقه في حق طاعة نبيه محمد ﷺ، يقول الله تعالى مبينا لهم؛ من يطع منكم أيها الناس محمدا، فقد أطاعني بطاعته إياه، فاسمعوا قوله، وأطيعوا أمره،

---

١) الرسالة-الشافعي-٤٠٢-٤٠٣.

٢) سورة الحشر-رقم الآية (٧).

٣) الموافقات-الشاطبي-٤/٢٥.

٤) سورة النساء-رقم الآية (٨٠).

فإن ما يأمركم به من شيء فمن أمري يأمركم، وما نهاكم عنه من شـــيء فمن نهيي، فلا يقولن أحدكم: إنما محمد بشر مثلنا، يريد أن يتفضل علينا[1].

وبعد أن أفرد الله تعالى طاعة الرسول ﷺ، قرن طاعته بطاعة رســوله ﷺ، في قوله تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُــولَ} [2]. فــأمر الله تعــالى بطاعته، وطاعة رسوله ﷺ، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالاً من غَيْر عَرْض ما أَمرَ به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً، سواء كــان ما أمر به في الكتاب أم لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه[3].

لقد كانت آيات القرآن الحكيم تربي أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم علــى طاعة الرسول ﷺ، وعدم مخالفته، قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُــولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [4]. فبين الله أن المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله، كما حكـم أولاً بأن المؤمنين الكاملين الإيمان: هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان[5].

وطاعته ﷺ، ليست محددة في حياته وإنما تلزم طاعته حتى بعد وفاتــه، قال تعالى { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [6]، وقد أجمع العلماء على أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابــــه، والرد إلى الرسول ﷺ، هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته[7].

---

١) تفسير الطبري–١٧٧/٥.

٢) سورة النساء–رقم الآية (٥٩).

٣) أعلام الموقعين–ابن القيم–٤٨/١.

٤) سورة النور–رقم الآية(٦٢).

٥) فتح القدير–الشوكاني–٥٧/٤–دار المعرفة–بيروت–لبنان–

٦) سورة النساء–رقم الآية (٥٩).

٧) أعلام الموقعين–ابن القيم–٤٩/١–٥٠.

ومما يجب اعتقاده أن الرسول ﷺ قد بلغ الخلق ما أوحي إليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم، وأنه ما كتم شيئا من الوحي، ولا طواه عن الخلق، فإنه لم يبعث إلا لذلك، فلذلك كان رحمة للعالمين، و لم يكن متهما فيه، كيف؟! والله تعالى يقول :{وما هو على الغيب بضنين}[1] وعلم ذلك عنه علما ضروريا في سائر أحواله من حرصه على إصلاح الخلق، وشغفه بإرشادهم إلى صلاح معادهم ومعاشهم، ما ترك شيئا مما يقربهم إلى الجنة، ويرضي الله، إلا دلهم عليه، وأمرهم به، وحثهم عليه، ولا شيئا مما يقربهم إلى النار وإلى سخط الله، إلا حذرهم منه، ونهاهم، وذلك في العلم والعمل جميعا[2].

وبعد البيان الموجز عن مكانة السنة، ووجوب الرجوع إليها عند التحاكم، سأبين في هذا المبحث موقف جمعيات القومية من السنة النبوية بوصفها مصدرا من مصادر العقيدة، كما سبق أن بينت في المبحث السابق موقفهم من القرآن الكريم، والذي تلخص في البنود التالية:–

أ. ابتداع الدساتير الوضعية بدلا عن القرآن الكريم.

ب. تأويل نصوص القرآن الكريم حسب ما تمليه عليهم المبادئ القومية.

ج– تأويل نصوص القرآن الكريم حسب ما تمليه عليهم أنظمة وقوانين المجتمع الدولي العام. وفيما يلي تفصيل موقف الجمعيات القومية من السنة النبوية:–

المو قف الأول) **تأويل نصوص السنة:**

إن ما سلكته جمعيات القومية من منهج في تأويل بعض آيات القرآن الكريم، تعاملت به مع نصوص السنة النبوية الصحيحة، كما تعامل ساطع الحصري، –الذي

---

١) سورة التكوير–رقم الآية (٢٤).

٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم–ابن الوزير–٣/٣٧٤–مؤسسة الرسالة–بيروت–الطبعة الثانية–١٤١٢هـ.

يعتبر أحد منظري الفكري القومي– مع الحديث الذي رواه أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون فقال: [لو لم تفعلوا لصلح، قال فخرج شيصا، فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا، قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم][1].

قال ساطع الحصري في هذا الحديث: (إن دراسة القومية العربية دراسة علمية مستقلة عن المعتقدات الدينية لا يعني إهمال شأن الدين، بل إنما يعني ترك الأمور السياسية خارج نطاق الأبحاث الدينية، وذلك وفقا لحديث النبي العربي العظيم [أنتم أعلم بأمور دنياكم].

ويتابع ساطع الحصري قائلا: (أنا أعلم أن هناك من يدعي أن الحديث الشريف المذكور كان قد قيل في حادثة (تأبير النخل) ولا يجيز تعميمه على قضايا السياسة عامة، والسياسة القومية خاصة، ولكني أتساءل: هذه القضايا، ألم تكن أشد اتصالا بأمور الدنيا وأكثر إيغالا في متاهاتها المعقدة من عملية تأبير النخل، آلاف وآلاف المرات؟)[2].

إن من المقرر في مبادئ جمعيات القومية العربية مبدأ استبعاد الدين من شؤون السياسة وأمور الدنيا، وهذا ما سبق بيانه عند الحديث عن أهداف تلك الجمعيات في الباب الأول، وساقت الجمعيات ذاتها حججا لدعم ذاك المبدأ الجاهلي، وعلى أمثلة استدلالاتهم تأويلهم للحديث الصحيح سابق الذكر، مع أن الحديث المؤول ليس في ظاهره تحقيق مرادهم الجاهلي.

والحديث ليس فيه مراد الحصري وأتباعه يبين هذا روايات الحديث التي سأسوقها قبل إيراد أقوال العلماء في ذلك، وأما عن الحديث المؤول فإن روايته

---

١) صحيح مسلم–كتاب الفضائل–باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي–رقم الحديث(٤٣٥٨).وأخرجه ابن ماجة في السنن–كتاب الأحكام–باب تلقيح النخل–برقم(٢٤٦٢).

٢) أبحاث مختارة في القومية العربية–ساطع الحصري–٢٩٣. (بتصرف يسير).

في صحيح مسلم تبدأ بقول طلحة بن عبيدالله: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رءوس النخل، فقال: [ما يصنع هؤلاء]؟ فقالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى، فيلقح. فقال رسول الله ﷺ:[ما أظن يغني ذلك شيئا!] قال: فأخبروا بذلك، فتركوه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: [إن كان ينفعهم ذلك، فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله عز وجل][(1)].

وهذه رواية أخرى صحيحة للحديث روى رافع بن خديج، قال: (قدم نبي الله ﷺ المدينة، وهم يأبرون النخل، يقولون: يلقحون النخل، فقال: [ما تصنعون]؟ قالوا: كنا نصنعه، قال: [لعلكم لو لم تفعلوا؛ كان خيرا]. فتركوه فنفضت أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له، فقال: [إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر].

هذا عن ألفاظ الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، وبعد إيراد الروايات السابقة يمكن أن يرد على استدلال جمعيات القومية العربية العربية، بالأمور التالية:

أولا) ذكر العلماء بعد النظر في ألفاظ الحديث أنها تدل على أن الرسول ﷺ لم ينههم عن التلقيح لكن هم غلطوا ووقع في ظنهم أنه نهاهم، كما غلط من غلط في ظنه أن (الخيط الأبيض) و(الخيط الأسود) هو الحبل الأبيض والأسود[(2)].

ثانيا) أن قول الرسول ﷺ [من رأيي] أي في أمر الدنيا ومعايشها لا على التشريع، فأما ما قاله باجتهاده ورآه شرعا يجب العمل به. وليس تأبير النخل داخلا في هذا النوع بل هو من النوع المذكور قبله، مع أن لفظة (الرأي) إنما أتى

---

1) صحيح مسلم-كتاب الفضائل-باب وجوب امتثال ما قاله -رقم الحديث(٤٣٥٦).

2) فتاوى ابن تيميه-١٢/١٨. وانظر عن تأويل آية (وكلوا واشربوا) تفسير الطبري-١٦١/٢

بها عكرمة[1] وعلى المعنى لقوله في آخر الحديث قال عكرمة: أو نحو هذا فلم يخبر بلفظ النبي محققاً.

فوصية الرسول ﷺ لأهل الزراعة لم تكن خبراً يقينياً وإنما كان ظناً كما بينته الروايات. ورأْيُه في أمور المعايش وظنه كغيره فلا يمتنع وقوع مثل هذا ولا نقص في ذلك[2].

ثالثاً) أن الحديث المستدل به يدلنا على أن من أفعال الرسول ﷺ الدنيوية ما يكون مبنياً على أساس الخبرة والتجربة، ولهذا فقد يُعْتقد في أمور الدنيا الشيء على وجهٍ ويظهر خلافه، أو يكون منه على شك أو ظن، بخلاف أمور الشرع[3].

فأمور الدنيا قد يوفق إلى الصواب فيها، وقد يكون منه خلاف ذلك وهذا في الأمور المبنية على التجربة، كواقعة هذا الحديث (فإن الرسول ﷺ لم يكن ممن عانى أمور الفلاحة، فخفيت عليه تلك الحالة، وتمسك بالقاعدة الكلية بأنه لا يؤثر ولا يغني إلا الله تعالى)[4] فقال لهم ﷺ:[مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا].

فما أخبر به الرسول ﷺ، في هذا المجال-وهي الأمور المبنية على التجربة- و لم يستثن، فهو حق، وأمّا في حادثة تأبير النخل فإن الرسول ﷺ لم يقر على ظنه في تأبير النخل، ولأجل هذا استدرك وأمرهم بفعل التلقيح إن كان ينفعهم[5].

---

١) أحد رواة الحديث: عكرمة بن عمار العجلي البصري، من التابعين ويكنى بأبي عمار، توفي سنة ١٥٩هـ، انظر: تقريب التهذيب-ابن حجر-٢/٣٠ رقم (٢٧٦).

٢) صحيح مسلم بشرح النووي-النووي-١١٦/١٥. (بتصرف يسير)

٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى-القاضي عياض-٨٧٠/٢-مطبعة عيسى البابي الحلبي-١٩٧٧.

٤) اجتهاد الرسول ﷺ -نادية شريف العمري-٨٦-مؤسسة الرسالة-الطبعة الثالثة-١٤٠٥هـ.

٥) الرقى على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة-علي العلياني-٤٩-دار الوطن-الرياض-الطبعة الأولى-١٤١١هـ.(بتصرف يسير). وانظر: ١-الموافقات-الشاطبي-٤/٦-٧.

٢-الحديث والمحدثون-محمد أبوزهو-١٢.

رابعا) لقد ورد عن الرسول ﷺ ما يتلق بأحواله التي هي عادة جبلية -لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل-[1] وكان مصيبا فيها لأنه عالم بها ومن واقع تجربته وخبرته، ومثال ذلك: قول جابر بن عبدالله: (كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران[2] نجني الكباث فقال: [عليكم بالأسود منه فإنه أيطب] فقال: (أكنت ترعى الغنم)؟ قال: [نعم وهل من نبي إلا رعاها][3].

لقد أوصى النبي ﷺ أن يأكل من ثمر (الكباث) وهو ثمر الأراك، والذي لا يعرف جودته إلا رعاة الغنم لأنه يكثر ترددهم تحت الأشجار لطلب المرعى منها والاستظلال تحتها[4]، ولذا سأل الصحابة الرسول ﷺ: (أكنت ترعى الغنم)؟.

وقالت أم قيس: دخلت بابن لي على رسول الله ﷺ، وقد أعلقت عليه من العذرة، فقال: [على ما تدغرن أولادكن بهذا العلاق! عليكن بهذا العود الهندي؛ فإن فيه سبعة أشفية؛ منها ذات الجنب، يسعط من العذرة، ويلد من ذات الجنب[5].

ومعلوم أن الطب من علوم التجربة كذلك روي عن زيد بن أسلم أن رجلا في زمان رسول الله ﷺ جرح، فاحتقن الجرح الدم وأن الرجل دعا رجلين من بني أنمار، فنظرا إليه، فزعما أن رسول الله ﷺ قال لهما أيكما أطب، فقالا أو في الطب خير يا رسول الله، فزعم زيد أن رسول الله ﷺ قال: [أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء][6]. والطب المنقول عن النبي ﷺ غالبه راجع إلى التجربة[7].

---

١) مقدمة ابن خلدون-٢/٦٢٠ (بتصرف).

٢) مر الظهران:هو واد بين مكة وعسفان. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر-ابن الأثير-٣/١٦٧.

٣) صحيح البخاري-كتاب الأطعمة-باب الكباث وهو ثمر الأراك-رقم الحديث(٥٠٣٣).

٤) انظر: فتح الباري-ابن حجر-٩/٤٨٩.

٥) صحيح البخاري-كتاب الطب-باب اللدود-رقم الحديث(٥٢٧٤). وأم قيس: وكانت من المهاجرات الأول اللاتي بايعن رسول الله ﷺوهي أخت عكاشة بن محصن. انظر صحيح البخاري رقم الحديث (٥٢٧٩).

٦) موطأ مالك-كتاب الجامع-رقم الحديث(١٤٨٢). وقال عنه ابن حجر في الفتح:(حديث مرسل)١٠/١٤٠.

٧) فتح الباري-ابن حجر-١٠/١٤٠.

وثبت أن النبي ﷺ كان يقوم بمداواة إبله مما تصاب به من الأمراض التي يعرفها أهل مكة، روى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: ذَهَبْتُ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الأَنْصَارِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ وُلِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَبَاءَةٍ يَهْنَأُ بَعِيرًا لَهُ..)[1]. ومعنى يهنأ: يطليه بالقطران ويعالجه به، والهناء القطران[2].

خامساً) ومع جميع ما ذكر حول ألفاظ الحديث، فليس هناك من مستند لدى جمعيات القومية العربية كي يشرعوا للأمة في جميع جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بحجة الاستدلال بقوله [أنتم أعلم بأمور دنياكم] فإن واقع سيرته ﷺ تبين تقرير مبدأ (وأن لا يعبد الله إلا بما شرع)، بدلالة قوله تعالى {**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**}[3].

وكون أمور السياسة عامةً والسياسة القومية خاصةً كما قال ساطع الحصري بأنها أشد اتصالا بأمور الدنيا وأكثر إيغالاً في متاهاتها المعقدة من عملية تأبير النخل، فإذا كان حالها كما ذكر يلزم أن تَستمد تشريعاتها من الكتاب والسنة، وأن تُحَكّم المبادئ التي تدعوا إليها بوحي من الكتاب والسنة. قال تعالى {**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**}[4] فقطع سبحانه وتعالى السبيل إلى الاختيار بعد أمره وأمر رسوله ﷺ.

فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره، بل إذا أمر، فأمره حتم...فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه فإنما

---

١) صحيح مسلم–كتب الآداب–بَاب اسْتِحْبَابِ تَحْنِيكِ الْمَوْلُودِ عِنْدَ وِلادَتِهِ –رقم الحديث(٣٩٩٥).
وانظر:*سنن أبي داود–كتاب الأدب–باب في تغيير الأسماء–رقم الحديث(٤٣٠٠).

٢) تهذيب معالم السنن بحاشية مختصر سنن أبي داود–ابن القيم–٧/ ٢٥٢–دار المعرفة–بيروت–لبنان.

٣) سورة النساء–رقم الآية(٦٥).

٤) سورة الأحزاب–رقم الآية (٣٦).

يجب الالتزام عليه بالقول الذي أمر بما أمر به، أو النهي الذي نهى عنه، فكان ﷺ مبلغا محضا ومخبرا لا منشئا ومؤسسا، فمن أنشأ من دونه أقوالا، وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله، لا يجب على الأمة إتباعها، ولا التحاكم إليها حتى تعرض على ما جاء به الرسول ﷺ، فإن طابقته، ووافقته، وشهد لها بالصحة، قبلت حينئذ، وإن خالفته وجب ردها وطرحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين، جعلت موقوفة، وكان أحسن أحوالها أنه يجوز الحكم والإفتاء بها أو تركها أما أنه يجب ويتعين، فكلا[1].

الموقف الثاني) التقدم بين يدي رسول الله ﷺ:

في كثير من مباحث أعضاء جمعيات القومية، يلاحظ الأعتراض على بعض الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ بحجج سأذكر بعضا منها فيما يأتي.

إن موضوع السنة ومكانتها في التشريع من المباحث التي تناولتها كثير من الدراسات العلمية المفيدة، وهي تعتبر المصدر الثاني من مصادر التشريع، وقد أمر ربنا بطاعة رسوله والرجوع إليه ﷺ وعدم التقدم بين يديه، فقال تعالى {**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**}[2]. فلم يكتف سبحانه بحصول الإيمان بمجرد التحكيم، بل لا بد من استصحاب الرضا والتسليم ودفع الحرج والضيق والمنازعة[3].

وقال تعالى {**ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول**}[4] ففي هذه الآية أمر تعالى بطاعته، وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلاما بأن طاعة الرسول تجب

١) زاد المعاد في هدي خير العباد–ابن القيم –٣٨/٣. وانظر:مفهوم تجديد الدين–بسطامي محمد سعيد–٢٤٩–٢٥٢.وأفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام الشرعية–محمد سليمان الشقر–٢٤٤/١–٢٤٦.

٢) سورة النساء–رقم الآية(٦٥).

٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة–ابن القيم–٣٥٢/٢.

٤) سورة النساء–رقم الآية (٥٩).

استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه[1].

وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ أن أمر الرسول هو أمر من الله تعالى، قال عبدالله بن مسعود (لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ: مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ[2] لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَمَا لِي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ؟ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيِ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ، فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ{**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**})[3].

ومن الأقوال التي أُثرت عن أعضاء جمعيات القومية العربية في الطعن بالسنة النبوية الصحيحة، والتقدّم بين يدي الرسول ﷺ، ما جرى نقله في المبحث السابق عن ساطع الحصري. ومن مثل ذلك ما تجلى في مواقفهم تجاه هذه الأحاديث:

١. قال رسول الله ﷺ: [مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَلا يُؤْذِي جَارَهُ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ

---

١) إعلام الموقعين–ابن القيم–٤٨/١.

٢) معنى: الْوَاشِمَات، وَالْمُسْتَوْشِمَات: الوشم أن يغرز الجلد بإبرة، ثم يحشى بكحل أو نيل فيزرق أثره أو يخضر، والمستوشمة: هي التي يُفعل بها ذلك. وَالْمُتَنَمِّصَات: النمص: نتف شعر الوجه.انظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر–ابن الأثير–١٨٩/٥و١١٩). وَالْمُتَفَلِّجَات: الفلج: فرجة ما بين الثنايا والرباعيات، والمتفلجات أي النساء اللاتي يفعلن ذلك بأسنانهن رغبة في التحسين. انظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر–ابن الأثير–٤٦٨/٣).

٣) صحيح مسلم–كتاب اللباس والزينة–باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة–رقم الحديث (٣٩٦٦).

فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا][1].

٢. وقوله ﷺ :[يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، وَأَكْثِرْنَ الاسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزْلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؟ قَالَ: أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ؛ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ، فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِي مَا تُصَلِّي، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ][2].

فقد قال بعض أعضاء الجمعيات القومية: تساق بعض الأحاديث في معرض نقص عقل المرأة ودينها وضعف خَلْقها، وعلّقوا على تلك الأحاديث بقولهم: إن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قرّرا أهلية المرأة لكل تكليف إيماني واجتماعي وتعبدي وأخلاقي كالرجل بدون أي تمييز، ورتبا عليها كل ما رتباه على الرجل، ونتيجةً لكل عمل تقوم به من ذلك تنال ثواباً أو عقاباً وحداً في الدنيا والآخرة بدون أي تمييز.

وبعد ما قرروه عن أهلية المرأة، توجهوا إلى الطعن في الحديث ودلالته بقولهم: إن مسؤلية ناقص العقل في الواجبات والجرائم لا يصح أن تكون مثل تام العقل. مع أن الشريعة قد أعطت المرأة من الحقوق، التي منها: أن عينت لها نصيباً في الإرث وأُمِرَ بأدائه لها.. وقررت لها الحق المطلق في التصرف في كل ما يدخل في يدها من مال مهما كان عظيم المقدار..وتدين وتهب وتقبل الهدية

١) صحيح البخاري-كتاب النكاح-رقم الحديث(٤٧٨٧).

٢) صحيح مسلم-كتاب الإيمان-بَاب بَيَانِ نُقْصَانِ الْإِيمَانِ بِنَقْصِ الطَّاعَاتِ-رقم الحديث (١١٤).

وتأخذ الوصية وتعتق وتكاتب وتؤجر وتستأجر..**ولا يصح كل هذا إلا مع فرض الأهلية التامة للمرأة ومساواتها مع الرجل عقلاً وخلقاً وقابلية ومواهب** وجبلية.. ويتحمل التوقف إزاء ما قرره الله ورسوله من كل ما تقدم. وحتى لو صح فإنه يستثني من يطعن أزواجهن وهن عادة الأكثرية الساحقة من النساء...

يأبى علينا إيماننا بحكمة الله ورسوله ﷺ يأبى التسليم لتلك النصوص والتلقينات بصدورها عن رسول الله ﷺ بقصد وصف جميع النساء على اختلاف أوضاعهن بذلك.

ويأبى إيماننا التسليم بأن رسول الله قد قرر كونهن أكثر أهل النار واقعاً لأنهن يكفرن العشير، ويكثرن اللعن، وهو يعلم من دون ريب أن هذا لا يكون عادة إلا من أقلية من النساء[1].

وتعليقاً على الفقرة الثانية من الحديث وهو (نقصان الدين)، أبى التسليم بأن الله ورسوله يعتبران فطر الحائض وعدم صلاتها دليلاً على نقص دين النساء، مع أن ذلك بترخيص منهما.. وكل ما يمكن التسليم به إذا صح الحديث أن يكون قد قصد به الوعظ والتحذير[2].

هذا عن موقف أعضاء الجمعيات من الحديث الدال على نقصان عقل ودين المرأة، أمّا موقفهم من الحديث الذي ينص على أن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فقد فقالوا: والحديث الذي يذكر أن المرأة خلقت من ضلع أعوج قد صدر على سبيل توصية الرجال بالنساء خيراً ورعايتهن والإغضاء عما قد يقع منهن من هنات، والأسلوب الذي جاء به متسق مع ما كان في الأذهان من مركز

---

١) المرأة في القرآن والسنة–محمد عزة دروزة–٤٦–٤٧.وانظر:

١. تحرير المرأة–قاسم أمين–١١–مكتبة الترقي–القاهرة–١٣١٦هـ.

٢. المرأة في التمدن الحديث–محمد جميل بيهم–مطبعة السلام–بيروت–١٣٤٥هـ.

٢) المرأة في القرآن والسنة–محمد عزة دروزة–٤٩.

المرأة قبل الإسلام، والذي جاء الإسلام بتعديله، وليس من شأنه أن يساق على سبيل التعميم لكل النساء وإنما للقلة منهن فيما يتبادر لنا من روحه ونصه[1].

تبيّنُ المواقف السابقة من الأحاديث التقدمَ بين يدي الله ورسوله ﷺ والطعن في دلالات بعض أحاديث السنة النبوية، بناء على مقررات يقررونها. وقد أورد السلف أحاديث تحذر من التقدم بين يدي رسول الله ﷺ منها: قوله ﷺ:[لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ أَمْرٌ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ][2].

وقد يكون هذا الموقف من رفض أحاديث الرسول ﷺ –المتعلقة بأمر النساء وعدم التسليم لما ثبت فيها– متوافقاً مع المبدأ العام الذي ظهر في واقع المسلمين خلال نشأة جمعيات القومية العربية من تبني بعض المسلمين الدعوة إلى تحرير المرأة والدفاع عن حقوقها.

وقد وقفت جمعيات القومية العربية موقف المؤيد لهذه الدعوات من منطلق المساواة الإنسانية، ونبذ التقاليد[3]. ولتأكيد ذلك أبين تلك المواقف من الدعوات التي تنادي بتحرير المرأة.

إضافة إلى ما سبق ذكره من رد أحاديث الرسول ﷺ، فقد تحدث أعضاء الجمعيات القومية العربية عن الجهود التي بذلت أبان الحرب العالمية الأولى في مجال تحرير المرأة والثناء عليها، قائلين: من حسن الحظ أن هذا التطور الذي

---

١) المصدر السابق–٤٧.

٢) سنن الترمذي–كتاب العلم–بَاب مَا نُهِيَ عَنْهُ أَنْ يُقَالَ عِنْدَ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ–رقم الحديث (٢٦٦٣). وقال الترمذي هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . انظر: ١–مسند الإمام أحمد–١٣٢/٤ عن معد يكرب.

٢–سنن أبي داود–كتاب السنة–بَاب فِي لُزُومِ السُّنَّةِ–رقم الحديث(٣٩٨٩).

٣–المستدرك على الصحيحين–الحاكم–١٠٨/١. وقال:صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

٣) الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار–دار الأنصار–القاهرة.

أصاب نساءنا خلال الحرب لم يقف عند حد الأزياء والمظاهر، بل تعداه إلى الجوهر..لقد كانت هذه الجهود مخلصة في تحرير المرأة، راغبةً في رفع مستوى المسلمة إلى مستوى غيرها من المواطنات..وكانت لا تفتر تثير الحماس في أعيان البلاد لإشراك السيدات في الأعمال الاجتماعية. وقد أصابت نجاحاً مرموقاً حينما حملتهم في بيروت على إنشاء **ناد للفتاة المسلمة**، وكان أول ناد من نوعه فقد تأسس عام ١٩١٤. فإذا بفتياتنا اللواتي كن بالأمس على **عزلة تامة** عن الهيئة الاجتماعية ، إذ بهن يبرزن نشيطات إلى الميدان فيعقدن الاجتماعات في النادي، ويحيين فيه الحفلات لسماع مشاهير الأدباء والعلماء[١].

ومن مساهمات أعضاء جمعيات القومية العربية لهذا النادي النسائي أن تأسيس ذاك النادي كان في بيت بشارة الخوري[٢][٣]. ويقول محمد جميل بيهم -أحد مؤسسي الجمعيات- عن جهد هذا النادي النسائي: وأنا لا نذكر تلك الحقبة إلا ونذكر معها النشاط والإقدام والمثابرة التي أظهرها العاملون في خدمة الإنسانية والعاملات، وفي تشجيع الحركة النسائية[٤].

وحينما وضعت الحرب أوزارها وخضعت بلاد الشام للاستعمار النصراني، خشي أعضاء جمعيات القومية العربية أن توأد الحركة الداعية إلى تحرير المرأة، وهذا أحدهم -محمد جميل بيهم - يقول عن واقع الحركة النسائي في نهايات الحرب: (لقد افضى خفوت صوتُ أنصار المرأة مدةً من الزمن إلى سكون الحركة النسائية) وبعد هذا العرض قال عضو الجمعية: غير أني مع ذلك لم أجد مبرراً للسكوت عن بقاء المرأة في بلادنا عضواً أشل، فاستنجدت بقلمي

---

١) مجلة العربي-العدد ٢٢-الكويت-كاتب المقال:محمد جميل بيهم.

٢) انظر الترجمة رقم (١٠).

٣) الحركة النسائية اللبنانية-أميلي إبراهيم-٢٨-دار الثقافة -بيروت-لبنان-

٤) فتاة الشرق في حضارة الغرب-محمد جميل بيهم-٤.

الضعيف لتحبير المقالات المتواصلة، وبلساني القاصر لإلقاء الخطب؛ خصوصا وأن ذلك الجمود الذي استحوذ علينا بعد الحرب لم يكن يتفق مع روح العصر؛ ولا يتلائم مع المبادئ العالمية التي طورتها سنون الحرب.. وقد دعوت إلى إقامة مؤتمر النساء في بيروت وقد أقيم المؤتمر سنة ١٩١٩م[١].

كما تناولت مجلات الجمعيات القومية، أفكار قاسم أمين[٢] داعية تحرر المرأة من دينها، فمن ذلك، ما جاء في تقريض أحد المجلات على كتاب (تحرير المرأة): بأن غرض صاحب هذا الكتاب لا يمكن أن ينكره عليه عاقل عرف مكان أمته من الأمم، ووقف على حاجاتها وما يعيد إليها حياتها، ألا وهو تربية المرأة لتكون كما قال -قاسم أمين-إنسانا يعقل ويريد، وتعليمها مقدارا من العلوم الدينية والعقلية والأدبية[٣].

وبعد الثناء على غرض صاحب الكتاب، تعرضت المجلة بالرد على من أنقص من قيمة الكتاب فقالت: هل الرد على قاسم بك أمين، والتنديد بكتابه (تحرير المرأة) من الانتصار للدين أم من الانتصار للهوى وحكم الوجدان؟[٤].

انطلاقا من هذا التأييد لكتاب قاسم أمين، يلاحظ أن مجلة المنار قد رحبت بكل الكتابات المذكرة بعمل الإسلام في مجال (تحرير المرأة) وسخر صاحبها مجلته للتعريف بها وتحليل معانيها ومؤازرة أصحابها لا سيما أن أهمها صدر عن أحد أصدقائه المقربين من الذين تتلمذوا على أستاذيه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وهو قاسم أمين، .. فاندفع رشيد رضا إلى تأليف بعض

---

١) فتاة الشرق في حضارة الغرب-محمد جميل بيهم-٥-٨.

٢) انظر ترجمة رقم (٥٧).

٣) انظر: تحرير المرأة-قاسم أمين-١٧.

٤) مجلة المنار-عدد ٢٤-مجلد-٢-تاريخ ١٩/٤/١٣١٧هـ. ص:٣٦٩-٣٧٩. وعدد ١٨-مجلد-٢-بتاريخ٧/٣/١٣١٧هـ.ص:٢٨٢.

الفصول تقريظا لهذا الكتاب، وأشاد به إلى حد المبالغة في قوله (وما رأيت في الأنام ما جعل الحكمة على طرف الثمام مثل الذي رأيت في هذا الكتاب)[1].

وقد بارك محمد جميل بيهم واقع المرأة (الشرقية)، من جانب تطورها وتأثرها بدعوات تحرير المرأة، حيث يقول المؤسس: حقا إن المرأة الشرقية لم تبق على ما كانت عليه في عهد المصلح قاسم أمين، ولكنها مع ذلك ورغم المظاهر الخارجية التي تدل على التحرر، لا تزال إلا من رحم ربك تنظر بعين الرجل[2].

كما أقامت مجلة الهلال -وهي من أشهر مجلات جمعيات القومية العربية- احتفالا بالذكرى العشرين لوفاة الداعية الآخر لتحرير المرأة قاسم أمين[3] الداعي إلى السفور ونبذ الفضيلة.

وقالت المجلة عن قاسم أمين: المصلح الكبير صاحب كتابي (المرأة الجديدة) و(تحرير المرأة)، ..ونقلت عن قاسم أمين في كتابه تحرير المرأة، قوله: يرى المطلع على ما أكتبه أني لست ممن يطمع في تحقيق آماله في وقت قريب لأن تحويل النفوس إلى وجهة الكمال في شؤونها مما لا يسهل تحقيقه، وإنما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد في أثناء حركته الخفية، وكل تغيير يحدث في أمة من الأمم وتبدو ثمرته في أحوالها ليس بالأمر البسيط وإنما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدرج في نفس كل واحد شيئا فشيئا... وقد طرقت بابا من أبواب

---

١) تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار-١٨٩٨-١٩٣٥-محمد صالح المراكشي-٣٤٤-الدار التونسية-تونس-١٩٨٥-الطبعة الأولى.

٢) فتاة الشرق في حضارة الغرب-محمد جميل بيهم-٤٣-١٣٧١هـ.

٣) مجلة الهلال-المجلد ٨-السنة ٣٦-بعنوان:الاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة قاسم أمين-بتاريخ ١٣٤٦/١٢/١٣هـ الموافق أول يونيو سنة ١٩٢٨-ص:٩٤٦-٩٥١.انظر:

١. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر-محمد محمد حسين-٢٩٣/١ وما بعد.
٢. قضية تحرير المرأة-محمد قطب-٧.

الإصلاح في أمتنا والتمست وجها من وجوهه في قسم من أفراد الأمة له الأثر الطيب في مجموعها[1].

وأيدت مجلة (الهلال)، ما قدمه قاسم بن أحمد أمين في كتابيه، وجاء في معرض تقويمها للردود الواردة على قاسم: كانت كتابات الحجابيين وأنصار القديم أقوى باعث لقاسم أمين على التمسك برأيه والجرأة في إعلان ما ذهب إليه في كتابه الأول.فتناول أسانيد هؤلاء الخصوم وفحصها فحص قاض بارع خبير، فرآها في جانبه ومصلحته أكثر مما هي في جانبهم ومصلحتهم، فكان كتاب المرأة الجديدة ختام الدفاع في القضية الخطيرة...وقد أبى الذين ردوا على كتاب تحرير المرأة إلا أن يردوا على المرأة الجديدة، وجالت الأقلام في موضوع الحجاب وتعليم المرأة والطلاق وتعدد الزوجات، وهي المسائل التي خالف فيها قاسم بن أحمد أمين جماعة الجامدين والعاملين على منع المرأة من النهوض والتقدم باسم الدين[2].

إن جميع ما ذكر من جهود أعضاء جمعيات القومية العربية في مجال الدعوة إلى تحرير المرأة، ونشر الكتب والكتابات في تأييدها، يرتبط بمواقفهم إزاء نصوص من الشرع تتحدث عن أحكام المرأة، واتخذ منها أعضاء الجمعيات موقف الرد أو التردد أو التوقف والإعراض.

---

١) انظر: تحرير المرأة-قاسم أمين.

٢) مجلة الهلال-المجلد الثامن-السنة ٣٦-بعنوان:الاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة قاسم أمين-٩٤٧-٩٤٨.

الرد على موقف الجمعيات القومية من الأحاديث:

أولاً) إن الأحاديث النبوية ثابتةٌ في كتب الصحاح، وليس لمسلم أن يعترض على حكم الرسول ﷺ بدليل قول الله تعالى {**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**}[1] وهذا لا ينحصر في الأحاديث السابقة، بل في كل حديث ثبت عن رسول الله ﷺ، إذ الواجب التسليم لأمره، والحذر من مخالفة السنن التي سنها رسول الله ﷺ مما ليس له في القرآن ذكر[2]. وعلينا الطعن في أفكارنا وإدراكاتنا وتصوراتنا إذا خالفت السنة الصحيحة.

ثانياً) قد يكون اتخاذ هذه المواقف من الأحاديث بعد أن فهم النص النبوي على أن فيه تقليل من شأن المرأة، وهذا خلاف ما يدل عليه النص النبوي، الذي جاء مبيناً حقيقة وصف طبيعة المرأة، وما يعتريها مما هو من خصائصها. قالت عائشة في ذكر حجها مع رسول الله ﷺ: (.. فَلَمَّا كُنَّا بِسَرِفَ حِضْتُ فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي قَالَ مَا لَكِ أَنُفِسْتِ؟ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ: [إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ..][3].

فنقصان دينها–بترك الصلاة وقت الحيض– ليس عيباً فيها، إنما هو بيان عن العوارض الخَلْقية الطبيعية التي لا شأن للمرأة بها. وأن هذا النقص قد يقع ضرورة لا تدفع[4].

---

١) سورة الأحزاب–رقم الآية(٣٦).

٢) معالم السنن–الخطابي–بهامش مختصر سنن أبي داود–٨/٧.

٣) صحيح البخاري–كتاب الحيض–بَاب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْحَيْضِ–رقم الحديث(٢٨٥). وسَرِف: بفتح أوّله، وكسر ثانيه، وآخره فاء، قال أبو عُبيد:وهو موضع على ستّة أميال من مكّة، تزوّج به رسول اللهﷺ، ميمونة بنت الحارث.انظر: (معجم البلدان–ياقوت الحموي–حرف (السين). والنهاية في غريب الحديث والأثر٢/٣٦٢).

٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد–ابن عبدالبر –٣/٣٢٦–المغرب–الأوقاف والشؤون الإسلامية.

وأي اعتراض عليها يكون اعتراضا على خلق الله تعالى، [إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم..] كالحيض والنفاس اللذين يسقطان الصلاة ويؤخران الصوم. فليس في هذا ما يعيب المرأة. ولو كان ذلك عيبا لكان تأخير الصوم بحق الرجل المريض أو المسافر أمرا يعيبه هو كذلك[1].

وقد سألت امرأة عائشة رضي الله عنها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: أحرورية أنت؟ قلت لست بحرورية ولكني أسأل، قالت: (كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة)[2]. فالذي أمرها بترك قضاء الصلاة هو الذي أخبر أن دينها ناقص.

وهذا النقص الذي يعتور المرأة وهو من طبيعة أنوثتها وخلقها، ويعتبر من مقتضيات رسالة الأمومة التي خلقت لها، ليس له أثر في تفضيل أحد النوعين على الآخر في مجال العمل الصالح والجزاء عليه، ولا في القرب من الله أو البعد عنه. فلكل جزاؤه، ولكل ثوابه على ما عمل {**ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا**}[3][4].

ثالثا) إن مبدأ التفضيل والتكريم يجب أن يكون فيما يتفق بين المفاضل بينهما، فليس من العدل أن يطعن في نصوص السنة بناء على المفاضلة بين الرجل والمرأة، وهما مخلوقان يختلفان في الخصائص كما قال تعالى {وليس الذكر كالأنثى} وقال {**أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين**}[5].

---

١) المرأة المسلمة بين اجتهادات الفقهاء وممارسات المسلمين–مروان القسي–١٥٠-١٥١–المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة–الرباط–المغرب–الطبعة الأولى–١٤١١هـ.

٢) صحيح مسلم–كتاب الحيض–باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة–رقم الحديث(٥٠٨).

٣) سورة النساء–رقم الآية (١٢٤).

٤) حقوق المرأة في الإسلام–محمد بن عبدالله عرفة–٥٥–الطبعة الأولى–١٣٩٨هـ.

٥) سورة الزخرف–رقم الآية(١٨).

ولهذا يرجع اختلاف المرأة عن الرجل إلى عوامل ثلاثة:

١.إن خصائص الأنوثة ومواهبها كقانون الزوجية والأمومة وذكاء العاطفة ليست أسبابا للتكسب.

٢.إن حظها من العقل الذي لم تبلغ به مبلغ الرجال، فصل على قدر ما تفهم به نفسها وواجبها ومكان وظائفها في الحياة.

٣.ما يطرأ على قواها البدنية والنفسية والفكرية من ضعف بسبب عوارض الحيض والحمل والولادة[١].

رابعا) الأحاديث سابقة الذكر ما ذكر فيها انتقاص من المرأة، و لم تذكر ليقصد بها الوعظ والتحذير، كما يقول أعضاء جمعيات القومية العربية، إنما ذكرت لدلالة سياق النص على الأمر والتوجيه بالاهتمام بالنساء، فقد بدأ النص بلفظ [استوصوا بالنساء] وختم [استوصوا بالنساء].

وفهم هذا الأمر سلف الأمة حيث بوب البخاري لهذه الأحاديث وترجم لها وقال:(باب الوصاة بالنساء) وقال (باب المداراة مع النساء وقول النبي ﷺ إنما المرأة كالضلع) ففي هذه الأحاديث الندب إلى المداراة، لاستمالة النفوس وتأليف القلوب. وفيها توجيه إلى سياسة النساء بالعفو عنهن، والصبر على عوجهن، وأن من رام تقويمهن فإنه للانتفاع بهن، مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه[٢]. فيكون على ذلك المعنى من توجيه النبي ﷺ: اقبلوا وصيتي فيهن واعملوا بها وارفقوا بهن وأحسنوا عشرتهن[٣].

---

١) المرأة المسلمة في وجه التحديات-أنور الجندي-١٦-دار الاعتصام-الطبعة الأولى-١٣٩٩هـ.

٢) فتح الباري-ابن حجر-٩/١٦٣.

٣) المصدر السابق-٦/٤٢٤.

خامسا) وأما كون المرأة ناقصة عقل، فقد بين الرسول ﷺ معنى هذا النقص بأن شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد، وإذا بحثنا عن سبب جعل شهادة امرأتين بشهادة رجل، أدركنا أن ذلك يرجع إلى ما ركبه الله سبحانه وتعالى في طبيعة المرأة، فقد اقتضت حكمته البالغة أن تكون العاطفة في المرأة مرهفة، وأن يكون وجدانها أقوى مظاهر حياتها النفسية، وذلك حتى يمكنها أداء أهم وظيفة من وظائفها، وهي وظيفة الحضانة والأمومة على خير وجه...وهذه صفة كمال في المرأة، وقد رغب الرسول ﷺ بنكاح الودود، وهي: المتوددة إلى زوجها[1]، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني أصبت امرأة ذات حسب ومنصب إلا أنها لا تلد أفأتزوجها فنهاه ثم أتاه الثانية فنهاه ثم أتاه الثالثة فنهاه فقال:[تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم][2].

وقد أخبر ربنا العليم الحكيم عن أمر الشهادة للمرأة، فقال {وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى}[3].

إن دلالة هذه الآية تبين أن التفاوت هنا في قضية (الشهادة) لا علاقة له بالإنسانية، ولا بالكرامة، ولا بالأهلية، فما دامت المرأة إنساناً كالرجل، كريمة كالرجل، ذات أهلية كاملة لتحمل الالتزامات المالية كالرجل، لم يكن اشتراط اثنتين مع رجل واحد إلا لأمر خارج عن كرامة المرأة واعتبارها واحترامها...وقد قبلت الشريعة شهادة المرأة وحدها فيما لا يطلع عليه غيرها، فقد قرروا أن شهادتها وحدها تقبل في إثبات الولادة، وفي الثيوبة والبكارة، وفي العيوب الجنسية لدى المرأة[4].

---

١) حقوق المرأة المسلمة في الإسلام-محمد بن عبدالله عرفة-٥١.

٢) سنن النسائي-كتاب النكاح-باب كَرَاهِيَةُ تَزْوِيجِ الْعَقِيمِ-رقم الحديث (٣١٧٥).

٣) سورة البقرة-رقم الآية (٢٨٢).

٤) المرأة بين الفقه والقانون-مصطفى السباعي-٣١-٣٢-المكتب الإسلامي-بيروت-الطبعة السادسة-١٤٠٤هـ.

وقد ورد عن عُقْبَة بْن الْحَارِث أَنَّهُ تَزَوَّجَ أُمَّ يَحْيَى بِنْتَ أَبِي إِهَاب قَالَ: فَجَاءَتْ أَمَةٌ سَوْدَاءُ، فَقَالَتْ: قَدْ أَرْضَعْتُكُمَا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَعْرَضَ، عَنِّي قَالَ فَتَنَحَّيْتُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، قَالَ: وَكَيْفَ وَقَدْ زَعَمَتْ أَنْ قَدْ أَرْضَعَتْكُمَا فَنَهَاهُ عَنْهَا][1].

وقال السلف عن هذا الحديث: وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ أَجَازُوا شَهَادَةَ الْمَرْأَةِ الْوَاحِدَةِ فِي الرَّضَاعِ، وقد فرق عثمان بن عفان بين ناس تناكحوا بقول امرأة سوداء أنها أرضعتهم، وقال ابْنُ عَبَّاسٍ: (تَجُوزُ شَهَادَةُ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الرَّضَاعِ وَيُؤْخَذُ يَمِينُهَا)[2].

وهناك العوارض الطبيعية التي تعرض للمرأة مثل(الحمل والولادة والرضاعة..) وقد سبقت أن أشرت إليها سابقاً وهي ذات صلة باختلاف الطبيعة بين الجنسين.. ومن الطبيعي أن تشغل هذه الوظائف جانباً من قوى البنية[3]. وتترك آثاراً في قوى المرأة العقلية والنفسية. وسمى الله الحيض أذى كما قال{وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ}[4].

سادساً) أما قوله ﷺ في الحديث أن: (النساء أكثر أهل النار) فقال فيه أحد مؤسس الجمعيات بأنه (يأبى التسليم بأن رسول الله قد قرر كونهن

---

١) صحيح البخاري–كتاب الشهادات–بَاب شَهَادَةِ الْإِمَاءِ وَالْعَبِيدِ–رقم الحديث(٢٤٦٥).

٢) انظر:"مصنف عبدالرزاق–كتاب الشهادات–٨/٣٢٠". و"سنن الترمذي–كتاب الرضاع–رقم الحديث(١١٥١)".و"معالم السنن–الخطابي–٥/٢٢٠".و"فتح الباري–ابن حجر–٥/٣١٨". وسئل ابن تيمية: هل تقبل شهادة المرضعة؟ أم لا؟ فأجاب: (إن كان الشاهد ذا عدل قُبل قوله في ذلك، لكن في تحليفه نزاع، وقد روى عن ابن عباس: أنه يحلف).انظر: الفتاوى–٣٥/٤١٢.

٣) المرأة في القرآن–عباس محمود العقاد–١٨–دار الكتاب العربي–بيروت–لبنان–الطبعة الثالثة–١٩٦٩. وانظر عن آثار الحمل على عقلية المرأة:

١. الإنسان ذلك المجهول–الكسيس كاريل–١٠٨–ترجمة شفيق سعيد–الطبعة الثالثة.
٢. الحجاب–أبو الأعلى المودودي–٢٢٨–٢٣٤.

٤) سورة البقرة–رقم الآية(٢٢٢).

أكثر أهل النار)[1]. ففي هذا القول تقدم على قول رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وقد فهم العلماء أن هذا الحديث فيه الإغلاظ في النصح بما يكون سببا لإزالة الصفة التي تعاب، حيث أن اللعن وكفر النعمة مما يظهر في أغلب النساء، وليس لأنهن ناقصات عقل ودين، وقد رتب كونهن أكثر أهل النار لظهور ذلك عليهن، ولذا حظهن بالدعوة إلى الصدقة[2]. كما في الحديث [خرج رسول الله ﷺ في أضحى، أو فطر، إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار فقلن وبم يا رسول الله قال تكثرن اللعن وتكفرن العشير][3].

ولو كانت الأحاديث السابقة تشير إلى نقص في دين وعقل المرأة لبادرت عائشة رضي الله عنها، إلى الرد على رواة الأحاديث. والتي عرفت رضي الله عنها بمواقف مختلفة تنقد فيها بعض الصحابة، بناء على فهم منها، أو كان عندها فيه سنة بينة، أو زيادة علم متقنة[4]. فقد اعترضت حينما ذكر عندها ما يقطع الصلاة الكلب والحمار والمرأة فقالت: (شبهتمونا بالحمر والكلاب والله لقد رأيت النبي ﷺ يصلي وإني على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة فتبدو لي الحاجة فأكره أن أجلس فأوذي النبي ﷺ فأنسل من عند رجليه)[5].

---

١) المرأة في القرآن والسنة-محمد عزة دروزة-٤٦-٤٧.

٢) فتح الباري-١/٤٨٥(بتصرف يسير).

٣) صحيح البخاري-كتاب الحيض-باب ترك الحائض الصوم-رقم الحديث (٢٩٣).

٤) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة-بدر الدين الزركشي-٢٧-المكتب الإسلامي-بيروت-الطبعة الثالثة-١٤٠٠هـ.

٥) صحيح البخاري-كتاب الصلاة-باب من قال لا يقطع الصلاة شيء-رقم الحديث (٤٨٤).

المبحث الثالث

موقف جمعيات القومية من الإجماع

المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي هو: الإجماع، وهو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين[1]. وما يهمنا في هذا المبحث هو الوقوف على الإجماع من حيث كونه حجة شرعية، ثابت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفي هذا المبحث سترد بعض مواقف جمعيات القومية العربية تجاه الإجماع.

من النصوص الدالة على حجية الإجماع قوله تعالى في هذه الآية **{وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}**[2]. ونص العلماء على أنها دليل من أدلة صحة الإجماع[3].

فقد جمع الله بين مشاقة الرسول ﷺ وبين مخالفة سبيل المؤمنين في الوعيد، فلو كان اتباع غير سبيل المؤمنين مباحاً لما جمع بينه وبين المحظور، ومتابعة غير سبيلهم تقع بمخالفة أقوالهم أو أفعالهم[4] واتباع منهجاً غير منهجهم[5].

ومن النصوص أيضاً: قوله تعالى في وصف أمة محمد ﷺ، **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}**[6]. وورد تفسير النبي ﷺ

---

١) فتاوى شيخ الإسلام–ابن تيمية–١٥٧/٣. وللتوسع في بحث الإجماع انظر كتب أصول الفقه، مثل:

١. الإحكام–الآمدي–١٥٠/١.

٢. روضة الناظر–ابن قدامه.

٣. التمهيد في أصول الفقه–أبو الخطاب الكلوذاني الحنبلي.

٢) سورة النساء–رقم الآية(١١٥).

٣) جامع أحكام القرآن–القرطبي–٣٨٦/٥.

٤) الرسالة–الشافعي–٤٧١.

٥) تفسير الطبري–٢٧٧/٥.

٦) سورة البقرة–رقم الآية(١٤٣).

لهذه الآية في حديث أبي سعيد ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: [يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب, فيقول: لأمته هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فنشهد أنه قد بلغ وهو قوله جل ذكره (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) والوسط العدل[1].

قال شراح الحديث عن وصف الرسول ﷺ الأمة بأنها (وسط): إن مقتضى الأمر بلزوم الجماعة أنه يلزم المكلف متابعة ما أجمع عليه المجتهدون وهم المراد بقول البخاري: (وهم أهل العلم). والآية التي ترجم بها، احتج بها أهل الأصول لكون الإجماع حجة لأنهم عدلوا بقوله تعالى {جعلناكم أمة وسطا}، أي: عدولا، ومقتضى ذلك أنهم عصموا من الخطأ فيما أجمعوا عليه قولا وفعلا[2].

وقد جعلهم الله شهداء، و لم يشهدوا بباطل لتزكية الله لهم، فإذا شهدوا أن الله أمر بشيء فقد أمر به، وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه[3].

وأما دليل حجية الإجماع من السنة؛ فجميع النصوص التي تنص على لزوم الجماعة فيها دليل على حجية الإجماع، كقول الرسولﷺ، [نضر الله امرأ سمع مقالتي، فبلغها، فرب حامل فقه، غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم][4].

---

1) صحيح البخاري-كتاب الأنبياء-باب قول الله تعالى (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه) رقم الحديث (٣٠٩١).

2) فتح الباري-ابن حجر-٣٢٩/١٣.

3) مجموع فتاوى ابن تيمية-١٧٧/١٩.

4) أخرجه ابن ماجة-المقدمة-رقم الحديث(٢٢٦).وانظر: ١-مسند الإمام أحمد-١٨٣/٥.

٢-سنن الدارمي-المقدمة-رقم الحديث (٢٣٢).

٣-المستدرك-الحاكم-٨٧/١-كتاب العلم.وصححه ووافقه الذهبي.

وكقول عمر حينما خطب الناس بالجابية•، فقال: (يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال: [أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ...] -إلى قوله- [..عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ..][١].

وبدلالة هذه النصوص كان الإجماع مما هو متفق عليه بين عامة المسلمين في الجملة[٢]. ولهذا لم يزل الصحابة والتابعون ومن بعدهم يستدلون بهذه النصوص على إثبات الإجماع[٣] ومن ذلك ما أورده البخاري في صحيحه في باب قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا): وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة؛ وهم أهل العلم[٤].

وعن خطبة عمر، قال الشافعي عن لزوم جماعة المسلمين، ويقول بقولهم: (ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها)[٥].

• الجابية: بكسر الباء، وياء مخففة؛ وأصله في اللغة الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل، وهي قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران.انظر:معجم البلدان–ياقوت الحموي–حرف الجيم).

١) أخرجه الترمذي–كتاب الفتن–باب ما جاء في لزوم الجماعة–رقم الحديث (٢١٦٥). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وانظر:

١. مسند الإمام أحمد–١/٩٧–٩٨.
٢. سنن ابن ماجة–كتاب الأحكام–رقم الحديث(٢٣٥٣).
٣. وأخرجه الحاكم في المستدرك–١/١١٣–١١٥–كتاب العلم. وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

٢) مجموع فتاوى ابن تيمية–١١/٣٤١.

٣) انظر:المستصفى–الغزالي–١/١٧٥–١٧٦.

٤) صحيح البخاري–كتاب الاعتصام بالكتاب.

٥) الرسالة–الشافعي–٤٧٥–٤٧٦.

وبعد بيان حجية الإجماع من الكتاب والسنة، واتفاق العلماء على وجوبه، يمكننا الآن عرض ومناقشة القضايا التي خالف فيها أعضاء الجمعيات القومية الإجماع، وهي كما يلي:-

١) قبول شهادة المرأة في الحدود والدماء.

٢) إنكار حد الرجم للزاني المحصن.

المطلب الأول: قبول شهادة النساء في الحدود وغيرها:

قال محمد عزة دروزة: (إن الجمهور حصر حق الشهادة في الحدود بخاصة في الرجال، و لم نطلع في صدد ذلك على حديث نبوي وثيق)[١].

وقد عقد أعضاء الجمعيات القومية العربية مؤتمراً قومياً، لمناقشة ما يسمونه بحقوق المرأة، والحقيقة هي الاعتراض على أحكام الشريعة وإثارة الشبهات والمطاعن في دين الله لزعزعة ثقة النفوس به حتى يتقبل الناس تحكيم المبادئ العلمانية.

كما نادى أعضاء المؤتمر بمساواة شهادة المرأة بشهادة الرجل في الحدود والدماء. قالوا: لقد أتيح للمرأة المعاصرة أن تتعلم، كما يتعلم الرجل، وأن ترافق التطور في الحياة مرافقة تامة، فتحيط بصغائر الأمور وكبائرها، وهي إلى ذلك قد اعتمدت على نفسها، وقد عرفت مكانتها الخاصة، فهل بوسعها من بعد أن ترضى بأن تبقى ناقصة في نظر المحاكم، وليس لشيء إلا أنها خلقت أنثى[٢].

لا مجال هنا لإيراد أقوال وخلافات الفقهاء في مسألة الشهادة، وإنما الغرض بيان موقف جمعيات القومية العربية من الإجماع ومناقشته في النقاط التالية:

---

١) المرأة في القرآن والسنة-محمد عزة دروزة-١٢٨-١٢٩. وانظر: الدستور القرآني في شئون الحياة-محمد عزة دروزة-١٧٥.

٢) فتاة الشرق في حضارة الغرب-محمد جميل بيهم-٨٦.

إجماع العلماء على عدم قبول شهادة المرأة في الحدود والدماء:

ذكر علماء الحديث بعض أقوال السلف من الصحابة والتابعين تفيد عدم قبول شهادة المرأة في الحدود والدماء، فمن ذلك:

١.ورد أثر عن عمر ﷺ، قال فيه: (لا تجوز شهادة النساء في الطلاق والنكاح وفي الحدود والدماء)[١].

٢.ورد عن علي بن أبي طالب ﷺ قوله:(لا تجوز شهادة النساء في الحدود والدماء)[٢].

٣.وقال الحسن: (لا تجوز شهادة النساء في الحدود)[٣].

٤.ومثله نقل الزهري: (مضت السنة من رسول الله والخليفتين بعده أن لا تقبل شهادة النساء في الحدود)[٤].

٥.ومثل قول الحسن قال الشعبي: (لا تجوز شهادة امرأة في حد)[٥].

٦.ونقل عن الضحاك قوله: (لا تجوز شهادة النساء في حد ولا دم)[٦].

فهذه الروايات عن الصحابة والتابعين، التي نقلها علماء الحديث في كتبهم توضح مدى معارضة منهج جمعيات القومية للإجماع، في قبول شهادة المرأة في الحدود والدماء.

---

١) مصنف عبدالرزاق-٨/٣٢٠-كتاب الشهادات.

٢) المصدر السابق-٨/٣٢٠-كتاب الشهادات. انظر: نصب الراية-الزيلعي-٤/٧٩.-كتاب الشهادات.

٣) مصنف بن أبي شيبة-١٠/٥٩-كتاب الحدود-باب في شهادة النساء. وانظر:مصنف عبدالرزاق-٨/٣٢٩.

٤) المصدر السابق-١٠/٥٨-كتاب الحدود-باب في شهادة النساء في الحدود-رقم الحديث(٨٧٦٣). وانظر: الدراية في تخريج أحاديث الهداية-ابن حجر-٢/١٧١. نصب الراية-الزيلعي-٤/٧٩.

٥) مصنف بن أبي شيبة-١٠/٥٩-كتاب الحدود-باب في شهادة النساء.

٦) المصدر السابق-١٠/٦٠-كتاب الحدود-باب في شهادة النساء.وانظر: نصب الراية-الزيلعي-٤/٧٩.-كتاب الشهادات.

واستناداً إلى الروايات السابقة فقد أجمع جمهور[1] العلماء على عدم قبول شهادة النساء في الحدود، وبعد أن نقل المروزي اختلاف الفقهاء في شهادة النساء، قال: (أجمعوا أنه لا تجوز شهادتهن في الحدود)[2].

كما نقل الإجماع ابن المنذر، بقوله: (وأجمعوا على أن شهادة النساء جائزة مع الرجال في الدَين والأموال. وأجمعوا على أن شهادتهن لا تقبل في الحدود)[3].

ومما قاله الفقهاء في عدم قبول شهادة النساء في الحدود: إن المسلمين اتفقوا على أنه لا يثبت الزنى بأقل من أربعة عدول ذكور، واتفقوا على أنه تثبت جميع الحقوق ما عدا الزنى بشاهدين عدلين ذكرين..واتفقوا على أنه تثبت الأموال بشاهد عدل ذكر وامرأتين لقوله تعالى {فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ}[4] واختلفوا في قبولهما في الحدود، فالذي عليه الجمهور أنه لا تقبل شهادة النساء في الحدود لا مع رجل ولا مفردات[5].

---

١) المغني-ابن قدامه-٩/١٤٨.

٢) اختلاف العلماء-المروزي-باب الشهادات-٢٨٣-٢٨٤-عالم الكتب-بيروت-الطبعة الثانية-١٤٠٦هـ. ذكر المروزي وغيره قول عطاء بن أبي رباح: إن شهادتهن مقبوله في الحدود والقصاص وغيره، قياساً على الأموال. وقد بين العلماء خطأ هذا القول: بأن قياس شهادة الحدود والقصاص على شهادة الأموال لا يصلح؛ لخفة حكمها، وشدة الحاجة إلى إثباتها؛ لكثرة وقوعها والاحتياط في حفظها، ولهذا زيد في عدد شهود الزنا على شهود المال، وأيضاً فالآثار المروية عن الصحابة والتابعين في عدم قبول شهادتهن في الحدود والقصاص تفيد ذلك .(انظر:المغني-ابن قدامه-٩/١٤٨).

٣) الإجماع-ابن المنذر-٧٨-دار طيبة-الرياض-الطبعة الأولى-١٤٠٢هـ.

٤) سورة البقرة-رقم الآية(٢٨٢).

٥) بداية المجتهد ونهاية المقتصد-ابن رشد-٢/٦٠١. وانظر عن هذه المسألة: ١-الهداية شرح بداية المبتدئ-المرغيناني-٣/١١٦، ١٢٣، ١٢٣.

٢-المبسوط-السرخسي-١٦/١١٢-دار المعرفة-بيروت-لبنان-١٤٠٦هـ.

٣-مغني المحتاج-محمد الشربيني-٤/٤٤١-دار الفكر.

٤-المغني-ابن قدامه-٩/١٤٧-مكتبة الرياض. الموافقات-الشاطبي-٤/٤٦.

فالمفهوم من قوله تعالى {فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ} الآية، أن شهادة المرأة موضع شبهه ولهذا تحتاج إلى من يذكرها، وذلك لضعف الضبط والأداء عند المرأة فيما ليس من أهليتها[1].

وقال الفقهاء أيضاً: إن معنى (منكم) في قوله تعالى {وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ} فاستشهدوا عليهن بما أتين من الفاحشة أربعة **رجال من رجالكم**، يعني من المسلمين[2]. فتكون (منكم) هم الشهود الذكور، وهذا لا خلاف فيه بين الأمة[3]، ونقل هذا الاتفاق الشنقيطي، الذي قال: (أجمع العلماء على أن بينة الزنى لا يقبل فيها أقل من أربعة عدول ذكور، فإن شهد ثلاثة عدول، لم تقبل شهادتهم وحدوا، لأنهم قذفة كاذبون، لأن الله تعالى يقول {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً}[4]. ويقول جل وعلا {وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ} وكلتا الآيتين المذكورتين صريحة في أن الشهود في الزنى، لا يجوز أن يكونوا أقل من أربعة[5].

---

١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته–وهبه الزحيلي–٥٧٠/٦–دار الفكر–دمشق–الطبعة الثانية–١٤٠٥هـ.انظر: عوارض الأهلية عند الأصوليين–حسين الجبوري–٢٨٣–معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي–مكة المكرمة–الطبعة الأولى–١٤٠٨هـ.

٢) تفسير الطبري–٢٩٢/٣. انظر:

١. تفسير ابن كثير–٢٠٤/٢.
٢. تفسير فتح القدير–الشوكاني–٤٣٨/١.
٣. أضواء البيان–الشنقيطي–١٥/٦.
٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان–عبدالرحمن السعدي–٣٧/٢.

٣) الجامع لأحكام القرآن–القرطبي–٨٤/٥. وانظر: رسالة ولاية المرأة في الفقه الإسلامي–فواد العبدالكريم–٢٠١–رسالة علمية مقدمة لقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية بجامعة الملك سعود–(لم تطبع).

٤) سورة النور–رقم الآية (٤).

٥) أضواء البيان–الشنقيطي–١٤/٦.

يظهر من موقف الجمعيات القومية العربية بالمطالبة بقبول شهادة المرأة في الدماء والحدود، تأثير المبادئ الماسونية، والتي منها: المساواة؛ فمن مقتضيات المساواة، مساواة المرأة بالرجل في جميع مناحي الحياة[١].

وليس المراد هنا ذكر موقف جمعيات القومية العربية من قضايا المرأة إذ سبقت الإشارة إليه في مبحث موقف الجمعيات من السنة، وإنما رغبة للتأكيد على أن مواقفهم من قبول شهادة المرأة في جميع القضايا كان من آثار الفكر الماسوني، حيث جاءت هذه المطالبة ضمن مطالب أخرى كقول محمد عزة دروزة: (إن الشريعة قررت للمسلمة أسوة بالمسلم الأهلية التامة والحق الكامل في مختلف التصرفات المدنية. وإن كل هذا يتضمن إقرار مشاركة المسلمة للمسلم في كيان الدولة والمجتمع سواء بسواء. ويجعل لها بالتالي الحق (مثله) في النشاط السياسي والاجتماعي على مختلف أشكاله وأنواعه .. وكذلك الحياة النيابية وغير النيابية مما يتصل بتمثيل طبقات الشعب ووضع النظم والقوانين التي تسن للجميع والإشراف على الشؤون العامة التي تتصل بمصلحة الجميع، والجهود والحركات والدعوات والتنظيمات الوطنية والكفاحية والاجتماعية والإصلاحية المتنوعة..مثل الرجل دون أي نقص. ينبغي أن يكون لها الحق في ممارسة كل نشاط وسعي يمارسه الرجل والاستمتاع بالحقوق والمباحات والحريات المشروعة التي يتمتع بها الرجل في مجالات الحياة العامة والخاصة سواء بسواء)[٢].

وعلل عدم مشاركة المرأة في القرون الإسلامية الأولى - في شؤون الدولة على نطاق واسع- بسبب من هذا إلى طبيعة الحياة الاجتماعية آنذاك[٣].

---

١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة-محمد قطب-١٢٣ وما بعدها من الصفحات.

٢) المرأة في القرآن والسنة-محمد عزة دروزة-٤٤.وانظر: المرأة في التاريخ والشرائع-محمد جميل بيهم.

٣) الدستور القرآني في شئون الحياة-محمد عزة دروزة-٨٢-إحياء الكتب العربية-١٣٧٦هـ (بتصرف).

وعن هذه المبادئ، كتب منصور فهمي[١] -أحد أعضاء الجمعيات القومية- أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، في فرنسا، بعنوان: (حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها) أشرف عليها المستشرق اليهودي (ليفي بريل) Leve-Bruhl، ومما جاء في مقدمة الأطروحة: إن هذه الرسالة تعطينا فرصة لإظهار المؤثرات السعيدة التي أثرت على تفكيرنا العلمي فقد ولدت مسلما، وقضيت شبابي في وسط إسلامي ثم رحلت إلى باريس وحصلت العلوم بإرشاد ورعاية العلامة (ليفي بريل) وقد نشرت هذه الأطروحة بالفرنسية في باريس عام ١٩١٣، ونشأ حولها نزاع فكري[٢].

وجدير بالذكر أن محمد جميل بيهم -وهو أحد مؤسس الجمعيات القومية العربية- يذكر أن رئيسة الاتحاد النسائي الدولي أثناء زيارتها بلاد الشام سنة (١٩٣٤م-١٣٥٢هـ) قالت له: إني لأستغرب كيف يجوز لكم إطلاق اسم الديموقراطية أو الجمهورية على البلدان التي لا يتمتع نساؤها بحق الاقتراع..إن ديموقراطيتكم ناقصة، وستظل جمهورياتكم مجرد تسمية إلى أن يتمتع الجنسان في الحقوق السياسية ويعملان معا في سبيل الإنسانية.

عقب بيهم معقبا على كلامها قائلا: القوانين المدنية المرعية هي من وضع الرجل، وقد دعم فيها سيادته خلال العصور المظلمة، أما الآن ونحن في عصر النور..فهل ثمة مسوغ ليبقى هذا الإجحاف قائما.. وبخاصة أن دعائم الحكومات الدستورية على الحرية والمساواة والعدالة. فأين الحرية إذا ظللنا نحرم المرأة حق إبداء رأيها؟ وأين المساواة إذا ثابرنا على الاستئثار بامتيازات نخص أنفسنا بها دون المرأة[٣].

---

١) انظر الترجمة رقم (٦٧).

٢) المعارك الأدبية في مصر–أنور الجندي–٣٢٩–مكتبة الأنجلو المصرية–١٩٨٣.

٣) فتاة الشرق في حضارة الغرب–محمد جميل بيهم–٨٣.

المطلب الثاني: إنكار حد الرجم للزاني المحصن.

والمثال الآخر -الذي يدل على مخالفة الجمعيات القومية العربية للإجماع- هو إنكار حد الرجم للزاني المحصن، قال محمد عزة دروزة: إن الآيات الواردة في القرآن في حكم الزنا وهي قوله تعالى{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ}[1] تنص على أن حكم الزاني والزانية سواء كانا متزوجين أم غير متزوجين هو الجلد . وإن نسخ[2] حكم قرآني تلاوةً مع بقائه حكماً لا يمكن أن يفهم له حِكْمة وبخاصة في صدد تشريعي خطير مثل حد الرجم لأنه إزهاق نفس[3].

الرد على إنكار حكم الرجم للزاني المحصن:

إن إنكارهم مخالفٌ لإجماع المسلمين، والإجماع منعقد على أن الزاني المحصن حُكْمُه الرجم، ذكر ذلك عدد من علماء الأمة من أهل السنة والجماعة، وأما أهل البدع فأكثرهم ينكر الرجم ويدفعه، ولا يقول به في شيء من الزناة ثيباً ولا غير ثيب[4].

---

١) سورة النور-رقم الآية(٢).

٢) آية الرجم من الآيات المنسوخة، وقد روت كتب السنة أحاديث نسخها، مثال: قول عمر: (وَقَدْ قَرَأْتُهَا "الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ" رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ) سنن ابن ماجة-كتاب الحدود-بَاب الرَّجْمِ-رقم الحديث(٢٥٤٣). وقال زَيْد بْنِ ثَابِتٍ:(أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ)سنن الدارمي-كتاب الحدود-بَاب فِي حَدِّ الْمُحْصَنِينَ بِالزِّنَا-رقم الحديث(٢٢٢٠). وعَنْ زِرٍّ قَالَ قَالَ لِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ:(كَأَيِّنْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَحْزَابِ أَوْ كَأَيِّنْ، تَعُدُّهَا، قَالَ قُلْتُ لَهُ: "ثَلاثًا وَسَبْعِينَ آيَةً" فَقَالَ: قَطُّ! لَقَدْ رَأَيْتُهَا، وَإِنَّهَا لَتُعَادِلُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)الفتح الرباني-أحمد البنا-١٨/٥٨وصححه الحاكم وأقره الذهبي. المستدرك-٤/٣٥٩ .

٣) الدستور القرآني في شئون الحياة-عزة دروزة-١٩٣-١٩٧.وانظر: المرأة في القرآن والسنة--١٣٣-١٣٥.

٤) عن الإجماع، انظر: ١-موطأ الإمام مالك-كتاب الحدود-بَاب مَا جَاءَ فِي الرَّجْمِ.

٢-الأم-الشافعي-٦/١٥٤.

٣-صحيح البخاري-كتاب الحدود-بَاب رَجْمِ الْمُحْصَنِ .

٤-التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد-ابن عبدالبر-٩/٧٨-٧٩.

٥-معرفة السنن والآثار-البيهقي-١٢/٢٧٦.

كما ثبت حد رجم المحصن نصاً في السنة النبوية، وهي من مصادر التشريع، وقد قرر علماء الأصول أنّ من أقسام مترلة السنة من القرآن زيادة السنة على ما في الكتاب من أحكام[1].

ومن هذه النصوص قول الرسول ﷺ: [لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلاّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ][2].

ومنها أيضاً: حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُرِبَ لِذَلِكَ، وَتَرَبَّدَ لَهُ وَجْهُهُ، قَالَ: فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَلُقِيَ كَذَلِكَ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قَالَ: [خُذُوا عَنِّي فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ الثَّيِّبُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ رَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ وَالْبِكْرُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ نَفْيُ سَنَةٍ][3].

وروي في حد الرجم حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ إِلاَّ قَضَيْتَ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَامَ خَصْمُهُ، وَكَانَ أَفْقَهَ مِنْهُ، فَقَالَ: اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَأْذَنْ لِي، قَالَ: قُلْ، قَالَ: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَخَادِمٍ، ثُمَّ سَأَلْتُ رِجَالاً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَأَخْبَرُونِي أَنَّ عَلَى ابْنِي جَلْدَ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبَ عَامٍ وَعَلَى امْرَأَتِهِ الرَّجْمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ، الْمِائَةُ شَاةٍ وَالْخَادِمُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ، فَارْجُمْهَا، فَغَدَا عَلَيْهَا فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا][4].

---

١) انظر:الموافقات في أصول الشريعة-الشاطبي-٤/١٢-٥٤.

٢) صحيح البخاري-كتاب الديات-رقم الحديث(٦٣٧٠).

٣) صحيح مسلم-كتاب الحدود-باب-رقم الحديث(٣٢٠٠). قال ابن عباس رضي الله عنهما:(لَهُنَّ سَبِيلاً) يَعْنِي الرَّجْمَ لِلثَّيِّبِ وَالْجَلْدَ لِلْبِكْرِ. ينظر: صحيح البخاري-كتاب تفسير القرآن-تفسير سورة النساء.

٤) صحيح البخاري-كتاب الحدود-بَاب الاعْتِرَافِ بِالزِّنَا-رقم الحديث(٦٣٢٦). والعسيف: الأجير انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر-٣/٢٣٧

ففي هذه الرواية الصحيحة أخبر الرجل الرسول ﷺ، بأن بعض أهل العلم أفتوه بأن على المرأة المحصنة الرجم، فيفهم من هذا اللفظ: أن الرجم كان عندهم حكما ثابتا، ولكنهم لم يكونوا يعلمون كيفية وجوبه على التفصيل [١].

كما روى عبد الله بن بريدة، عن أبيه، أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال: [يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي، وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فرده، فلما كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فرده الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: أتعلمون بعقله بأسا؟ تنكرون منه شيئا؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل، من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضا، فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به، ولا بعقله، فلما كان الرابعة، حفر له حفرة، ثم أمر به فرجم، قال فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردني، لعلك أن تردني كما رددت ماعزا، فوالله إني لحبلى، قال: إما لا فاذهبي حتى تلدي، فلما ولدت، أتته بالصبي، في خرقة. قالت: هذا قد ولدته، قال: اذهبي فأرضعيه، حتى تفطميه، فلما فطمته؛ أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد، فسبها، فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها، فقال: مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت][٢].

وتناقل الصحابة هذا الحد، قال عمر: (لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي وأقر ماعز عند النبي ﷺ بالزنا أربعا فأمر برجمه..)[٣].

---

١) عارضة الأحوذي لشرح صحيح الترمذي–ابن العربي–٦/٢٠٦–دار الكتاب العربي. وانظر: "شرح السنة–البغوي–١٠/٢٧٦". "فتح الباري–ابن حجر–١٢/١٤٥".

٢) صحيح مسلم–كتاب الحدود–باب من اعترف على نفسه بالزنى–رقم الحديث(٣٢٠٨).

٣) صحيح البخاري–كتاب الأحكام–باب الشهادة تكون عند الحاكم. وانظر: سنن أبي داود: كتاب الحدود–باب رجم ماعز بن مالك– رقم الحديث(٣٨٣٦).

وروى الإمام البخاري في صحيحه، أن عمر بن الخطاب قال: (لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ حَتَّى يَقُولَ قَائِلٌ: لا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، أَلا وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى وَقَدْ أَحْصَنَ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوِ الاعْتِرَافُ)[1].

وجمع عمر بن الخطاب ﷺ، أهل الفقه وأشراف الناس بعد حجته، جمعهم في المدينة، وكان مما قال وهو على المنبر أمام الجمع المبارك: (أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً، قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا، لا أَدْرِي لَعَلَّهَا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِي، فَمَنْ عَقَلَهَا وَوَعَاهَا فَلْيُحَدِّثْ بِهَا حَيْثُ انْتَهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَمَنْ خَشِيَ أَنْ لا يَعْقِلَهَا، فَلا أُحِلُّ لأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيَّ، إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللَّهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ، أَوِ الاعْتِرَافُ، ثُمَّ إِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ فِيمَا نَقْرَأُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَنْ لا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، أَوْ إِنَّ كُفْرًا بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ)[2].

و لم يعترض أحد من الصحابة ﷺ على قول عمر واستدلاله بآية الرجم وقد أمر النبي ﷺ، بالأخذ عن الخلفاء الراشدين وعمر بن الخطاب منهم، ومن جمعهم عمر هم أهل الفضل والعلم والفقه و لم يذكر أحدهم مخالفاً في هذا الأمر.

---

١) صحيح البخاري-كتاب الحدود-بَاب الِاعْتِرَاف بِالزِّنَا-رقم الحديث(٦٣٢٧).وانظر:

• موطأ الإمام مالك-كتاب الحدود-بَاب مَا جَاءَ فِي الرَّجْمِ-رقم الحديث (١٢٩٥).

٢) صحيح البخاري-كتاب الحدود-باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت-رقم الحديث(٦٣٢٨).

وتناقل علماء الأمة هذا الحكم كقول مالك بن أنس رحمه الله: (إن زنى وقد أحصن رجم)[1].

وقال الشافعي رحمه الله: (دليل حد الثيب الزاني، فبكتاب الله ثم سنة رسول الله ﷺ، ثم فعل عمر نأخذ في هذا كله)[2].

وقال ابن عبدالبر، بعد أن ذكر آية الرجم: (فهذا مما نسخ ورفع خطه من المصحف، وحكمه باق في الثيب من الزناة إلى يوم القيامة إن شاء الله عند أهل السنة)[3].

إن في النصوص السابقة من أحاديث الرسول والآثار الثابتة عن أصحاب النبي وأقوال علماء الأمة، ردا على ما ذكره عزة دروزة، في حق حد الرجم.

والمنهج الذي اتخذته الجمعيات القومية العربية من إنكار حد الرجم للمحصن هو الذي حذر منه عمر بن الخطاب بقوله: (إن الرجم حق فلا تخدعن عنه، وإن آية ذلك أن رسول الله ﷺ، قد رجم وأن أبا بكر قد رجم، وإنا قد رجمنا بعدهما، وسيكون قوم من هذه الأمة يكذبون بالرجم..)[4].

وقال أحمد البنا: المعنى أنه يظهر قوم من بعد عصر الصحابة يكذبون بهذه الأمور، وقد وقع ما أخبر به عمر رضي الله عنه، وبعضه باق إلى عصرنا هذا، نعوذ بالله من الزيغ والزلل، ونسأله لنا ولهم الهداية إلى الحق وخير العمل[5].

---

١) موطأ الإمام مالك-كتاب الأقضية.

٢) الأم-الشافعي-١٥٤/٦-دار المعرفة-بيروت-لبنان-الطبعة الثانية-١٣٩٣هـ.وانظر:

• المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة-٤٢٤/٢.

٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد-ابن عبدالبر-٢٧٧/٤.وانظر: شرح السنة-البغوي-٢٧٧/١٠.

٤) المصدر السابق-٩٨/٢٣.وانظر:فتح الباري-ابن حجر-١٥٣/١٢.

٥) الفتح الرباني-أحمد البنا-٨٢/١٦-دار إحياء التراث العربي-بيروت-لبنان.